وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة بابل
كلية التربية
قسم اللغة العربية

التحذير في القرآن الكريم
دراسة في مستويات اللغة

رسالة تقدّم بها

علاء ناجي جاسم المولى الموسوي

إلى
مجلس كلية التربية/ جامعة بابل
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إشراف

الاستاذ المساعد الدكتور رحيم جبر الحسناوي

1424 ***2004***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

صدق الله العظيم

سورة المجادلة–الاية 11

الإهداء

❖الى من عانوا وأعانوا .

❖الى الأيدي التي طالما رُفِعت لي

بالدعاء .

❖الى والديَّ براً ووفاءً .

❖اليكم هذا الجهد المتواضع .

علاء المولى الموسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

إقرار المشرف

اشهد أن اعداد هذه الرسالة الموسومة بـ(التحذير في القرآن الكريم، دراسة في مستويات اللغة) قد جرى تحت اشرافي في قسم اللغة العربية في كلية التربية-جامعة بابل، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها.

المشرف على الرسالة
الاسم : د. رحيم جبر الحسناوي.
الدرجة العلمية: استاذ مساعد
الامضاء:
التاريخ: / / 2004

بناءً على التوصيات المتوافرة ارشح هذه الرسالة للمناقشة.

رئيس قسم اللغة العربية
الاسم: د.علي ناصر غالب
الدرجة العلمية: أستاذ.
الامضاء:
التاريخ: / /2004

قرار لجنة المناقشة

نحن اعضاء لجنة المناقشة : نشهد أننا اطلعنا على الرسالة الموسومة بـ(التحذير في القرآن الكريم، دراسة في مستويات اللغة) التي أعدّها الطالب وناقشناه في محتوياتها وفي ما له علاقة بها وهي جديرة بالقبول بتقدير ( ) لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها.

رئيس اللجنة:
الاسم:
الدرجة العلمية:
الامضاء:
التاريخ: / /2004

عضو اللجنة:
الاسم:
الدرجة العلمية:
الامضاء:
التاريخ: / /2004

عضو اللجنة:
الاسم:
الدرجة العلمية:
الامضاء:
التاريخ: / /2004

عضو اللجنة:
الاسم:
الدرجة العلمية:
الامضاء:
التاريخ: / /2004

اصادق على ما جاء في قرار لجنة المناقشة

عميد كلية التربية
الاسم: د. عبد الاله رزوقي كربل
الدرجة العلمية: استاذ
الامضاء:
التاريخ:

المقدمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

وبعد

البحث الموسوم بـ(**التحذير في القرآن الكريم، دراسة في مستويات اللغة**) يقع من القرآن الكريم خير كتاب أُنزل على خير أمة موقعاً رجى الباحث منه ان يقدم خدمة وان كانت يسيرة- لمعجزة خاتم الأنبياء وأشرفهم منزلاً، ولمّا كان المتخصص باللغة العربية لابَّد له من القرآن ؛ لأنه مقياس اللغة ومعيارُها الأمثل فإن ذلك يفصح عن سبب اختيار موضع هذه الدراسة، أَمّا موضوعُها (التحذير) فاراد الباحث التعرّف على الأساليب التي تعبّر عن هذا الغرض من جهة و الكشف عن الأَثر النفسي والاجتماعي الذي يُحدثُه في نفس متلقّيه من جهة أخرى. فحين نسمع القرآن محذراً ينتابك احساس بالخوف والفزع والاضطراب وكأَنَّ ما تُحذَّر منه قد دنا ولم يبقَ عليك الا اجتنابه، وبهذا يكون القرآن قد حقق هدفاً من أهدافه التي أُنْزل من أجلها. ذلك هو الهداية وتقويم السلوك الانساني.

لقد اسفرت معرفتي المتواضعة والجدّ بالسؤال والاستفسار من اللذين لهم صلة بهذا السبيل أني لم أجد مصدراً قديماً ولا مرجعاً حديثاً ولا دراسة جامعية انقطعت لدراسة التحذير، وخُصصِت لدراسة مستويات اللغة الاربعة، وإن كان قد وجد فإني لاحسبه من الاصالة والجدّة وان قلّة حظي قد حالت دون وصولي اليه.

لما كانت الدراسة في قسم اللغة العربية رأى الاستاذ المشرف أَن تُشيد الدراسة على منهج حديث يُعنى بدراسة الظاهرة اللغوية بمستوياتها كافة : (صوت، صرف، نحو، دلالة)، ولم تنطلق هذه الرؤية من قواعد حديثة لتبحث لها عن صدى في التراث اللغوي، إنما أنتهجت الحداثة لتبعث التراث اللغوي الذي أبدعه العلماء في ظلال النص القرآني، فكان الغرض الرئيس هو محاولة استيفاء الدراسة لجهود العلماء في هذا الموضوع. (وهذه الدراسة حلقة في سلسلة دراسات اكاديمية) ولم يك للطالب الا ان يتابع أُستاذه ووالدة فيما رآه – بالسمع والطاعة.

فعنوان الدراسة فرض نفسه من حيث التدرج بهذه المستويات الواحد تلو الآخر مبتدئين بالصوت فالصرف ثم النحو والدلالة. وهذا ما دعا الى تقسيم البحث على بابين:-

البابُ الأَول: دراسةُ صوتية صرفية، ويُقْسمُ على فصلين:

الفصل الأَوّل : المستوى الصوتي.

البحثُ في الصوت ليس جديداً على الدراسات اللغوية فقد أَفاض فيه علماء العرب القُدامى وتابعهم المحدثون على ذلك، وقد تعدّى الأَمرُ العربَ الى الأُوربيين الذين وُجِدَ لهم مواضع شتى فيه، يقفون عند الأَصوات –العرب والأَوربيون- متفحصين ناقدين لاسيما بأَجهزة العلم المتطوّرة لمن أمكنه الوصول اليها. لقد أَسفرت وقفات العلماء عند الأَصوات عن مفاهيم وعنوانات صوتية عُدَّت حجرَ الأَساس الذي يُشيّد عليه صرح علم الأَصوات، إلاَّ أَنَّ تسخير تلك المفاهيم الصوتية في القرآن لم يجد نصيبه الذي ينبغي أَن يُحظى به، وهذا ما يجعل دراسة الصوت بدلالة ما- قرآنياً فيها نوعُ من الحداثة، والحداثةُ تجعْل البحث ليس أَمراً يتأتّى بِيُسر، إذ لايتم بتجوالٍ معجمي بسيط، فليس السبيلُ معبّداً ولا المعالم واضحة حتى تُقْصد، وهذا ما يحتاج الى الصبر في التأمّل والأَناة في التفتيش للجمع من بين السطور ما يحسبه الباحث نافعاً، من المضان الكثيرة، وقد يُصيب أحياناً ويخطئُ أحياناً أُخر في اختيار المواضع التي يراها موافقة للدراسة الصوتية التي تُدرج ضمن عنوان بحثه، وبين الخطأ والصواب حتى استقرُّ على مفردات لهذا المستوى افتتحها بالعلاقة بين اللفظ ودلالته وكانت بمثابة مقدمة تُستهل بها الدراسة الصوتية عارضاً فيها لدور العلماء في الأصوات ومجال دراستها. تتلوها فواتحُ السور القرآنية وما ورد فيها من أَثر صوتي يستدعي انتباه المتلقّي سامعاً او قارئاً ولفت نظرة إلى ما يقال؛ وذلك لما يحمله الكلام من غرابة وهذه هي الأَحرف المقطعة سواء أكانت مفردة أم مجتمعة. فقد تناول البحث الأَحرف المفردة وأثرها الصوتي في دلالتها على التحذير والعلاقة بين الحرف الافتتاحي وبين السورة التي تصدّرها. والحال ذاتُها بالنسبة الى الأحرف المجتمعة. ولم يقتصر البحث على هذا الضرب بل تعدّاه الى فواتح السور الاخرى كالافتتاح بالجملة الخبرية والدعاء والقسم ، والشرط، والاستفهام، وما حملته هذه الفواتح من مظاهر صوتية تتوافق والدلالة المُبتغاة الوصول إليها. ثم ينتقلُ الفصل الى مفردة أُخرى من مفرداته وهي دراسة مُسميات يوم القيامة لاسيما أَنها مما حُذِّر منها كثيراً، وقد تمّت الدراسة باختيار اللفظ (اسم القيامة) أولاً ومراجعة معناه المعجمي ثانياً مضافاً إلى ما رآه المفسرون في ذلك المسمّى ثم تأمّل ما فيه من أصوات، وبيان صفاتها ثم دراسة الموافقة بين أَصواته وصفاتها مع دلالة اللفظ المدروس حسبما صَرّح بها المعجميون والمفسرون والصوتيون. وبعدها درستُ نماذج من الآيات المباركة التي أفادت التحذير، وما عُمِدَ فيها من ألفاظ أَفادت تلك الدلالة وقد تمَّ ذلك بالوقوف عند أُنموذج من الالفاظ لكل موضع وتحليله صوتياً لبيان الأَثر الصوتي الذي حمله اللفظ المدروس وما أضفاه على السياق الذي ورد فيه، ومدى الموافقة بين أَصوات اللفظ من جهة موافقة اللفظ للسياق من جهة ثانية. مُنهياً الفصل عند الفاصلة القرآنية، واقفاً عند نماذج منها، مبيناً الأَثر الصوتي للفواصل المتشابهة فالانتقال الى ضرب من الفواصل إذ تتغير الفاصلة في بعض المواضع منبهاً على أن الحروف التي

تنتقل اليها الفاصلة تكون متقاربة. ثم ملحظ صوتي في الفواصل وهو الزيادة فيها والغرض من تلك الزيادة.

الفصل الثاني: المستوى الصرفي

عُقِدَ هذا الفصل لدراسة الصيغ الصرفية التي اعتمدتها الآيات الدالة على التحذير مبيناً سبب ذلك الاعتماد، وما دام أَنَّ لكلِّ صيغة صرفية معنى تُفيده فقد نقلتُ معنى الصيغة الصرفية إلى المحل الذي جاءت فيه لاستجلاء ما أَضفته الصيغة من معانٍ تُدرج ضمن إفادة التحذير، وقد بدأت ذلك ببناء الفعل الماضي (فَعَلَ) الذي وظِّف في مواضع الحديث عن القيامة بشكل لا يخفى على كلِّ متدبّر في القرآن، يتلوه بناء الفعل المضارع (يَفْعَلُ) ثم تدرّجت في ذكر الصيغ الصرفية كاسم الفاعل ، والصيغة المشبهة، وصيغة المبالغة، واسم المرّة، وصيغة المفرد وإيثارها على الجمع، والعكس من ذلك، أَي: إيثار صيغة الجمع على المفرد فضلاً عن الصيغ الصرفية الأَخر التي بُحثت في محلِّها وصولاً إلى دلالة بناء على آخر، وقد دُرِسَ هذا، لبيان ما أحدثه البناء الثاني (غير الأَصلي) في إفادة التحذير لإصغائه دلالة التفخيم وبيان شدة التهويل على المحذّر منه؛ لما فيه من معان تتوافق مع سياق التحذير أَكثر توافقاً من معاني البناء الأَوّل. مؤيداً تلك الدلالات بما صَرّحَ به أو أشار اليه الصرفيون او اللغويون أو المفسرون كدليلٍ أَبدأ به قُبيل الاستشهاد بآية كريمة.

قام هذا الباب على منهج انتقائي، إذ يتم فيه اختيار مواضع من الذكر الحكيم وجعلها ميداناً للبحث والدراسة. ثم تحليل الشواهد القرآنية من خلال ما أفاده المفسرون واللغويون والصوتيون والصرفيون ، كلٌّ حسبما يقتضيه المقام. وقد اعتمد الأُسلوب الانتقائي نظراً لكثرة الشواهد التي يتعذّر حصرها في هذا المقام، لذا آثر الباحث الاقتصار على نماذج حسبها كفيلةً بإيصال مقاصد الغرض المطلوب.

الباب الثاني: دراسة نحوية دلالية، ويُقسم على ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل : التحذير الصريح

لقد بُحِثَ فيه ما ورد في القرآن الكريم من أسلوب التحذير الذي عرفه النحاة أَولاً ثم ما جاء في القرآن الكريم من استعمال لفظة (حَذَرَ) واشتقاقاتها المختلفة سواء أَكانت اسماً ام فعلاً بأزمنته المتباينة. مدلاً على المعنى المعجمي للفظة (حَذَرَ) وأثرُها في السياق وأثر السياق فيها، فضلاً عن دراسة سياق اللفظة وما فيه من أساليب واستعمالات لها دلالات تتوافق وموضوع البحث. وقد درستُ تلك المواضع كاملةً دون تغييب أيِّ موضع منها.

الفصل الثاني: التحذير الضمني

عقدته لدراسة الألفاظ التي أَفادت التحذير. وإن كانت بصورة ضمنية- إذ أَن من الألفاظ تُفيد دلالتها المعجمية التحذير والتخويف. ومن تلك الالفاظ (أَنْذَرَ). فقد وردت هذه المفردة في القرآن الكريم باشتقاقاتها المتعددة اسماءً وأفعالاً فتتبعت تلك المواضع مصرحاً بما أفاده المعجميون من دلالة لها، فضلاً عن السياق الواردة فيه. قد تكون بعض مواضع

التحذير بهذه الدلالة قد حذفت المحذَّر منه فجعلتها تحت عنوان: حذفُ المفعول الثاني لـ(أنذر) مبيناً دلالة ذلك الحذف. والحالُ ذاتها تكرر مع (خشي) التي تحمل دلالة التحذير.

لقد قام البحث في هاتين المفردتين على الاستقراء التام لمواضعها في الذكر الحكيم، وذلك من خلال دراسة المواضع كافة رابطاً بين معانيها ودلالتها، وما ذلك إلاَّ بياناً للشمولية التي جعلناها من قبلُ هدفاً لنا.

الفصلُ الثالث: التحذير بُصور أُخرى

بحثتُ في هذا الفصل الاساليب النحوية التي من بين دلالالتها التحذير وتلك الأَساليب هي : "الأَمر، النهي، النداء، الاستفهام" فكلُّ اسلوب من هذه الاساليب يعطي دلالة التخويف والوعيد والتهديد وهي دلالات تحذيرية حسبما صَرّح به النحاة وأيّده المفسرون في إفادتهم للآيات التي اعتمدت تلك الاساليب. فضلاً عن إضافة سبيل من سُبل التحذير إلى هذا الفصل وهو التقديم والتأخير، إذ يُقدّم القرآن الكريم لفظاً ويُؤخّر آخر أو يُقدّم عاملاً على معموله وما هذا الا لفائدة يُقصد اليها، والافادة التي نطمح الوصول اليها التحذير فكان لزاماً علينا أن نقتصر على مواضع التقديم والتأخير لإفادة دلالة التحذير. وما دام التقديم والتأخير الذي درِس ضمن هذا الفصل لايقتصر على اسلوب نحوي حتى يجمع ضمن عنوان الأَساليب لذا أثرنا تسمية الفصل بـ(التحذير بصور أخرى). أمّا الاستشهاد بهذا الفصل فقد اعتمدت فيه نماذج من القرآن، إذ ليس من الممكن استقراء الشواهد جميعها في مثل هذا الموضع فإنّه يتعذر ذلك فكان الاختيار حسب إفادة الشواهد للتحذير والوعيد من جهة وحسب المُحذَّر منه من جهة ثانية. والاستشهاد في مجمل البحث اعتمدت فيه التفسير الموضوعي الذي يُعنى بدراسة موضوع معين في القرآن كله فضلاً عن التزامي بتسلسل السور والآيات على الوجه الذي رُتِبت فيه في القرآن الكريم، أي يتم اختيار الموضوع أولاً يتلوه تسلسل السور والآيات حسبما عُرِف.

اعتمد الباحث من أجل الوصول الى الغرض المطلوب مصادر لها صلةُ مباشرة بالقرآن الكريم، ولا مصدرَ أَقرب الى القرآن من التفسير؛ لذا جعل الباحث التفاسير عصاه التي يتكئُ عليها فقد رافقها منذ اليوم الأَول الذي سُمِّي فيه الموضوع حتى آخر كلمة كُتِبت فيه، فقد وقف الباحث عند التفاسير مدققاً متأملاً يبحثُ في صفحاتها التي أحالها الدهرُ صفراء تارة وربما نالها نصيبُ من الحداثة فابيضّت تارة أخرى. معتمداً التسلسل التاريخي لوفيات مؤلفي التفاسير إذ أبدأُ بالسابق فاللاحق ثم من يلحقهم وهكذا. الا في بعض المواضع التي رأيت اللاحق أضاف الى سابقه، فأخذت قول اللاحق مع الإشارة الى السابق إن وجد عنده بعض ذلك المعنى. ولم تَكُ التفاسير وحدها التي رافقها الباحث بل أفاد من كتب معاني القرآن والنحو والاعجاز القرآني وعلوم القرآن ، وغيرها ما أُثبت كلُّ في موضعه. أَمّا المراجع الحديثة فقد تباينت الإفادة منها بتباين فصول البحث، فقد أَفدت من كتاب الصوت اللغوي في القرآن للدكتور محمد حسين علي الصغير، في المستوى الصوتي من خلال الإطلاع على ما أودعه مؤلّفه فيه بما يتماشى وهدفه الذي قصد إليه. فجعلتُ هذا الكتاب سراجاً أهتدي به لما ينبغي عليَّ فعله بما يتماشى وهدفي الذي أسعى اليه. وفي المستوى الصرفي أفدتُ من كتاب الإعجاز الصرفي في القرآن للدكتور عبد الحميد

هنداوي فقد أطلعت على ما سلك فيه من سُبْل وتابعته على بعض منها مع تباين الشواهد تبعاً لتباين الموضوع.

يُرى الباحث أحياناً يسهب في ذكر الشواهد وما قيل فيها لمّا يرى المحل يتطلب ذلك وتراه يقتصر أَحياناً أُخُر. فالأسنّةُ من حوله مشرعة وخيارات أَهونها ذو عسرة ، لاسيما أَنّه يحاذر في أخذ الشاهد وكيفية الاستدلال به؛ وذلك لأَنَّ الدراسة بكلام ليس أيّ كلام إنما هو كلام خالقه وخالق الكون الذي حوله من جهة ، ولأَنَّ التحذير بحثه وموضوعه فعليه أَن يكون حاذراً من جهة ثانية.

وفي كلٍّ من المصادر والمراجع أُعتمدت الطبعات التي أُعلمتُ أنها المعتمدة في البحوث العلمية، وقد ورد في بعض مواضع البحث اعتماد اكثر من طبعة لمُؤلَّف ما، فقد اعتمدت طبعتين للكشاف احداهما طبعة ظبطها محمد عبد السلام شاهين، وهي التي أشرت اليها بـ(ط، بيروت) ومالم اشر اليه عنيت به الكشاف الذي جُمِعَ معه اربعة كتب، أشرت الى ذكرها في قائمة المصادر.

تطوى صفحات البحث بخاتمة أوضح فيها الباحث ما تسنّى له معرفته في جولته مع التحذير في رحاب القرآن الكريم.

أودُّ أن أُشيرَ في المقدمة المتواضِعة إلى أنَّ الحديثَ في صفحات البحث يتبيّنُ فيه الخطابُ بضمير الجمعِ، حيث يرد تكرار (أعدنا، تأمّلنا، نظرنا....) فلم أعنِ بذلك نفسي كي أُعظّمَها إنَّما عنيتُ به القارئَ الكريم إجلالاً منّي له، مضافاً إلى هذا صيغة الخطاب (اقرأ، أنعمْ ، تأمّلْ....) فما ذلك الا طلباً من أدنى الى من هو أشرفُ منه يستأذنهُ فيما يريد.

لايمكنني أَن أغفلَ أو أتغافلَ الدورَ الريادي الذي قام به أُستاذي المشرف الأَستاذ المساعد الدكتور رَحِيم جبر الحسناوي الذي كان لي أَباً منحني الحنان والعلمَ على حدٍّ سواء، فلطالما كان مفرّطاً في راحتهِ جاداً في عملهِ، لم يدّخر أَي جُهْدٍ لنفسه الا وظّفهُ في سبيل العلم وطالبيه.

لقد أتعبتُ ذهني في جَمْعِ كلماتٍ أُريد أَن أُعَبّر بها عن شكري لأُستاذي فقد خانتني قواي ووقفت عاجزاً لمّا رأيت عجز التعابيرِ والجملِ أمام حضرتهِ لذا اكتفي بالقول :جزاه الله عنّي خير جزاء المحسنين.

أَمَّا أساتذتي في كلية التربية عموماً وفي قسم اللغة العربية خصوصاً فلهم مني الشكر الجزيل والثناءُ الجميل على ما أبدوه من تعاون معي منذ اليومِ الأوّلِ في دراستي الجامعية وحتى لحظتي هذه.

اما أستاتذتي الأَفاضل أعضاء اللجنة المناقشة فمهما طال شكرهم فلا أبلغ ما يستحقون؛ لما لهم من فضل العلماء في تقويم الرسالة، ولما تحملوه من عناءٍ وبذلوه من جهد مذ قبولهم الدعوة أوّلاً وقراءتهم للبحث ثانياً ثم الجود منهم بإبداء الملاحظات التي سأحملها أَوسمة أفتخر بها لأَنها من اساتذة افاضل جادوا بها ابتغاء جعل البحث منزّهاً عمّا لا يليق به وهذا ما أفخر به، فلم يبق لي إلاَّ أَن اقول: إنهم لبّوا نداء نبيهم عليه وعلى آله

الصلاة والسلام إذ قال : «زكاة العلم نشره»[1]، وها هم ينشرونه، فجزاهم الله خير جزاء من أَحسن وسعى في الارض اصلاحاً وتنزيها.

اما أخوتي وزملائي وذوّي فاسماؤهم ان ضاق المحل من ذكرها فصدري يتّسع لكلِّ اسم منهم فجزاهم الله خير جزاء المحسنين.

ومن الانصاف أَن اذكر المكتبات عموماً ومكتبات مدينتي النجف الأشرف على وجه الخصوص، لاسيما مكتبة الامام الحكيم قدس سره- ومكتبة الإمام أمير المؤمنين – عليه السلام- ومكتبة كاشف الغطاء، فلها وللعاملين فيها الشكر الوافر لما أبدوه من مساعدة لي.

وفي الختام أقول لأُلي الفضل جميعاً لو أنَّ أعضائي استحالت ألسناً تثني عليكم ما قضيت الواجبا.

اللهم اِن كان في هذا البحث من صواب فأجرنا عليه وإن كان فيه أخطاء فعلّمنا إياها كي نتجاوزها فيما يأتي.

اللهم إنَّ أَقصى ما أملك من جهد بذلته هنا، فعلى المرء أن يسعى بقدر جهده وليس عليه أن يكون موفقاً؛ لأَن التوفيق منك وحدك لاشريك لك.

وفي الختام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

علاء ناجي جاسم المولى الموسوي
النجف الاشرف 6-6-2004هـ
الموافق 17 ربيع الثاني 1425هـ

---

[1] بحار الأَنوار: محمد بن تقي المجلسي، حيدري، طهران، د.ت.

التمهيد

التمهيد

مفهوم التحذير

التحذيرُ في اللغة

قال الجوهري (ت 393هـ) : «الحَذَرُ والحذْر: التحرز (...) وقد حذرتُ الشيء أحْذُرهُ حَذَراً، ورَجَلُ حَذِرُ وحَذُرُ ، أي: متيقّظ (...) التحذير التخويف (...) حاذرون متأهبون»[1][1]. والى مثل هذا ذهب ابنُ منظور (ت 711هـ) قائلاً: «الحذْرُ، والحَذَرُ

الخِيفةُ، حَذِرَه يَحْذَرَهُ يَحْذَرُه حذراً واحتذرَهُ، ورجلٌ حَذِرُ وحَذَرَ (...) متيقّظ شديدُ الحذر والفزع متحرّز، وحَاذِرُ متأهّب (...) التحذير التخويف»[2].

وقد أفاد الزبيدي الدلالةَ المعجميّة ذاتها لـ(حذر) بقولهِ: «الحِذْرُ بالكسر ، ويُحَرَّك الخيفةُ، وقيل: هو الاحتراز، وفسره قومُ بالاستعداد والتأهّب ، وقومُ بالفزع (...) حاذِرُ متأهّب مُعِدٌّ كأنَّه يحذرُ أَن يُفاجأ (...) القومُ الذين يُحذِّرون ، أي: يُخوّفون (...) التحذير التخويف»[3]. وقد تابع اللاحقون السابقين في إفادتهم المعاني ذاتها، إذ ذكروا أَنَّ التحذير من الشيء تخويفُ منه[4].

مما ذهب اليه المعجميون لا يُلاحظ خلافاً بينهم في إفادتهم لمعنى التحذير فقد أَجمعوا على أَنَّ التحذير تخويفُ، والتخويفُ يحتاج الى استعداد وتأَهّب ويقظه لمواجهة المخوَّف منه وهذا هو الحَذِرُ. ومعاني التحذير في مجملها تفيدُ الترهيب؛ وذلك لأَنَّ «الترهيب: التخويف»[1]. وبهذا فإنَّ التحذير والترهيب يشتركان في إفادتهما لدلالة واحدة وهي التخويف.

اما النحاة فقد جاء في حدِّهم للتحذير هو «تنبيه المخاطب على أَمر يجب الاحتراز منه»[2]. وقد ذهب العلاّمة الخضري الى ما يُقرب من هذا بقوله: «التحذيُر هو التبعيد عن الشيء»[3]. أَمّا المفسرون فقد ذكروا «الحَذرُ إعداد ما يتقي الضرر ومثلُه الخوف، حذرت حذراً، وتَحَذَّر تحذّراً (...) وحذَّرَهُ تحذيراً»[4]. وفي موضع ثانٍ أَفاد الشيخ الطوسي (ت 460هـ) ما يُبيّن الكيّفية التي يتم بها إعداد ما يتقي الضرر بقوله : «الحَذَرُ تجنّب الشيء لما فيه من المكروه»[5]. اما الفخر الرازي (ت 606هـ) فلم ينأ عن سابقه في إفادة المعنى ذاته

---

(1) الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حَمّاد الجوهري، تحقيق: أَحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1984م: 626/2، ينظر: كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-175هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، والدكتور ابراهيم السامرائي، طُبِعَ في مطابع الرسالة، الكويت، توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، 1400هـ، 1980م : 3/ 199

(2) لسان العرب ، للعلامة ابي الفضل جمال الدين ابن منظور،دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1968م: 4/ 175-176.

(3) تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: محمود محمد الطنطاوي، مراجعة: مصطفى حجازي، وعبد الستار أحمد فراج، دار الجيل، مطبعة حكومت الكويت 1976: 10/ 564-566، 567-568.

(4) ينظر: المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية)، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، أَحمد حسن الزيّات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، أَشرف على طبعه: عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران : 1/ 162.

(1) الصحاح 1/ 140، ينظر: لسان العرب 1/ 436.

(2) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لبهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي (698-769هـ) ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل لمحمد محي الدين عبد الحميد، الناشر ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط14، 1385هـ-1965م: 2/ 300.

(3) حاشية الخضري على ابن عقيل للعلاّمة الشيخ محمد الخضري، على شرح العلاّمة ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وبهامشه شرح ابن عقيل، طُبِعَ بمطبعة دار احياء الكتاب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، دون تاريخ : 2/ 87.

(4) التبيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (385-460هـ)، تحقيق وتصحيح: أَحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان ، النجف الأَشرف 1383هـ – 1963م: 10/ 291.

(5) المصدر نفسه 11/ 370.

مضيفاً إليه أَن «الحَذَرُ، التّحذّر والتيقّظ»[6]. مما ذهب اليه الفخر الرازي يتبيّن أنه لم يرد بالحذر الاستعداد واليقظة فحسب بل اراد المبالغة فيهما وذلك بيّن من التشديد الذي أدخله على المعاني التي أفادها. ولم يَكُ المفسرون القدامى وحدهم قد اجمعوا على دلالة واحدة للتحذير بل تابعهم المحدثون ومنهم السيد عبد الأَعلى الموسوي السبزواري (ت1992م) فقد قال: «حذر تأتي بمعنى الاحتراز عما يُخاف منه»[1]. وفي موضع ثان أَفاد المفسِّرُ ذاته الدلالةَ ذاتها مبيناً أَصل التحذير: «التحذيرُ من الحَذَرِ، وهو الاحتراز عن أَمر مُخَوّف والابتعاد عنه»[2].

مما ذهب اليه النحاة والمفسرون في إفادتهم للتحذير يمكن أن تُعد مذاهبُهم تعريفاً اصطلاحياً للتحذير. وباستقراء تلك النصوص جميعاً يتضح لنا لاثمّةَ تباين فيما ذهبوا إليه، إذ أن التخويف يتطلب استعداداً وتأهباً وهذان المعنيان – الاستعداد والتأهّب- هما الحذرُ بعينه، فالتخويف مقدمةُ للتحذير. ويمكن أَن تجمع رؤى العلماء في التحذير ليُستنتج منها تعريفاً له يكون اكثر توافقاً مع دراستنا، فيمكن أن يقال: التحذير نهي عن فعل الشيء المَحذَّر منه – أو المخَوَّف منه- بإظهار مساوئه وأَضراره عن طريق الأَساليب النحوية والدلالات السياقية التي تُجسّد هذا الشيء ، راسمةً له صورة مخيفةً، لها أَثر نفسي عند المتلقّي مما يجعلهُ ينفر ويرتهب عند سماعه تلك الأَساليب والسياقات.

ومادام كلّ من الأَساليب النحوية والدلالات السياقية متعددة فقد تابعها تعدد السُبُل التي تُفيد التحذير. فتارةً تلاحظ الإفادة جُسّدت باعتماد أَصل مفردة التحذير (حذر) أو ما يشتقُّ منها، وتارة أخرى يُعمد لإفادة التخويف الى الفاظ تُفيد دلالتها المعجمية التحذير كالإنذار والخشية ، والخوف. أمّا الدلالات السياقية وتتم من خلال ما يحملُه السياق من تراكيب صوتية وصرفية تستدعي متلقّيها للإقبال اليها والانعام فيها، وإذا ما تَمَّ الإقبال والإنعام تم التوصّل الى الدلالة المبتغاة. وقد تكون الدلالات التي وعاها العرب في اساليب لغتهم من الأَمر والنهي والنداء والاستفهام موصلةً الى الدلالة التي يقصدون . ومن بين مقاصدهم دلالة التحذير. وهذا هو الإطار العام لمفهوم التحذير وسيكون هذا الإطار اكثر وضوحاً اذا ما أنعمنا النظر في جزئياته وذلك من خلال الوقوف عند كلِّ موضع متأملين دلالات التحذير فيه.

---

[6] التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، مطبعة البهية، مصر ، ط1، 1357هـ: 11/ 26-27.

[1] مواهب الرحمن في تفسير القرآن: السيد عبد الاعلى الموسوي السبزواري، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، العراق، ط1، 1987م : 4/ 103.

[2] المرجع نفسه 5/ 195.

الباب الاول
دراسة صوتية صرفية
الفصل الاول
المستوى الصوتي

العلاقةُ بين اللفظ ودلالته

إذا كان البحثُ في نشأة اللغة قائماً على الافتراضات النظَرَية العاجزة عن كشف النقاب عن أوّلية اللغة فقد كان محلَّ خلافٍ قديم لم يُحسم أمْرُه وترتب عليه خلافُ آخر نال قسطاً وافراً من اهتمام اللغويين هو العلاقة بين اللفظ والمدلول. هذه العلاقة التي أصبحت حجر الأَساس في علم الدّلالة المختص بدراسة المعنى الذي أَصبح (علم الدلالة) مركزاً للدراسات اللغوية الحديثة. لقد كان شيئاً ضرورياً أَن تُثير الصلة بين اللفظ والمعنى اهتمام اللغويين وأَن تلفت أنظارهم هذه الصورة الصوتية التي يُثيرُ نطقُها صورةً ذهنيةً ترتبط كليّاً أو جزئياً بصورة خارجية. أَثار هذا تساؤلاتٍ عدّة حول طبيعة هذه الصلة، من بينها أهي طبيعية بحيث كلّ صوت يرمز إِلى معنى فتكسبُ الأَلفاظ دلالتها من جرس أصواتها وينشأ ما يُسمّى المناسبة الطبيعية بين الأصوات والدلالات؟ لقد حاول كثيرُ من اللغويين إِثبات هذا الإتجاه وتأييده بكل ما أُوتوا من قوة في التصّورات العقلية التي اكتسبوها من مرانهم في اللغة. لو عدنا الى التاريخ القديم نجد إِفلاطون (347 ق.م) أَصرَّ على وجود علاقة حميمة بين الكلمة ما تدلُّ عليه، اذ كان إِفلاطون يرى الصلَة وثيقةُ بين الأَلفاظ

ومعانيها، أَو بين الأَصوات ودلالتها. أَمّا تلميذُه أُرسطو (322 ق.م) فقد أخذ على عاتقه نقض هذه النظرية وتحطيم مقولةِ أُستاذه في المناسبة بين الإسم والمسمّى[1]. أَمَّا العلماءُ العرب فقد كان لهم الأثر الرائد في هذا المجال لاسيما في لغتهم الغرّاء لو تدبّرت العينَ تلاحظ صاحبه أَقام جسراً من العلاقة بين اللفظ ودلالته، فتلاحظه يضاعف أحرف الكلمة لمضاعفة المعنى وامتداده[2]. أَمّا سيبويه فقد تابع أُستاذه على هذا وربط بين الصوت والمعنى، أَو بين اللفظ والمدلول، ومن الأَمثلة التي ذكرها، مصدر فعلان، وما في أَلفاظهِ من دلالة على الحركة والاضطراب[1]. لقد كانت هاتان الإشارتان – إشارةُ الخليل وسيبويه- بمثابة الضوء الأَخضر الذي فتح الباب على مصراعيه لمن جاء بعدهما. فهذا اِبنُ جني يُعَدُّ من أَكثر اللغويين المتحمسين لفكرة الصلة بين اللفظ والمدلول . فقد بسط القولَ وأَخذ يُفصّل دقائقَ هذه النظرية متلمّساً الصلةَ في ما يعرض له من ظواهر صوتية معتمداً حذقه في التصرف الناجم عن دقَّةِ النظر في الأصوات وجرس الحروف الذي طُبعَ في ذهنه لطول مخالطتهِ وكثرة تعامله مع الحروف[2]. أَمّا اِبنُ دريد (223-321هـ) فقد وضع كتابه الاشْتقاق على أَساس هذه النظرية كتعليله لاسماء الأَعلام والقبائل في الجزيرة العربية وبيانه لمعاني الاشتقاقات[3]. وقد تابع المحدثون السابقين على هذا وكتبوا فيه وأَقاموا الروابط بين الصوت ودلالته. فهذا إبراهيم أنيس يقول: ((الدلالةُ المعنويةُ تُسْتَمَدْ من طبيعةِ الأَصوات ، وهي يُطلق عليها اسمُ الدلالة الصوتية))[4]. ومثلُه أَيضاً باحث آخر يقول : ((تأليفُ أَصوات الحروف والحركات له دورُ هام في إثارة الانْفعال المناسب. فالإيقاع الداخلي للأَلفاظ، والجو الموسيقي الذي يُحدثهُ عند النطق ، يُعَدُّ من أَهم المنبهّات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة))[5]. من متابعة أَقوال العلماء والتأمل بها يتضحُ أَنَّ البحث الصوتي يدور في فلكين: أَحدُهما، المؤثرات الصوتية الخارجية سواء كانت المتصلة بتنغيم الكلمة، كالترجيح، والتلحين، والترتيل، وغيرها. أَم المتّصلة بالمؤثرات الخارجية المصاحبة للإلقاء، كالموسيقى. هذه الأُمور تقترب من مجالات علم الصوت العام كفن الإلقاء، وفن الموسيقى، وعلم التجويد، أمّا ما يتصل بموضوع البحث فهو الصوت اللغوي من حيثُ هو مؤثرُ داخلي، وهذا الفلكُ الثاني للدراسة الصوتية، الذي يشملُ خصائصَ

---

(1) يُنظر : منطق ارسطو: تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ترجمة اسحق بن حفين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948: 60/1.

(2) يُنظر : كتاب العين 7/ 82.

(1) يُنظر : كتاب سيبويه ، لأَبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، 1975م:218/2.

(2) يُنظر : الخصائص، لأَبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2. 1374هـ، 1955م، 133/2، 133، 139، 145، 152، 168، 146، 3:24.

(3) يُنظر: الاشتقاق، محمد بن الحسين بن دريد الأزدي (223-321هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، السنة المحمديّة، الناشر مؤسسة الخانجي، مصر. المكتب التجاري ، بيروت، مكتبة المثنى ببغداد، 1378/ 1958. ص176، 536، الصاحبي في فقه اللغة وسفن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963 : 98-99.

(4) دلالة الأَلفاظ ،د.ابراهيم انيس، مطبعة لجنة البيان العربي،مكتبة الانجلو المصرية، ط2: 46. وينظر: الدرس الدلالي في خصائص ابن جني للدكتور احمد سلمان ياقوت، كلية الاداب، جامعة الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1989، مطبوعة على آلة الكاتبة: 7.

(5) الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية ، الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1984: 49.

الصوت في الكلمةِ وعلاقتهِ بالدلالةِ وتأثيره في أَبْعاد المعنى. وعلى هذا سوف أَتطرّقُ الى نماذجَ من الآياتِ القرآنية كدراسةٍ تطبيقيةٍ للأصوات وهي مركّبةٌ في المفردات. وقد كانت الآيات التي اِستشهدتُ بها تدلُّ على التخويف والترهيب وهذا موضوع دراستي – التحذير في القرآن الكريم- .

فواتح السور القرآنية

افتتح الله جلَّتْ قدرتُهُ سورَ كتابهِ العزيز بضُروب عدّة من فنونِ القولِ. وأَنت حين تقرأ سورَ القرآنِ الكريم تُلاحظ سوراً تماثلت فواتُحها مع فواتحِ كلام العربِ، وجاريةً على العادةِ التي أَلفوها في ثُراثهمِ اللغوي تارة، وتارةً أُخرى تجد سوراً في الكتاب العزيز خرجت مما هو مألوف واتخذت لنفسها أُسلوباً جديداً. إنَّ هذا التباين يَفرضانهُ الغرضُ والهدفُ اللذان ترمي اليهما كلُّ سورةٍ من سورِ القرآن، فالسورةُ التي تتضمّنُ ثناءَ اللهِ وبيان عظمتهِ يكونُ أَمراً طبيعياً أَن تختلف فاتحتُها عن السورة التي غرضُها الإنذار والتخويف. وما دام الاختلاف أَساسه الموضوع وَجَبَ عليَّ أن أقتصرَ في محلّيَّ هذا على فواتح السور التي تدخُل ضمن الوعيد والترهيب.

أوّلاً : الافتتاح بحروف التهجّي

هذا الضربُ كثيرُ في القرآن الكريم، فقد أُفتتُحِتْ تسعةُ وعشرون سورةً بالأحروف المقطّعة. إنَّ هذه الأَحروف قد تجدُها أَحياناً تكرر ذكرُها وقد لا تجد لها تكراراً أَحياناً أُخَر. لقد وقف كثير من المفسرين طويلاً عند هذه الأحروف وبذلوا الجهّدَ الكثير في تتبُع الأحاديث التي تُفسُرها، وقد تابعهم على ذلك مَنْ دَرَسَ علومَ القرآنِ بشكلٍ عام والإعجازَ القرآني على وجه الخصوص. وفي هذا المقام نأخذُ جزءاً يسيراً من تلك الأَقوالِ حتّى يتبيّنَ لنا بعض ما قالوه.

يقول كمالُ الدين بن عبد الواحدِ الزملكاني (ت651هـ): «إنّها كالمهيّجةِ لمن سمعها من الفُصحاء، وموقِظةُ للهمم (...) أَلا تراها بمنزلةِ زمجرة الراعدِ قبلَ الماطرِ في الإعلام لتعي الأَرضُ فضلَ الغمامَ، وتحفظَ ما أُفيضَ عليها من الإنعام، وتخافَ مواضع الانتقام»[1]. ويقرُب من هذا قول البيضاوي (ت791هـ) إذ قال: «الفواتحُ إيقاظُ لمن تحدَّى القرآنَ، وتنبيهُ على أَنَّ اصلَ المتلو عليهم كلامُ منظومُ مما ينظمون منه كلامَهم (...) وليكونَ أَولُ ما يقرَعُ الأَسماعَ مستقّلاً بنوع من الاعجاز»[2]. وقد تابع السيوطي (ت911هـ)، سابقه إذ قال: «أُفْتتحِتْ السورُ بهذه الحروف لغرضِ التنبيهِ، وإنَّما لم تُستَعْملْ الكلماتُ المشهورةُ في التنبيه كـ(ألآ و أَما)؛ لأَنَّها من الأَلفاظ التي يتعارفُها الناسُ في كلامهم، والقرآنُ كلامُ لا يشبه الكلام، فناسبَ أَن يُؤتى فيه بألفاظٍ لم تُعهد؛ لتكونَ أَبلغَ في

---

(1) البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن، لكمال الدين بن عبد الواحد الزملكاني (ت 651هـ)، تحقيق: الدكتورة خديجة الحديثي، والدكتور احمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1974: 57.

(2) أَنوار التنزيل وأَسرار التأويل. أو ما يعرف بـ (تفسير البيضاوي)، للقاضي ناصر الدين أَبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت 791هـ. وبهامشه حاشية العلامة الفاضل ابن الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالكازروني. مطبعة مصطفى محمد، صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ: 1/ 42.

قرع سمعهِ»[3]. من الأَقوال السابقة يتبيّنُ أَنَّ العلماء تقاربت أَقوالُهم في بيان فائدةِ الأَحروف المقطَّعةِ في أَوائلِ بعض السور، وهذه الفائدة تتجلّى بإثارةِ إنتباه المُخَاطَبِين وشدِّ أَذهانهم؛ لما في هذه المقاطع من غرابةٍ على أَسماعهم، وخروجٍ ممّا هو مألوفُ عندهم. ولم يقتصرْ هذا القول على العلماء القدامى بل تابعَهم المحدثون على ذلك، فهاهي الدكتورة عائشة عبد الرحمن تقول: «هي أَصواتُ للتنبيه كما في النداء، عَمدَ إليها القرآنُ ليكونَ في غرابتها ما يُثير الالتفات. وقد تُرِكَ ما أَلفوا من ألفاظ تنبيه الى ما لم يأَلفوا لكي يكون أَبلغَ في قرع الأَسماع»[4]. لقد جاءت هذه الأَحروف التي في أوائل بعضِ السور على ضربين : ضربُ منها جاءت مفردةً لا يُشاركها غيرها مكانها، وضربُ منها جاءت مجتمعةً، وقد يجتمع حرفان أَو ثلاثة أحرف أو أكثر. إنَّ هذين الضربين على تباين أحرفهما وعددها قد اتحدا ليؤدَّيا غرضاً واحداً هو إثارة الانتباه كما سبق بيانه. وفي هذا الموضع لنقف معاً عند كلا الضربين حتى نعرفَ الأَثرَ الصوتي للحروف المقطعّة ومدى توافق الأَحرف مع السورة التي تصدّرتها.

الضرب الأَول : الحروف المفردة

افتتحت ثلاث سورٍ مباركة في القرآن الكريم بحرف مفرد، وهذه السور هي: (ص، ق، القلم). لقد تعرّض الفرّاء (ت207) الى هذه الأَحرف واعطانا قاعدةً عامةً في إيضاح الكيفية التي تكتبُ فيها هذه الأَحرف، مضيفاً الى هذا كيفّية النطق. فلنتدبّر معاً قول الفرّاء: «وإذا كان الهجاءُ في أَول سورة فكان حرفاً واحداً مثلُ قوله : ص، ن، ق. كان فيه وجهان في العربية: إن نويتَ به الهجاء تركته جزماً وكتبته حرفاً واحداً. وإنْ جعلته اسماً للسورة، أَو في مذهب قسم كتبته على هجائه (نون) و (صاد) و (قاف) وكسرت الدال من صادِ، والفاء من قاف، ونصبت النون الآخرة من نون، فقلت : نونَ والقلم، وصادِ والقرآن، وقاف؛ لأَنَّه قد صار كأنه أداةُ كما قالوا: رجلان ، فخفضوا النون من رجلان لأَنَّ قبلها ألفاً، ونصبوا النون في (المسلمونَ والمسلمين) لأَنَّ قبلها ياءً و واوً»[1]. بعد التعّرف على الكيفيةَ التي تكتب فيها الأَحرف المفردة في أَوائل السور الثلاث فقد تتباينت الكتابة بتباين الهدف، فلنتدبّر في معانٍ تلك الأحرف من خلال ما قاله المفسرون ومن اقتفى أثرهم.

حرف الصاد:

افتتح هذا الحرف السورة التي عُرِفت به (ص)، فلنتأمل ما قاله بعض المفسرين في بيانهم له. قال الطبري ت 310هـ): «ص من المصادة، وهو أَمرُ من ذلك، كأَنَّ معناه عندهم: صادِ بعلمك القرآن، أي : عارضهُ به»[2]. أَمَّا أَبو حيّان (ت 754هـ) فقال: «وهو

---

[3] الإتقان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، تحقيق : محمد أبو الفضل أبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974: 3/ 27.

[4] الاعجاز البياني للقرآن، الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، دار المعارف، مصر، 1971: 1/ 129.

[1] معاني القرآن، لأَبي زكريا يحيى بن زياد الفرّاء ، ت207هـ، تحقيق: أَحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القسم الادبي، القاهرة، ط1، 1374هـ ، 1955م: 10/1.

[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1954: 117/23، ويُنظر : التبيان في تفسير القرآن 16/ 541.

أَمرُ من صادِ، ومنه الصدى، وهو ما يُعارض الصوت في الأَماكن الصلبة الخالية من الأَجسام ، أَي : عارض بعلمك القرآن، وقيل : صاديتُ من حادثت»[1].

إنّك لو تدبّرتَ السورة المباركة (ﷺ) تجد فيها «الخصومات المتعددة: أَوّلُها خصومةُ الكفّارِ مع النبي (ﷺ)، يليه اختصام الخصمين عند داودَ (عليه السلام)، ثم تخاصم أَهلِ النار»[2]. من هذا يتضح أَنَّ صاحب النص ربط بين الحرف الافتتاحي وبين ما وَرَدَ في السورة من معانٍ؛ لذلك كان الافتتاح بحرف الصاد. ولو ذهبنا إلى أَبعدِ من هذا ونظرنا الى سورة الصافات التي سبقت سورة (ص) نجد هذا الحرف تكرر فيها تكراراً ملحوظاً. فقد جاء في اثنين وثلاثين موضعاً معظُمها في سياق الوعيد وفي نهايةِ السورة، وكأَنَّ هذه الآيات في سورة الصافات تمهّدُ لمطلعٍ جديد هو ذلك الصوت المنفرد (ص) في أَولِ السورة. إنَّك حين تنطقُ هذا الحرف كنطقكَ الأَصوات ولا تلفظُه كلفظِك الحروف فتقول: ص، صاد، صوتاً نطقياً لا حرفاً مرسوماً مثل (ص) أو (إص) تجد هذا الحرفَ ردّاً مفحماً في التحدّي الصارخ، لاسيما أَنَّ السورةَ التي وَرَدَ فيها مكيّة، وأَنَّ الأَحداثَ التي رافقت قرعَ الأَسماع بهذا الصوت قد بلغت أَشدَّ القسوةِ على الرسالة المحمديّة[3].

حرف القاف:

لو تأملّت السورة المباركة التي بدأَت بهذا الحرف وعرفت به (ق) تجدها بعد أَنْ أُفتُتِحتْ به جاء القسمُ بالقرآنِ الكريم، يليه ما قاله الكافرون حين عجبوا لكون النبي (ﷺ) منذراً، ثمَّ تذكر السورة المباركة قدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، تتبعها بعضُ قصص السابقين وإحقاق الوعيد عليهم، الى أن تداهمهم سكرةُ الموت بالحقّ، وتستمرُ السورةُ المباركةَ بمعانيها ومفرداتها السامية حتى تصل خاتمتها فنجد الله يأمرُ نبيه (ﷺ) أَن يذكِّر بالقرآن، فكما ابتدأَتْ السورةُ بالقرآن أُختُتمِت بالذكر ذاتهِ. لو تدبّرت هذه المعاني تُلاحظ كلَّ معنى منها يُفيد العبرةَ والموعظةَ وهذان الغرضان يتوافقان مع أول الكلام الذي هو حرفُ القاف. قال الزركشي (ت749هـ): «إنَّ كلَّ معاني السورةِ مناسبةُ لما في حرف القاف من الشدِّ، والجهر، والقلقلة والانفتاح»[1]. يتضحُ أَنَّ الزركشي عقد التناسبَ بين موضوعات السورةِ وبين حرفها الافتتاحي لما رأى في «حرف القاف من الشدةِ والاستعلاء، حيثُ يستعلي

---

(1) البحر المحيط لأثير الدين بن يوسف بن حيان الاندلسي الغرناطي الجياني الشهير بأبي حيان المولود (654هـ) المتوفى بالقاهرة 754هـ وبهامشه تفسيران (1) النهر المارد من البحر لابي حيان ايضاً . (2) الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذ ابي حيان تاج الدين ابي محمد احمد بن عبد الله القادر بن احمد بن مكتوم القيسي الحنفي النحوي المولود سنة 682هـ/ ت749. الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض، المملكة العربية السعودية: 383/7.

(2) البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله الزركشي (ت 749 هـ)، تحقيق : محمد أَبو الفضل ابراهيم، مصر ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، 1376 هـ: 1/ 169.

(3) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن ، موسوعة الدراسات القرآنية (2)، الدكتور : محمد حسين علي الصغير، أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة الكوفة، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ/ 2000م : 100.

(1) البرهان في علوم القرآن 1/ 169.

اللسان عند النطق بالقاف، وكأَنَّ الناطق بهذا الحرف يدقُّ اعلى الحلقِ دقّاً، وهو كذلك ثقيلُ على السمع يكاد يخرق الآذانَ خرقاً»[2].

وحين أُفتُتحتْ السورةُ المباركة بالحرف (قاف) تلاه لفظُ آخر أَولُه القاف أيضاً وهو القرآن المؤلَّف من مثل هذا الحرفِ بل إنه اولُ حرف في لفظ قرآني). «وهذه البدايةُ (قاف) تتناسب مع السورة الرهيبة، الشديدة الوقع بحقائقها، الشديدةُ الوقع ببنائها المعنوي، وصورها وظلالها. إنَّ بدايتها تُعرضُ وكأَنّها جديدة تروّع الحس بروعةِ المفاجأَة، وتهزُّ النفس هزّاً، وترجُّها رجّاً، وتُثير فيها رعشةَ الخوف، وروعة الإعجاب، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهوّل الرهيب»[3].

سورة القلم:

لم يتطرّق معظمُ المفسرين الى حرف (النون) في أوّل سورة القلم بل اكتفوا بالإشارةِ الى أَنه من حروفِ الهجاء وكفى. وكما اعتدنا عليه من متابعة الحرف الافتتاحي مع مضمون السورة نجد السورة بعد أَن تبدأ بذكر حرف (ن) تُخبرُ النبي (ﷺ) ببراءته من الجنون الذي أُتهِمَ به، وأنَّ له من الأَجر ماليس بممنون، ومن ثَمَّ يبدأ الوعيد ويتدرج ذكرهُ شيئاً فشيئاً حتى يبلغَ ذروته بقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القلم/44، ثم تذكر السورة المباركة لوم الكفّار لأنفسهم وهذا اللوم يأتي بكلماتٍ تختتم بالنون كقولهم: (ظالمين، يتلاومون، طاغين، راغبون، يعلمون) وتستمرُ السورة بمعانيها السامية حتى تصلَ خاتمتها فتنفي الجنون عن النبي (ﷺ) وتثبت الذكرَ للعالمين. فابتدأت السورة بحرف النون يليها نفي الجنون واختُتمِتْ السورة بالحرف ذاتهِ والنفي ذاتهِ. لو تأملّت السورة المباركة تلاحظ أَنهَّا تذكر صفةَ خلُقِ النبي (ﷺ) وتذكر بعض صفات المتقين، ثم تنتقلُ الى الوعيد الذي طغى على السورة، وقد جمعت السورة هذين الغرضين وكان حرفا النون والميم مسيطرين على اواخر الكلمات. وهذان الحرفان من الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة[1] وقد جمعت السورة الشدة والرخاوة في ذكر الكافرين. وتلك الشدة متمثلةً بوعيد الله سبحانه لهم، والرخاوة تمثلت في ندم الكافرين على ما ارتكبوه من آثام، مضافاً الى هذا سبباً آخرَ أوضحه السيد الطباطبائي بقوله : «ن، إشارةُ الى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود للنبي (ﷺ)»[2].

يقول عبد الكريم الخطيب في الفواتح المفردة (ص، ق، ن): «إنهَّا مطلعُ رائعُ، وقرارُ مكين يملأ الفم من أَقصى الحلق الى مُلتقى الشفتين. وأَمَّا باقي حروف المعجم فلا

---

[2] بحوث في تفسير القرآن (سورة المدثر)، جمال الدين عيّاد، ماجستير في الدراسات العربية والإسلامية من الجامعة الإمريكية بالقاهرة، دار الحمامي للطباعة، 1386هـ/ 1967م: 50.

[3] في ظلال القرآن للسيد قطب، طبع بدار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط2، د.ت: 26/ 154-155.

[1] ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، 1980م: 315.

[2] الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان، ط3، 1393هـ-1973م: 7/18.

يُشاركُ حرفُ رابعُ هذه الأَحرف في اداء النغم الموسيقي الذي يؤدّيه كلَّ منها بمفردهِ، مثل : باء، تاء، ثاء، فلن تجد غير هذه الاحرف الثلاثة (ص، ق، ن) حرفاً يصلحُ أَن يكون مطلعاً لسورة من السور ، ومقدمة موسيقية لها»[3].

الضرب الثاني: الحروف المجتمعة

هذا الضربُ له نصيبُ أَوفى من سابقهِ في القرآن الكريم فقد ورد في ستةٍ وعشرين موضعاً من السور القرآنية. وأَكثرُ الأَحرف التي أُسْتُعْمِلت فيه هي : الألفُ واللامُ والميم. قال عبد الواحد الزملكاني (ت 651هـ): «إنَّ الأَلف واللامَ والميم يكثرنْ في الفواتح مالم يكثر غيرها من الحروف لكثرتها في الكلام: ولأن الهمزة من الرئة فهي من أعمق الحروف. واللامُ مُخرجها من طرفِ اللسانِ، ملصقةُ بصدر الغار الأعلى من الفم، فصوتُها يملأُ ما وراءها من هواء الفم. والميم مطبقةُ؛ لأنَّ مخرجها من الشفتين إذا أطبِقتا؛ فرُمزِ بهنَّ الى باقي الحروف»[1]. وما يشبه هذا قول الزركشي (ت749هـ) قال: «وكلُّ سورة اسْتُفْتحتْ بهذه الحروف –الألفُ واللامُ والميم- فهي مشتملةُ على مبدأ الخلقِ ونهايتهِ وتوسطه (...)؛ لأَنَّ الهمزةَ من الرئة، فهي أعمق الحروف، واللامُ مخرجها من طرفِ اللسانِ ملصقةُ بصدر الغارِ الأعلى من الفم. والميمُ مطبقةُ؛ لأنَّ مخرجها من الشفتين إذا أُطبقتا. ويُرمز بهن الى باقي الحروف[2].

من القولين السابقين يتضح أَنَّ صاحبيهما قد اتفقا على مخارج الألف واللام والميم، ولمّا كانت مخارج تلك الأَحرف تبدأ من الأَعمق –الرئة-، الى المتوسط – اللسان-، والأخير – الشفتين. عدّت نائبةً عن الحروف الأُخر، إلا أَنَّ الزركشي كما رأينا ذهب الى أَبعد من هذا، فحين نظر الى مخارج الأَحروف وهي تتمثلُ بالأعمق والأوسط والأخير كوَّنَ رابطةً بين تلك المخارج وبين ما ذُكِرَ في السورة من بدايةِ الخلق وأوسطهِ ونهايتهِ، وكأَنَّ تاريخ الخلق قد مُهّد له بهذه الأحرف. أمَّا البيضاوي (ت 791هـ) فقد أَعطى الأَلفَ واللامَ والميمَ دلالةً أَخرى تتضحُ من قراءةِ قوله: «الأَلفُ من أَقصى الحلق، وهو مبدأ المخارج، واللامُ من طرف اللسان، وهو من أَوسطها، والميمُ من الشفةِ، وهو آخرُها، جُمِعَ بينها إيماءً الى أَنَّ العبَد ينبغي أَنْ يكون أَولُ كلامهِ وأَوسطهِ وآخرهِ ذكرُ اللهِ تعالى»[3]. وكذلك الحال بالنسبةِ الى الأَحروف الأُخر التي أُفتُتِحت بها بعضُ السور، فلو أَنعمت النظر في سورةِ الأَعرافِ التي افْتُتِحتْ بالأَحرفِ السابقة الذكر مضافاً اليها الصاد «تجد أَنَّ مضمونَ السورةِ جامعُ لمضامين هذه الأحرف. والحالُ نفسُها بالنسبة الى سورة الرعدِ التي افْتُتِحتْ بالألف واللام والميم والراء»[1]. وأنت حين تقرأ سورة الرعد تُلاحظ التكرارَ الملحوظ لحرفِ الراءِ متحرّكاً أَحياناً، وساكناً أَحياناً أُخر، ويرد في سياق بيان قدرةَ الله – عزَّ وجل- وعظمته، وتارةً في سياق الإنذار والترهيب، ولاسيما أَنَّ اسم السورة اسمُ لشيءٍ مُخيف يبدأ اسمهُ بحرف الراء وهو (رَعْد) إنَّ مخرجَ هذا الحرف كما قاله بعضُ الصوتيين

---

[3] اعجاز القرآن، في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، (الاعجاز في مفهوم جديد)، عبد الكريم الخطيب، الكتاب الثاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1975، 189.

[1] البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن : 59.

[2] البرهان في علوم القرآن 1/ 168.

[3] أَنوار التنزيل وأَسرار التأويل 45/1.

[1] الميزان في تفسير القرآن 8/18.

إنهَّ لفظُ طرقاتِ اللسانِ على اللثةِ[2]. وإذا أُجيز لي الجمع بين الدلالتين، (دلالةُ الألفِ واللامِ والميم التي ذكرتُها قبل قليل وبين دلالة مخرجِ الراء) اتضح مدى توافق هذه الأحرف (الألف واللام والميم والراء) لما ورد في السورة . وكأنها (معاني السورة) طرقاتُ في أُذنِ سامعها. والحالُ نفسها الى باقي الأحرف في فواتح السور، فهذه الأحرف تحملُ من الميزات ما لايشاركُها غيرها فيها. قال الزركشي ت(749هـ): «تأمّلْ اقتران الطاء بالسين، والهاء في فواتح القرآن، فإنَّ الطاء جمعت من صفاتِ الحروف خمسَ صفاتٍ لم يجمعْها غيرها وهي: الجهرُ، والشدَّةُ، والاستعلاءُ والإطباقُ، والاصماتُ. والسينُ مهموسُ رخوُ، مستغلُ، له صفيرُ منفتحُ، فلا يمكن أن نجمع الى الطاء حرفُ يُقابله كالسين والهاء، فذَكرَ الحرفين اللذين جمعا صفاتِ الحروف»[3]. أمّا الدكتور صبحي الصالح فقد أَوضحَ الأَثر الذي يُحدثه تنغيم الأَحرف المقطعَّة بقوله: «تقعُ الأَحرف أثناء الخطاب، وانت ترفعُ الصوتَ وتكيّفُه بما يقتضيه المقام من صيحةِ الخوف او غنّةُ الاسترحام والعطف ، او رنّة النعي وإثارة الحزن، أو نَغْمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب التهويش وقت الجدل"[1]. إنَّ هذا الكلام على الأَحرف المقطعّة قطرةُ من بحر عظيم كتبت عنه الاقلام منذ نزول القرآن الكريم وحتى يومنا هذا[2].

ثانياً : الافتتاح بالجملة الخبرية

قال تعالى «الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ» القارعة 1-2.

وقال تعالى «الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ» الحاقة 1-2.

وسيأتي الكلامُ عليها إن شاء الله[3].

ثالثاً : الافتتاح بالدعاء

قال تعالى : «الرحيم وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(1)الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ» المطففين 1-2

وقال تعالى : «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» الهمزة 1.

قال الطبري (ت310هـ): «الويلُ: الوادي الذي يسيلُ منه قيحُ وصديد في جهنم»[4]. أَمّا الفخر الرازي (ت606هـ) فقال: «الويلُ كلمةُ تُذْكرُ عند وقوع البلاء، كما يُقال: ويلُ

---

[2] يُنظر: علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي، الدكتور محمود السعران، أُستاذ مساعد بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، دار المعارف، مصر، 1962. 87.

[3] البرهان في علوم القرآن 169/1.

[1] مباحث في علوم القرآن، د.صبحي الصالح ، أُستاذ الاسلاميات في كلية الآداب، جامعة دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ط2، 1382هـ، 1962م: 278.

[2] للمزيد من الاطلاع راجع: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 93:1 و التفسير الكبير 12/2 ، وأنوار التنزيل 42/1 و البرهان في علوم القرآن 165/1-177.

[3] راجع الصفحة من الرسالة.

[4] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 21:27.

لك، وويلُ عليك»[5]. من قول الرازي يتضح أَنه لم ينظر الى أَنها وادٍ في جهنم كما نظر اليها سابقه الطبري بل نظر اليها –الرازي- وهي تُوحي بالشدة والبلاء. وفي موضع آخر لاحظتُ الرازي يستدلُّ على شدّةِ هذا اللفظ بما في أحرفه من إيحاء لذلك فقد قال: «الويلُ يُنبئُ عن الشدةِ، وتركيبُ حروف الواو والياء واللام لا ينفكُّ عن نوع الشدّةِ، منه لوي، إذا دُفَع، ولوى يلوي إذا كان قويّاً، والوليُّ فيه القوّة على المولى عليه»[6]. وقد مضتْ الدكتورة بنتُ الشاطئ الى ما مضى اليه الرازي إذ قالت: "جاءت هذه اللفظةُ –ويل- في سياق الإنذار من اللهِ سبحانه يتبعُها المطففون، المنافقون، الكاذبون، وهذا يكفي لإدراك ما للفظ الويل من رهبةٍ وما يُثيرُ من خوفٍ ورعب دون أَن نحتاج الى تأويل وادٍ في جهنم يسيلُ قيحاً"[1]. أمَّا السيد قطب فقد جعل قوله تعالى "ويل للمطففين" إعلاناً للحرب على المطففين، وزجراً، وتهديداً بالويل والهلاك، وهذا اللفظ يوقِظُ القلوبَ ويهزُّ المشاعر لهذا الحدث، اي: الحرب[2]ومما وُردَ في فواتح السور ما يُفيد الدعاء قوله تعالى: «**تبّت يدا ابي لهب وتب**» اللهب/1: وسيأتي الكلامُ عليها قريباً ان شاء الله[3].

رابعاً : الافتتاح بالقسم

قال تعالى «**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا**» سورة الذاريات/1. وقال تعالى: «**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا**» المرسلات 1، وقال تعالى: «**والنازعات غرقاً**» النازعات 1، وقال تعالى «**والعاديات**» العاديات1.

لو تأملت هذه العبارات التي افتتحت بها السور المباركة تجد أَنَّها «تمهيد لسور بمقطعٍ غامض الكُنه، يُثير بغموضهِ شيئاً من الحدس والرهبة والتوجّس. بسياق فيه إيقاعُ موسيقيُ راجِفُ لاهث، كأَنما تنقطعُ به الأَنفاس من الذعر، والإرتجاف ، والمفاجأة، والإنبهار، وهذا الإفتتاح يتوافق مع ما جاءت به السور من إشعار القلب البشري حقيقة الآخرة بهولها، وضخامتها، وجدّيتها، وهذا يتم بإيقاعات منوَّعة على أوتار القلب وتلمسُه لمسات شتى، حول تلك الحقيقةُ الكبرى»[4].

---

[5] التفسير الكبير 87:31.
[6] المصدر نفسه 245:28.
[1] التفسير البياني للقرآن الكريم : الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف ، ط5، 1977، الجزء الاول/ 169.
[2] ينظر: في ظلال القرآن 83:27.
[3] راجع صفحة من الرسالة.
[4] في ظلال القرآن 23/27.

خامساً : الافتتاح بالشرط

قال تعالى: ﴿الرحيم إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير 1، وقال تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ الانفطار 1. وقال تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ الزلزلة 1.

«إنَّ بداية سورة التكوير موافقةٌ لنهاية السورة السابقة لها، فحين قال تعالى "فإذا جاءت الصاخَّة" عبس 33، في سورة التكوير ذكر تعالى تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال وغيرها، وهذا اتصالُ مع ما ذُكِرَ لقيام الساعة»[1]. إنَّ هذه المعاني والأحداث أُختير لها إيقاع متوافقُ معها، وهذا الإيقاع أَشبه بحركةٍ هائجة تنطلقُ من عقالها فتقلبُ كلَّ شيء، وتهيّجُ الساكنَ ، وتروّعُ الآمن[2]. أَما فاتحةُ سورة الزلزلة «كأَنها هزَّةُ عنيفةُ للقلوبِ الغافلةِ، هزّة يشتركُ فيها الموضوعُ، والمشهدُ، والإيقاعُ اللفظي، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها»[3].

سادساً : الافتتاح بالاستفهام

قال تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الغاشية 1، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيل 1، وقال تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ الماعون 1.

إذا تدبّرت معاني هذه الآيات وجدتها تفيد التهديد والوعيد، وجاء ذلك التهديد والوعيد بسياق أَشدَّ ما يكون مثيراً ملفتاً للاهتمام، وهذا ما أحدثه الاستفهام الذي تصدّر الآيات. وهو «تعبيرُ يوحي بلذع العذاب وفضاعتهِ»[4].

لو أَنعمت النظر في الآيات التي سبقت هذه الفواتح رأيت هذه الفواتح امتداداً لما سبقها من قول ، ففي سورة الفيل مثلاً يأتي الاستفهام الذي أَفاد التعجّب من الحادث والتنبيه الى دلالته العظيمة، فيورد الله القصّة لغرض العبرة والتذكير بها لما تضمنته سورة الهمزة التي سبقت الفيل من اغترار بالمال، يتبعه اغترار أَصحاب الفيل بكثرتهم، وكانت النهاية كالعصف المأكول[1]، فكما بداية السورة استفهام أَفاد التعجب كانت النهاية تثير التعجّب، ولا عجبَ من قدرة الله.

---

(1) البرهان في تناسب سور القرآن ، للامام الحافظ أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي المولود 627 المتوفى 708هـ، تقديم وتحقيق وشرح: د.سعيد الفلاح، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، تونس 1988م: 223.

(2) ينظر: في ظلال القرآن 27:58-59.

(3) المرجع نفسه 233/30.

(4) المرجع نفسه 154/3.

(1) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن 240.

الدلالة الصوتية لاسماء القيامة

اختار اللهُ جلَّتْ قدرتُه لكتابهِ العزيز الألفاظ الأكثر فخامةً والأعظم وقعاً في النفس، مما يجعُلك تستوحي من تركيبها الصوتي مدى شدتها، وتستنتج أهميتها وأحقيتها بالتلبثِ والرَّصد والتفكر. لقد سمّى القرآنُ الكريم الكائنَ الواحد والأمرَ المرتقب اسماءٍ متعددةٍ ذاتِ صيغةٍ واحدةٍ على نسقٍ صوتي متجانسٍ للدلالة بمجموعة مقاطعهِ على مضمونهِ، وبصوتيتهِ على كُنْهِ معناه، تأمّلْ هذه الألفاظ «**الحاقة، الطَّامة، الصّاخة، القارعة**» تلاحظ أنّها متقاربةُ الصدى في إطار الفاعل المتمكّن، وضعها لنا عبد الكريم الخطيب (ت651هـ) بقوله: «أصواتُ صارخةُ، مدمدمةُ، تُثيرُ الهول والفزعَ. بما تبعثُ من نُذُرِ الهلاكِ، والدَّمارِ، وما تحملُ من صُورِ الانقلابات الهائلةِ المروّعة (...) تكادُ هذه الكلمات تطرقُ الآذان حتى تنطبعَ في كيان سامعها انطباعاً؛ لتناغم كلماتها، وتوازنِ آياتها، وتقابل معانيها، فإذا هي في كلِّ فم، وفي كلِّ بيت غناءُ وحداءُ. إنَّها طلقاتُ راعدةُ، مدمدمةُ، مزلزلةُ، تملأُ الآفاقُ رُعباً وفزعاً»[2]. ما يقربُ من هذا قول أحد الباحثين المعاصرين فقد قال: «هذه الصيغةُ الفريدةُ تهزّكُ من الأعماقِ ويبعثك صوتُها من الجذور، الصدى الصوتي، والوزن المتراص، والسكتُ على هائه أوتائهِ القصيرة، يعبُّر عما ورائهِ من شؤونٍ، وعوالمٍ، وعِظاتٍ، وعِبرٍ، ومتغيّرات»[3]. وإذا أعدنا معاً النظرَ في الألفاظ (**الّحاقةُ، الطامةُ، الصّاخة، القارعةُ**) وما قيل في تركيب أصواتها، وإيقاعها الموسيقي يتبادرُ الى أذهاننا أنَّ هناك أمراً عظيماً أُعِدّت لأجلهِ هذه التراكيب، وأنَّ هناك علاقةُ وثيقة بين هذه الالفاظ ودلالاتها. فلنتأملْ معاً ما قاله المفسرون واللغويون في معاني هذه الألفاظ حتى تكون الصورة أكثر جلاءً.

أولاً: قال تعالى : «**الْحَاقَّةُ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**» الحاقة1-3.

الحاقةُ : الواجبةُ، حَقَّ، اي وَجَبَ، ويَحقُّ حقّاً وحقوقاً فهو حاق. وسُمّيت القيامةُ الحاقةُ لأنَّها تحقُّ الكفّار[1]. اما الراغب الأصفهاني (ت502هـ) فقال: «الحاقةُ: إشارةُ إلى القيامة، لأنّه يحقُّ فيها الجزاء»[2]، في حين رأى ابنُ منظور (ت711هـ) «الحاقةُ: النازلة وهي الداهيةُ العظيمة ايضاً. الحقّة الداهيةُ. والحاقةُ: القيامةُ»[3]. من الأقوال السابقة يتبيّن أَنَّ الحاقة اسمُ من اسماء القيامة، لأَنَّ فيها يتحقق الوعدُ والوعيد، ولهذا عظَّم اللهُ شأنها، ولها (الحاقة) من المزّية الصوتية، والجرس والإيقاع هما لايخفى، فالحاقةُ «بلفظها، وجرسها، ومعناها، تُلقي في الحسِّ معنى الجدِّ والصّرامة، والحقِّ والاستقرار. وإيقاع اللفظ بذاتهِ أشبه برفع الثُقلِ طويلاً ثم استقرارهِ مكيّفاً، ورفعُهُ في مدّةِ الحاء بالألف، وجددُه في

---

(2) اعجاز القرآن ، عبد الكريم الخطيب، الكتاب الثاني ، 51.
(3) الصوت اللغوي في القرآن 171.
(1) اعراب القرآن، للنحاس، تحقيق: زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد، 1980م: 495/3.
(2) المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مصطفى البابي، مصر، 1381: 125.
(3) لسان العرب 10/ 53-54.

تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاءً ساكنة»[4]. إذا تدبّرت هذا النص تلاحظ صاحَبة قد ادرك شدّةَ جرس لفظ الحاقة وهذه الشدة قد اكتسبها اللفظ من أَحرفه ذات المزايا الصوتية الموحية بالشدة، فمادةُ اللفظ الأَصلية مكوّنةُ من حرفين هما: الحاء والقاف (حق). لو أنعمت النظر في هذين الحرفين تجد «الحاءَ من أَقصى الحلق بعد العين، ولو لا بحةُ فيها لأَشبهت العين؛ لقربِ مُخرجِها من مخرج العين»[5]، واما القافُ فقد رأها ابنُ جني من حروف القلقلة معللاً ذلك بقوله: «لأَنَّك لا تستطيع الوقوف عليها إلاَّ بصوت»[1]. وهذا الحرف من الحروف المشربة التي تُحفّز وتُضغط عن موضعها، وقد جمع بين صفتي الجهر والشدة[2]. فحين اجتمع في الكلمة حرفان: أَحدهما من أَقصى الحروف –بعد العين- مخرجاً، وآخرُ جَمَعَ الجهرَ والشدةَ، فلا غرابةَ أن يكونَ للكلمة وقعُ خاصُ يتنبّأ سامعُهُ شدَّتَهُ، ويزيدُ ذلك وضوحاً تشديدُ القاف وتوسط الألف بين الحاء والقاف. والأَلفُ «تجد الحلق والفمَ معها منفتحين، غير معترضين على الصوت بضغط او حصر»[3]. فحرفُ قَصِيٌّ وآخر مشرأبُ مشددُ وثالثُ تفتحُ الحلقَ والفمَ وتُمدّهُ الى أَن تصل الى القرار وهي التاء الساكنة التي تنطق هاءً، تتجمّع هذه الأَحرف لتعطيك أصواتاً «موافقة لمعانيها في الدلالة على يوم القيامة، وهذا من أَعظم الدلالات الصوتية في الشدّةِ، والتلاؤم البنيوي والمعنوي لمثل هذه الصبغة الحافلة»[4]. هذا إذا كانت الصيغةُ مفردةً، جاءت مرةً واحدةً فكيف بها وهي تتكرر ثلاثُ مرّات متواليات؟!.

ثانياً : قال تعالى «فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ» عبس 33.

قال ابنُ منظور (ت711هـ): «إِمّا أَن تكون الصاخةُ اسم فاعل من صخَّ يصخُّ، وإِمّا ان تكون المصدر ، ويُقال : الصّاخةُ هي الصيحةُ التي تكون فيها القيامة، تصُخُّ الأَسماعَ أَي: تصمُّها فلا تُسمعُ الا ما تدعى به للإِحياء»[5]. وحين تكون الصاخةُ صيحةَ القيامة يكون إطلاق هذا الوصف –الصاخة- عليها مجازاً[6]. اما الطريحي (ت1085هـ) قال: «الصاخةُ: بتشديد الخاء، تعني القيامة، فإنها تصخُّ الأسماعَ أي: تقرعُها وتصمُّها، يُقال: رجلُ أصخّ إذا كان لا يسمع»[1]. من هذا يتضحُ أَنَّ القيامةِ وصفت بالصّاخة؛ لما في صوتها من شدةٍ تقرع الأَسماع وتحيلها صماء، اما الآلوسي (ت 1270هـ) فقد رأى الصاخة: «هي الداهيةُ العظيمةُ، من صخَّ بمعنى أصاخ، أَي: استمع، والمراد بها، النفخةُ

---

[4] في ظلال القرآن 71/26.
[5] كتاب العين 57/1.
[1] سر صناعة الاعراب ، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرون، عيسى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1954م: 1/ 73.
[2] يُنظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 304.
[3] سر صناعة الاعراب 8/1.
[4] الصوت اللغوي في القرآن 170.
[5] لسان العرب 33/3.
[6] ينظر: التفسير الكبير، 63/31.
[1] مجمع البحرين، لفخر الدين بن محمد علي بن أَحمد النجفي الطريحي، تحقيق: احمد الحسيني، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، 1961: 2/ 437.

الثانيـة، ووصـفت بهـا لأَنَّ النـاس يصـخّون لهـا، فُجعِلـتْ مُسـتَمعة مجـازاً فـي الظـرف والإسناد»[2].

وبعـد هـذا يتضـح أَنَّ الصـاخةَ هـي صـيحةُ القيامـة. فـي حـين يطالعنـا الراغـب الأَصفهاني (ت502هـ) بقوله: «الصّاخةُ : شدّةُ صوت ذي منطق»[3]. من هذا القول نلاحظ أَنَّـه يُعطـي الصـاخة دلالـةً أَعمـق مـن الإرادة الصـوتية المفـردة، فـالمنطقُ رُبَّمـا قصـد بـه الأصوات الدالةَ على الفزع والهول التـي ترافقُ صـيحة القيامـة، يقولُ سيد قطـب: «وأنـت تعلمُ ما في هذا اللفظ (الصاخة) من جرس عنيف نافذٍ، يكاد يخرقُ صماخَ الأَذنِ، وهو يشقُّ الهواء شقاً، حتى يصلَ الى الأُذن صاخاً ملحًّا»[4].

ثالثاً : **القارعةُ**: قال تعالى : «**القارعةُ مالقارعة وما ادريك ما القارعة**» القارعة 1-3

قـال الخليل (ت175هـ): «القارِعَـة : القيامـةُ. والقارِعـةُ الشِّدَّةُ، وفـلانٌ أَمِـنَ قـوارِعَ الدَّهرِ، أي: شدائدُه»[5]. اما النحاس (ت338هـ) فقال: «القارعـةُ: مـن اسماء القيامـة عظّمهـا اللـهُ وحذَّر منهـا، وحـين كُـررَ القـولَ تعظيمـاً لشـأنها»[6]، واما الطبرسـي (ت548هـ) فقد أوضح لنا مناسبةَ تسمية القارعة مع ما تدلُّ عليه بقوله: «وسُميّتْ القارعة بهذا الاسمَ؛ لأَنَّـها تقرعُ قلـوب العبـاد بالمخالفـة، الـى أَن يصـير المؤمنَ الـى الأَمـنِ، وإِنَّمـا حَسُـن أَن تُوضـعَ القارِعةُ موضعَ الكناية لتذّكر بهذه الصفة الهائلة»[1] أَمّا ابنُ منظور (ت711هـ) فقد أَوضـح ملائمة لفظ القارعة ليوم القيامة بقوله: «القارِعةُ: كلُّ هنةٍ شديدةِ القرع، وهي القيامـة، وكلُّـه من القرع الذي هو الضربُ، ومعنى القارعة: النازلة الشديدة تنزلُ عليهم بأَمر عظيم ولذلك قيل ليوم القيامـة القارعـة»[2] أَمَّـا أبو السعود فقد ذكر «القرعُ: هو الضـرب بشدةٍ واعتمـاد بحيث يحصل منه صوتُ شديد، وهي القيامة»[3]. والقارعةُ سُميّت بهذا «لأَنَّها تقرعُ القلوب بالفزعِ، وتقرعُ أَعداء الله بالعذاب»[4]. والقارعةُ : البليةُ التي تقرعُ القلبَ، وقوارعُ الدهرِ: دواهيـه، وأنـت تسـمع لفظـةَ القارعـة وهـي تتكـرر ثـلاث مـرّات وكأَنَّـها صـوت الضـرب بالمقرعةِ[5]. يقول سيد قطب: «القارعـةُ توحي بـالقرعِ واللطم، فهـي تقرعُ القلـوب بهولهـا، فمن تناسق التصـوير أَن تُسمّى القيامـةُ القارعـةُ، فيتسـقُ الظـلُّ الـذيُ يلقيـه اللفظ والجرس

---

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، تصحيح وتعليق: محمود شكري الآلوسي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان: 30/ 48.

[3] المفردات في غريب القرآن 275.

[4] في ظلال القرآن 56/30.

[5] كتاب العين 156/1.

[6] اعراب القرآن 758/3.

[1] مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الطبرسي (ت 548هـ)، تصحيح وتحقيق وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 10/ 342.

[2] لسان العرب 8/ 265، وينظر : تاج العروس 545/21.

[3] تفسير ابي السعود المسمّى (ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود محمد العمادي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة: 5/ 281.

[4] الميزان في تفسير القرآن 338/20.

[5] ينظر: (الإعجاز القرآني)، بحوث المؤتمر الاول للاعجاز القرآني ، بغداد للفترة 21-26 رمضان 1410هـ الموافق 16-21 نيسان1990م. الجمهورية العراقية، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، البحث بعنوان : دور الصوت في اعجاز القرآن، د.حازم سليمان الحلي، كلية الفقه ، جامعة الكوفة: 143.

اللذان تشتركُ فيهما حروفُه كلُّها. فالآيةُ تبدأُ بإلقاء الكلمة مفردةُ كأنهَّا قذيفة، بلا خبرٍ ولا صفةٍ لتُلقي بظلِّها وجرسها الإيحاء المدوّي المرهوب»[6]. إذا تأمّلت كلمة القارعة تجد أَنَّها «مفردةً إيحائية تؤذنُ بالقرعِ في الأذنِ، وتقرعُ بالشّدَّةِ تتوالى خلالها المترادفات والمشتركات لتنقلَ بك الى عالم الواقعة، وهي مجاورة لها في الشدة، والهولِ، والصدى، والايقاع»[7]. من هذا العرض الموجز لمعنى القارعة يتبيّن أن المفسرين واللغويين ومن دَرَسَ الإعجازَ القرآني أَجمعوا على ضخامةِ هذا اللفظ، وإنَّ الذي دعاهم الى هذا ما رأوه من اشتمال
اللفظة على القاف والعين. وهذان الحرفان لا يدخلان بناءً الا حسّناه لأَنَّهما أطلقُ الحروف، وأَضخمهما جرساً، فإذا اجتمعا أَو احدُهما في بناء حَسُنَ البناء لفصاعنهما[1] و«العين من أدخل الحروف في الحلق»[2]، فحين اجتمع في الكلمة حرفان طُلقان ذوا جرسٍ ضخم، أَحدُهما من أدخل الحروف في الحلق وثانيهما (القاف) انفجاريٌّ شديدُ، مضافاً اليُهما حرفُ ثالثُ يُمدُّ الصوتُ معه وهو الأَلف، جعل هذا للكلمة وقعاً خاصاً لاسيما وهي تتكرر ثلاث مرّات متتاليان وهذا ما يقتضيه المقام، فاللفظة ذاتُ وقع خاص يُشاركُها معناها هذا الوقع.

وبعد هذا القرع المدوّي يذكر تعالى المصيَر الذي ينتظرُ الناسَ وذلك بقولهِ: «**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش**» القارعة 4-5، "والفَراشُ: الجرادُ الذي ينتشر ، فإذا ثار لم يتجه الى جهة واحدة فهو مبثوث، وقد انتهت الكلمتان (الفراش، والمنفوش) بحرف الشين، وانتهت كلمة المبثوث بالثاء، وهذان الحرفان من حروف التفشّي والانتشار. وكأَنَّ القارعة إذا قُرِعتْ تفشّت وانتشرت في الآفاق»[3].

رابعاً: **الآزفةُ** ، قال تعالى: «**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ**» المؤمن 18، وقال تعالى: «**أَزِفَتِ الْآزِفَةُ، لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ**» النجم 57-58.

قال الراغبُ الاصفهاني (ت 502هـ): «أَزفت الآزفة، أي: دنت، فعبّر عنها بلفظ الماضي لقربها وضيق وقتها»[4]. والى مثل هذا ذهب القرطبي (ت 671هـ) فقد رأى الآزفة ساعةَ القيامة[5]. أما ابو حيان (ت754) فقد قال : "الآزفة : يوم القيامة ، يأمر اللهُ

---

[6] في ظلال القرآن 230/30.
[7] الصوت اللغوي في القرآن 173.
[1] يُنظر : كتاب العين 1/ 53.
[2] المصدر نفسه 47/1.
[3] مخارج الحروف وصفاتها لابن الطّحان ، تحقيق د.محمد يعقوب تركستاني، بيروت، 1984م: 91؛ ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التخويد: غانم قدوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، ط1، 1986م: 319/318.
[4] المفردات في غريب القرآن 17.
[5] ينظر: الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي، صححه: أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1952م: 15/ 302.

نبيّه (ﷺ) أن ينذرَ العالمَ و يُحذّرَهم منه ومن أَهوالهِ، وقد تكون الآزفة يوم المنية»[1]. وأما سيد قطب فيقول: «الآزفةُ القريبة والعاجلة، وهي القيامة. واللفظُ يصّورها كأَنّها مقتربة زاحفة، والأَنفاس من ثَمَّ منكوبةُ لاهثِةُ»[2]. إنَّ اجتماع أحرف الآزفة كان له الأَثر في منح اللفظ مزية جعلته يدلُّ على الدنو والاقتراب، وقد أَوضح ذلك الدكتور محمد حسين الصغير بقولهِ: «ورقّةُ الآزفة في لفظِها بإطلاق الألف الممدودة من الصدر، وصفير الزاي من الأَسنان، وانحدار الفاء من أَسفل الشفة، والسكتُ على الهاء منبعثةُ من الأَعماق، كالرقّةِ في معناها من الدنو، والاقتراب، وحلول الوقت، وهذه الرّقةُ في الصوت والمعنى توضّحُ أَنَّ المراد من هذا الصفير أزيرُه، ومن التأفف هديُره ورجيفهُ، وبهذا كانت الآزفة كالقارعة»[3]. إذا أَنعمت النظرَ وأَنت تنطق بدقّةٍ قولَه تعالى : **"الآزفة"** تشعر أَنَّ الهواء لا يُسَمُح له بالنفاذ من الحنجرة نتيجة اِنطباق الوترين اِنطباقاً تاماً، وهذا يؤدّي إلى ضغط الهواء في ما دون الحنجرة[4] نتيجة الهمزة التي تصدّرت (الآزفة). أمّا التاءُ التي تنطق هاءً ساكنة فهي «حرفُ مهموس، حنجري، احتكاكي»[5] وبهذا الوصف لا تختلف عن وصف القُدامى، لأَنَّ الحنجرة تدخلُ في لفظ الحلق عندهم[6]. وعلى هذا يكون حرفا الكلمة، الأَول (الهمزة)، والأَخيرُ (الهاء) مشتركين في المخرج الصوتي وهو الحنجرة، وقد حصر هذان الحرفان الحرفين الآخرين اللذين تضمنتهما الكلمة. ومما لا يخفى عليك أَنَّ الله تعالى صِرَّح بذكر الحنجرة في الآية المباركة وذكر أَنَّ القلوب عندها محصورةُ وذلك في قوله: «**إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ**» من هذا يتضح مدى موافقة أَصوات الآزفة وإغراقها في الصوت مع دلالتها.

خامساً: **الواقِعَةُ**، قال تعالى : «**إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ**» الواقعة 1

قال الخليل (ت 175هـ): «الواقِعَةُ: النازلةُ الشديدةُ من صروف الدَّهْرِ. وَقَعَ الشيءُ يَقَعُ وقُوعاً، أَي : هُويّاً»[1]. وقال الطبري (ت310هـ): «إذا وقعت الواقعةُ إذا نزلت صيحة القيامة. والواقِعةُ: الصيحةُ»[2]. أَمّا الراغب الاصفهاني (ت 502هـ) فقد ذكر أَنَّ الواقعةَ «لا تُقال الا في الشدة والمكروه. وأَكثر ما جاء في القرآن من لفظ وَقَعَ جاء في العذابِ والشدائد»[3]. وما يقربُ من هذا قول ابن منظور (ت 711هـ) فقد قال: "الواقِعةُ: الداهيةُ.

---

(1) البحر المحيط 456/7.
(2) في ظلال القرآن 62/24.
(3) الصوت اللغوي في القرآن 174.
(4) ينظر : علم اللغة للسعران 171، علم اللغة العام – الأَصوات للدكتور كمال محمد بشر، ط ، مصر، 1973م : 112.
(5) علم اللغة للسعران 196.
(6) ينظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 304.
(1) كتاب العين 176/2.
(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 166/27.
(3) المفردات في غريب القرآن 530.

والواقعِة النازلـةُ من صُروفِ الدهرِ. والواقعِة من اسماء القيامـة (...) والواقعـة والوقعْـةُ والَواقعَة : صُدْمةُ الحرب»[4]، والواقعـةُ «الصيحةُ، وهـي النفخـةُ فـي الصـور»[5]. باستقراء هذه الأَقوال ومقارنة بعضها ببعض تتجلّى الدلالـة الصوتية. فـالوقوعُ هو الهويُّ، وسقوطُ الشئ من الأَعلى. وصوتُ اللفظ يُوحي بهذا المعنى، وإطلاقه بزنـة الفاعل يدلُّ علـى نوعـهِ في شدّتهِ وهدّتـهِ وصيحةٍ وداهيـة[6]. وأَنت تلاحظ اللفظ (وقع) قد تصدّره حرفُ الواو ، وهذا الحرفُ «عندما يجاورُ أَيَّ حرفٍ من حروف الهجاء تستسيغُهُ الآذان ولا يتعثُر فيها النطق»[7]. فكيف إذا جاور الواو حرفين هما من أَطلق الحروف وأَضخمها جرساً؟ وقد وصف الخليل هذين الحرفين – القاف والعين- بقولـه "لايدخلان فـي بنـاء الا حسّنـاه"[1]، وبهذا سيكون للفظ (وَقَعَ) وَقْعُ خاصُ منحّتهُ أياه أَحرفه التي تكوّن منها.

سادساً: **الراجفةُ والرادفة**، قال تعالى: «**يوم ترجِفُ الراجفةُ تتبعهُا الرادفة**» النازعات 6-7.

قـال الطبرسـي (ت 548هـ): «الرجفـةُ: الزلزلـةُ العظيمـة، وأرجفِـوا، أَي : أُزعـجَ النَـاسُ باضـطراب الأُمـور»[2]، وقـال الـرازي (ت606هـ) : «الراجفِـةُ: الهـدةُ المنكـرة والصـوت الهائـل من قـولهم: رَجَـفَ الرعـدُ يرجِـفُ رجفـاً ورجيفـاً، وذلـك تـردد أَصـواتهِ المنكرة، وهدهدته في السحاب. فعلى هذا الوجه هـي (الراجفة) صيحةُ عظيمـةُ فيهـا هولُ، وشدةُ كالرعد. وأمّا الرادفة فكلُّ شـيءٍ جاء بعد شـيءٍ آخر يُقال: ردفُه»[3]. ومـا نـزال فـي أَصوات الرعد والصياح والأَهوال نجد الدلالة ذاتها عند ابنِ منظور (ت 717هـ) فقد أفاد : الراجِفةُ: الهدّة المنكرة ، والصوت الهائل (...)، والراجفةُ : صيحةُ عظيمةُ فيها هولُ وشدةُ كالرعـد. وأمـا الرادفـةُ: كـلُّ شـيءٍ جـاء بعـد شـيءُ آخـر يقـال : ردفُـه[4]. لـو تـدبّرت هـذه الإيضاحات لبيان معنى الراجفة أَيُّ شعورٍ ينتابك وأنت تقرأها؟ الا ترى فيها «إشعارُ القلب البشري حقيقة الآخرة الهائلة، الفخمة، العظيمة، الكبيرة، يوقع السياق إيقاعات منوّعة علـى أوتار القلب، وهذا الإيقـاع الموسيقي راجـف ، لاهث، كأنّمـا تتقطـعُ بـه الأَنفاس من الذُعرِ والارتجاف والمفاجأة، والانبهار، وهذا الجو واجفُ ، مبهور، مذعور»[5].

يقول الدكتور محمّد حسين الصغير: «بمتابعة معاني الراجفة يتجلّى العمق الصوتي فـي المـراد، وفـي الأَلفـاظ دلالـةُ علـى الرجيـف والوجيـف والتزلـزل والاضـطراب وتغيّـر الكون»[1] هذه المعاني حملها لفظ الراجفة وهي كلُّها تدلُ على التحرك الشديد، ولا ريب أَنَّ

---

[4] لسانُ العرب 403:8.
[5] روح المعاني 129:27.
[6] ينظر: الصوت اللغوي في القرآن 172.
[7] موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأَنجلو، مصر، ط5: 28.
[1] كتاب العين 53/1.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 429/10.
[3] التفسير الكبير 34/31.
[4] ينظر: لسان العرب: 113/9-114.
[5] في ظلال القرآن. 22/30.
[1] الصوت اللغوي في القرآن 175.

ما ينتج عن الحركة الشديدة من هولٍ واضطراب ترافقه إرتفاعُ الأَصوات نتيجة الخوف والذعر فأصوات الحركة والاضطراب اتحدت مع أَصوات العباد لتعطينا الراجفة.

سابعاً: **الغاشية**، قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الغاشية 1

قال الراغبُ الاصفهاني (ت 502هـ): ﴿الغاشيةُ: كنايةٌ عن القيامة﴾[3] أمّا الزمخشري (ت 538هـ) فقد ذكر ﴿الغاشية: الداهيةُ التي تُغشي الناسَ بشدائدها وتُلبسهم أَهوالها، وتعني القيامة﴾[3]. وقد ذهب ابن منظور الى المعنى نفسه إذ رأى الغاشية : هي القيامة وسببُ تسميتها بذلك لأَنَّها تغشي الخلقَ بإفزاعِها. ولم يقف في ترجمتهِ للغاشية عند القيامة فحسب بل أَعطاها معنى آخرُ وهو النارُ؛ لأَنَّها تغشى وجوه الكفّار[4]. ومهما يكن اختلاف المعاني إلاَّ أَنَها في النتيجة واحدةٌ، فكلٌّ من القيامة، والداهية، والنار تعني الشدّة والهولِ. لو تأملّتَ مادة الكلمة تجدها من (غ ش ى) وتلاحظ حرفيها الأَول والثاني (الغين والشين) مشتركين بصفة واحدةٍ هي الرخاوة، فالحرفان كلاهما من الحروف الرخوة[5] وأَحد هذين الحرفين من حروف التفشّي والانتشار وهو الشينُ حيث تجد الصوتَ جارياً معه[6] والحرف الثالث الأَلف من أحرف المد الذي يأخذ مجراه المستمر خلال الحلق والفم وخلال الأنف معهما أَحياناً دون أن يعترضَهُ مقطعٌ يُثنيه أَو يُضيّقَ مجراه[7]، فالشين تُفيد التفشّي والانتشار. والألف يأَخذ مجراه دون أَيِّ اعتراض وكأَنَّ هذين الحرفين صِيغا في لفظ (غشى) ليُفيدا معنى القيامة أو النار اللتين إذا جاءتا عمّت الخلائق كلَّها دون اعتراض أَي معترض. لقد ربط الدكتور محمد حسين علي الصغير بين الغاشيةِ وما سبقها من أَلفاظ كالواقعةِ، والآزفة، والراجفة، فقد قال: ﴿ما أَقربَ هذا المناخ المفزع والأُفق الرهيب لمناخ القارعة، والواقعة ، والآزفة، والراجفة ! إِنَّه منطقُ واحدُ في صيغةٍ واحدةٍ، وصدى هائلُ تجتمعُ فيه الأَهوالُ، وصوتُ حافلُ تتساقط حولَه المصاعبُ، وتتفّرقُ فيه الأَلفاظ لتدلُ في الأَحوال كلِّها على حقيقة قادمة﴾[1].

إنَّ الفاظ **الحاقة، الصاخة، الطامة، القارعة، الواقعة، الآزفة، الراجفة، الغاشية**، قُصِدَ بها التهويلُ والتعظيم، والمقصودُ به تهويلُ الحكم المراد إثباتهِ للمحكوم له، وتعظيمه وتفخيمه في نفس المتلقّي، وإِثارة الإنفعال المناسب عنده لذلك[2]، إنَّ هذه الصيغ الصوتية ﴿تمتازُ بتوجّه الفكر نحوها في التساؤل واصطكاك السمع بصداها المدوّي، وأَخيراً بتفاعل الوجدان معها مترقباً الأَحداث، وهذه الصيغ تستدعي نسبةً عاليةً من الضغط الصوتي،

---

[3] المفردات في غريب القرآن 361.

[3] الكشاف : أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، وبذيله اربعة كتب: لابن المنير، والعسقلاني، والمرزوقي، وللشيخ محمد عليان، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1947م: 4/ 246.

[4] يُنظر: لسان العرب 362/19.

[5] يُنظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 315.

[6] ينظر: دروس في علم اصوات العربية-جان كانتنيفو، تعريب: صالح القرمادي، تونس 1966: 35.

[7] ينظر : علم اللغة للسعران 160.

[1] الصوت اللغوي في القرآن 176.

[2] ينظر: الأُسس النفسية لأساليب البلاغة العربية 124.

والأَداء الجوهري لسماع رنّتها مع توافقٍ نسبي مع إرادتها في جلجلة الصوت وشدّة الإيقاع»[3]. فلمَا تحملِهُ هذه الأَلفاظ من ميزاتٍ صوتية جعلتها أكثر موافقةً لمعانيها في الدلالةِ على يوم القيامةِ. وإنَّ هذه الأَلفاظ تحملُ أَعظم الدلالات الصوتية التي توحي بالشدة والوقع والتلاؤم البنيوي والمعنوي[4].

لو أعدت النظر في الأَلفاظ التي دلّت على يوم القيامة تلاحظ أَنَّها عَمدتْ إلى حرف المد الأَلف وجعلته أَحد أَحرفها التي تكوّنت منها، ويبدو –واللهُ أعلم- أن سرَّ اختيار الألف كونه أَكثرُ الحروف الشائعة في العربية[5]. وكما جُعلت الأَلفُ من ركائز هذه الأَلفاظ فقد أُختيرت التاءُ التي تنطق هاءً عند الوقف لتختتم بها تلك الألفاظ، وهذه الهاءُ سُمِّيتْ حرفُ مهتوت؛ لما فيه من الضعفِ والخفاء[1]. وكأن ضعف الهاء وخفاءه متوافقان مع ضعف الإنسان وخيفته يوم القيامة. وهناك الفاظ اشتركت صفات أحرفهما كحرفي الاطباق في الصّاخة والطامة. ومن المعروف أَنَّ هذين اللفظتين جاء ذكرُهما متوالياً في القرآن الكريم فقد سبقت الصاخةُ الطامةَ، وهذا السبقُ في الذكر يشبهُ قربَ مخرجيهما إذ أَنَّ مخرج أَحدهما يسبق الآخر، فمخرجُ الصاد من بين الثنايا وطرف اللسان ومخرج الطاء من طرف اللسان وأَصول الثنايا ، فمثلما هما متقاربان في الذكر ومتقاربان في المخرج الصوتي فقد اشتركا في دلالةٍ معنوية واحدة. من خلال ما سبق يتبيّن أَنَّ الشدةَ الصوتية لألفاظ القيامة قد توافقت مع الشدة الدلالية، وهذا غايةُ في تلاؤم الصوت ودلالته على المعنى الحقيقي.

قوَّة الألفاظ

لو أنعمت النظر في الكتاب العزيز تجد منزِّلَ هذا الكتاب اختار له الفاظاً تُوحي لمعان مؤثّرة في النفس الإنسانية، ولو أُستبدل ذلك اللفظ بغيره- وإنْ كان يؤدي معناه- تلاحظ المكانة التي كان الأَول يحتلُّها تضاءلت عند نزول الثاني محلَّه، وهذا واضحُ لاغبارَ عليه عند الجميع. فلنتأملْ معاً بعض آيات الكتاب العزيز ليتبيّن لنا مدى تناسب الأَلفاظ لمواقعها من جهة، وبين مكوّنات الكلمة (الأصوات) للمواقع التي احتلتها من جهةٍ أُخرى، وهذه دراسة تطبيقية لبعض آيات التحذير والوعيد.

قال تعالى : «**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**» البقرة 19. مما لا يخفى عليك أَنَّ الآية المباركة تصف حال المنافقين حين أُحِيطت بهم أنواع المخاوف والأَهوال، وقد اعتمدت الآية المباركة الفاظاً تُوحي بشدة ذلك الهول. مبتدئةً بلفظة (صيِّب)، فلنتأمّل معاً ما قيل في هذه اللفظة التي أُستعملت في سياق التخويف. قال الراغب الأصفهاني (ت502هـ): «الصيِّبُ:

---

[3] الصوت اللغوي في القرآن 168-169.
[4] ينظر: المرجع نفسه 170.
[5] ينظر : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 223.
[1] ينظر : سر صناعة الاعراب 74/1.

السحابُ. وقيل : المطرُ، وتسميتهُ به كتسميته بالسحاب»[1]. وهذا السحابُ أَو المطر النازلُ من السماء ترافق نزوله أَصوات واضطرابات مخيفة مرعبة نتجت من الرعد والبرق، هذا الحال اجتمع ليكوّن لنا مشهداً وصفه سيد قطب بقوله : «مشهدُ عجيب، حافلُ بالحركة، مشوبُ بالاضطراب فيه تيه وظلال، وفيه هولُ ورعب، وفيه فزعُ وحيرة، وفيه أضواء وأصداء، (...)، هو مشهدُ حِسّيُ يرمز لحالة نفسية، ويجّسمُ صورةً شعورية توضّح أَحوال النفوس ، كأَنَّها مشهدُ حسي»[2]. هذا المشهد حمله لنا السحاب أَو المطر عند قدومهما، وزاد الموقفَ هولاً إطلاق لفظة (صَيِّب) بدلاً من السحاب أَو المطر. لو تدبّرت لفظة (صيِّب) تجد فيها «مبالغاتُ من جهةِ المادة الأَولى، لأَنَّ الصاد من المستعلية، والياءُ مشددّة، والباءُ مشدودة، والياءُ من الشديدة، ومن جهة المادة الثانية لأَنَّ الصوت فرطُ الانسكاب والوقوع من جهة الصورة ، لأَنَّ فعيلاً صفة مشبّهة دالة على الثبوت»[3]. وبهذا أدّت لفظة (صيِّب) في الآية المباركة معنى أَكثر ملائمةً في تهويل الموقف تزيد على لفظة المطر أَو السحاب اللذين اشتركا مع لفظة (صيِّب) في المعنى. ومن إنزال العذاب قوُله تعالى: «**فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**» البقرة 59.

وقال تعالى : «**ولما وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربّكَ بما عَهِدَ عندك لئن كشفتَ عنّا الرِّجزَ لنؤمننّ لك ولنُرسلَنّ معك بني اسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرّجزَ الى اجلٍ هم بالغوه اذا هم ينكثون**» الأَعراف 134-135.

وقال تعالى : «**فارسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون**» الاعراف 162.

قال الخليل (ت175هـ): «الرِّجْزُ: العذابُ، وكُلُّ عذابٍ أُنزِلَ على قوم فهو رِجْزُ، ووسواسُ الشيطان رجزُ»[1]. وقال الراغبُ الأَصفهاني (ت502هـ): "الرِّجْزُ: أَصلُه الاضطراب ومنه قيل: رَجَزَ البعيرُ رَجْزاً فهو أَرْجَزُ، إذا تقاربت الخطوات واضطربت بسبب الضعف. وقوله تعالى: «عذابُ من رجز اليم فالرِّجزُ ههنا كالزلزلة»[2]. اما الفخرُ الرازي (ت606هـ) فقد رأى الرجز يزاد به أَسوأ العذاب[3]. اما ابن منظور (ت711هـ) فقد اعطى (الزجر) معنى ابعد من سابقيه إذ قال: «الرِّجز: القَذر، مثلُ: الرِّجسُ. والرِّجْزُ: العذاب، والرَّجْزُ: عبادةُ الأَوثان وقيل : هو الشرك، (...) وقد نقل ابن منظور قولاً لأَبي

---

(1) المفردات في غريب القرآن 288.
(2) في ظلال القرآن 1/ 50-51.
(3) حاشية الشهاب على أَنوار التنزيل وأَسرار التأويل 98/1.
(1) كتاب العين 66/6.
(2) المفردات في غريب القرآن 188.
(3) يُنظر: التفسير الكبير 243/25.

اسحاق قال: «ومعنى الرجز في القرآن هو العذابُ المقلقل لشدته، أَولُهُ قلقلةُ شديدة متتابعة»[4].

من خلال هذه المعاني يتبيّن أَنَّ «أَصلَ الرِّجز الاضطراب. فتلمسُ فيه الزلزلةَ في ارتجاجها، والهدّةَ في حدوثِها، والنازلةُ في وقوعها، ونستظهر من الرّجز الإرسال والإنزال من السماء بضرسٍ قاطعٍ، وأَمرٍ كائن باعتبار –الرجز- آخر العلاج بعد التحذير والإنذار»[5] وما هو قريبٌ من هذا قولهُ تعالى: «**إِنَّما الخمرُ والميسرُ والأَنصابُ والازلـم رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه**» المائدة 90.

وقال تعالى : «**قال قد وَقَعَ عليكم من ربّكم رجسٌ وغضبٌ**» الأعراف 71.

وقال تعالى : «**وأَما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً الى رجسهم**» التوبة 125.

وقال تعالى : «**ويجعل الرجسَ على الذين لا يعقلون**» يونس 100.

قال الراغب الاصفهاني (ت502هـ): «الرِّجسُ : الشيء القَذِر ، يقالُ: رَجُلُ رِجْسً ، ورِجالُ أَرْجاسُ»[1]. وقد ذهب ابنُ منظور الى ما ذهب اليه سابقه بقوله: «الرِّجْسُ : اَلقَذَرُ. وقيل: الشيء القذرُ، والرِّجس: العذابُ كالرِّجْز ، وقيل : إنّه العقابُ والغضب»[2]. هذه الاستعمالات كلها متواكبةُ دلالياً مع ترصّد العذاب وصبّهِ وإنزاله، وهذا لا يُمانعُ أَن تضاف للرجس جملةُ من المعاني الأُخرى لإرادة الدنس ، والقذارة، ومرض القلوب، وحالات النفس المتقلّبة، فالصوت في المعاني كلها صوت نزول العذاب، والصدى المرافق له ذاتُ الصدى[3]. مما سبق يتبيّن لك أَنَّ تعالى حين أراد ذكر إنزال العذاب عَمد الى لفظتي (رجز، رجس) ولا يخفى عليك التقارب في الفردتين من حيثُ المعنى والمبنى، فلنتأمل ذلك التقارب. اذا انعمت النظر في المفردتين (رجز) و (رجس) تلاحظ أنّهما اشتركتا في التكوين البنيوي والمعنوي. فالرجْسُ مكونةُ كتكوين الرِّجز، فكلتاهما من الراء والجيم. والسين كالزاي من حروف الصفير شديدةُ الاحتكاك في مخرج الصوت ولها الإيقاعُ ذاتهُ على الأَذن. وحين تُقارنُ صوتياً ودلالياً بين الصورتين تجد المقاطع واحدةً عند الانطلاق من أَجهزة الصوت وتجد المقاطع متقاربةً في الإفادة. فقد قيل للصوت الشديد: رْجسُ ورِجز، وبعيرُ رِجاسُ: شديدُ الهدير، وغمامُ راجِسُ ورجاس شديدُ الرعد[4]. ومن

---

(4) لسان العرب 252/6.
(5) الصوتُ اللغوي في القرآن 179-180.
(1) المفردات في غريب القرآن 188.
(2) لسان العرب 94/7.
(3) ينظر: الصوت اللغوي في القرآن 180-181.
(4) يُنظر : المرجع نفسه 180.

ألوان العذاب المنّزل ما ذكره الله تعالى تسخيرُ الريح على الكافرين حتى يتعظَّ السامعُ ويحذر.

قال تعالى : ﴿كمثلِ ريحٍ فيها صرٌّ﴾ آل عمران 117.

وقال تعالى : ﴿إنّا ارسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمر﴾ القمر 19.

وقال تعالى: ﴿وأمّا عادٌ فأُهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ الحاقة /6

وانت تلاحظ الآيات المباركة اتبعت كلمة الريح بـ(صر، وصرصر) فما الذيّ تعنيه هاتان المفردتان ؟ فلنتأمل معاً بعض ما قاله اللغويون فيهما.

قال الخليل (ت175هـ): "الصرُّ : البردُ الذي يضربُ كلَّ شيء ويحسُّه"[1]. وقال ابن منظور (ت711هـ): "الصرُّ: شديدُ البرد (...) وقيل: الريحُ شديدُ الصوت، قال تعالى: ﴿كمثل ريح فيها صرٌّ﴾ ال عمران 117، أَي: فيها تصويتُ وحركةُ (...) وكلُّ صوتٍ شبه ذلك فهو صرير إذا امتدَّ»[2]. وقد ضُوعِفَ لفظ (صر) بإضافةِ مقطعٍ شبيهٍ له ليصبحَ (صرصر) ليعُطي معنى أَكثر شدة من الأوّلِ. قال الخليل: «ريحُ صَرْصَرُ، ذاتُ صرٍّ، ويقال : ذاتُ صوت، والصَّرْصَرُ: نَعتُ لها من الَبْردِ»[3]، واللفظ الأَخير (صرصر) قد حمل معنى اكثر من سابقهِ فالإضافةُ اصطحبتْ معها شدةً منحتها للفظ. لأَنَّ لفظَ «صرصر يرجع الى الشدة لما فيه من البرودة من التّعقّد»[4]، وكأَنَّ تكرار اللفظ يُفيد تكرار البرد واستمرار هبوب الرياح. «وهذا من أصرَّ الشيءَ إذا دام وثبت»[5].

لقد أوضح الدكتور محمد حسين الصغير التركيب الصوتي للكلمة ومدى ملاءمتها للمحل الذي حلّت فيه بقوله: «صَرُ كلمةُ لا يسدُّ غيرُها مسدَّها في المعجم بهذه الدلالة الصوتية الخاصة. لما تحملُه من وقع تصطكُ له الأَسنان ويشتدُ معه اللسان. فالصادُ الصارخة، مع الراءِ المضعّفة ولّدتا جرساً يُضفي صيغةَ الفزعِ، وصورةَ الرّهبةِ، فلا الدفءُ يستنزلُ، ولا الوقاية تتجمع بما يزلزل وقعهِ كيانَ سامعهِ»[6]. هذا الكلام متعلق بـ(صر) قبل إضافة المقطع الجديد لها، فإنَّ مضاعفة المقطع يترتبُ عليه مضاعفة الشدّةِ، وهذا امرُ طبيعيُ. "فلفظةُ صَرصَرُ قد أَخرجت مالم تجرِ به عادةُ الى ما قد جرت به وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكها إياهما وفي ذلك الآيةُ الدالةُ على عظيم القدرةِ

---

[1] كتاب العين 82/7.
[2] لسان العرب 450/4.
[3] كتاب العين 82/7.
[4] المفردات في غريب القرآن 279.
[5] يُنظر : التفسير الكبير 103/3 ؛ الميزان في تفسير القرآن 376/17.
[6] الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية بلاغية، د.محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية 1981م: 240.

والتخويفِ من تعجيل العقوبة»[1]. ومن العقوبة التي خُصصت لمن يُشرك بالله، أَو لبيان عظم المصيبة قوله تعالى : «ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء» الحج31.

وقال تعالى : «فخرّ عليهم السقفُ من فوقهم» النحل 26.

وقال تعالى : «فلما خرّ تبينت الجّن ان كانوا يعلون الغيب» سبأ 14.

وقال تعالى: «فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب» ص24.

قال الراغبُ الاصفهاني (ت502هـ): «معنى خرَّ سقط سقوطاً ويُسمعُ منه خرير. والخريرُ يقال لصوت الماء، والريح، وغيرِ ذلك مما يسقط من علوٍ»[2]. وقال ابنُ منظور (ت711هـ): «الخريرُ: صوتُ الماء والريح والعُقاب إذا حَفّتْ، خَرَّ يَخرُّ ويَخُرُّ العقابُ حفيفهُ. ويقال للماء إذا جرى جرياً شديداً: خَرَّ يَخرُّ (...) وخَرَّ يخرُّ خِراً: هوى من علوٍ الى سُفُل»[3]. اذا أَنعمت النظر في قوله تعالى : «فكأنما خَرَّ من السماء» الحج 31. تلاحظ المقصود بالآية بمنزلة من لا يملك لنفسهِ نفعاً ولا يدفعُ عن نفسهِ ضرّاً ولا عذاباً، وذلك بتأثيرٍ مباشرٍ من لفظ (خرَّ)[4] ، ويُوحي لفظ (خَرَّ) في الآيةِ ذاتها على «سرعة الحركةِ مع عُنفها، وتعاقب خطواتها، وفي المنظرِ سرعةُ الاختفاء»[5]. اما في الآية الثانية «فخرّ عليهم السقف من فوقهم»، فإنَّ لفظة «خرَّ لا تُستعملُ الاَّ فيما هبط أَو سقط من العُلو الى سُفل، وإنَّما ذكر تعالى أَنَّ السقف خَرَّ من فوقهم ليؤكّدَ أَنَّهم كانوا جالسين تحته، والعربُ تقولُ: خَرّ علينا السقفُ ، ووقع علينا حائط»[1]، اما قولُه تعالى : «فلمّا خَرَّ تبينتُ الجن أَن لو كانوا يعلمون» سبأ 14. قال الطبري (ت310هـ): «خرَّ ساقطاً بانكسار منسأته»[2]. وقد تابعه على ذلك القرطبي (ت671هـ) قائلاً: «يتبين من (خرَّ) سقط ميّتاً لانكسار العصا»[3]. وفي قوله تعالى : «فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب» ص24، قال الاصفهاني: «استعمالُ الخر تنبيهُ على

---

[1] التكت في إعجاز القرآن ، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (296-386هـ) ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن "في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي" للرماني والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله عميد كلية الآداب واستاذ الادب العربي بجامعة الاسكندرية ومحمد زغلول سلام ماجستير في الآداب من جامعة الاسكندرية ، دار المعارف ، مصر: 77.

[2] المفردات في غريب القرآن 144.

[3] لسانُ العرب 234/5-235.

[4] ينظر : الجامع لاحكام القرآن 55/12.

[5] في ظلال القرآن 90/17.

[1] البرهان في علوم القرآن 67/2.

[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 74/22.

[3] الجامع لأحكام القرآن 278/15.

اجتماع أَمرين: السقوط أَو حصولُ الصوتِ منهم بالتسبيح»[4] . ولاشك في ان الخرَّ الذي جاء في موضع التسبيح يكون مرافقاً للخوف والرهبة لعظم المسبَّحِ له . من التبيان السابق للفظة (خّرَّ) معجميّاً أَو في السياق القرآني يتضحُ أن هذا اللفظ جاء بصيغة واحدةٍ في استعمالاتٍ عِدّة تدلُّ بمجملها على معنيين : معنى السقوط ، ومعنى الهوي من الأَعلى الى ما هو أَدنى منه، والسقوطُ والهويُ مصحوبان بصوتٍ يُنبئ عنهما، وليس أَيُّ صوت إِنَّما هو صوتُ الرياح الشديدة، أَو صوتُ تهدَّم البناء على من تحته، وصوت الانكسار الذي يُعْلِمُ الناس بنبأ موت النبي سليمان –على نبينا وآله السلام-، من هذا يتبيّن أَنَّ اللفظة لم تدلْ على السقوط فحسب بل تعدّته إلى أمرٍ آخرَ أوضحه أَحدُ الباحثين المعاصرين بقوله: «فلم يُرَدْ مجرّد السقوط من خرَّ، وإِنَّما أُريَد الصوتُ مضافاً اليه الوقوع، والوجبةُ في إحداث الصوت، وكانت هذه الإِضافة دلالة صوتية سواء أَكانت في صوت الماء، أم بالوقوع، أم التسبيح"[5].

وأنت تلاحظ الوقعَ والنغمَ اللذين احدثهما هذا اللفظ الذي اجتمع فيه حرفان: أَحدُهما من حروف الاستعلاء وهو الخاء[6]، ومخرجُهُ من أَقصى الحنك يتكوّن من احتكاك الهواء في الفراغ الضيّق الذي يولّدهُ اقتراب أَقصى اللسان من أَقصى الحنك[1]، والحرف الثاني – الراء- وُصف بأنه طرقاتُ طرف اللسانِ على اللثة[2]، وزاد تشديُد الراء اللفظ وقعاً وجرساً. فحرفُ عالٍ ومجاورُه طرقات طرف اللسانِ على اللثة ، فميزةُ الحرفين الصوتية من العلو. والطرقات تتوافق مع الدلالة المعجمية للفظ الخر، ومنه ايضاً قوله تعالى: «**إِذا كُنّا عظاماً نخرة**» النازعات 11. قال الآلوسي: «نخرة من نُخرَ العظمُ، اي: بلى وصار اجوفاً، تمرُّ به الريحُ فيسمعُ له خرير، اي: صوت»[3]. واما سيد قطب فقال: «نخرة: يصوّتُ فيها الهواء»[4]. اي : حين اصبحت جوفاء ويمرُّ الهواء خلالها وتسمعُ صوت الهواء فذلك هو الخرير.

ومما لايخفى عليك أنَّ الله سبحانه ضرب العديد من الأَمثلة في كتابه العزيز وترك لنا استنتاج العبرة والمواعظة من ذلك المثل. فلنتأمّل معاً بعض أمثلة القرآن وما جاء فيها من الفاظ توحي على معناها من تركيبها الصوتي.

قال تعالى: «**وضرب اللهُ مثلاً رجلين احدُهما أبكم لايقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه اينما يوجهه لايأت بخيرٍ هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم**» النحل 76.

---

[4] المفردات في غريب القرآن 144.
[5] الصوت اللغوي في القرآن 186.
[6] ينظر: سر صناعة الاعراب. 71/1، و الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 318.
[1] ينظر: علم اللغة للسعران 194، وينظر: علم اللغة العام – الاصوات – 123.
[2] ينظر: علم اللغة للسعران 187.
[3] روح المعاني 28/30.
[4] في ظلال القرآن 25:27.

أَنعم النظر في قوله تعالى: «كَلُّ» تجد اللفظة صارخة لها وقعُ ثقيل استعملها القرآن لإضاءة المعنى لما فيها من غلظةٍ وشدة أحدثهما صوتُ الكاف. والكافَ في العربية من الحروف الشديدة الانفجارية، وهو مهموس، وصوت اللام من حروف الأَسنان واللثة، وهو مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة[5]. فحين اجتمع في الكلمة حرفان أَحدّهما مهموس ومجاورُه مجهور هذا يعني انه اجتمع صوتان مختلفان لكلٍّ منهما طبيعةُ خاصةُ، والجمع بين هذين الصوتين يقتضي أن يُعطي غضوَ النطق كلَّ صوتٍ حَقّهُ، وفي ذلك عُسِرُ لا يخفى، «فإذا تألفت كلمة، وقد تجاور فيها صوتان أحدُهما مجهور والآخرُ مهموس، فما يزال احُدهما يؤثّر في الآخر حتى يصيرا مجهورين معاً، او مهموسين معاً»[1]. وحينَ تنْطقُ هذه الكلمة (كَلُّ) تكون بين حرفين: أَحدهما تُجري الهواءَ معه- وهو المهموس، وآخر تحبس الهواء معه –المجهور- ويُزيد تشديد اللام اللفظة عسراً وغلاظة ومن هنا «تُدرك سَرَّ اجتماع الكاف المهموسة، واللام المجهورة في هذا اللفظ، وما فيهما من عُسْرٍ يدلُّ على عُسْرٍ المعنى وغلطته»[2]. يقول احدُ الباحثين: «لقد عَمِدَ القرآن الى هذه اللفظة دون سواها لما حملته من شدّة وثُقل نتج من اجتماع حرفيها الكاف واللام فإطباق اللسان على اللهاة مع ضمِّ الكاف الى اللام المشددة ينجم عن ذلك رنّة في النفس، ووقع على السمع ، ليوحي من وراء ذلك بأنَّ هذا العبد سؤومُ لاخيرَ معه»[3] ومن المثل القرآني الذي يُفيد العبرة قوله تعالى «ضرب اللهُ مثلاً رجُلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجُلٍ هل يستويان مثلاً الحمدُ لله بل اكثرهم لايعلمون» الزمر 29. وأنت تلاحظ الآية المباركة قرّبت لنا صورة من صور الواقع، فهل الرجل المتشاكس يتساوى مع الرجل السوي؟ وفي هذا المثل عُمِدَ الى لفظة (متشاكسون) دون غيرها؛ لما فيها من إيحاء الى معنى أَراده المثل، ودلالة صوتية مالم تحققها مفردةً سواها. فلننعم النظر في هذه اللفظة، قال الراغب الأَصفهاني: «متشاكسون، أي : متشاجرون لشكاسة خلقهم»[4]. أَمّا الفخر الرازي (ت 606هـ) فقال: «المتشاكسون المختلفون العسرون، (...) ، وهو رجلُ شكس،(...) ويُقال: الليلُ والنهار متشاكسان، أي: إنّهما متضادان، إذا جاء أَحدّهما ذهب الآخر، وهما اللذان لا يتفقان»[5]. هذان البيانان يوضحان ما تحمل لفظة (متشاكسون) من شدة في الخصومة والجدل، وقد اختارها القرآن الكريم؛ لما رأى فيها من دلالة على التضاد وعدم الاتفاق مطلقاً بين الخصمين و «إنَّ الدلالة الصوتية لـ "متشاكسون" أَعطت معنى النزاع المستمر لِما جمعته من حروف التّفشّي والصفير (السين والشين) تعاقباً تتخللهما الكاف من وسط الحلق، والواو والنون للمّدِّ والترنّم والتأثّر بالحالة، فأعطت هذه الأَحرف مجتمعةً نغماً موسيقياً

---

[5] ينظر: سر صناعة الاعراب 69/1.

[1] في النحو العربي ، قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، الدكتور مهدي المخزومي، مصطفى البابي، مصر، ط1، 1386هـ، 1966م: 8، ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد 404.

[2] الصوت اللغوي في القرآن 191.

[3] الصورة الفنية في المثل القرآني 239/ 240.

[4] المفردات في غريب القرآن 266.

[5] التفسير الكبير 26/ 277.

خاصّاً حمّلها أكثر من معنى الخصومة، والنقاش، بما أكسبها أزيراً في الأذن يبلغ به السامع أنَّ الخصام ذو خصوصية بلغت درجة الفورة، والعنف، والفزع من جهة، كما أُحيطَ السَّمعُ بجرس مهموس معيّن ذي نبرات تؤثّر بالحس والوجدان من جهة أخرى»[1]. لهذه الاسباب عمد القرآن لـ(متشاكسون) ليتبين الفرق جلياً بينه وبين الرجل السوي. ومن المثل القرآني يطالعك قوله تعالى: «مثلُ الذين اتخذوا من دون اللهِ اولياءَ كمثلِ العنكبوت اتخذت بيتاً وإنَّ اوهنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون» العنكبوت41.

قال الزمخشري (ت538هـ): «وقد صَحَّ أَنَّ أوهن البيوت هو بيتُ العنكبوت، كما وإنَّ أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيتَ العنكبوت، كذا أَضعف الأَديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الاوثان»[2]، وقال الرازي: «اشارة الى أنَّ كل بيت فيه إمّا فائدة الاستظلال أَو غير ذلك، وبيتُه يضعفُ عن إفادة ذلك، لأَنّه يخربُ بأدنى شيءٍ ولا يبقى منه عينُ أو أثر»[3]. من النصّين السابقين يتضحُ لنا الضعف المتناهي في البيت الذي يتخذه من يُشرك بالله وقد وُصِفَ هذا الضعفُ بقوله تعالى: (أوهن) «وهذا اللفظ يُعطي معنى الضعف وقد يحقق هذا المعنى كلمة (أَوهى) لكنَّ المثلَ استعمل (أوهن) دون سواها؛ لما يُعطيه ضم حروف الحلق وأقصى الحلق الى النون من التصاق وانطباق وغُنّة لا تتأتى بضم الأَلف المقصورة اليها، حينئذٍ تصلُ الكلمةُ الى السمع وهي تحملُ لوناً باهتاً مؤكداً بضم هذه النون الى تلك الحروف لتُحدثَ وقعاً يُشعرُ بالضعف المتناهي لا مجّرد الضعفِ وحَده»[1]. فصاحب النص أَعطى أَوهن دلالةً أَعمق من أَوهى لما رآه من أَفضليّة النون على الأَلف المقصورة. وفي موضع آخر يُلاحظ تعليلُ لأَفضلية النون على الأَلف في لفظة (أوهن) وذلك التعليل هو «أحدثت النون وهي من الصوامت الأَنفية صدى وإيقاعاً لاتُحدثه الأَلف المقصورة، وهي صوت حلقي خالص لاغنّةَ فيه ولا ضغط ولا انطباق»[2] فقد جاء المثل القرآني حاملاً الألفاظ التي تؤدي الغرض المطلوب بأكمل وجه، فكما يتلاشى الجهد الضائع الذي تُبذله العنكبوت وهي تتخذ بيتاً ليست له مقوّمات البيوت في الوقاية ولا احكامها في العمِارة. ولم يكُ حال الإ شراك بعبادة الله أَحسنَ حالاً من بيت العنكبوت فدعوى العبادة دعوةُ باهتة لا تعتمد على أساس. وهذه الصيغة القياسية التي انتهجها المثل في الاستدلال بقضية صغروية، وهي اثبات أَنَّ أَوهن البيوت بيت العنكبوت والنتيجة الحاصلة أَنَّ عبادتهم واهنة[3].

---

(1) الصوت اللغوي في القرآن 167.
(2) الكشاف 20/3.
(3) التفسير الكبير 69/25.
(1) الصورة الفنيّة في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية 239.
(2) الصوت اللغوي في القرآن 190.
(3) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني 364.

ومن مواضع الذكر الحكيم التي حَذَّر تعالى عباده فيها من النفس البشرية التي أُلهمت التقوى والفجور قوله تعالى: «**ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها**» الشمس7-8.

وفي السورة ذاتها حذَّر تعالى عباده من اقتراب المعاصي التي نُهوا عنها والتي يستحقون على مخالفتها إنزال العذاب عليهم. ومن المعاصي التي نُهوا عنها عقر الناقة، فقد جاء هذا المعنى في الذكر الحكيم معتمداً أسلوب التحذير المعروف عند النحاة، قال تعالى: «**فقال لهم رسولُ الله ناقةُ الله وسقياها**» الشمس 13. أنعم النظر في قوله : (سوّاها) ، (تقواها)، (سقياها) تلاحظ حرفي العلّة الواو والألف قد تجاورا في لفظتي (سوّاها وتقواها) كما تلاحظ الياء والألف تجاورا في قوله : (سقياها) ، وكلا الحرفين المتجاورين (الواو والألف والياء والألف) من أحرف العلّة، وقد أُطلقا في الأمثلة دون دوّي أو ضوضاء، ووصلا الى الأسماع مؤثرين تأثيراً تلقائياً في الوضوح والصفاء. يقول الدكتور محمد حسين الصغير: «نجد استطالة هذين الحرفين –(الواو والألف)، (والياء مع الألف) في كلا الموضعين لا يَصدُّهما شيءُ صوتياً، وهما يتراوحان دلالياً في ألفاظ تحتكم الشّدة واللين. فالتذكيرُ بخلق النفس الإنسانية قسماً، الى جنب عملها في الفجور، والتقوى، والتحذير من الناقة الى جانب التحذير من منع السقيا»[1]. فكلُّ هذه المعاني اجتمعت باجتماع أحرف العلّة. وتتكرر الحالةُ ذاتُها في مجاورة الأحرف المتماثلة لكن هذه المرة في الصوامت فعندما تقرأ قولَه تعالى: «**ولئن اذقناه نعماءَ بعد ضرّاء مَسّتَهُ ليقولنّ ذَهَبَ السيئاتُ عني**» هود 10، وقولَه تعالى : «**ولئن مسّتهم نفحةٌ من عذابِ ربّك ليقولنّ ياويلنا إنّا كنا ظالمين**» الأنبياء 46. وقال تعالى: «**وايوبُ اذ نادى ربّه أني مسني الضرُّ وأنتَ ارحمُ الراحمين**» الانبياء 83.

قال الزبيدي: «ومن المجاز المسُ: الجنون»[2]. من هذا يتبيّن أن لفظة (مسَّ) تُستعمل لما فيه المصابُ والأذى. ولو تأملنا سويّةً هذه اللفظة نجد أنها جمعت حرفين مهموسين أولهما مشدد وقد أعطى الصوتان نغماً رقيقاً وأزيراً حالماً الى جنب الغلاضة والشدة الدلالية. فهذه اللفظة «تجمعُ بين جرس الصوت الهادئ وبين وقع الألم الشديد، فالمسَّ يُطلق عادةً ويُراد به كلُّ ما ينال الأنسان من أذىً أو مكروه فصيغة (مسَّ) كلُّها دالةُ على شدة البلاء ووقع المصاب، وفرط الأذى، وصوتُها رفيقُ رقيق يحمل معنى غليظاً دقيقاً»[3]. وإذا تأملت قوله تعالى: «**الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان**

---

[1] الصوت اللغوي في القرآن 183.
[2] تاج العروس: 506/16.
[3] الصوت اللغوي في القرآن 183-184.

من المس» البقرة /275. تلاحظ التوافق بين الوصف وبين لفظة المس التي أُختيرت لذلك الوصف. لقد أَوضح أَحدُ الباحثين هذا التوافق بقوله: «إنَّ الربا إذا أَكلوه تقلُ في بطونهم، وربا في أجوافهم فَجُعِل قيامُهم مثلُ قيام من يتخبّطه الشيطان تعثراً وتخبلاً»[4]. فقد أَوصل بين معنى المس الذي هو الجنون وبين التعثّر والتخبط. ومن المواضع التي اعتمدت لفظة (مس) للإيحاء الى شدة العذاب ما جاء على لسان سيدنا ابراهيم الخليل -عليه السلام- حين خَوَّف أباه عذابَ الله وذلك بقوله: «يا أَبتِ إني أَخاف أَنْ يمسك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً» مريم 45. فقد عَمَدَ إبراهيم الخليل (ع) الى (مس) دون غيرها مثل (يصيبُك، يعاقبك) او غير ذلك، وضمَّ هذه الكلمة الى الرحمن، وكان ابراهيم يُخّوف أياه العذابَ الأَدنى لو عامله الله برحمته. فكيف إذا عامله بشدته وجبروته. على هذا النحو جاء التخويف من القليل فضلاً عن الكثير، وفي هذا المعنى من الشدة والغلاضة مما لايخفى على لبيب متأملّ[1]. حذَّر الله سبحانه وتعالى من يوم القيامة في كتابه العزيز في مواضع عدة وقد كان التحذير تارةً من دنو ساعتها، والتقرير بأَنها قريبة محيطةُ بالعباد، وأحياناً يكون التحذير من كيفيّة حلول تلك الساعة او المظاهر التي تُنبئُ عنها. هذان المعنيان يستدعيان التأمّلَ في معانيها كثيراً. وفي هذا الموضع يُقتصر الباحث على بعض آيات الذكر الحكيم التي أفصحت عن علامات القيامة. لنتأمّل معاً الأَلفاظ التي اعتمدتها. قال تعالى: «فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأَرض والجبالُ فدكتا دكةً واحدة» الحاقة 13-14. وقال تعالى: «كلا اذا دكت الأَرضُ دكاً دكاً».

يُلاحظ أَنَّ الآيتين الكريمتين اختارت (الدّك) . وفي الموضع الأَول كان نتيجة للنفخ والحمل، وفي الموضع الثاني كان شرطاً لقيام الساعة. فما الذي تُعنيه هذه المفردة؟ قال الخليل (ت 175هـ): «الَّدكُ (...) كَسْرُ الحائط والجبل».[2] وقال الراغب الأَصفهاني (ت 502هـ): «الَّدكُ: الأَرضُ اللينة السَّهلة، وقد دكّت دكاً، أَي: جُعِلَتْ بمنزلة الأَرض اللينة»[3]. من هذا يتّضحُ أَنَّ هناك لفظة يمكن أَن تُعطي ما أُعطته لفظة الّدكَ، وتلك اللفظةُ هي الدَّق، إلاَّ أَنَّ القرآن الكريم اختار الدَّكَ لا غيرها من الأَلفاظ؛ لأَنَّ في الأَولى «معنى الضرب، أَي : ضربُ الأشياء بعضها ببعض حتى تتفتت الجبال وتنسفها الرياح وتبقى الأَرضُ شيئاً واحداً لا جبلَ فيها ولا رابية»[1]. وهذا «المعنى لا يحققه الدق»[2]. ومن التخويف من يوم

---

[4] استنباط المعنى عند العرب حتى نهاية القرن السابع للهجرة، أُطروحة دكتوراه للباحث ليث طالب عيسى شبر، كلية التربية للقائد للبنات/ جامعة الكوفة، اشراف الأستاذ الدكتور سعيد عدنان ، سنة 2002: 151.

[1] الاعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001م: 179.

[2] كتاب العين 274/5.

[3] المفردات في غريب القرآن 171.

[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 346/10.

القيامة قوله تعالى ﴿والرّجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر، فإذا نُقِرَ في الناقور فذلك يومئذٍ يومٍ عسير على الكافرين غير يسير﴾ المدّثر 5-10.

وقال تعالى﴿سأصليه سقر، وما ادريك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لوّاحة للبشر﴾المدثّر 26-29.

لقد جاء التخويف في هذه الآيات المباركة بإسلوب لم يكن غريباً عن القرآن الكريم ، فقد أُختيرت الأَلفاظُ المرعبة، المخيفة التي تحفزّ النفسَ خوفاً وطمعاً. إذا أَنعمت النظر في الأَلفاظ "الرجز- وقد سبق بيانه-[3] والناقور، وعسير، وسقر، وتذر، وبشر﴾ تجدها ألفاظاً توحي بالشدةِ والهول، أدّت وظيفتها التي وجدت من أَجلها، ولو حاولنا استبعاد ايَّ لفظٍ من هذه الألفاظ لنأتي بنظير له أَحسسنا بضعف الإيقاع وتضاؤلِه امام اللفظ الأوّل. يقول عبد الكريم الخطيب في الآية محل البحث: ﴿إنها قطعةُ معجزةُ من روائع النغم ومتساوق اللحن، تنسابُ منها الأنغامُ علويّة في قِوّةٍ آسرة كأَنها نشيد حرب، يدقُّ به الجنود أَبواب المعركة. إنَّ من يستمع الى هذه الآيات ممن لايُحسنُ العربية يطربُ لها كطربه الى أَلحان الموسيقى وأنغامها، ويستشعر فيها نُذُر التهديد والوعيد﴾[4]. فما بالك بأَئمة القول وفرسان الفصاحة؟ فلنتأمل من هذه الأَلفاظ حتى تكون الصورة أكثر جلاءً. ولتكن لفظة (الناقور)؛ لأَنها لم ترد في الكتاب العزيز إلاَّ في هذا الموضع[5] من جهة، ولأَنَّها من مقدّمات حلول الساعة الذي الباحثُ بصدد ذكره من جهة أخرى، وقد أفاد. الراغب الأصفهاني (ت502هـ) أَنَّ النقرُ في معانيه: التصويت. إذ يقول: ﴿نقرتُ الرجل إذا صوّتَ له بالسانك، وذلك بأن تلصق لسانك بفقرة حنكك﴾[1] وقد صرّح سيد قطب في بيانه للناقور قولاً يُبين فيه الايحاء الذي يوصيه (الناقور) فقد قال: ﴿والنقرُ في الناقور هو ما يُعبّر عنه في مواضع أُخرى بالنفخ في الصور، ولكنَّ التعبير هنا أَشدُّ إيحاءً بشدة الصوت ورنينه، كأَنَّه نقر بصوّت ويدوّي، والصوت الذي ينقرُ الآذان أَشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان﴾[2]. من هذين القولين يتبين أَنَّ النقر يدلُّ على الصوت العالي المخيف، لذا كان له أثرُ في اختيار لفظ الناقور ليُدّقَ به طبلُ الحرب (كما عُبِّر عنه قبل قليل) ليتبين أَنَّ النفخ والصوت مُفْزِعان وشديدا الوقع في الأُذن. لقد فسّرَ الأُستاذ جمال الدّين عياد ما يكمن وراء شدة لفظ الناقور بنقطتين:

﴿الاولى : إن حرف القاف حرف ثقيل، يستلزم النطق به ما يُشبه القرع المفضي إلى النقب، وكأَنَّ الناطق به يدقُّ اعلى الحلق دقاً، وهو كذلك ثقيل على السمع يكاد يخرق الأُذن خرقاً.

---

[2] التفسير الكبير 108/30.
[3] راجع الصفحة من الرسالة.
[4] اعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب، الكتاب الثاني / 23-24.
[5] ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، مطابع الشعب، مصر، 1378هـ: 717.
[1] المفردات في غريب القرآن 503.
[2] في ظلال القرآن 187/29.

الثانية: كلمةُ النقر حينُ تّذْكر تُثير حولها معاني ذات وحي نفسي تؤكّد شدّة وقع النفخ الذي تُعنيه، وذلك إنَّ هذه الكلمة (الناقور) وإنْ كانت تعني النفخ في هذا المقام، إلاَّ أن لها معنى آخر لعلّه المعنى الأَصلي وهو القرعُ المفضي للنقب. وتُحيط بهذه الكلمةِ ظلالُ قارعِةُ نفاذّة، توحي بأنَّ النفخ شديدُ رهيب يكاد ينقبُ الأَذنَ نقباً»[3]. ومن هذا الإيضاح تستنتج هول لفظة (الناقور) التي منحتها أحرفها هذا الهول. ومما يمكن ان يوضع في هذا المحل من ذكر هول القيامة، قوله تعالى «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ» البلد 11-16.

لو تدبّرنا قوله تعالى (اقتحم العقبة) نجد قوله (اقتحم) أَنسبَ الأَلفاظ للعقبةِ لما بينهما من تلاؤمٍ في الشدة والمجاهدة واقتحام المصاعب. ولو أعدنا النظر ثانيةً في الالفاظ «العقبة (وهي تتكرر مرّتين) رقبة، ومسغبة، ومقربة، ومتربة» نجد ايقاعاً مجلجلاً، ونبراتُ صوتيةُ رتيبةُ في نسق متوازن وأَصداءً صوتية متلاحقة في زنة متقاربة، وزادتها هاءُ السكت رنةً وتأثيراً يتناغمان وسطَ الشدة الهائلة المرعبة، والخيفة من الحدث النازلِ المتوقّع، فكلُّ هذه تتعانق معاً لتوحي بالرهبة والفزع[1]، مضافاً الى هذا الإبهام الذي ذُكرَ في الآية، تكرار لفظة الاقتحام وإن كانت مستترة. قال الزجاج (ت316هـ): «**وما ادراك مالعقبة**–اي: اقتحام العقبة»[2].

وحين أسمعُ هاء السكت في أواخر هذه الكلمات (العقبة، رقبة، مسغبة، متربة) «ذلك الصوت المهتوت لما فيه من الخفاء»[3] يتبادرُ لي أَنَّه جاء ليصوّر لنا مشهدَ الضعف والتعب، والحيرة، وانشغال كل امرئ بنفسهِ.

من المعلوم أَنَّ القيامة تستدعي بعث الموتى من القبور ليقفوا أمام بارئهم، وكُلُّ يأخذ جزاءه، هذا المعنى المخيف أَوضحه تعالى بقوله: «**أفلا يعلمُ إذا بُعثِر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور**» العاديات 9-10. من الواضح أَنَّ الآيتين الكريمتين اعتمدتا لفظة (بعثر) لتفيد الإخراج من القبور. هذه المفردة تدلُّ على الهوس والضجيج، وعدم الصفاء، وبهذا الوضع المبعثر يُكشفُ النقاب عمّا يكمن في صدور من بُعثرت مساكنهم، وهذا الكشف قرره تعالى بقوله : (حُصِّلَ)، والتحصيل إخراج اللب من القشور كإخراج الذهب من حجر المعدن والبُرّ من السنابل، فهو إظهار لما فيها كإظهار اللُّب من القشر، او كإظهار الحاصل من

---

[3] بحوث في تفسير القرآن (سورة المدّثر)، الاستاذ جمال الدين عيّاد 50-51.
[1] ينظر : الصوتُ اللغوي في القرآن 151.
[2] اعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، الأَميرية، القاهرة، 1963م: 94/1.
[3] ينظر: سر صناعة الاعراب 74/1.

الحساب[4]. قال الطبرسي (ت548هـ): «وحُصّلَ ما في الصدور إشارةُ الى الزجر والوعيد»[5]، من هذين القولين يتضحُ أَنَّ التحصيل يُفيد معنى الإخراج والإظهار اللذين يحتاجان الى جهدٍ ومشقة فاستخراج الذهب من الحجر، واستخراج الحَّبِّ من السنابل التي مقرُّها التراب، هذا ما لايبلغهُ بشر لولا مساعدةُ الخالق وعطفهِ، وكذا الحال في إخراج ما في الصدور حيث لا يقدر عليه احد الا الله جلّت قدرتُه، ولايحتاج الى أيّ عونٍ فالمادةُ الصوتية لـ(حُصِّلَ) تتوافق مع دلالتها؛ لما فيها من «صوتٌ مدوّي، اذ كانت الصادُ واضحةَ الصورة من المخرج الصوتي (...)، وواضحة الظهور بانكشاف الأمرِ، يقهره على الأذعان، وهنا قد يمتلكُ العجبُ لدى اختيار هذا اللفظ في أزيره، ووضوح أمرهِ، والصّادُ المشددة كانت دلالتها الصوتية. وارادتها المعنوية أوضح لزوماً، وأَشدُّ استظهاراً واكثر انعاماً (...) والصوتُ في صيغةِ الإرعاب، وفي سياق الوعيد، وقد تلمس ما فيهِ من نزع ما في القلوب من أَسرار، واستخراج ما فيها من خفايا، وقد يُعطي دويُّ العبارة، وهيكلُ البيان صبغة الإنذار»[1] ومن ذكر القبور وهولها ومخاوفها يطالعك قوله تعالى: «**الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون**» التكاثر 1-3.

إذا انعمت النظر في اللفظتين «**التكاثر والمقابر**» تجد حرفيها الأخيرين قد تشابها، ففي كلٍّ منهما (الراء) ولم يكن هذا الاتفاق مراعاةً للفاصلةِ القرآنية فحسب بل شاركه. غرضُ اخرُ أَوضحته لنا الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها: «في المقابر سرُ بياني، أعيا المفسرين أَن يُدركوه. إنَّ لفظ المقابر لم يأتِ قط في غير آية التكاثر، وقد تجد الصنعةَ البلاغية في استعمال المقابر هنا مجرّد ملائمة صوتية للتكاثر، وقد يحسُّ أَهلُ الصنعة ونُحسُّ معهم فيها (المقابر) رنينُ الإيقاع، وانسجامُ النغم، لكن أهذا كلّ ما في الاستعمال القرآني للفظ المقابر في آية التكاثر؟ الذي اراه أَنَّ وراءَ هذا الملحظ البلاغي اللفظي سرُ بيانيُ يتصلُ بالمعنى، فالمقابرُ جمعُ مقبرة، وهي مجتمع القبور، واستعمالُها هنا ملائمُ لهذا التكاثر (...) حيثُ مجتمع القبور ومحتشد الرمم ومساكن الموتى (...) لايمكن أن يقوم بها لفظ القبور، بما هي جمع لقبر، وما بين قبر ومقبرة من تفاوت يتجلّى البيان القرآني في إيثار المقابر على القبور، وهذه ملائمة معنوية بين التكاثر والمقابر بما فيها من سعةٍ وشمولٍ وعموم»[1]، إنَّ هذا اللفظ (المقابر) يفرضُ نفسه فرضاً قاطعاً؛ لما فيه من دلالة مرعبة هائلة، فإذا ضممنا مقبرة الى مقبرة اخرى ومقبرةَ مثلها ازددنا إيحاشاً ورعُباً، وفزعاً ، فاذا أَصبحت مقابر عديدة تضاعف الرعب والرهب[2]. وبعد هذه الزيارة تقرعُ

---

[4] ينظر: المفردات في غريب القرآن 121.
[5] مجمع البيان في تفسير القرآن 530/10.
[1] الصوت اللغوي في القرآن 181.
[1] التفسير البياني للقرآن 180-181.
[2] يُنظر : تطوّر البحث الدلالي، دراسة تطبيقية في القرآن الكريم ، محمد حسين علي الصغير، استاذ الدراسات القرآنية في جامعة الكوفة، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان ، ط1 ، 1999 :55.

القلوبُ بهولٍ ينتظرها وهذا الهول يرد في ايقاع عميق يتمثل بقولهِ تعالى ﴿**كلا سوف تعلمون**﴾. و(كلا) كلمة الردع[3]، اجتمع فيها حرفان: الأَوّلُ مهموس، والثاني : مجهور، فحرفُ تحبسُ الهواء معه وتُطلقُه عند مجاورهِ، كما يمكنك مدّه عند مقطعه الأَخير (الألف) حتى يتبيّن عظيم الشأن والردع، هذا ان ورد الكلام مرةً واحدة، فكيف به وتلك الايقاعات تردُ مرّتين؟ يقول سيد قطب: ﴿يُكررُ هذا الإيقاع بألفاظهِ وجرسه الرهيب الرصين، ليزيد التوكيد عمقاً ورهبة وتلويحاً. بما ورائه من أَمرٍ ثقيل﴾[4]. في هذه السورة تحذير ووعيد بالمصير الذي ينتهي اليه الكافرون[5].

وبعد هذه الجولة السريعة لمواضع التخويف بدءاً من إنزال العذاب فعلامات الساعة ثم المقابر فلنتأمل بعد هذا ماذا يكون لو بدأ الحساب وأُعطي أَحدُ كتابه بشماله وأُدخل مثواه الأَخير، ناراً تضطرم وقودّها الناس والحجارة، فأيُّ منظرٍ يصوّر لك هذا المعنى؟ أوضح تعالى ذلك بقوله: ﴿**فكبكبوا فيها هم والغاوون**﴾ الشعراء –94. فلنتأملّ معاً قوله تعالى: "فكبكبوا" التي تُبين وضع هؤلاء القوم. قال الراغبُ الأَصفهاني (ت502هـ): ﴿الكبكبةُ تدهور الشيء في هِوّةٍ﴾[6]. وقال ابنُ منظور (ت 711هـ): ﴿فكبكبوا اي: دُهْوِرُوا، وجُمِعُوا ثم رُميَ بهم في هُوَّة النار، وحقيقة ذلك في اللغة تكرر الانكباب كأَنَّه إذا أُلقي ينكبُّ مرةً بعد مرة حتى يستقرَّ فيها﴾[1]. من هذين القولين يتبيّن أَنَّ كبكبوا لفظُ مضاعفُ وأَصلُه (كبَّ) كما في قوله تعالى ﴿**فكبت وجوههم في النار**﴾ النمل/90. قال الراغب: ﴿الكبُ إسقاط الشيء على وجهه، والإكبابُ جَعْلُ وجهه مكبوباً﴾[2]. من هذا يمكن القول: إنَّ كبكبوا تكرارُ الكبِّ مرةً بعد أُخرى، استناداً الى قول الزمخشري (ت 538هـ): ﴿زيادة البناء لزيادة المعنى﴾[3]. قال الفخر الرازي (ت606هـ) ﴿الكبكبةُ: تكرير الكبِّ ، جَعَلَ التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأَنَّه إذا أُلقي في جهنم ينكبُّ مرةً بعد أخرى حتى يستقرَّ في قعرها﴾[4]. وإلى مثل هذا ذهب العلاّمة الطيبي (ت743هـ) بقوله : ﴿كرر الكب دلالة على الشدة﴾[5]. مما سبق يتضح أَنَّ مضاعفة اللفظ غرضُها إيقاع معنى أَكثر قوةً وضخامةً ، فزيادة أَصوات الكلمة ساهمت في زيادة دلالتها المعنوية.

---

(3) التفسير الكبير 87/31.
(4) في ظلال القرآن 233/30.
(5) ينظر : علوم القرآن لمحمد باقر الحكيم ، 220.
(6) المفردات في غريب القرآن 420.
(1) لسان العرب 2/ 697.
(2) المفردات في غريب القرآن 420.
(3) الكشاف 41/1.
(4) التفسير الكبير 152/24، البرهان في علوم القرآن 3/ 34-35.
(5) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ، لشرف الدين حسين بن محمد الطيبي (ت 743هـ) تحقيق: د.هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1987 : 474.

ومن هذه المعاني قوله تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها ربَّنا اخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ فاطر 37. وانت تلاحظ الآية الكريمة استعملت (يصطرخون) وهي مفردة توحي من تركيب أصواتها الى شدتها وتضفي الهول على ذلك الموقف. قال الخليل (ت 175هـ): ((الصرخةُ: صيحةُ شديدة عند فزع أَو مصيبة، والاصطراخ : التصارخ))[6]. وقال الشيخ الطوسي (ت 460هـ): ((يصطرخون : يتصايحون بالاستغاثة، فالاصطراخ: الصياح والنداء بالاستغاثة))[7]. أمّا الفخر الرازي (ت 606هـ) فقد أَوضح ما يعنيه التصارخ بقوله: ((وهذا صوتُ المعذَّب. وفيه إشارة الى أَنَّ ايلامهم تعذيب لا تأديب))[1].

ومن قوله تعالى : ﴿يصطرخون﴾ نتلمسّ الاستغاثة بلا مغيث مما يُوحي بأَنَّ الصراخ قد بلغ ذروته، والاضطراب قد تجاوز مداه، والصوت العالي الفضيع يصطدم بعضهُ ببعض حتى يرجع اليهم جوابُ ندائهم لا مغيثَ لكم. يقول سيد قطب: ((يطرقُ أَسماعنا صوتُ غليظ محشرج، مختلط الأَصداء، متناوح من شتى الأَرجاء، إنّه صوتُ المنبوذين في جهنم. وجرسُ اللفظ يُلقي في الحس هذه المعاني جميعاً، فنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول؟ إنّه يقول : ربَّنا أخرجنا))[2]. يُلاحظ في قول سيد قطب اختيار الأَلفاظ التي تُوحي بالشدة ليقابل بوصفه تلك الشدة التي يحملها قوله تعالى : ((يصطرخون)) يقول د. محمد حسين الصغير في الآية محل البحث: ((الصراخُ في شدَّة إطباقه، وتراصف إيقاعه مع توالي الصاد، وتقاطر الراء والخاء، والترنّم بالواو والنون، يمثّل لك رنّة هذا الاصطراخ المدوّي))[3]. ومن معاني التخويف من النار ذكر الحكيم الطعام الذي يقدم الى ساكني جهنم. لقد قرر تعالى في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم الشجرة التي يُطعم منها أَهلُ النار وتلك المواضع هي: قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات 62-65.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ الدخان 43-46.

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ، لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ الواقعة 51-53.

---

[6] كتاب العين 4/ 185.
[7] التبيان في تفسير القرآن 8/ 434 و 22/ 433، مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 410.
[1] التفسير الكبير 26/ 29.
[2] في ظلال القرآن 22/ 133.
[3] الصوت اللغوي في القرآن 165.

أيُّ شعور ينتابُك وانت تقرأ هذه الآيات المباركة؟ وأَيُّ معنى تتصور حين تسمع بـ(الزقوم)؟ ألاَّ ترى الشدةَ بادية في لفظ الزقوم؟ فلنتدبّر معاً ما قاله اللغويون والمفسرون في هذه الشجرة. قال ابنُ منظور (ت711هـ) «الزقوم ،(...) طعامُ أَهلِ النار، والزّقوم كلُّ طعام ثقيل. الزقمةُ الطاعون. والزقّوم فَعُّول، من الزقم واللقم الشديد، والشراب المفرط»[1]. وقد تكون عدم استساغة هذا الأكل لا غبار عليها، لما في لفظة الزقّوم من تركيب تقشعرُّ منه الأَبدان. قال الرازي (ت606 هـ) : «إنَّ القاف مع كلِّ حرفٍ من الحرفين الباقيين يدلُّ على المكروه في أَكثر الأَمر. فالقاف مع الميم قمامةُ وقمقمة وبالعكس مقامق الغليظ الصوت. والقمقمة هو السور، وأَما القافُ مع الزاي: الزق، رمى الطائر بذرقه، والزقزقة الخفّة وبالعكس، القزنوب. فينفرُ الطبعُ من تركيب الكلمة من حروف اجتماعها دليل الكراهة والقبح، ثُمَّ قُرِنَ بالأَكل فدلَّ على أَنَّه طعامُ ذو غُصّةٍ»[2].

الفاصلة القرآنية

حين يأمر الله عبادَه يكون من الطبيعي لذلك الشيء المأمور فعله من الأَهميةِ والقدر ما لا يُنكر. فعندما أمر تعالى بقوله «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً» المزمل / 4. فدلالةُ الأَمر انصرفت للترتيل، وقد ورد عن الإمام علي (ع) أنه قال: «الترتيلُ: تجويد الحروف، ومعرفة الوقف»[3]. وهذا «الوقف عُرِف بمصطلح الفاصلة القرآنية»[4]. قال السيوطي (ت911هـ): «وهو بابُ عظيم القدر، جليل الخطر؛ لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأَدلّة الشرعية الا بمعرفة الفواصل»[5]. وقد رأى الاستاذ عبد الكريم الخطيب الفاصلة بمنزلة مركز الثقل في الآية إذ قال : «تعقيب على المعاني التي تضمنتها الآية. وفي هذا التعقيب يُرى وجهاً جديداً لتلك المعاني فتزداد وضوحاً وبياناً. اذن يكون من وظيفة الفاصلةِ تلخيص معنى الآية تلخيصاً يبرز به المعنى، والمراد من الآية. فهي اشارة مضيئةُ الى مركز الثقل في الآية»[1]. من هذا يتبين أَنَّ للفاصلةِ أَهميةُ كبيرة في بيان المعنى الذي تهدف اليه الآية المباركة، وما دامت المعاني التي تهدف اليها الآيات كثيرة تتعدد بتعداد الأغراض وجب أن تختلف الفواصل بحسب الغرض الذي تهدف اليه السورة، وعلى هذا سيكون لكل معنى فاصلةُ خاصةُ به، وفي هذا الموضع أقتصر على الفواصل التي ترد في سياق التحذير[2].

اولاً : الوقوف عند حرف معيّن لا يتغيّر في الفاصلةِ ، كما في سورٍ عدّة من القرآن الكريم عامة، والسور القصار خاصة، كسورة العصر، والفيل، والليل، والناس، وجملة من السور الوسطى كالأعلى والقمر. وهذه السور تبرز فيها مراعاة المنهج الصوتي، والبعد الإيقاعي.

---

[1] لسان العرب 2/ 269.
[2] التفسير الكبير 29/ 172.
[3] الاتقان في علوم القرآن 230/1.
[4] البرهان في علوم القرآن 342/1.
[5] الاتقان في علوم القرآن 230/1.
[1] اعجاز القرآن ، الكتاب الثاني : 206.
[2] للمزيد من الاطلاع راجع، البرهان في علوم القرآن 51/1 76-77. و342.

ويتجلّى النغم الصوتي بأبهى صُوَرِه واروع مظاهرِهِ في سورة القمر، إذ تُختتَم الفاصلةُ بحرف الراء مرداً بين طرف اللسان، وأوّل اللهاة مما يلي الأسنان[3]. اقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ، خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ، مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ القمر 4-8.

أَنعم النظر في (مزدجر، النُذُر، نُكُر، منتشر، عَسِر) تجدها الفاظاً ذاتَ وقع خاص يُوحي تركيبُها الصوتي بشدّتها. قال الطبري (ت310هـ): ((مزدجر: منتهى))[4]. وقال الطبرسي (ت548هـ): ((المزدجر : المتعظ))[5]. من هذين القولين يتبيّن أَنَّ الزجر المنع، وهذا المنع ترافقه الشدةُ والحزم ثم تنتقل الفاصلة الى قوله: (نُذُر)، قال النحاس: ((النُذُر: بمعنى الإنذار والتحذير))[6]. وبعد الإنذار والتحذير اللذين أفادتهما الفاصلة تأتي فاصلةُ اخرى لتُظفي على ذلك الإنذار والتحذير صفة الهول ، وذلك بجعلهِ مجهولاً لا يعلمُ كنهه الا الله وذلك تمثّل بقوله تعالى: (نُكُر) يُقال: أَنكرت الشيءَ فهو مُنكرُ، ونكرتُه فهو منكور، وقولُه تعالى: ﴿الى شيءٍ نُكُرٍ﴾ أي: الى شيءُ يُجهل[1]. وهكذا تنتقل الفاصلةُ القرآنية من معنى الى آخر أَشدُّ قساوةً من سابقهِ. وتقف هذه الفواصل عند حرفٍ واحد وهو الراء. اعد النظر في الأَلفاظ (النُذُر، ونُكُر، وعُسِرُ) ((تجد الضمةَ قد توالت فيها وهذه الأَلفاظ على وزنٍ واحدٍ، وبالرغم من ثُقلِ الضمة إلا أَنَّ هذه الأَلفاظ جاءت عذبةً تهشُّ لها النفس، موافقةً لحركاتها الشعورية، ولإيحاءات الجرسِ التصويرية، وهي تؤثّر في النفس عن طريق حاسة السمع، وما ذلك الا للانسجام الحاصل في الطبيعة النغميّة، (...) وهذا ماله أثرهُ في اثارة انفعال النفس))[2].

ثانياً : الوقوف عند حرفٍ معيّن للفاصلةِ والانتقال منه للوقوف عند حرفٍ آخر، وأَمثلةُ هذا النوع كثيرةُ، مثلُ سورة (النبأ، والمرسلات، والنازعات، والتكوير، والانفطار). تأمّل قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ عبس 34-42. تلاحظ آيات السورة المباركة

---

(3) ينظر : الصوت اللغوي في القرآن 149-150.
(4) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 89/27.
(5) مجمع البيان في تفسير القرآن 185/9.
(6) أعراب القرآن 287/3.
(1) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 445/27، مجمع البيان في تفسير القرآن 3/ 45 و 9/ 185.
(2) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية 51.

قد واكبت الهاء، حتى خُتمت الفاصلة بهذا الحرف في الكثير من المواضع ثم انتقلت الفاصلة الى الراء التي أُلحِقتْ بها التاء القصيرة التي تُنطق هاءً عند الوقف. وإنَّ كلتا الفاصلتين (الهاء والتاء القصيرة) لهما الأَثر الكبير في بيان شدة الهول والمعاناةِ. لاسيما أن في الهاء جميع صفات الضعف [3].

وقال تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ سورة اللهب.

تأمل الفاصلة القرآنية إذ راقتها الباء من أول السورة المباركة وبقيت ملازمةً لها حتى استوفت عرضَها تركت الفاصلة لتحلَّ الدال محلَّها، وأنت تلاحظ كلا الحرفين الباءَ والدال شديدين[1]، وقد اصطلح المحدثون على الباء والدال الأَصوات الانفجارية، يقول الدكتور إبراهيم أَنيس: ﴿هذا النوع من الأصوات الانفجارية، هو ما اصطلح القدماءُ على تسميتهِ بالصوت الشديد، وما يُسمّيه المحدثون انفجارياً﴾[2]. إذا تأمّلت الآيتين الأَولى والثانية تجد كلتيهما تُقرأ ساكنةَ الحرف الأَخير (الباء)، اي : ساكنة الفاصلة، ويمكن قرأتها محرّكةً بالفتح لأَنَّهما –الفاصلتين- فعلان ماضيان. ففي قوله تعالى : (تب، كسب) يمكن أن تقول : تبَّ، كسبَ، ويمكن أَن تقول : تبْ ، كسبْ، والحال ذاتها تتكرر في الآيتين الثالثة والرابعة لكن الفتح أُبدلَ بكسر، فحين تقرأ قوله تعالى (لهب، الحطب) بإمكانك أن تجعل الباءَ ساكنة، وبإمكانك تَحريكها بالكسر. وفي الآية الخامسة تنتقل الفاصلةُ الى نظيرتها الشديدة (الدال) لتختمَ السورة بها، والفاصلةُ الأَخيرة تشارك السابقتين لها (الثالثة والرابعة) بالحركة، فيمكن لك أَن تقف عند الدال بالسكون ويمكن أن تحرّكها بالكسر. وانت تلاحظ الوقع الذي أَحدثه هذان الحرفان، يقول ابراهيم انيس: ﴿لقد حرص القدماء على جهر الأصوات الشديدة أَمثال الدال والباء، لما شاع في نطق بعض اللهجات القديمة من ميل الناطقين الى همس كلِّ صوتٍ شديد، فالصوتُ الشديد المجهور مالَ دائماً لأن يكون مهموساً لاسيما إذا كان مشكلاً بالسكون متطرّفاً، او في وسط الكلمة، وقد جاوره صوت مهموس ، لهذا أطالوا الأَصوات الشديدة المجهورة ليُظهر واجهرها، ويحولوا بينها وبين أن تصبح مهموسة﴾[3].

أَما عبد الكريم الخطيب فقد وصف أَصوات هذه الفواصل بقوله: ﴿اصواتُ مزمجرّة تُدَقُّ في عُنفٍ وقُوّة، تجيء اليه من كلِّ مكان، وتقعُ عليه من كلِّ جهة، أَصواتُ تتحول إلى أَشباح هائلة مخيفة تدخلُ عليه بيته فتمزّق ثيابه وتُلطم وجهه﴾[4]، يقرب من هذا قول سيد قطب إذ قال: ﴿في السورة تناسقُ دقيقُ ملحوظُ في موضوعها وجوّها ، تناسقُ في اللفظ، وتناسقُ في السورة، فجهنم هنا ذاتُ لهب، يصلاها ابو لهب (...) وتتم السورة بمحتوياتها

---

[3] الدراسات الصوتية عند علماء التجويد 327.

[1] ينظر: سر صناعة الاعراب 1/ 69.

[2] الاصوات اللغوية : الدكتور ابراهيم أنيس ، ملتزم الطبع والنشر دار النهضة العربية مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ط3، 1961م : 24.

[3] الأَصوات اللغوية 106.

[4] اعجاز القرآن ، الكتاب الثاني : 34.

الساذجة الحطب، الحبل، النار ، اللهب. وتناسق من لونٍ آخر في جرس الكلمات مع الصوت الذي يُحدثه شدُّ أَحمالَ الحطب، وجذبَ العنق بحبل من مسد، والشدُّ الشبيه بحزم الحطب، وشدُّه، والتشبيه بغل العنق وجذبه، وهكذا يلتقي تناسب الجرس مع حركة العمل التصويرية مع تناسق الصوت في جزئياتها المتناسبة بتناسب الجناس اللفظي، ومراعاة النظير في التعبير»[1] والاية في مجموعها تحذير ووعيدُ بالمصير الذي ينتهي اليه ابو لهب والكافرون بالله[2].

ثالثاً: زيادة حرف معين في الفاصلة عنايةً للبعد الصوتي بنسق البيان، وهذا الضربُ مثل قولهِ تعالى: «**فأمّه هاوية، وما ادريك ماهية، نارٌ حامية**» القارعة 10-11.

أَنعم النظر في قوله تعالى: (هية) تجد هاء السكت قد أُلحقت بآخره لتظيف اليه فائدة أوضحها الزركشي (ت749هـ) بقوله: «هذه الهاءُ عدّلت الفواصل في هذه السورة، وكان لإلحاقها في هذا الموضع تأثيرُ عظيم في الفصاحة»[3]. وانت حين تقرأ قوله تعالى «**وما ادراك ماهية، نارٌ حامية**» تقفُ خاشعاً مبهوراً تمتلكك هزّةُ من الأَعماق، وأنت مأخوذُ بهذا الوضع الموسيقي الحزين المنبعث من أَقصى الصدر وأَواخر الحلق فتتقطع الأَنفاس وتتهجد العواطف واهجة متفكرّة متطلعّة[4]. وما يدخل ضمن هذا قوله تعالى: «**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**» الحاقة 18-29.

تأمل الألفاظ (كتابيه، وحسابيه، وماليه، وسلطانيه) تجد هاءً أُلحقتَ بآخرها، ولو نظرنا في كُتُب النحاة وجدنا فيها أراءً تبيّن سبب الحاق هذه الهاء في مثل هذه المواضع، وإنَّ تلك الاراء على اختلاف ازمان اربابها قد اتفقت بأنها هاءُ السكت[1]. إلاَّ انني في هذا الموضع ابتعد عن النحاة واقترب من الصوتيين حتى تتبين الدلالة الصوتية التي أفادتها

---

[1] في ظلال القرآن 283/30-284.
[2] ينظر: علوم القرآن ، محمد باقر الحكيم، دار المعارف ، بيروت، ط3، 1995م : 220.
[3] البرهان في علوم القرآن 61/1.
[4] الصوت اللغوي في القرآن 153.
[1] ينظر: معاني القرآن واعرابه، للزجاج تحقيق: عبد الجليل عبده الشبلي، الأَميرية، القاهرة، 1974: 134/2. ومعاني القرآن للاخفش تحقيق: فائز فارس ، الصفاة، الكويت، ط1، 1979م: 543/2. واعراب القرآن للنحاس 499/3، 578/3، والبيان في غريب اعراب القرآن أبو البركات الأَنباري، تحقيق: طه عبد الحميد طه، راجعه مصطفى السقا، القاهرة، 1969: 2/ 458.

الهاء. لقد اوضح السيد الطباطبائي الغرض العام من هذه الآيات الكريمة بقوله: «الغرضُ الإنذار، وتسلك اليه بالإشارة الى اختلاف مساعي الناس»[2]، اعد النظر في الكلمات (ماهيه، وحاميه، وراضيه، وكتابيه، وحسابيه، وسلطانيه) تجد الهاء قد أعطت اواخر الآيات إيقاعاً يشبه القافية. وقولُه (ماهيه) جاءت الهاء فاصلة وموضع وقف و استراحة، وفي قوله تعالى «فهو في عيشة راضية" ايقاعُ جميل على وزن (فاعلن فاعلن فاعلن) ، يشبهُ الارجوحة، توحي للسامع أَنَّ هذا الذي ثُقُلت موازينُه يوضع في ارجوحةٍ ويقال له: فائز، فائز، فائز. وفي قوله (فأمه هاوية) تصفيقةُ تُشبه الاستخفاف والاستهزاء به، وزنُها مستفعلن فاعلن[3]. إنَّ هذه الهاء جاءت في أَواخر الكلمات تحمل معها «وقعةً في النفس، وجرساً في الاذن، وقوّةً في امتلاك المشاعر (...) وقد حققت صوتياً مناخ الانتباه ورصد مواضع الإصغاء في النفس الإنسانية»[4]. إنَّ ألفاظَ الآيات الكريمة، والتاء التي أُلحقت بتلك الألفاظ صوّرت لنا «مشهداً يتضحُ فيه الجدُّ الصارم، والهول القاصم في النطق العلوي بالقضاء الرهيب الرعيب في اليوم الهائل»[1].

ومن مظاهر الزيادة في الفواصل قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ الاحزاب 10 .

وقال تعالى : ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ الاحزاب 66.

وقال تعالى : ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ الاحزاب 67.

لو تأملت الأَلفاظ (الظنونا، الرسولا، السبيلا) تجد حقَّها الفتح؛ لأنها في الحالات الثلاث مفعولُ به، إلاَّ أَنَّ «الحاق هذه الألف يشكّل تلقائياً ظاهرةً صوتيةً تدعو الى التأمّل، وإلاّ فما يُضير الفتح لولا الفائدة الصوتية للألف، فإن فواصل هذه السورة منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون الف لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل»[2]. من هذا النص يتبين أَنَّ الألف إنما جيئ به بدلاً من الفتحة كي يقف السامعُ عند هذا الأُسلوب متأمّلاً متطلّعاً، وقد رأى القدماء وتابعهم المحدثون الفرق بين الفتحة وما يُسمى بألف المد أَنه فرقُ بالكمية، اي : في كمية الصوت[3]، ففرق الكمية هو الذي استدعى الانتباه. يقول الدكتور محمد حسين الصغير: «هذه الزيادة –الألف- تؤثر في النفس تأثيرها الحساس، فتشرئبُّ الأَعناق وتتطلع الأفئدة حيث يتواصل النغم بالنغم ويتلائم الايقاع بالإيقاع»[4]. إن مثل هذه الزيادة يراد بها المبالغة[5] لتستدعي انتباه المخاطب على عظم المخبر عنه.

مما سبق يتبيّن أَنَّ القرآن الكريم حين اراد أَن يُعبّرَ عن المعاني اختار لها أَصواتاً مناسبةً مع أَصداء تلك المعاني، فيمكنك استنتاج دلالتها المعنوية من صياغتها وتركيبها

---

[2] الميزان في تفسير القرآن 302/20.
[3] بحوث المؤتمر الأول للاعجاز القرآني، بغداد لعام 1990 : 144.
[4] الصوت اللغوي في القرآن 153-154.
[1] في ظلال القرآن 27/26.
[2] البرهان في علوم القرآن 61/1.
[3] ينظر : الاصوات اللغوية 39.
[4] الصوت اللغوي في القرآن 152.
[5] ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد 526.

الصوتي، فكانت دالةً على ذاتها بذاتها، فالفزع والشدة، والهدة، والاشتباك، والخصام، والعنف له من التركيب الصوتي المؤثر في أُذن سامعه ما ليس لغيره، حتى يؤدّي وظيفة الفزع الهائل والمناخ القاتل بصورة متكاملة، ولعلَّ السبب الرئيس في ذلك –والله اعلم- في هذا الاختيار لعل تلك الالفاظ تجدُ من يستمع لها حتى يتذكّر او يخشى، «فالدلالة الصوتية للفزع اريد بها التهويل والتفخيم».

الباب الاول

دراسة صوتية صرفية
الفصل الثاني
المستوى الصرفي

استعمال صيغة فَعَلَ

استعملَ القرآنُ الكريم صيغة (فَعَلَ) في مواضع كثيرةٍ، وقد تباينتْ المعاني التي أَفادتها هذه الصيغة بتباين المواضع التي نزلتْ فيها. لو تأمّلتَ الآياتِ الكريمة التي أَخْبرت عن يوم القيامة تجد معظمها أُختِيرَ لها صيغة الفعل الماضي. لا ريبَ إنَّ لذلك الاختيار فائدةً تفوق سواه . فلنتأمل معاً بعضَ آيات الذكر الحكيم ليصبحَ المعنى أكثر جلاءً.

قال تعالى في ذكر يوم القيامة : «**ونادى أصحابُ الأَعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعُكم وما كنتم تستكبرون**» الأَعراف 48. تلاحظ الإخبار

عن يوم القيامة جاء بالفعل الماضي (نادى) على الرغم من أَنَّ القيامة لم تكن واقعةً عند نزول الآية، ولم تقع حتى يومنا هذا. إذنَ فلِمَ الإخبار بصيغة الماضي؟ أَجاب عن هذا الشيخ الطوسي (ت460هـ) في الآية محل البحث بقولهِ: «الإخبارُ بصيغة الماضي لتحقق

المعنى، كأَنَّه قد كان»[1]. وقد تابع الآلوسي (ت1270هـ) سابقه على هذا المعنى قائلاً: «ونادى ، بعد الاسْتقرار بها وصيغة الماضي لتحقق الوقوع»[2]. وفي السورة ذاتها يردُ الفعل الماضي مرةً أخرى ليبيّنَ ما يفعله من أُسْكِنَ النار، قال تعالى: «ونادى اصحابُ النار أصحاب الجنّة أن افيضوا علينا من الماء ومما رزقكم الله قالوا إنَّ الله حرّمهما على الكافرين» الأَعراف 50، لقد جاء الفعل (نادى) بصيغة الماضي ليبيّنَ مشهداً من مشاهد القيامةِ «فيه أَعظم الهول و الزجر؛ لما يتصوّر من الحال فيه، كما أَنَّها تقدم صورة للبصر تجعله يُدرك وعيد الله بالنار والعقاب»[3]. ومن استعمال الماضي في الحديث عن يوم القيامة قوله تعالى: « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» ابراهيم 21. في الآية الكريمة وُظِّفَ الفعل الماضي (برزوا) لإفادة (يبرزون) حتى يكون المعنى أَبلغ وأكثر وقعاً، لما فيه من إشعار بوقوع الأَمر[1]. إذا قرأت أول سورة النحل تجد فعلاً ماضياً قد وُظّفَ توظيفِ سابقه ليدلَّ على المستقبل، قال تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» النحل 1، وأنت تلاحظ الآية المباركة تُخبر عن يوم القيامة، وجعلتْ ذلك الإخبار بصيغة الفعل الماضي (أَتى) ، قال النّحاس (ت 338هـ): «أتى بمعنى قرب جعله مجازاً، ويكون أَتى بمعنى يأتي»[2]. ويطالعنا مثل ذلك في سورة الكهف، قوله تعالى: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» الكهف 47. قال الزركشي (ت749هـ): «عَبَّر عن الحشر بالماضي وهو مستقبل، لاستحضار صورته»[3]. ومنه أيضاً قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» النمل 87. قال الفخر الرازي (ت606هـ): «إعلمْ أَنَّه لما قال: فَفُزِعَ، ولم يقل: فيفزعُ للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأَنَّه كائنُ لا محالة؛ لأَنَّ الفعل الماضي يدلُّ على وجود الفعل، وكونه مقطوعاً به[4]. وإلى مثل هذا ذهب اِبنُ الأَثير (ت 637هـ): إذ قال: «إنما قال: فَفُزِعَ، بلفظ الماضي بعد قوله: (يُنفخ) وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأَنَّه كائنُ لا محالةَ؛ لأَنَّ

---

(1) التبيان في تفسير القرآن 8/ 444.
(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 8/ 122.
(3) التبيان في تفسير القرآن 8/ 446.
(1) يُنظر : البرهان في علوم القرآن 3/ 337.
(2) اعراب القرآن 205/2.
(3) البرهان في تفسير القرآن 337/3.
(4) التفسير الكبير 220/24.

الفعل الماضي يدلُّ على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به»[5]. من خلال ما سبق يتبيّنُ أَنَّ صيغة فَعَلَ، قد واكبت ذكر يوم القيامة في القرآن الكريم في الكثير من المواضع لما لها من أَثرٍ كبير في إثبات الحالة وَجَعْلِ المستقبل ماضياً لتأكيد وقوعه الذي لابَّد منه. وفي كلامٍ لابن الأَثير (ت637هـ) يُبيّن فيه سببَ ذلك بقوله: «إنَّ الفعلَ الماضي إذا أُخبِرَ به عن الفعل المستقبل الذي لم يُوجدْ بعد ذلك، كان أَبلغ وأكثر في تحقق الفعل وإيجاده؛ لأَنَّ الفعل الماضي يُعطي من المعنى أَنَّه قد كان ووُجِدَ، وإنَّما يُفْعَلُ ذلك إذا الفعلُ المستقبل من الأَشياء التي يُستعظمُ وجودُها، وإنَّ الغرضَ من ذلك تبيين هيئة الفعل، واستِحضار صورتهِ، ليكون السامعُ كأَنَّه يُشاهدها، والغرضُ بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد»[1]. وقد تابع الزركشي (ت749هـ) سابقه على هذا إذ قال: «والفائدةُ في الفعل الماضي إذا أُخْبِرَ به عن المستقبل الذي لم يُوجدْ، أَنَّه ابلغُ وأعظمُ موقعاً لتنزيله منزلة الواقع، والفائدةُ في المستقبل إذا أخبر به في الماضي يتبيّنُ هيئة الفعل باستحضار صورتهِ، ليكون السامع كأنّه شاهده»[2]. من النّصين السابقين يتبيّن التقارب بين الرأيين إذ اتفقا على أَنَّ استعمال الماضي يُفيد استحضار الصورة عند المخاطب، ويجَعْل الأَمر كأَنَّه قد وقع وشاهدُهُ المخاطب ، ويُعْمَدُ الى هذا حين يكون الأَمر عظيماً، ولا يومَ أعظم من يوم القيامة، كما أَنَّ الإنسان حين يكون قد شاهد أمراً مخيفاً في الماضي عليه أن يحذره ويخافه مستقبلاً، وعلى هذا حين يكون يوم القيامة قد وقع في الماضي وشُوهِدَت أَحداثُهُ، فالبشرُ سيخافونه ويحذرونه اكثر؛ لما رأوا من اهوال فيه.

اختيار صيغة يَفْعَلُ

مما لايخفى على أحد أَنَّ القرآن الكريم استعمل الفعل المضارع بصيغه المختلفة في مواضعَ كثيرةٍ. كما أَنَّ هناك آيات مباركة عمدت الى اسْتخدام هذه الصيغة دون غيرها على الرغم من أَنَّ السياق الذي جاءت فيه اعتمد صيغاً غير صيغة المضارع الا أَنَّ السياق القرآني، اختار المضارع لفائدةٍ تتضحُ بعد أَنَّ نتأمّل معاً بعض الشواهد وما قيل فيها. قال تعالى: «**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزؤن اللهُ يستهزئُ بهم ويمدُّهم في طغيانهم يعمهون**» البقرة 14-15. الآية الاولى توضّح ما قاله المنافقون. والثانية توضّح إخبار الله عنهم، الأَولُ جاء بصيغة إسم الفاعل (مستهزؤن)، أَمَّا إخبارُ الله عنهم جاء بصيغة المضارع (يستهزئ) ولم يرد بصيغة اسم الفاعل، لقد أَوضح الزمخشري (ت 538هـ) سر هذا الاختيار بقوله : «اللهُ يستهزئ بهم، يكون طبقاً لقولهم إنما نحن مستهزؤن ، قلتُ: لأَنَّ يستهزئُ يُفيدُ حدوثَ الاستهزاء وتجددَه وقتاً بعد وقت،

---

[5] المثلُ السائر ، لأبن الأَثير، تقديم وتحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، مطبعة النهضة، مصر، ط1، 1379هـ: 2/ 190.

[1] المثل السائر 2/ 189-190.

[2] البرهان في علوم القرآن 337/3.

وهكذا كانت نكايات الله فيهم، وبلاياه النازلة بهم»[1]. وقد تابع الفخر الرازي (ت 606هـ) سابقة على هذا قائلاً: «اللهُ يستهزئُ الفائدة فيه إنَّ يستهزئُ يُفيدُ حدوثَ الاستهزاء وتجدّدَه وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات اللهِ فيهم، وهذا استئناف في غايةِ الجزالة والفخامة، وفيه أَنَّ الله تعالى هو الذي يستهزئ بهم استهزاء العظيم الذي يصيُر استهزاؤه في مُقابلهِ كالعدم»[2]. من هذا يتضح أَنَّ الفعل المضارع (يستهزئُ) أُختير في هذا المقام؛ لما له من أَهمية في سياق الوعيد، إذ أَنَّ استهزاء الله بالمنافقين سيبقى مستمراً في كلِّ زمانٍ ومكان ما دام استهزاؤهم قائماً. ثم يطالعنا قولُه تعالى في سورة البقرة : «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ» البقرة 87. تلاحظ التعبيرَ عن الكذب جاء بصيغةِ الماضي. أَمَّا فِعْلُ القتل جاء بصيغة المضارع، فما هو السر في اختيار الفعل المضارع دون سواه في هذا المقام؟ هذا السؤال قد أورده الفخر الرازي وأجاب عنه فقد قال: «فلقائلٍ أَن يقولَ: هلاّ قيل: وفريقاً قتلتم؟ وجوابهُ في وجهين: أَحدُهما: أَنْ يُراد الحال الماضية؛ لأَنَّ الأَمر فضيع فأُريدَ استحضاره في النفوس، وتصويُره في القلوب. الثاني: أَنْ يُراد، فريقاً تقتلونهم بعد، لأَنّكم حاولتم قتلَ محمد (ﷺ)»[3]. أَمَّا الآلوسي فقد رأى صيغة المضارع عُمِدَ اليها؛ لاستحضار الصورة وبيان فضاعتها واستعظامها[4]. أَمَّا السيد عبد الأَعلى السبزواري (ت 1992م) فقد تابع سابقيهِ على هذا بقوله: «ومن إيراد الفعل المضارع يُستَفاد استمرارُهم على هذا الفعل الشنيع، فصار العناد والجحود سجيّةً لهم»[5]. كما أَنَّ «استخدام صيغة المضارع تدلُّ على أَنَّهم لم ينتهوا بعدُ من عادتهم في قتل الأَنبياء»[6]. من خلال ماسبق يتبيّن أَنَّ صيغة المضارع جاءت لتُفيد استعظام الفعل من جهة، واستمراريته من جهة اخرى ولإثبات أَنَّ المُخَاطبين لم ينتهوا من فِعْلِ القتل ، فما زالوا مستمرين عليه وذلك بدليل محاولاتهم قتل النبي (ﷺ)، وفي هذا تنبيهُ للنبي (ﷺ) على أَنَّهم ما زالوا مستمرين على فعلهم الشنيع ليحَذْرَهم. ومن اختيار صيغة الفعل المضارع قولُه تعالى: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» الأنعام 110، وقوله تعالى «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» النور 63 . «فاختار الأَفعال المضارعة يعمهون ويحذر ليَدلَّ بها على التجدد»[1]. ومن ذلك أَيضاً قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ» السجدة 12. وأنت تلاحظ

---

(1) الكشاف 35/1.
(2) التفسير الكبير 2/ 70.
(3) المصدر نفسه 2/ 178..
(4) ينظر : روح المعاني 318/1.
(5) مواهب الرحمن في تفسير القرآن 385/1.
(6) الاعجاز الصرفي في القرآن 118.
(1) الاعجاز الصرفي في القرآن 119.

اختيار الآية للفعل (ترى) بصيغة المضارع الذي أُخْرِجَ بصيغةِ الخِطاب لمّا أُريد العموم لقصد تفظيع حالهم، وإنّها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تخصُّ بها رؤية راءٍ، بل كلُّ من يتأتى منه رؤية داخل في هذا الخطاب[2]. والشواهدُ القرآنية التي اعتمدت صيغة الفعل المضارع في سياق التخويف كثيرة جداً يتعذّر ايرادها في هذا المقام[3].

اختيار صيغة اسم الفاعل

ورد اختيار صيغة اسم الفاعل في مواضع عِدّة من الذكر الحكيم. فلو تأمَّلت السورَ المباركة التي أَقسم الله فيها بملائكته، أو الآيات التي أَخبرت عن يوم القيامة تلاحظ التَّعبير جاء فيها بصيغة اسم الفاعل كثيراً؛ لما لهذه الصيغة من معانٍ تتوافق مع المقسم به، وتتوافق مع يوم القيامة. فلنتأمّل معاً بعض المواضع التي وظَّفت صيغةَ اسم الفاعل لاسيما في سياق التخويف ، قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝﴾ الصافات 1-3. قال الزمخشري (ت538هـ): ﴿الصافات: أقسم الله بطوائف الملائكة، أو بنفوسهم، والصافات أقَدامها في الصلاة، وأَجنحتها في الهواء، منتظرة لأَمرِ الله﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ المرسلات 1-4، قال أَبو حيان (ت 754هـ): ﴿المرسلاتُ الملائكة أُرسلت بالعرف ضد النكر، وهو الوحي﴾[2]. وقال تعالى: ﴿والنازعات غرقاً، والناشطات نشطاً، والسابحات سبحاً﴾ النازعات 1-3، قال الزمخشري: ﴿النازعات: المرادُ بها الملائكة تنزع الأَرواح من الأجساد، والناشطات الطوائف التي تنشطها﴾[3].

وقد ذهب السيد الطباطبائي الى ما ذهب اليه سابقه بقوله: ﴿الناشطاتُ: المرادُ بها الملائكة الذين يُخرجون الأَرواح من الاجساد﴾[4]. من خلال ما سبق يتبيّن أَنَّ الله تعالى أَقسم بصنوف الملائكة ، فتارة المُقْسَمُ به الملائكة اللذين يُخْرِجون الأَرواح من الأجساد، واخرى يقسم بالملائكة القائمين بالعبادة... الخ، وبهذه المعاني يتضح الاتحاد بمعنى المُقْسَمُ به. ولم يقتصر هذا الاتحاد بالمعنى بل تعدّاه الى الصيغة الصرفية التي بُنيَ عليها ذلك المعنى. فلو تأمّلت (الصافات، المرسلات، العاصفات، النازعات، الناشطات) تجدها بصيغة اسم الفاعل، وهذه الصيغة تدلُّ على الحدث ، والذات، ومعناها

---

(2) ينظر : الايضاح في علوم البلاغة "المعاني والبيان والبديع" ، مختصر تلخيص المفتاح تأليف، الخطيب القزويني ، جلال الدين ابو عبد الله محمد قاضي القضاة، سعد الدين ، ابي عبد الرحمن القزويني، دار الفكر العربي، 1402هـ، 1983، 24.

(3) ينظر: الكشاف: 35/1 و 320/3.

(1) الكشاف 33/4.

(2) البحر المحيط 403/8.

(3) الكشاف 4/ 692-693.

(4) الميزان في تفسير القرآن 20/ 179.

التجـدد والحـدوث[5] والحـدثُ هـو تجـرّد الفعـل لصـاحب الصـفة مقيّـداً بـبعض الأزمنة[6]. وكأَنَّ التعبير بصيغة اسم الفاعل في هذه الآيات جاء مكرراً للإشارة الى أَنَّ هذه الصفات التي تحملها الملائكة مما يتجدد ويتكرر حدوثُها بتعاقب الأَيام ، وفيها من الآيات والعظات مما يذكر بها أولوا الألباب. وتُفيد صيغةُ اسم الفاعل في هذه المواضع بيان تجرّد الملائكة عن أَي شيء وبقائها منتظرةً إِشارة أَمْرِ ربِّها في انتِزاع أَرواح الناس أَو إِنزال العذاب أَو غير ذلك. والحالُ نَفْسُها بالنسبة إِلى الإِخبار عن يوم القيامة، فلو تأمّلت قوله تعالى: «الراجفة والرادفة» في النازعات 6و7، تظهر دلالة اسم الفاعل في هذين الموضعين لا لإفادة معنى التجدد فحسب، وإِنما يظهرُ فيهما معنى الثبوت، وكذلك الحال في قوله تعالى : «**الحاقة** (الحاقة/1)، **الصاخة** (عبس/ 33)، **القارعة** (القارعة/1)، **الآزفة** (المؤمن/ 18)، **الواقعة** (الواقعة/1)، **الغاشية** (الغاشية/1)». فاضطرابُ القلب وخشوع الأَبصار لا ينقطع حتى يتصوّر فيه معنى التجدد، ومن ثَمَّ فإن الدلالة الرئيسة لاسم الفاعل في هذه المقاطع إِنما هي للدلالة على ثبوت نسبة تلك الأَوصاف لليوم الآخر ثبوتاً مؤكَّداً، ومن ثَمَّ تستطيع أَن تقف على دور صيغة اسم الفاعل في هذه المواضع وقد قسمَّ توظيفها على الوجه الذي هو أحسن لكي تدلَّ الصيغة الواحدة (صيغة اسم الفاعل). بما جمعت من دلالات التجدد، والثبوت على تلك الحالة المقصودة، وهي حالة القيامة. «كأَنَّ التعبير باسم الفاعل إِنّما هو بمثابة مفتاح التعقل والتدبّر لتلك المقابلة، بين المتغيّر المدلول عليه باسم الفاعل، والثابت المدلول عليه باليوم الآخر»[1].

ومن مواضع مجيء صيغة اسم الفاعل في سياق الوعيد، قوله تعالى: «**فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**» (القمر/ 42). فقد اختار تعالى صيغة اسم الفاعل في قوله (مقتدر)؛ لتتوافق مع شدة الوعيد التي جاءت في الموضع، ولم يَخْتَر (قادر) مع أَنَّه اسم فاعل أَيضاً، إِلاَّ أَنَّ «مقتدر اسمُ فاعل من اقتدر، وهو أَبلغُ من قادر، وذلك للدلالة على تفخيم الأَمر وشدّة الأَخذ، الذي لا يصدرُ إِلاَّ عن قوّة الغضب، أَو للدلالة على بسطهِ القوة، فإِنَّ المقتدر أَبلغ في البسطةِ من القادر، لأَنَّ القادر اسم فاعل من قدر على وزن فَعَلَ، ولا شك أَنَّ أُفْعَلَ أَبْلغ من فَعَلَ»[2].

ومن اختيار صيغة اسم الفاعل بدلالة صيغة الفعل، قوله تعالى«**يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون**» (البقرة/9) هذه الآيةُ الكريمة توضحُ ما يفعله

---

[5] ينظر : الخصائص 3/ 103، الايضاح في شرح المفصل لأبن الحاجب النحوي، تحقيق وتقديم: الدكتور موسى نباي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، 9821: 1/ 644.

[6] ينظر : الصرف الوافي ، للكتور هادي نهر، مطبعة التعليم العالي، الموصل، 1989م : 90.

[1] الاعجاز الصرفي في القرآن 241.

[2] المثل السائر 250/2.

المنافقون وقد بيّن الله فعلهم بقوله : (يخادعون) فقد جاء القولُ «مُخَادَعَة بزنة مُفَاْعَلَة»[1] والمعنى الذي تدلُّ عليه هذه الصيغة هو التشارك بين اثنين فأكثر، وهو أَن يفعل أحدُهما بصاحبه فعلاً بمثلهِ[2] فحينئذٍ يُنْسَبُ للبادي نسبة الفاعلية، وللمقابل نسبة المفعولية. وإذا نقلت هذا المعنى إلى (يخادعون) فهل يتوافق معه؟ أي إنَّ عملية الخداع تتم بين الموصوفِين وبين الله، فيكونُ أحدُهم خادعاً، والثاني مخدوعاً. هذا ما أَجاب عنه الشيخ الطوسي (ت460هـ) بقوله: «مُفَاْعَلَة، وإنْ كانت تكون بين اثنين من كل واحد منهما لصاحبه مثل ضاربت، وقاتلتُ، وغيرُ ذلك، فقد ورد هذا الوزن (فَاْعِل) بمعنى فَعَلَ مثل: قَاْتَلَهُ الله»[3]. وإلى مثل هذا ذهب الطبرسي (ت548هـ) وذلك بقوله : «يخادعون الله، أَي: يعملون عمل المخادع؛ لأَنَّ الله لا يصحُّ أَن يخادعه من يعرفه، ويعلم أَنَّه لا تخفى عليه خافية، وهذا كما تقول لمن يزيّف لنفسهِ ما يشوبه بالرياء في معاملته: ما أجهله يخادع الله وهو أَعلمُ به من نفسه! أي : يعملُ عمل المخادع»[4]. وعلى هذا ستكون المخادعة حاملةً من الوعيد مما لا يخفى فذلك الشخص الذي يعمل عمل المخادع لا يضرُّ الله شيئاً، ويرجع خداعهُ عليه. وما أَشدُّ من يؤذي نفسه بنفسه بعد أَن يعلم ذلك؟ وقد ذهب المفسرون إلى دلالة الفعل على اسم الفاعل في المواضع التي ذكرت تأدّباً مع الله سبحانه وتعالى ورأيت إثباتها هنا.

اختيار الصفة المشبّهة

قال ابنُ يعيش في حدّها: «الصفةُ المشبهة باسم الفاعل ضربُ من الصفات تجري على الموصوفين في إعرابها جري اسماء الفاعلين»[1]. من هذا يتبين أَنَّ الصفة المشبهة تُشابه اسمَ الفاعل، إلاَّ أَنَّها تُفيد معنى لا يُفيده اسمُ الفاعل، وهذه الفائدةُ أَوضحها ابنُ يعيش بقوله: «المعنى الذي دلَّت عليه أمْرُ مستقرُ ، ثابت، متّصل بحال الإخبار، أَلا ترى أَن الحُسنَ والكرمَ معنيان ثابتان، ومعنى الحال أَنَّ يكون موجوداً في زمن الإخبار»[2]. من هذا يتبيّن أَنَّ الصفة المشبهة تُفيد ثبوت ودوام الصفة التي أُطلقت على الموصوف. وحين تقرأ القرآن الكريم تجد الصفة المشبهة جاءت في مواضعَ عِدّة، لاسيما في المواضع التي تُذْكَرُ فيها صفةُ الله عزّ وجل، وصفةُ مُكذبيّ الأَنبياء، قال تعالى: «وسع كرسيُّه السموات والأرض

---

[1] التبيان في تفسير القرآن 69/1.
[2] ينظر: كتاب تندا العرف في فن الصرف . الشيخ احمد الحملاوي، مطبعة الراية، بغداد: 43.
[3] التبيان في تفسير القرآن 69/1.
[4] مجمع البيان في تفسير القرآن 46/1.
[1] شرح المفصّل لابن يعش، عالم الكتب، بيروت: 81/6. ويُنظر: المنهج الصوتي للبنية العربية د.عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، سوريا، 1980: 117 ومحاضرات في علم الصرف د.علي جابر المنصوري، علاء الدين هاشم، جامعة بغداد، بيت الحكمة، 36.
[2] شرح المفصل 83/6.

ولا يؤدُهُ حفظهما وهو العليُّ العظيم» البقرة 255. أَنعمْ النظر في قوله تعالى (عظيم) ، لنتأمّل ما قاله بعضُ المفسرين في هذه الكلمة. قال الطبري (ت 310هـ): «العظيمُ ذو العظمة الذي كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه»[3]. وذهب الطبرسي (ت548هـ): إلى مثل هذا بقوله: «العظيمُ معناه: عظيم الشأن، قيل: العظيم بمعنى المعظَّمُ، والعظيمُ الشأن القادرُ الذي لا يُعْجِزُهُ شيء، والعالمُ الذي لايخفى عليه شيء، ولا نهايةَ لمقدوراته ولا غايةَ لمعلوماته»[4]. فيلاحظُ أَنَّ (عظيم) وهي صفة مشبهة جاءت لتُعطي معنى الدوام، وكان ورودها في نهاية آية الكرسي التي أَفصحت عن قدرة الله اللا متناهية. وقد أُخْتيرت صيغة (فَعِيل) التي تُفيد معنى النسب، والنسبُ يُفيد معنى الثبوت[5]. فمن كانت صفاته هكذا أليس من حقّه أَن تخافه وتحذره؟ وفي موضع آخر جاءت الصفة المشبهّة لتصف قوم نوح (ع) بعد تكذيبهم له، قال تعالى «إِنّهم كانوا قوماً عُمين» الأعراف 64. لقد وقف المفسرون واللغويون عند قوله (عَمين) يوضحون المعنى الذي أَفادته هذه الصفة إلا أَنَّ الفريقين (المفسرين واللغويين) اتفقا على معنى واحد يتبيّنُ من قراءة بعض ما قالوه. قال الزمخشري (ت538هـ): «إِنَّ العمى يدلُّ على معنى ثابت، والعامي يدلُّ على عمي حادث»[1]. وتابع ابن يعيش سابقه على هذا فقد أَفاد أَنَّ عامين تدلُّ على عمي عارض، ثم عَدَلَ فقال : (عَمين) حتى تدلَّ على الثبوت[2]. وقد تابعهم على هذا عدد من المفسرين إذ أَفادوا أَنَّ قوله (عمي) دلَّ على ثبوت العمى[3].

أَمَّا المحدثون فمنهم الدكتور عبد الحميد هنداوي ذهب الى ما ذهب اليه سابقوه الا أَنَّه فسّر سر اختيار (عمين) من متابعة السياق إذ قال : «ونستطيعُ أَن نتبيّن سر اختيار هذه الصيغة إذا ما راجعنا سياق الآية من أَوَّلهِ، قال تعالى: «لقد أَرسلنا نوحاً إِلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، إِنّي أَخاف عليكم عذاب يوم عظيم، قال الملأُ من قومه إِنّا لنراك في ضلالٍ مبين» الأَعراف 59-60، تلاحظ أَنَّ قومَ نوح قد سوّغوا تكذيبهم لنبيهم بادعائهم ضلالَهُ، وكان طريق إثبات هذه الدعوى الكاذبة هو افتراؤهم عليه بإثبات رؤيتهم له في ضلال مبين، ولما كان أساس تلك الدعوى الكاذبة هو ادِّعاء الرؤية المُبالغِ في إثباتها بأَن واللام، واسْتخدام حرف الجر (في) الدال على انغماسه في الضلال وإحاطته به فضلاً عن ادِّعاء ذلك الضلال بيّناً واضحاً، (...) فلما كانت الرؤية الكاذبة مبالغاً فيها ناسب هذا

---

[3] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 13/3.
[4] مجمع البيان في تفسير القرآن 2/ 362-363.
[5] ينظر : معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان، نسرين عبد الله شنوف الزجراوي (رسالة ماجستير)، كلية القائد للتربية للبنات، جامعة الكوفة، اشراف د. رحيم جبر الحسنواي آذار/ 1996م: 66.
[1] الكشاف ط بيروت 115/2.
[2] ينظر : شرح المفصل 83/6.
[3] ينظر : الدر المصون للسمين الحلبي ، تحقيق : عادل عبد الموجود، ط، دار الكتب العلمية: 2/ 289. روح المعاني 154/8.

السياق أَن يُبالغ في وصف هؤلاء المكذبين بوصف مقابل لذلك بطريقة أَبْلغ مما يقتضي إثبات العمى لهم بصيغة دالة على الثبات واللزوم ، فناسب ما هم عليه من انطماس بصائرهم»[1]. من هذا القول يتضحُ أَنَّ الكافرين حين كان ادِّعاؤهم قويّاً قابل الله تعالى ذلك الادِّعاء بوعيد قوي مؤثِّر يبقى ثابتاً بمن ينزلُ فيه، فاختيار الصفة المشبهة (عمي) تُفيد ملازمة وثبوت العمى عقاباً على ما ادّعوه. وهذا ما وَجّهَهُ اللغويون والمفسرون، إلا أَنَّك تلاحظُ توجيهاً آخرَ لمعنى الصفة المشبهة في الآية الكريمة. قال الفخر الرازي (ت 606هـ): «يُقال رجلٌ عمٌ في البصيرة ، وأَعمى في البصر»[2]. إلاَّ أَنَّه لم يغفلْ دلالة الصفة على الثبوت وهذا ما صرّح به بقوله: «ولاشكَّ أَنَّ عماهم كان راسخاً»[3]. وقد تابع السيد الطباطبائي سابقه على دلالة الصفة المشبهة على عمي البصيرة وذلك بقوله : «عمِينَ جمْعُ عمَي، وهي صفةٌ مشبهة من عَمِي يعمى، عميُ كالأعمى، إلاَّ أَنَّ العمى يختصُّ بعمى البصيرة، والأَعمى بعمى البصر»[4]. وذهب الأُستاذ المراغي إلى مثل هذا بقوله: «وهذه الصفةُ المشبهة (عمي) لعمي البصائر»[5]. لو جَمعْتَ المعنيين اللذين نصَّ عليهما المفسرون وهما:

الثبوت، وعمي البصيرة لأَصبحَ الوعيدُ الذي توعّدَ الله تعالى به الكافرين أَكثر إيحاءً بالقوّة والشّدة وهذا جزاءُ على ما ارتكبوه. ثم يطالعنا قوله تعالى: «**وأَخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئس بما كانوا يفسقون**» الأعراف 165. قرأ عاصم (بئَيس) بفتح الهمزة[6]. وعلى هذه القراءة تكون (بئيس) صفة مشبهة على بناء (فَيْعَل) بفتح الفاء والعين وسكون الياء[7]. وهناك قراءةُ أخرى اعتمدها ابنُ عباس (رض) إذ قرأ (بئِيْس) على زنةِ (فَعِيْل) بفتح الفاء وكسر العين وسكون الياء[1]. «فَيْعل اسماً، عَيْلم، رصفةً صَيْرف، ولم يجيء معتلاً الا العين»[2]. وهي «لا تختلفُ عن سابقتها في كونها صفة مشبهة»[3]. على الرغم من تباين القراءتين الا أَنَّ الوزنين اللذين أُقيمتِ القراءاتان عليهما من أوزان الصفة المشبهة التي تفيد الثبوت، وأَنَّ ذلك العذاب الذي أُخِذَ به الظالمون سيبقى ثابتاً ملازماً لهم ما داموا ملازمين لظلمِهم وفسقهم.

---

(1) الاعجاز الصرفي في القرآن 105.
(2) التفسير الكبير 153/14.
(3) المصدرُ نفسهُ 153/14.
(4) الميزان في تفسير القرآن 176/8.
(5) تفسير المراغي ، أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3/ 1974: 8/ 191.
(6) يُنظر : السبعة في القراءات، لابن مجاهد ، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1972: 269-297.
(7) يُنظر : معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان: 68.
(1) ينظر : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها: ابن جني، تحقيق: علي النجدي، د.عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، القاهرة، 1386هـ : 1/ 265.
(2) المزهر في علوم اللغة وانواعها للسيوطي شرح وضبط: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البيجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، عيسى البابي الحلبي، مصر: 2/ 12.
(3) معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان 68.

وقد وردت الصفة المشبهة في سياق الوعيد بوزن آخر وهو (فَعِل) بفتح الفاء وكسر العين. قال الشيخ الطوسي (ت460هـ) : ((وتأتي هذه الصفة غالباً في الأعراض التي تخصُّ الفرحَ، أَو الحزن، أو الداء))[4]. ومن استعمال هذا الوزن في الذكر الحكيم قولهُ تعالى: ((ولئن أذقناه نعماءَ بعد ضرّاء حستّهُ ليقولنّ ذهب السيئاتُ عني إنه لفرحُ فخور)) هود 10، وفي تفسير الشيخ الطوسي (ت 460هـ) لقوله (فرح) قال : ((الفَرِحُ لذةُ في القلب أَعظم ملاذ الحواس))[5]. لو تأَمّلت السياق القرآني الذي جاءت فيه هذه الصفة لاحظت اسْتقباحها في هذا السياق واختصاصها بالكفّار. وتأتي الصيغة ذاتُها في موضع ثانٍ من الذكر الحكيم تُبيّنُ ما قالته ثمود في نبيهم عليه وعلى نبينا واله السلام، قال تعالى: ((**بل هو كذّابُ أشِرُ**)) القمر 25. ((فجاء قوله تعالى (أشِر) صفة مشبهة، يقال : أشِرَ يأشِرُ أشراً مثلُ حَذِر وفَطِن))[6]. وقد تابع الطبرسي سابقه على هذا بقوله: ((وأَمّا الأَشِرُ فإنه مما جاء على فَعِلَ))[7]. وقد رأى الطبرسي أن (أشِر) الذي على وزن (فَعِل) يمكن أن يكون (أشُر) على زنة (فَعُل) فيتساوى مع قوله تعالى ((**انا لجميعُ حاذرون**)) الشعراء 56. فيمكن أن تكون حَذِر وحَذُر مثلُ يَقِظ ويَقُظ، وهذان الوزنان من أَوزان الصفة المشبهة[1]. ومن أَوزان الصفة المشبهة التي جاءت في الذكر الحكيم وزن (فَاعِل). إنَّ هذا البناء يكون بمعنى الصفة المشبهّة ((إذا أُضيف الى مرفوعه وذلك فيما إذا دلّ على الثبوت ، كطاهر القلب، وشاحط الدار، اي: بعيدها، فهو صفة مشبهة أَيضاً))[2]. جاء هذا الوزن على لسان سليمان (ع) حين توعّد قوم بلقيس ، قال تعالى: ((**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**)) النمل 37، فقد عَمِد سليمان عليه وعلى نبينا واله السلام بوعيده إيّاهم إلى صيغة (فاعل) فقد قال: (صاغِر) ((ليفيد كونهم أَذلاء صغار القدر لا يفارقون هذه الصفات فهي متلبسةُ فيهم))[3]. وفي موضع آخر من سياق الوعيد قال تعالى: ((**يوم يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ**)) القمر 6 يُلاحَظ قوله (نُكُر) بزنة (فُعُل) بضمتين، وهي من أَبنية الصفة المشبّهة القليلة الاستعمال في اللغة[4]. قال الشيخ الطوسي: "النُكُر، أحدُ الحروف التي جاءت على (فُعُل) وهو من الإنكار الشديد على نقيض الإقرار وإنما

---

(4) التبيان في تفسير القرآن 12/ 521.
(5) المصدر نفسه 521/2.
(6) المصدر نفسه 453/27.
(7) مجمع البيان في تفسير القرآن 190/9.
(1) مجمع البيان في تفسير القرآن190/9.
(2) شرح الاشموني على الفية أبن مالك تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1955م : 2/ 353- 354.
(3) مجمع البيان في تفسير القرآن 222/7.
(4) ينظر : كتاب سيبويه 3/ 574 و 629.

وصِف بأَنَّه (نُكُر)؛ لغلظتهِ على النفس وأَنهم لم يروا مثل شدّتهِ وهؤلاء كأَنَّهم ينكرونه، كما قبح في عقولهم»[5]. وقد تابع الآلوسي (ت1270هـ) من سبقه إذ قال: «نُكُر وصفُ على فُعُل بضمتين، وهو قليلُ في الصفات، ومعناه فضيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله، وهو هول يوم القيامة، ويُكنّى بالنُكُر عن الفضيع؛ لأنّه في الغالب منكرُ غير معهود»[6]. مما سبق يتبين لمّا أُريد وصفُ يتوافق مع شدة يوم القيامة عُمِدَ الى اختيار (فُعُل) دون سواه؛ لما يحمله من معنى، وهو الصفة الدّالة على ثبوت وفضاعة الأَمر وملازمته ليوم القيامة من جهة، والإنكار الشديد الذي يُجْهَلُ كنُهه من جهة أُخرى. ومن المواضع التي جاءت فيها الصفة المشبهة ما جاء على لسان الكافرين حين تعجّبوا من البعث للحشر بعد أَن يكونوا تراباً، قال تعالى: «**يقولون إنا لمردودون في الحافرة إذا كنا عظاماً نخرة**» النازعات 10-11. لو تتبعت السورة المباركة تلاحظ اسم الفاعل قد واكب الفاصلة القرآنية كثيراً إلاَّ أَنَّ الآية الحادية عشر تركت اسم الفاعل واختارت الصفة المشبهة، فلم يقل: ناخرة ، بل قال: نخرة. قال الطبري: «وأَفصحُ اللغتين وأشهرهما عندنا (نخرة)، بغير الأَلف، بمعنى: بالية. غير أَنَّ رؤوس الآي قبلها وبعدها جاءت بالألف»[1]. اما ابنُ عطية (ت541هـ) فانه عندما تحدّث عن هذه الآية أكّدَ على أَنَّ نَخِرة أبلغ من نَاْخِرة، وذلك لأنّ (فَعِل) أَبلغ من (فَاْعِل)[2]. أَمَّا الفخرُ الرازي (ت 606هـ) فقد تابع ابنَ عطية على هذا بقوله: «فَعِل أَبْلغُ من فَاْعِل (...). إنَّ النَّخِرةَ غير، والنَّاْخِرةُ غير. أَما النخرةُ: فهو من نخر العظمُ ينخرُ فهو نخر، مثلُ: عَفِنَ يَعْفنُ فهو عَفِن، وذلك إذا بلى وصار بحيث لو لمسته تفتت. وأَمَّا الناخِرة: فهي العظام الفارغة التي يحصلُ من هبوب الريح فيها صوتُ كالنخير»[3]. أَمَّا قوله: النَخِرةُ فهي «البالية المتعفّنة الصائرةُ رميماً، والناخرةُ التي لم تنخر بعد»[4]. أَمَّا الآلوسي فقد ذهب مذهب سابقيه بقوله: «فقد صرّحوا بأَنَّ فَعِلاً أَبْلغُ من فاعل، فاختيرتْ نخِرة»[5]. من خلال ما سبق يتبيّن أَنَّ سياق التخويف عمد الى استعمال الصفة المشبّهة لموافقتها السياق أكثر من غيرها، وذلك لما حملته من معانٍ فهي في أَصلها تفيد الثبوت[6] مضافاً اليها المبالغة لاسيما إذا كانت على وزن (فَعِلة)[7]. فالثبوتُ والمبالغةُ يتوافقان مع إثبات ما أَعده اللهُ لمكذبيّ أَنبيائه –عليهم السلام- لامحالة، كما أَنَّ هذين المعنيين (الثبوت والمبالغة) يتوافقان مع أَجواء يوم القيامة لتشديد هولهِ عند سامعهِ. والحال نفسها بالنسبة للعظام التي أَصبح النخرُ ملازماً لها وبُولِغَ فيه، ومع ذلك فإنَّ خالق هذه العظام قادرُ على إرجاعها سيرتها الأولى، وهذه المعاني تتوافق مع سياق التخويف.

---

(5) التبيان في تفسير القرآن 445/27، ومجمع البيان في تفسير القرآن 45/3 و 185/9.
(6) روح المعاني 79/27.
(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 23/30.
(2) يُنظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية أبي محمد عبد الحق بن غالب، تحقيق: علي عوض، دار الكتب العلمية: 5/ 432، الدر المصون 472/6.
(3) التفسير الكبير 36/31 . ينظر: المعجم الوسيط 916/2.
(4) البحر المحيط 417/8.
(5) روح المعاني 28/30.
(6) يُنظر : شرح المفصّل 83/6.
(7) ينظر: الاعجاز الصرفي في القرآن 174.

اختيار الصيغة الدّالة على المبالغة

اختار القرآنُ الكريم صيغة المبالغة في مواضع عِدَّة، وكان لهذا الاختيار غرضُ تُفيده الصيغة الدالة على المبالغة أكثر من إفادة سواها . ومما لايخفى أَنَّ للصيغة الدالة على المبالغة أوزاناً عدّة الا أَنَّ الباحث يقتصر في هذا الموضع على بعض الصيغ مما تجلّت فيه المبالغة في الأَفعال والاسماء التي أُسْتُعْمِلت في سياق التحذير والتخويف ومن تلك المواضع ما جاء في قصّة النبي يوسف عليه وعلى نبينا وآله السلام ، قال تعالى: ﴿وراودتهُ التي هو في بيتها وغلَّقت الأَبواب﴾ يوسف 23. إذا انعمت النظرَ في قولهِ: (غلَّقت) تلاحظ الفعلَ (غلَّق) على وزن (فَعَّلَ) ومعنى هذه الصيغة التكثير والمبالغة[1]، فما هو السبب الذي يكمن وراء استعمال الصيغة الدالة على المبالغة دون غيرها في هذا السياق؟ قال الفخر الرازي: ﴿وجاءت هذه الصيغةُ معبّرةً عن كثرة الأَبواب التي غُلِّقت، وكثرة التغليق، وإحكامهِ والمبالغة فيه، والسببُ أَنَّ ذلك العملَ لا يؤتى به إلاّ في الموضع المستور، لاسيما إذا كان العملُ حراماً، ومع قيام الخوف الشديد﴾[2]. وإلى ما يقربُ من هذا ذهب الرضي فقد رأى اختيار صيغة (فَعَّلَ) في هذا الموضع دون (أَفْعَلَ)؛ لأَنَّ الأولى تأتي للتكثير[3]. من خلال الرأيين السابقين يتّضحُ أَنَّ استعمال صيغة المبالغة عَبَّر عن كثرة الغلق، ويمكن أن يُضاف اليه الإحكام في الغلق، وهذا ما يقتضيه المحل، فالصيغة الدالة على المبالغة أقربُ إلى واقع الحال الذي يُحيط به الخوف نتيجة العمل المحذور المحُاوَلُ فعله. وتطالعنا هذه الصيغة في موضع آخر من الكتاب العزيز، قال تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ القمر 12. وهذه الآية تبين العذاب الذي أُنزل على قوم نوح عليه وعلى نبينا وآله السلام واختير لبيان غضب الله عليهم الفعل (فَجرّ) على وزن (فَعّلَ) الذي يفيد المبالغة . قال الرازي (ت606هـ): ﴿فجّرنا، أي: كأَنَّ الأَرض كلها صارت عيوناً تتفجر﴾[1]. وما يقرب من هذا قول الآلوسي (ت 1270هـ) إذ قال في الآية محل البحث: ﴿جعلنا الأَرض كلَّها عيوناً، كأنها عيونُ تتفجر، وأَصلُهُ فجرّنا عيون الأَرض فغيّرَ من التمييز إلى المبالغة، بجعل الأَرض كُلَّها متفجرّةً، مع الإيهام والتفسير﴾[2]. ففي هذا الموضع كان لاختبار الصيغة الدالة على المبالغة أَثرُه في الإيحاء بأَنَّ الأَرض كلَّها أَصبحت بحراً ولا ملجأ منه الا الى تلك السفينة المباركة. ومن صيغة (فَعَّل) ما جاءت في وصف النار، قوله تعالى: ﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرت﴾ التكوير 12. فقد اختار تعالى الصيغة

---

(1) ينظر: الممتع في التصريف لابن عصفور الأَشبيلي، تحقيق: فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط5، 1983م: 1/ 189. و الصرف الواضح ، د.عبد الجبار علوان النايلة، مطبعة دار الكتاب، الموصل، 1988م: 100.

(2) التفسير الكبير 21/9.

(3) ينظر : شرح الشافية 92/1.

(1) التفسير الكبير 11/31.

(2) روح المعاني 82/27.

الدالة على المبالغة (سُعِّرت) وشدد الكلمة؛ وذلك لأَنَّ الجحيم شُدِدت عليهم[3]. وقد ذهب الطبرسي (ت 548هـ) الى ما يقرب من هذا إذ قال: «سُعِّرت، تُفيد تهييج النار حتى تتأجج وصارت ناراً تضطرم»[4]. أَمَّا الفخر الرازي فقد نحا النحو ذاته إذ رأى أَنَّ تعالى حين شدد (سُعّرتْ) أَراد منه الدلالة على الإيقاد الشديد. والتشديدُ في التّسعير من غضب الله[5]. ومن صيغ المبالغة التي وردت في سياق التخويف قولُه تعالى على لسان فرعون: «قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ» الشعراء 34-37. لو أَنعمت النظر في قوله: (ساحر) تجد أَنها وردت بصيغة اسم الفاعل كما وردت بصيغة المبالغة (فَعّال) إذ قال تعالى: (سحّار)، فما هو السبب في اختيار صيغة اسم الفاعل مرةً والمبالغةَ مرةً أخرى؟ إذا علمتَ أَنَّ قوله: (ساحر) هي من جملة ما قاله فرعون مخبراً بها عن موسى- عليه وعلى نبينا السلام-، وأما صيغة المبالغة (سحّار) هي جواب الملأ لفرعون حين استشارهم يتبين لك أَنَّ الملأ «جاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيّبوا قلبه وليُسكنوا بعضَ قلقه»[1]. من هذا يتضح أَنَّ فرعون كان خائفاً حين خاطب قومَه يطلب مشورتهم لمواجهة موسى (ع) فأجابوه بما يتوافق مع إزالة الخوف، لذا اختاروا (سحّار). ولم يقف المفسرون عند هذا فقط بل أضافوا اليه معنى آخر إذ رأوا لما كان الأَمر المحذور هو إخراج موسى لهم من أرضهم، وهذا الأَمر عظيم كبير بالنسبةِ لهم لذا قابلوا ذلك بقولهم: (سحَّار) حتى يكون له من القوة والتأثير لإبطالِ عمل موسى[2]، ثمَّ يطالعنا قوله تعالى في ذِكْر شراب أهل النار: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ، هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ» ص/56-57، وقال تعالى: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا» النبأ/24-25. فقد ذكر الله سبحانه شرابهم بقوله (غسّاق) وهذا اللفظ لم يرد في القرآن الكريم الا في هذين الموضعين[3]. قال الرازي: «غسَّاق بالتشديد، فعّال، بمعنى: سَيّال»[4]، هاتان الآيتان تُصوّران العطش والحرمان من الماء على أَنهما وسيلتان من وسائل التعذيب التي يعاني منها المجرمون يوم القيامة، والعربي الذي عاش في الجزيرة العربية وعانى قسوة العطش يستطيع أن يستوعب معنى حرمان المجرمين في النار من الماء ثم إغاثتهم بـ(غسّاق). وهذه الصورة

---

[3] يُنظر: معاني القرآن للفرّاء 530/2.
[4] مجمع البيان 443/10-444.
[5] ينظر : التفسير الكبير 70/31.
[1] المصدر نفسه 132/24.
[2] ينظر : مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، للرازي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: 97. والتفسير الكبير 132/24، وروح المعاني 9/ 22-23.
[3] ينظر: المعجم المفهرس 498.
[4] التفسير الكبير 15/31.

التي تجعل الغسَّاق شراباً لأهل النار، تُذكرُ الناس وتنذرهم قبل أن يحلَّ ذلك اليوم[5]. ومن شراب اهل النار الى النار ينتقلُ الوزن نفسه، قال تعالى: ﴿كلا إنها لظى نزّاعة للشوى﴾ المعارج 15-16. قال الطبرسي (ت548): ﴿النزّاعةُ الكثيرةُ النزع، وهو اقتلاعُ عن شدة﴾[1]. اما السيد صاحب الميزان –قدس سره- فقد رأى هذا الوصف يدلُّ على المبالغة في النزع الذي بمعنى الإقتلاع، اي : النزعُ الشديد القوي[2]. أَمّا الدكتور فاضل السامرائي فقد ذهب الى أبعد مما ذهب اليه سابقوه فقد رأى أَنَّ سبحانه وتعالى ذكر نزّاعة ولم يقل : نزوعاً؛ لأَنَّها تُفيد الاستمرار، والتجدد، والتكرار، وهذا ما يوافقُ قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ النساء 56[3]. وبهذا يكون لاختيار صيغة المبالغة اثره في بيان شدة النار وقوتها لما تحدثه من آثار.

ومن الأَوزان التي وردت في ذكر النار (فُعَلَهُ) بضم ففتح ﴿وهي سماعية سُمعِت للمبالغة﴾[4]. قال تعالى متوعّداً : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ الهمزة1-6، أنعم النظر في قولهِ تعالى (الحطمة) الذي لم يرد في الكتاب العزيز الا في هذين الموضعين[5]، فما الذي يُعنيه لك؟ قال الطبرسي: ﴿الحطمةُ: الكثيرةُ الحطم، اي : الأَكل، ورجلُ حُطمّةُ أَكول (...)، وفُعَلَة من أبنيةِ المبالغة في صفة من يكثُر منه الفعل، ويصيرُ عادةً له، تقول : ضُحَكَة، كثيرُ الضَّحِك، وكذا هُمَزَة ولُمَزَة﴾[6]. وقد ذهب ابنُ دريد من قبلُ الى مثل هذا مفيداً أَنَّ ﴿الحُطمة على صيغة المبالغة من حطم الشيء يحطمه حطماً إذا كسره، والحَطْمَةُ والحُطمِةُ والحاطوم في اللغة هي السَّنَةُ المجدبة؛ لأَنَّها تحطم كل شيء﴾[7]. اما ابنُ المنير في تعليقه على كلام الزمخشري أَوضح لنا موافقةَ صيغة المبالغة (الحطمة) لموقعها الذي نزلت فيه، وهذا ما يتبيّن من قولهِ: ﴿ما أحسنَ مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة!! فإنه لما وسمه بهذه السمة بصيغةَ أَرشدت الى أَنَّها راسخةُ فيه ومتمكنة منه، اتبع المبالغة بوعيده بالنار التي سمّاها الحطمة لما يُلقى فيها، وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنه الذَّنب، حتى يحصلَ التعادل بين الذَّنْب والجزاء، وهذا الذي ضرى بالذنب جزاؤه. هذه الحطمة التي هي ضاربةُ تُحطّمُ كلَّ ما يُلقى

---

[5] ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة، رسالة ماجستير للباحث عودة خليل ابو عودة، اشراف د.كمال محمد بشر: 434-435.

[1] مجمع البيان 355/10.

[2] ينظر: الميزان في تفسير القرآن 10/20.

[3] ينظر: معاني الابنية في العربية. فاضل صالح السامرائي، بغداد، ط1، 1981م: 110.

[4] شذا العرف في فن الصرف 74، ومحاضرات في علم الصرف 27.

[5] ينظر: المعجم المفهرس، 207.

[6] مجمع البيان في تفسير القرآن 537/10 و452/4.

[7] جمهرة اللغة . ابن دريد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط1، 1345: 2/ 172.

اليها»[1]. من هذا يتضح أن الهمزةَ واللمزةَ ذنبان عظيمان، ولما أُريد التعبير عن العقاب الذي ينتظر هذين الذنبين أُختيرت الحطمة لتتوافق مع عظم الذنب المرتكب. اما المحدثون فمنهم الدكتور عبد الحميد هنداوي فلم ينأَ عن هذا المعنى إذ قال: «ومن ثم نلاحظ أَنَّ السورةَ قد وظّفت صيغة المبالغة (فُعَلَة) هنا توظيفاً فنّياً رائعاً فيعتمدُ على التوازي الصرفي بين تكرار صيغة (فُعَلَة) في وصف هذا الآثم، وتكرار الصيغةُ ذاتها في وصف الذي أُعِدَ له مقابل بغيهِ وأشرهِ، وبطرهِ، وعلّوهِ في الشرِّ، وتماديه فيه»[2].

ولبيان قدرة اللهُ عز وجل اللا متناهية يختار تعالى صيغة المبالغةَ فعِيْل. قال تعالى: «إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» البقرة /20، قال الطبرسي (ت 548هـ): «القديرُ مبالغة من صفة القادر»[2] فقد اختار عز وجل هذه الصيغة لبيان قدرته التي لا ترتقي اليها قدرة، وتطالعنا صيغة (فِعّيل) في وصف كتاب الفُجّار ، قال تعالى: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ» المطففين 7-8. قال الطبرسي: «السجِّين، فِعّيل ، من السجن وقيل : السجّين هو السجنُ على التخليد؛ لأَنَّ هذا الوزنَ للمبالغة»[4]. اما الفخر الرازي (ت 606هـ) فقد تابع سابقه على هذا المعنى قائلاً: «سِجِّين، فِعِّيل، من السجن والحبسِ والتضييق، كما يقال : فِسِّيق من الفسق، وقد جاء هذا الوصف من اللهِ تعالى بالتسفّل، والظلمةِ، والضيق، وحضور الشياطين»[5] وهذا الوصف (سجّين) لم يرد في القرآن الكريم في هذين الموضعين[1]. وفي هذين الموضعين من الوعيد ما لايخفى على أحد، سواء أكان الوعيد بالتخليد في السجن، ام بالتضييقِ والظلمة، وحضور الشياطين.

من خلال الآيات الكريمة السابقة الذكر التي وردت فيها الصيغ الدالة على المبالغة يتبيّن ما لهذه الصيغ من أهمية في سياق التخويف لما تحملُه من معانٍ. وحتى معناها الأَصلي وهو التكثير في الفعل جاء دالاً على الاحتراز وكثرة الخوف، كما في قصة يوسف (عليه السلام) كما سبق بيانه. وأما معانيها الأُخر فقد زادت الموقف هولاً وأضفت عليه صفةَ الترهيب لاسيما حين أخبرت عن غضب الله تعالى مضافاً الى ذلك الاستمرار والتجدد اللذين وصفت النار بهما. ومقابلة الجزاء للذنب أحياناً. هذه المعاني حققتها صيغة المبالغة عند مجيئها في سياق التخويف . لعلَّ هناك من يتعظ وهو يتأمّل وينظر في دلالتها .

---

[1] الانتصاف ، طبع مع الكشاف 4/ 795، ينظر : تفسير ابي السعود 901/5.
[2] الإعجاز الصرفي في القرآن 230.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 375/6.
[4] المصدرُ نفسه 451/10.
[5] التفسير الكبير 87/31.
[1] ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم 345.

اختيار صيغة اسم المرّة

اسم المرّة حدث مجرّد من الزمن يدلّ على وقوع الفعل مرةً واحدةً، يُصاغ من الفعل الثلاثي على وزن (فَعْلَة) بفتح الفاء وسكون العين، وهذا هو الاصل[2]. «والغرضُ من هذه الصيغة هو بيانُ عدد الفعل»[3] من المواضع التي جاءت فيها صيغة اسم المرّة في القرآن الكريم قولُه تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ» الدخان 25-27. وقوله تعالى: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً، إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا» المزمّل 11-13. قال الطوسي (ت460هـ) «النعمةُ بفتح النون: التنعيم، وبكسرها منفعة يُسْتَحقُّ بها الشكر»[1]. ولو تأمّلت لفظة (النعمة) في الآية الاولى تجد أنها لفظةٌ مفردةٌ جاءت في سياق الفاظُه كلُّها جمع. وأما في الآيةِ الثانية فقد جاء اللفظ ذاته بعد فعل الأَمر الذي أفاد الوعيد. لقد أَثار بعضُ المفسرين تساؤلاً مفاده، ما السببُ في اختيار اسم المرّة في سياق الوعيد، وأَعطى بعضُ المفسرين جواباً عن ذلك، ومنهم الآلوسي (ت1270هـ) فقد قال: «نعمة بناؤها بناء المرّة، واُخْتير ها هنا تفسير النعمة بالشيء المنعم به؛ لأنّهُ أنسبُ للترك، وهي كثيراً ما تكون بهذا المعنى»[2]. من هذا القول يتضحُ أَنَّ النعمة هي الشيء الذي يُنْعَمُ به، ويمكن لمن أنعم استرجاع نعمته، وحين كانت قابلةً للرّدِ اختير لها بناءُ المرّة. اما احد المحدثين فقد رأى سبباً آخر لهذا الاختيار تمثّل بقوله: «وكأَنَّ المتكلم هنا سبحانه يتبرّأ من التزيّد عليهم، وإنه يستقل كثيراً من نِعمهِ على عبادِهِ، فضلاً أن يتزيّد، فكأنه قال: وربَّ نعمة كانوا فيها فاكهين، فيقولُ السامع : بل كانوا في نِعَمٍ كثيرة، فيكون من باب تقرير المخاطب بالحجَّةِ وإلزامه بها بطريق غير مباشر (...) فضلاً عما في الإفراد بصيغةِ المرّة من الدلالة على كونها نعمة محتقرة لدى الرب لا وزنَ لها عنده؛ لأنّها نعمة الدنيا، لا نعمة الآخرة، وإن كانت عند المخاطب بمكانٍ عظيم، وقد يقال: إنَّ المقام هنا مقامُ تكثير النعم لا تقليلها لابتدائه بـ(كم) الخبرية المفيدة للكثرة، فتقول: إن النكتةَ في الإفراد هي اختصار تلك النعم على كثرتها، وتوحيدُها يدلُّ على أَنها في مجموعها لا تكاد توازي نعمة مفردة من نعم الآخرةِ»[3]. وخلاصةُ القول إنَّ الله يمنُّ على عبادهِ بنعم كثيرة وحين يُريد تذكيرهم بتلك النعم يختار اللفظ المفرد على كثرة تلك النعم؛ لأَنّها محتقرة عنده عز وجل ما دامت دنيوية، «ويزداد الإحساس بجمال صيغة اسم المرّة بمقابلتها بما أَعدَّه الله تعالى للمكذبين من (انكال بصيغة الجمع وجحيم، وطعام ذي غصة) «فهذه النعمة الواحدة الحقيرة جلبت

---

(2) يُنظر : كتاب سيبويه 45/4.

(3) الصرف الواضح 145.

(1) التبيان في تفسير القرآن 232:25 والكشاف 276:4 والمحرر الوجيز 72:5 ومفاتيح الغيب 149:14 وروح المعاني 107/29.

(2) روح المعاني 123/25.

(3) الاعجاز الصرفي في القرآن 98.

لهم صنوف العذاب، وألوانه المتعددة»[4] فكيف إذا كان اللفظ جمعاً، اي ، نِعَمْ فكيف يكون العذاب المعدُّ لهم؟

إذا تأملت الآيات التي تنبئُ عن قيام الساعة تجد اسم المرّة رافقها كثيراً، ومن تلك الآيات قوله تعالى: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ» الحاقة 13-15. إذا تأملت قوله : نفخة، دكة، تجد «كل كلمةٍ تدلُّ على حدثٍ مجرَّد من الزمن ، والنسبةِ، والذات (...)، وإذا دققت النظر فيها وجدت كلَّ كلمة من هذه الكلمات دلَّت على وقوع الحدث مرةً واحدةٍ لاغير»[1]. وقد أورد الزمخشري (ت 538هـ) تساؤلاً في سبب ذكر (واحدة) بقوله : «فإن قلت : هما نفختان، فلم قيل: واحدة؟ قلت : معناه أنها لا تُثنّى في قوتها»[2]. وجاء في هامش الكشاف قولُ لابن المنير يفيد سبباً آخر يتمثل بقوله: «وامّا فائدته الإشعار بعظم هذه النفخة، وإنَّ المؤثّر لدكِ الأَرض، والجبال، وخراب العالم هي وحدُها، غير محتاجةٍ الى أُخرى»[3]. ويرد بناء اسم المرّة في بيان شدة العذاب. قال تعالى: «وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» الأَنبياء 46. فقد جاء التعبيرُ عن العذاب ببناء المرّة وهو قولُه نفحة[4]. «والتعظيمُ مستفادُ من البناءِ للمرّةِ ، ومن الكلمةِ نفسها؛ لأَنَّها من قولهم نفحت الريح، إذا هبّت، اي: هَبَّة»[5]. إذا تأمّلت الآيات السابقة الذكر تجد إحداهما ذكرت بدء يوم القيامة والثانية عبّرت عن عذاب الله عز وجل، وقد وظّفت صيغةُ اسم المرّة توظيفاً بليغاً فيهما، فهذا الكون العجيب إذا قربت الساعة لا يحتاج إلاَّ الى نفخةٍ واحدةٍ، ودّكة واحدة لقلب نواميس طبيعتهِ، وذلك الإنسان الظالم العنيد لا يحتاج إلاّ الى نفحةٍ واحدة من العذاب ليُذهبَ به أدراج الرياح ويُرمى في جهنم جزاءً على ما قدَّمه لنفسهِ، ومن هذين المعنيين تتبين قدرةُ الله عز وجل لما يريد فعله، الى جنب ضعف الإنسان وصغر شأنهِ، وما هذا الا تحذيراً. ومن المواضع التي اختير فيها صيغة اسم المرّة ما جاء على لسان نوح (عليه وعلى نبينا وآله السلام) حين نبّه قومه، قال تعالى: «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» الاعراف 60-61. ويمكن لك بوضوح أن تلاحظ العدول الذي عمدت اليه الآية المباركة من صيغة المصدر (ضلال) الى صيغةِ اسم المرّة (ضلالة). لقد وقف بعض المفسرين عند هذا يبينون السبب في اختيار اسم المرّة فقد ذكر

---

[4] المرجع نفسهُ 99.
[1] الصرف الواضح 145.
[2] الكشاف 601/4.
[3] المصدر نفسه 601/4.
[4] ينظر: الكشاف 119/3، الميزان في تفسير القرآن 291/14.
[5] الايضاح في علوم البلاغة 30.

الفخر الرازي (ت 606هـ) أَنَّ صيغة اسم المرّة حين دخلها النفي نُفِي أيُّ نوعٍ من أَنواع الضلالة، فكأَنَّ اسم المرّة أبلغ في عموم السلب[1]. «ولفظُ مبين بصيغة اسم الفاعل، اي: على ضلال بَيِّن، واضحٍ ثابتٍ، فناسب ذلك أن يسلك نوح (ع) في نفي هذا الاتهام مسلكاً آكد وأَبلغ في إثباته؛ فلذا عدل من صيغة المصدر الى صيغة اسم المرّة، وذلك لأَنَّ اسم المرّة لا يدلُّ الا على الفعلة الواحدة، ونفي الأَدنى من نفي الاكثر»[2]. اما الآلوسي (ت 1270هـ) فقد ذهب الى ما ذهب اليه سابقوه، وذلك بقوله: »فيرجع حاصل المعنى، ليس بي أقلُّ قليل من الضلال فضلاً عن الضلال المبين»[3]. من الأقوال السابقة يتبين أَنَّ نوح (ع) حين نفى القليل من الضلال عن نفسهِ، انتفى الضلال الكثير. كما أن نوح (ع) قال: ضلالة؛ لأَنَّ هذا القول من جملة النصيحة التي نصح نوح (ع) قومه بها. فهو نصحهم بعدم اتهامهم اياه بأقل الضلال وإن خالفوا تلك النصيحة يستحقوا العقابَ. والنصيحة لا تخرج من معاني التخويف والتحذير.

اختيار صيغة المفرد

اختار الله عزّ وجلّ في كتابهِ العزيز صيغة المفرد في مواضع عدّة. وكان لهذا الاختيار أثرهُ في الإيحاء بشدةِ المعنى وغلاظتهِ تفوق غلاظة وشدة اللفظ لو جيء به بصيغة الجمع. فلنتدبّر معاً بعض آيات الذكر الحكيم ونقف سوية عند ماقاله بعض المفسرين لنلاحظ سر اختيار صيغة المفرد. قال تعالى: «**تلك حدودُ الله ومن يطع الله ورسوله يُدخله جنّاتٍ تجري من تحتها الأَنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدود الله يُدله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**» النساء 13-14. وأنت تلاحظ الآيتين المباركتين اختار الله عز وجل (خالدين) بعد ذكر من يُطيعُه ويُطيعُ رسوله الكريم (ﷺ)، أما عند ذكر العاصي والمتعدي قال : (خالداً)، ففي الأولى جمعُ والثانية مفردُ فهل هناك سرُ لهذا العدول (من الجمع الى المفرد)؟ هذا ما أجاب عنه أبو السعود بقوله: «ولعلَّ إيثار الإفراد ها هنا نظراً الى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هاهنا الى ظاهر المعنى، للإيذان بأَنَّ الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأُنس، كما أَنَّ الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أَشدُّ في

---

[1] يُنظر : التفسير الكبير 150/ 151.

[2] تفسير الجلالين جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، طبع مع الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الاستقامة ، مصر: 202/1.

[3] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 8/ 151.

استجلاب الوحشة»[1]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: «**إِنَّ شجرةَ الزقوم طعام الأَثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثُمَّ صبوا فوق رأسِهِ من عذاب الحميم ذق إنك انت العزيز الكريم إِنَّ هذا ما كنت به تمترون أَنَّ المتقين في مقام وآمين في جنات وعيون**» الدخان 43-52. اذا تأملت الآيات الكريمة تلاحظ إفراد الكفّار، وذلك بيِّنٌ من قوله :

«الاثيم، فاعتلوه، رأسه» فالمقصودُ من هذا هو الكافر. أما المتقون فقد جاء ذكرهم بصيغة الجمع إذ قال تعالى : «المتقين» وهذه هي سُنَّة القران الكريم إذا أَراد ذكر الكافر عبر عنه بصيغة الإفراد ويسند الجمع للمؤمنين «وتلمحُ في هذه الآيات إفراد الأَثيم في مقابل جمع المتقين (...) ، لتؤدي صيغة المفرد معنى انفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة، والوحدة، والغربة فوق عذاب الجحيم، في مقابل استئناس المؤمن بصحبهِ ورفاقهِ. فترى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف، وذلك النعيم المضاعف، وبهذا تؤدّي صيغة المفرد في مثل هذا السياق معنى الوحشة، والوحدة، ومعاناة الم الغربة، والافتراق، والتعذيب»[1] مما سبق تتبين فائدة اختيار صيغة المفرد في سياق الوعيد، ويمكن ان يضاف اليها غرض آخر، وهو إذلال الكافر وتحقيره، واستصغار شأنهِ، الى جنب إعزاز المؤمن وإجلاله عند ذكره بصيغة الجمع. وهذه الطريقة تدل على التحذير من الكفر الى جانب الترغيب في الايمان. ومن اختيار صيغة المفرد في القرآن الكريم إفراد كلمة (النور) مقابل جمع الظلمات. لو تتبعت القرآن الكريم تلاحظ افراد النور مقابل جمع الظلمات هي السُّنَة التي اعتمدها دون استثناء ايِّ آيةٍ ، والشواهد على ذلك كثيرة سيقتصرُ الباحث على انموذج منها.

قال تعالى: «**الله وليُّ الذين آمنوا يُخرجُهم من الظلمات الى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخرجوهم من النور الى الظلمات**» البقر 257. وأنت تلاحظ بشكل لاغبار عليه جمع الظلمات وإفراد النور. لقد وقف الكثير من المفسرين عندهذه الحالة وابدوا اراءً فيها، ومن المفسرين أبو حيان الاندلسي (ت754هـ) فقد قال: «جُمِعَتْ الظلمات لإختلاف الضلالات، ووحّدَ النور؛ لأَنَّ الايمان واحد»[2]. وقد تابع الآلوسي (ت1270هـ) سابقه على هذا مضيفاً اليه وجهاً آخر فقد قال: «أُفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمعَ الظلمات لتعدد فنون الضلال (...)، وفي إفراد النور وجمعِ الظلمات إيماءُ الى قِلَّةِ أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، فالنورُ إيماءُ الى القلّة، والظلمات إشارة الى الكثرة»[3] من هذين القولين يتضح إنَّ هذا القول أَفاد التحذير من اتباع الطُرُق المتشعّبة التي لا مخرج منها، والحث على سلك السبيل الواحد على الرغم من قلّةِ سالكيه فإنَّه أَمين . فالتحذير جاء بإسلوب فُهِمَ من السياق

---

[1] تفسير ابي السعود 154/2.
[1] الاعجاز الصرفي في القرآن 112.
[2] البحر المحيط 283/2.
[3] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 14/3.

القرآني. وفي سياق التخويف وبيان قدرة الخالق قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ الجن 8-9. لنتأمل معاً ما قاله العلماء في قوله تعالى : (حرساً) قال الزمخشري (ت 538هـ): ﴿الحرسُ اسمُ مفردُ في معنى الحراس، كالخدم في معنى الخدّام، ولذلك وصِفَ بشديد، ولو ذهبنا الى معناه، لقيل: شِدادا، والرصدُ مثل الحرس اسمُ جمع للراصد﴾[1]. وقال الطيبي: ﴿شهاباً رصداً، نزَّلَ الواحدَ منزلةَ الجمع لوصفه به إظهاراً لكمال صفتهِ﴾[2]. العالمان اجتمعا على كلمة واحدة، فذلك الحرسُ بمفرده والشهاب بمفرده قادرُ على حفظ السماء، لقوّتهِ، وعظمتهِ التي منحها إياه خالقهُ، وفي ذلك بيانُ لقدرة الله عز وجل التي لاتخفى، أما أحد الباحثين المعاصرين فقد وجّه هذا الاختيار توجيهاً آخر، إلا أَنَّه لم ينأَ عن سابقيه فقد قال: ﴿الإفرادُ إشارةُ الى وحدة الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأَنَّهم حارس واحد، فليس ثمَّة اختلاف بينهم، ولا تفرّق، ومن ثم فأيُّ شيطان يحاولُ استراق السمع يتوجهون اليه جميعاً فيضربونه ضربةَ ملك واحد﴾[3]. وفي هذا تخويف وتهديد للشياطين بطريقة إظهار قوّة ووحدة خصومهم وهم الملائكة. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ النازعات /5. فقد اختار تعالى صيغة المفرد (امراً) مع أن الملائكة تدبر اموراً كثيرةً ﴿جاء اللفظ مفرداً: للدلالة على وحدة الآمر (...) وتفرّده بالأمر والنهي، أو يكون ذلك دلالة على وحدة المأمورين في أداء أمره سبحانه، كما يمكن عدّ تلك الأُمور على كثرتها بمنزلة الامر الواحد﴾[4].

ومن اختيار صيغة المفرد ايضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ التكوير 40، وليس خافياً على أَحد أَنَّ هذه الآيات تذكر شروطاً للإعلان بأَنَّ يوم الحساب قد وقع حتى تعلمَ النفسُ ما قدّمت لهذا اليوم. وأنت تقرأ هذه الآيات الكريمة وتشعر أَنك المقصودُ بها يتبادرُ الى ذهنك سؤالُ ، لم قيل : نفس، بصيغة الإفراد، ومعلوم أَنَّ كلَّ انسان سيعلم ما قدَّمَ، فكان ينبغي أَنْ يقال : نفوس . او في أقلِّ تقدير، يقال : أنفس على جمع القلّة؟ وللإجابة عن هذا السؤال لنتأمّل بعضَ ما قاله المفسرون في هذه الآية ، قال الزمخشري (ت 538هـ) : ﴿علمت نفسُ، قلتُ: هو عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفرادَ فيما يعكس عنه، وهو من قولهِ ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ

---

[1] الكشاف 146/4.

[2] التبيان في المعاني والبيان ، الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مكة المكرمة: 1/ 153.

[3] الإعجاز الصرفي في القرآن 176.

[4] المرجع نفسه 243.

﴿كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الحجر /2، ومعناه كم ، (...) وتقولُ لبعض قوّاد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رُبَّ فارسٍ عندي، أولا؛ لعدم فارسٍ عندي، وعنده المقانب وقصدُه بذلك التمادي في تكثير فرسانهِ، ولكنه أَراد اظهار براءته من التزيّد، وأَنَّه ممن يقلل كثير ما عنده، فضلاً أن يتزيّد، فجاء بلفظ التقليل ففُهِمَ منه معنى الكثرة على الصّحة واليقين»[1]. أَمَّا ابنُ عطية (ت 541هـ) فقد تابع سابقه على هذا الرأي مع إضافةِ فائدة اخرى فقد قال: «نفسُ هنا اسمُ جنس، اي : علمت النفوس، ووقع الإفرادُ لتنبيه الذهن على حقارة المرء وقلَّةِ دفاعهِ عن نفسه»[2]. ومما لا يخفى أَنَّ أَغلب المفسرين يطلع اللاحق على ما كتبه السابق فيُعارضُه حيناً ويتابعه عليه حينا ويضيف الى ما قاله احياناً أُخر، وحسب هذه الطريقة تجد مفسراً يقول : «الإفرادُ لتهويل ذلك اليوم، وإظهار لكبرياء الله وعظمته، حتى كأَنَّ جميع النفوس البشرية في جنب ما خلقه من الأَجرام السماوية العظام أمور قليلة ونفوس حقيرة»[3]. اما الآلوسي (ت 1270هـ) فقد رأى الإفراد في الآية يُفيد المبالغة؛ لأَنَّ استعارة أَحد الضدين للآخر تُفيد المبالغة للتعكيس[4]. كما أَنَّ التعبير بالمفرد في قولهِ (نفس) دون الجمع «يتجاوب مع الانقلاب الهائل الذي يحدث في جميع الكون وانعكاس الخلق»[5]. وذلك الانقلاب الهائل هو تغيّر الكون وخرق نواميس الطبيعة التي اعتادها البشر الذي اخبرت السورة المباركة عنه من آيتها الاولى وحتى الآية محل البحث. باستقراء الاقوال السابقة الذكر يتضح أَنَّ اصحابها قد أجمعوا على معنى واحد، وإنْ تباينوا في التعبير عنه، وهو أَنَّ اختيار صيغة المفرد في هذا الموضع قُصِدَ به التفخيم والتهويل، فكأَنَّ تلك النفوس الكثيرة من الأَولين والآخرين نفس واحدة عند الله لبلوغهِ من العظمة والكبرياء مما لايوصف.

أَما أَحد الباحثين المعاصرين فقد جمع ما رآه سابقوه في هذه الآية فيما ذهبوا اليه اذ ذكر «إنَّ المرءَ إذا سمع قوله تعالى: ﴿علمت نفسٌ ما احضرت﴾ قال في نفسه: سنعلم جميعاً، ففيه من البلاغة تقريرُ المخاطب بما عليه، والزامه بإقامة الحجة على نفسهِ، ويمكن أَن يكون قُصِدَ به التحقير، فكأَنَّ الآية تُلمح الى مجيء هذا المرء الى المحشر وحيداً ليس معه أَعوان ولا شفعاء ، حيث أَنَّها تعلمُ متجرّدةً، منفردةً، مع كثرة نفوس ذلك المشهد»[1].

ونظيرُ هذا ما جاء في سورة الانفطار التي تلي سورة التكوير، قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ

---

(1) الكشاف 189/4 و"المقانبُ: جَمْعُ مقنب، والمقنبُ من الخيل ما بين الثلاثين الى الأَربعين، وقيل: زهاء ثلاث مائة". لسان العرب 69/1.
(2) المحرر الوجيز 443/5.
(3) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي 328/8.
(4) ينظر : روح المعاني 8/14 و 57/30.
(5) الاعجاز الصرفي في القرآن 109-110.
(1) الإعجاز الصرفي في القرآن 109-110.

﴿وَأَخَّرَتْ﴾ الانفطار 1-5، فما قيل في سورة التكوير يمكن أن يقال في سورة الانفطار لاسيما أَنَّ استعمال صيغة المفرد (نفس) ، ودلالة يوم القيامة يُطالعُنا في السورتين.

اختيار صيغة الجمع

ورد في الذكر الحكيم في مواضع عدة منه إيثار صيغة الجمع على المفرد؛ لما تحمله صيغة الجمع من معانٍ تتوافق مع السياق أكثر توافقاً من المفرد، لاسيما أَنَّ السياق الذي ترد فيه صيغة الجمع يُفيد التخويف والترهيب، وتلك المواضع كثيرة يتعذّرُ حصرها في هذا الموضع الاَّ أَنَّ الباحث يقتصرُ على بعضها لبيان الصورة. قال تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يُبصرون﴾ البقرة 17. في هذا الموضع يُمثّلُ الله تعالى تكاثر الشبهات على المنافقين حين تخلّوا عن الإيمان بمن انطفأ نوره، فصار في ظلمة حالكةٍ وقد أُختِيرَ لبيان هذا المعنى صيغة الجمع (ظلمات) ، قال البقاعي: ((أي: ظلماتُ لا ينفذ فيها بصر، فلذا كانت نتيجته لايُبصرون، أي : لا بصَر لهم أصلاً ولا بصيرة))[1]. من هذا يتضحُ أَنَّ الظلمات تعدَّت معناها الحقيقي وهو الظلمةُ الناتجة عن ذهاب النور الى ظلمة البصيرة التي ذهب نور الإيمان عنها، وفي هذا زيادةُ التخويف لمن مثل حالهم. قال القرطبي (ت 671هـ): ((جَمْعُ الظلمات إشارة الى ظلمةِ الليل، وظلمة الدجن وهو الغيمُ ، من حيثُ تتراكب وتتزايد))[2]. أما الآلوسي فقد ظلَّ في المعاني ذاتها فقد قال: ((قد يكون تكثير الظلمات هنا إنّما هو باعتبار عظم ما هم فيه من الكفر والضلالة، فهي وإن كانت ظلمة واحد لكنَّها لشدتّها أُستُعِيرَ لها صيغة الجمع مبالغة))[3]. واما السيد عبد الأَعلى السبزواري (قدس سره) فقد تابع سابقيه على هذا مضيفاً اليهم معنى آخر، يتضح من قوله: ((تركهم في ظلمات، اي : أذهب اللهُ جميع مراتب النور عنهم في الدنيا والآخرة، بل سلب جميع الكمالات الإنسانية))[4]، وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى : ﴿او كصيّبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق﴾ البقرة 19. ((فتكثيرُ الظلمات أما باعتبار قوتِها، وأما باعتبار كثرتها))[5]. ومنه ايضاً قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ النور 40. وهذا للإشارة الى ظلمة البحر وظلمة الموج فوقه، وظلمة السحاب فوق الموجُ.

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين ابي الحسن ابراهيم بن عمر البقاع، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن: 119-120.
(2) الجامع لأحكام القرآن 216/1.
(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: 187/1.
(4) مواهبُ الرحمن في تفسير القرآن 116/1.
(5) الاعجاز الصرفي في القرآن 113.

من الآيات الكريمة التي جمعت (الظلمات) يتضح الإيحاء بشدة الظلمة، ودوامها بدوام المخاوف المحيطة بتلك الظلمة، فظلمةُ عدم الإيمان، وظلمةُ السماء المصاحبة لنزول الصيّب وأصوات الرعد والبرق، وظلماتُ البحر كلُّها جاءت لتصوّر معنى من معان الظلمة ألا وهو زيادةُ الموقف هولاً وتخوفاً لمن يسمعه، فهذا هو تحذيرُ للسامع كي لا يكون ممن وصِفَ بهذا الحال. ومن اختيار صيغة الجمع قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي﴾ المؤمنون 99. قال النّحاس (ت338هـ): ﴿إنَّ معنى ارجعونِ، على جهة التكرير، ارجعنِ، ارجعنِ، ارجعنِ﴾[1] فحين أُطْلِقَ اللفظُ بصيغةِ الجمع يتبين أَنَّ طلب الرجعة يتكرر مرةً بعد مرّة. ويقرب من هذا قولُ الطبرسي (ت 548هـ) فقد قال: ﴿حيث جاءت صيغة الجمع لتُعبّر عن الإستغاثة باللهِ أولاً، ثم الرجوع الى مسائلة الملائكة﴾[2]. فمن أُلقي في النار أخذَ يصرخُ ويجدد صراخَة لعلَّ من يستجيب له، إلاَّ أَنَّ الاستجابة تكون بالرد ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ المؤمنون 100، فأيُّ تحذير وتخويف بعد هذا؟ ولهذا فضّلت الآيات الكريمة صيغة الجمع على المفرد؛ لكون الجمع اكثر توافقاً مع السياق، ولم يقف التفاضل عند هذا الحد بل ذهب الى أبعد منه فقد عمدت بعضُ الآيات الى المفاضلة بين صيغ الجمع المختلفة إذ اختارت صيغة جمع دون صيغة جمع أخرى.

أنعم النظر في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل 112. وأنت تلاحظ قوله (أنْعُم) بصيغة جمع القلّة مع أَنَّ النعم التي وهبها الله لهذه القرية كثيرة بدليل قوله: ﴿يأتيها رزقُها رغداً من كلِّ مكان﴾ ، فما السبب في اختيار صيغة جمع القلّة؟ قال ابو السعود : ﴿وإيثار جمع القلّة للإيذان بأَنَّ كفران نعمة قليلة أوجبَ هذا العذاب، فما ظنُّكَ بكفرانِ نعم كثيرة؟﴾[3]. وهذا مانبّه عليه ابو السعود يناسب مقام التخويف لهولاء الكافرين الجاحدين نعم الله تعالى.

اختيار صيغة افتعل

تأتي هذه الصيغة لمعانٍ عدة منها: الاجتهاد ، والطلب، والتصرّف، والمبالغة في الفعل[1]. من المواضع التي جاءت فيها صيغة أفتَعَل قولُه تعالى: ﴿لا يكلّفُ اللهُ نفساً الا وسعها

---

[1] اعراب القرآن 427/2.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 117:7 و ينظر : التبيان في اعراب القرآن 2/ 960.
[3] تفسير ابي السعود 145/5.
[1] ينظر: شرح الشافية 108/1 ،شذا العرف في فن الصرف 44.

لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ البقرة 286. وانت تلاحظ الآية المباركة استعملت مرةً الفعل (كسب) وأخرى (اكتسب) والفرقُ بين الفعلين أوضحه سيبويه بقوله: ﴿وأما كسب فإنه يقول : أصاب، وأمّا اكتسب فهو التصرّف والطلب، والاجتهاد بمنزلة الاضطراب﴾[2]. وقال ابن عطية (ت541هـ): ﴿لها ما كسبت من الحسنات، وعليها ما اكتسبت من السيئات﴾[3]. اما القرطبي (ت 671هـ) فقد تابع سابقه على هذا بقوله: ﴿الحسناتُ هي مما يُكسبُ دون تكلّف، إذ كاسبها على جادة أمر الله تعالى، ورسم شرعهِ، والسيئاتُ تكتسبُ ببناء المبالغة، اذ كاسبها يُتكلّف فيه، وفي أمرها خرق حجاب نهي الله فيَحسنُ في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذا المعنى﴾[4]. والى مثل هذا ذهب السمينُ الحلبي فقد ذكر أَنَّ الايةَ عندما أرادت التعبير عن الشر عمدت الى الاكتساب للدلالة على التكلّف والاجتهاد والاضطراب والتصرّف لأَجلِ تحصيل المعصية ويناسبُ ذلك ما في المعصية من مخالفة الأعراف والفطر السليمة، مما يدعو العاصي الى الاحتيال فيها، كما أَنَّ افْتَعَلَ تدلُّ على الكلفة، وفِعْل السيئة شديد لما يؤول اليه[5]. أما السيد عبد الأعلى السبزواري الموسوي فقد ذهب الى ما ذهب اليه سابقوه مضيفاً عليهم بعضَ المعنى فقد قال : ﴿الاكتسابُ: هو الكسبُ مع المبالغة والتكلّف، وقيل : إنَّ الكسبَ هو ما يستفيدُه الإنسان لنفسهِ، والكسبُ أعمُّ من أَن يكون لنفسهِ أو لغيرهِ، فكلُّ اكتساب كَسْب، ولا عكس، واكثر استعمال الاكتساب في القرآن الكريم في الإثم، وما يكون ضراً على الإنسان، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ النور 11، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ الاحزاب 58، ولعلَّ وجه التخصيص في الاكتساب في الشر والكسبُ في الخير، لأَنَّ الاكتساب فيه إعمال ومشقّةُ حاصلةُ مع تحمل الجزاء العظيم الشديد أو لأَنَّ النفس تعمل بجميع قواها في تحصيل الشر﴾[1].

من استقراء الأَقوال السابقة يتبين اتفاق العلماء في الآية المباركة على أَن الكسب اختص بالخير، والاكتساب بالشر. ولو تدبّرت الآية الكريمة ثانية تجد الفعل كسب قد سُبق بـ(لها) إذ ذُكِرَ معه حرفُ الجر اللام؛ لأَنَّ الحسنة تعود بالنفع لصاحبها، وأمّا قوله: (اكتسب) فقد سُبق بـ(عليها) فقد جاء حرف الجر (على)، وكأَنَّ الاية تريد إفادة أَن الذنب وزرُ ثقيل يحمله المذنب على ظهره، هذا من جهة، ويمكن النظر الى هذا الاختيار من جهة ثانية وهو ان زيادة البناء في الكلمة رافقتها زيادة في المعنى، قال الزمخشري: ﴿إِنَّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى﴾[2]. فزيادة الهمزة في قوله (اكتسب) اصطحبت معنى اضافته الى قوله : (كَسَبَ). والمعنى المصطحب هو دلالة التكلف في الطلب والاجتهاد فيه.

---

[2] كتاب سيبويه 74/4.
[3] المحرر الوجيز 313/1.
[4] الجامع لاحكام القرآن 431/3.
[5] ينظر : الدر المصون 697/1.
[1] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 8/ 166-167.
[2] الكشاف 1/ 41.

ومن المواضع التي جاءت فيها صيغةُ (افْتَعَلَ) قولُه تعالى: ﴿اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلاً ما تذكرون﴾ الاعراف 3. فقد اختارت الاية (اتبعوا) مرّتين لتأمر المؤمنين اتباع ما أُنْزِل اليهم من الله مرة.واختارت صيغة (افْتَعَلَ) لتدل على الاجتهاد في سلك شرع الله سبحانه، وأمّا (اتبعوا) الثانية التي تحملُ الوزن ذاته أفادت الاجتهاد في نهي النفس عن اتخاذ شركاء لله. والنكتةُ فيه أَنَّه نهى عما تكلّفه صاحبُهُ وقصد اليه دون ما وقع بغير كلفة أو قصد.[3] ومن المعنى ذاته قوله تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص26. فقد جاء قولُه تعالى (تتبع) مسبوقاً بنهي فيمكن ما قيل في الآية السابقة من معانٍ افتعلَ من الاجتهاد والمبالغة في الطلب، والكلفة، أَن يقال في هذه الآية المباركة. وعندما أَراد تعالى ان يُخبر عن دنو الموعد الذي لابدَّ منه عمد الى صيغة افْتَعَلَ، حيث قال: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ القمر 1. فقد اختار عز وجل (اقْتَرَبَ) لما يحمل من معانٍ تتوافق مع تلك الساعة، قال الطبرسي : ﴿في (اقتربت) زيادة مبالغة على قَرُبَ، كما أَنَّ في اقتدر زيادة مبالغة على قَدَرَ، لأَنَّ أَصلَ أفتَعَلَ إعداد المعنى للمبالغة ، نحو: اشتوى ، إذا اتخذ شواءً ، في المبالغة في اعداده﴾[1]. فاختيارُ صيغة (افتعل) في سياق التخويف أَفادت الحث على الاجتهاد والطلب والمبالغة في الأَفعال التي امر بها الله عز وجل ، الى جنب الاجتهاد في محاربة الهوى وعدم اتباعه.

اِختيار صيغة انْفَعَلَ

هذه الصيغة هي الفعل الثلاثي المزيد بالهمزةِ والنون، في أوّلهِ، ذهب العلماء الى أَنَّ الأَصل الغالب على هذا البناء ان يجيءَ مطاوعاً للفعل الثلاثي المتعّدي لواحد، فقد أشار سيبويه الى هذا بقوله : ﴿ما طاع الذي فعله على (فَعَلَ)﴾[2]. و﴿المطاوعة قبولُ أثر الفعل﴾[3]. لو تتبعت صيغة انْفَعَلَ في الكتاب العزيز تلاحظ تكرارها الواضح في الآيات التي تُنبئ عن وقوع القيامة، فقد عمد القرآن الكريم الى هذه الصيغةِ دون غيرها لإفادة هذا المعنى، والشواهدُ على هذا كثيرة جداً. يقتصرُ الباحث على بعضها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ

---

[3] ينظر: الاعجاز الصرفي في القرآن 133.
[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 185:9.
[2] كتاب سيبويه 65/4 وينظر: المقتضب، للمبرّد تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت: 114/2 والممتع في التصريف 1/ 189 و191.
[3] شرح الشافية 108/1 والصرف الواضح 103.

انكَدَرَتْ﴾ التكوير 2. وقال تعالى: ﴿وإذا السماءُ انفطرت﴾ الإنفطار 2، وقال تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ الانشقاق 1. تقول الدكتورة نجاة الكوفي: ﴿إنَّ هذه الصيغة إنما تُسنُد للفاعل الذي ينفعلُ للحدث بسرعةٍ وطواعية لحظة البدء فيه، فلا يصحُّ أَنَّ تقولَ: فتحته فإنفتح فيما أُحْكِمَ إغلاقُه﴾[4]. ومما لاريب فيه أَنَّ النجوم والسماء قد أُحْكِمَتا إحكاماً لا يبلغ كنهه أَحد، ولا يقوى أحدُ خرقه الا أَنَّه حين صيغ لها أفعالُ للمطاوعةِ جاءت تلك الأَفعال دالةً على اِستجابة ذلك الكون وطواعيتهِ وتأثّره بكلمة خالقهِ، وعلى هذا جاءت الآيات دالة على سرعة التأثّر والاستجابة والمطاوعةِ برغم الإحكام في خلق النجوم والسماء، وهذا تخويف وتحذير من يوم القيامة.

صيغة تَفَعّلَ

من معاني هذه الصيغة الدلالةُ على حصول الفعلِ مرةً بعد مرة، فقد صرَّحَ بهذا المعنى الكثير من علماء اللغة[1]. أمَّا الصرفيون فالمعنى ذاته نجده عندهم فقد ذكروا أَنَّ من معاني هذه الصيغة ﴿التكلّف مثل (تصبَّر، وتحلَّم) أي: تكلّف الصبّر والحلمَ، والتدرج في الشيء، والعمل المتكرر في مهلةٍ، وتأتي بمعنى اسْتَفْعَلَ دالة على الطلب﴾[2]. من المواضع التي جاءت فيها هذه الصيغة في سياق الوعيد، لاسيما التوعّد لآكل الربا قوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذي يتخبطُه الشيطانُ من المس" البقرة 275. أنعم النظر في قوله تعالى (يتخبطه) تجد فيه معنى المطاوعة لـ(فَعَلَ) ، ﴿والمطاوعةُ: أن تريدَ من الشيء أمراً ما فتبلغهُ﴾[3]. ﴿وفي صيغة يتخبطهُ صيرورة الشيء﴾[4]. من هذين القولين يتبين أَنَّ آكلِ الربا مطاوعٌ لوليهِ الشيطان الذي أغراه في أكل الربا من قبلُ، واليوم أطاعه في التخبّط والصيرورة للأَمر الذي يُمليه عليه وليُّه. ومن المواضع التي جاءت فيها صيغة (تَفَعّلَ) ماجاء في قصة موسى (عليه وعلى نبينا واله السلام) ، قال تعالى ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الأَعراف 117. ﴿وهذا فيه صيرورة الشيء﴾[5]. مضافاً اليه كثرة التلقف[6]. وفائدة كثرة التلقف لمواجهة السحرة وهذا التعبيرُ بقدر ما فيه طمأنة موسى (ع) فيه إرعابُ للكافرين بأن تلك العصا الواحدة ستقضي على عصيهم واحدةً بعد الاخرى. ومن

---

(4) أبنية الأفعال، دراسة لغوية قرآنية، الدكتورة نجاة الكوفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989: 61.
(1) ينظر: المخصص، لإبن سيدة، بيروت: 218/14، وديوان الادب للفارابي ، تحقيق: احمد مختار عمر، مطبعة الامانة، مصر، 1976: 2/ 465.
(2) شرح الشافية 104/1-106 ، وينظر : شذا العرف في فن الصرف 45.
(3) الممتع في التصريف 185/1.
(4) الصرف الواضح: 105.
(5) المرجع نفسه: 105.
(6) ينظر : روح المعاني: 49/3.

المعنى ذاته قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يوسف 87. وليس خافياً عليك أَنَّ هذا من جملة ما قاله يعقوب (ع) لبنيه يحثهم على البحث عن يوسف (ع)، والمتأمّل في سياق الآية المباركة يجد الصيغة قد وظّفت معانيها من تكرار الفعل مرة بعد مرّة، والتكلّف بما يتوافق ومقتضى الحال الذي جاءت فيه، فيعقوب (ع) حسَّ بفطنتهِ، ونور بصيرته وراء اولاده شيئاً اخفوه لذا جاء التعبير بصيغة (تَفَعَّلَ) لتُعبِّرَ عن التصبرّ في البحث والتدرج والتكلّف فيه والعمل المتكرر حتى يصل الى حقيقة الأمر. كما أَنَّ الصيغة في هذا الموضع أَفادت معنى اخر أَوضحه احد الباحثين بقولهِ: «عبرت الصيغةُ عن الحيطة والحذر؛ والتمهّل في تحسيس الخبر، لأَنَّها بمعنى الطلب (...) ، فجاءت تلك الصيغة معبرةً تماماً عن الأَمر المطلوب، وهو تقصّي الخبر مع الحيطة والحذر»[1]. ولم يكن هذا الباحث وحده السابق لهذا المعنى فقد ذهب من قبلُ عدد من المفسرين الى ما يقربُ من هذا[2]. وفي سياق الوعيد ترد صيغة (تَفَعَّلَ) لترسمَ صورةً للجّبار العنيد وهو يتناول شرابه الذي قُدِّمَ له، قال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ابراهيم 17/16. فقد جاءت صيغة (تَفَعَّلَ) لتفيدَ معنى يتوافق مع شدة وقع الألم التي تنتج عن الشراب.

قال سيبويه : «وأَمَّا يتجرّعُه، ويتحسسّاه، ويتنوّته، فهو يتنقصّهُ، لأَنَّه ليس معالجتك الشيء بمرّه، ولكنه في مُهلةٍ»[3]. وقال الطبرسي (ت548هـ): «التّجرّعُ يتناولُ المشروب جرعةً جرعةً على الاستمرار، والإساغة»[4]. من هذين القولين يتضحُ أَنَّ التجرّع هو التكلّف في الجرع، والتدرج فيه، بسبب شدة وقه الالم الذي يحدثه الشراب، وهذان المعنيان من معان صيغة (اِفْتَعَلَ) . ومن الوعيد ايضاً قولُه تعالى : «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا» الحجر/3. قال الطبرسي (ت 548هـ): «التمتع: التلذذ ، وهو طلبُ اللذّةِ حال بعد حال»[1]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: «وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً» المزمل 11. قال الآلوسي (ت1270هـ): «التمهيل: التفعيل ، لتكثير المفعول»[2]. والتكثير الذي أَمر به الله تعالى في ظاهر الآيتين عملُ مبغضُ لحضرتهِ عز وجل الا أَنَّه من باب «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» القلم/44. فيريدُ الله إعطاءهم مهلةً حتى يأتيهم العذاب، وهذا من معاني الصيغة.

---

[1] الاعجاز الصرفي في القرآن 134.
[2] ينظر: المحرر الوجيز 274/3، التفسير الكبير 18/ 135- 136، روح المعاني 44/13.
[3] كتاب سيبويه 72/4.
[4] مجمع البيان في تفسير القرآن 307/6.
[1] المصدر نفسه 326/6.
[2] روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني 107:29.

صيغة أَفْعِلْ

من المواضع التي وردت فيها هذه الصيغة متوعدة الكافرين قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ الطارق 15-17. فقد عبّرت الآية المباركة بصيغة (فعّلْ) المشددة العين في قوله (مهّل) ثمَّ عدلت الى (أَفْعِلْ) في قوله تعالى (أمْهِلْ) ، وقد حمل بعض المفسرين العدولَ من فَعِّلَ الى أَفْعِلْ لتحسين نمط الكلام، فالمخالفةُ بين اللفظين أريد بها زيادة التسكين والتصبّر لرسول الله (ﷺ)[3]. قال الزمخشري (ت538هـ): «مَهِّلْ الكافرين، يعني لا تدعُ بهلاكهم، ولا تستعجل به، وأمهلهم رويداً، اي: إمهالاً يسيراً»[4] . اما السيد صاحب الميزان فقد ذكر أَنَّ «التمهيل والإمهال بمعنى واحد، غير أَنَّ بابَ التفعيل، يُفيد التدرج، والإفْعال يُفيد الدفْعه، وهو وعيدُ للكافرين»[5]. ومن هنا كانت المخالفة في الآية المباركة من (مَهِّلْ) المشعرة بطولِ مدة التكسين لطول مدّةِ التمهيل الذي قد يُلقي الوهن واليأس في قلوب الدعاة. اعقبها القرآن بصيغة (أَفْعِلْ) مقيدَة لتفيد التقليل؛ ليدلَّ بذلك على أَنَّ تمهيلهم وامهال الله تعالى إياهم قد طال فهو آتٍ لا محالة[1]. وقد ذهب الفخر الرازي (ت606هـ) من قبلُ الى مثل هذا بقوله: «أمْهِلهمْ رويداً لأن كلَّ ماهو آتٍ قريب، وكلُّ ذلك زجرُ وتحذير للقوم، كما أَنَّه تحذير لهم فهو ترغيب في خلاف طريقتهم في الطاعات»[2].

دلالة بناء على آخر

نبّه العلماء الى اتفاق بنائين على معنى واحد أَو أكثر، وأَوضحوا اشتراك الصيغ في المعاني التي تدلُّ عليها. هذا الباب سماه الدكتور هاشم طه شلاش اختلاف الأَوزان واتفاق المعاني[3]. وقد يكون الاتفاق بين الأَبنية تاماً في مواضع، وقد يتقارب في مواضع أُخَر، وقد أشار الرضي الى عِلَّةِ ذلك بقوله: «يُقال : هذا البابُ بمعنى ذلك، إذا كان البابُ المحال عليه مختصاً بمعنى عام مضبوط بضابط فيتطفّل البابُ الآخر عليه في ذلك المعنى. أَمّا اذا لم يكن كذلك فلا فائدة فيه، وكذا سائر الأَبواب ، كقولهم: تعاهد بمعنى تعَهْدَ، وغيرُ ذلك كقولهم: تَعَهَّدَ بمعنى تَعَاْهدَ»[4]. إن الأَبنية التي تشترك بالمعنى كثيرة في القرآن الكريم، سواء أكان البناءان اسمين أم فعلين يتعذّر حصرها في هذا المقام، الا أن الباحث سيقتصرُ على بعض المواضع التي جاءت بسياق التحذير والتخويف لغرض بيان الأثر الذي أحدثه البناء.

---

[3] ينظر: الكشاف 337/4، المحور الوجيز 393/1، التفسير الكبير 133/31.
[4] الكشاف 337/4.
[5] الميزان في تفسير القرآن 260/20.
[1] يُنظر: الاعجاز الصرفي في القرآن 181.
[2] التفسير الكبير 133/31.
[3] ينظر : اوزان الفعل ومعانيها، هاشم طه شلاش ، مطبعة الاداب/ النجف 1971: 12.
[4] شرح الشافية 104/1.

اولاً : أبنية الأسماء

1- فَعْل : ويأتي لمعان عَدّةٍ منها:

أ: مَفْعُول: رأى سيبويه أَنَّ (فَعْل) المصدر يمكن أن يجيء بمعنى المفعول نحو : الخَلْق بمعنى المَخلُوق، والضَرْب بمعنى المضروب[5]. من ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ البقرة 164، وهذه الآية المباركة تبينُ قدرة الله وعظمته في خلق السموات والارض وقد أُستعملت الخلق بمعنى المخلوق، قال الطبرسي (ت548هـ): ﴿وقد أُسْتُعْمِلَ الَخلْقُ بمعنى المخلوق، كما أُستُعْمِلَ الرضا بمعنى الَمرْضِي، وهو بمنزلة المصدر، وليس معنى المصدر بمعنى الَمخْلُوق﴾[1]. ومن استعمال هذه الصيغة مما جاء في وعيد الله عز وجل للكافرين من مجيء العذاب، قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا**﴾ الاسراء 5 إذا انعمت النظر في الآية المباركة تلاحظ أَنَّها حددت وقت حلول العقاب وهذا الوقت عبّرت عنه في موضعين بقوله: (وعد)، قال الشيخ الطوسي (ت460هـ): ﴿الوعدُ هو المّوْعُود به، وضع المصدر موضعَ المفعول به، وهو وقتُ الفَنَاء، ووقت العقوبة﴾[2]. وقد ذهب الطبرسي (ت548هـ) الى مثل هذا بقوله: ﴿الوَعْدُ هنا بمعنى المَوْعُود، وُضِعَ المصدرُ موضع المفعول به، اي: إذا جاء وقت المَوْعُود لإفسادكم في المرّةِ الأُولى﴾[3]. وقد تابع ابو حيان الأَندلسي (ت 749هـ) سابقيه فيما ذهبوا اليه، إذ قال: ﴿فإذا جاء وعدُ اولاهما، أي مَوْعِد اولاهما؛ لأَنَّ الوعد قد سبق ، والمَوْعُود هو العقاب﴾[4]. ومن اعتماد هذه الصيغة في سياق الوعيد والتخويف من النار قولُه تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ الأنبياء 98.

وفي توجيه قراءة (حَصْب) ساكنة الصاد وهي قراءة السميفع، فقد أشار ابنُ جني الى هذه القراءة بأَنَّها مصدر[5]. وقد تابعه على ذلك الطبرسي (ت 548هـ) قائلاً: ﴿فأمَّا ، الحَصْبُ ساكناً بالصاد والضاد فالطرحُ، فهو مصدر وقع موقع اسم المَفْعُول كالخَلْق، والصَيْد بمعنى المَخْلُوق والمَصِيْد﴾[6]. فعلى هذا يكون (حَصْب) بمعنى محصوب، وهذا يُفيد المبالغة؛ لأنه يعني ما تتهيج به النارُ، وتذكا به[1]. كما أَنَّ في هذا المعنى العموم، اذ أَنَّ اصَلهُ ما يرمى

---

[5] ينظر: كتاب سيبويه 229/2، المحتسب 62/2، المخصص 156/14، المزهر في علوم اللغة 86/2.
[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 245/1.
[2] التبيان في تفسير القرآن 449/15، ينظر : الكشاف 649/2.
[3] مجمع البيان في تفسير القرآن 6/ 398- 399.
[4] البحر المحيط 6/ 9.
[5] ينظر: المحتسب 66/2-67.
[6] مجمع البيان في تفسير القرآن 63/7.
[1] ينظر : التبيان في تفسير القرآن 280/17، الجامع لاحكام القرآن 344/11، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 96/17، الميزان في تفسير القرآن 327/14.

في النار[2]. فما تتهيج به النار او يُرمى بها لإرادة تهيجها انما يُؤتى بذلك لإرادة تحذير السامع من الأعمال التي تؤدي به الى النار.

ب-فَاْعِل: رأى سيبويه أَنَّ المصدرَ يقع موقع اسم الفاعل[3]. ومن مجيء هذا المعنى في سياق الوعيد لمن بنى جنةً بالدنيا وظنَّ أنها لن تبيد أبدا قال تعالى متوعّداً: ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**﴾ الكهف 40-41. فقد استعمل القرآن الكريم غوراً بمعنى غائر وقد أشار الى هذا المعنى سيبويه بقوله: «غرتُ، فأنا أَغورُ غؤوراً وهو غائر»[4].

قال الطبري (ت310هـ): «يقولُ: أَو يُصبحُ ماؤها غائراً، فوضع الغورَ، وهو مصدرُ مكان الغائر»[5]. وقد بقى الشيخ الطوسي (ت460هـ) في المعنى ذاته بقوله: «المعنى غائراً ، فوضع المصدر موضع الصفة»[6]. بعد أَنَّ تبيّن أن غور خرج لمعنى غائر، لنتأمّل معاً ما أفاده المعنى الثاني . قال الطبرسي (ت548هـ) «اي: غائراً في باطن الأرض، غامضاً منقطعاً، فيكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء»[7]. والى مثل هذا ذهب القرطبي (ت671هـ) حيث قال: «غوراً، أَي: غائراً ذاهباً، فتكون أَعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء. والغور مصدر وُضِعَ موضع الاسم، (...) ، وماءُ غور، وقد غار الماء يغورُ غوراً وغؤورا، أَي سَفُل في الأَرض»[8]. وقد تابع السيد الطباطبائي سابقيه على هذا فقد ذكر أن «غوراً صيرورته غائراً ذاهباً، في باطن الأَرض»[1]. من متابعة الأقوال السابقة يتبيّن أَنَّ غور حين أَفاد غائراً كان أَكثر إيحاءً بشدة الوعيد، فقد أفادت بأَنَّ الماءَ أُذْهِبَ به بعيداً، ولا يقوى احدُ على إرجاعه الا خالقه وبهذا ستُصبح تلك الجنة التي شُيِّدتْ أرضاً جرداء لا حياةَ فيها. «ولعلَّ الذي أفاد العدول من (فَاعِل) الى المصدر (فَعْل) هو المبالغة والتأكيد»[2].

2: فِعْل وتأتي لمعان عدة منها:

وردت إِشارة الصرفيين إِلى مجيء بناء (فِعْل) بمعنى اسم المفعول نحو: الخلْق بمعنى المخلوق[3]، من ذلك ما ورد في بيان إِحاطة علم الله تعالى قوله: ﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه**﴾ البقرة 255. فقد قال (عِلْمِهِ) ، اي : بشيء من معلومهِ، على التفصيل فَجُعِلَ العِلمُ

---

[2] ينظر: الميزان في تفسير القرآن 327/14.
[3] ينظر : كتاب سيبويه 50/4.
[4] المصدر نفسه 50/4.
[5] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 249/15.
[6] التبيان في تفسير القرآن 48/15.
[7] مجمع البيان في تفسير القرآن 471/6.
[8] الجامع لأحكام القرآن 409/10.
[1] الميزان في تفسير القرآن 315/15.
[2] معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان 151.
[3] ينظر : المحتسب 62/2، شرح الشافية 162/1.

موضع المعَلْوم، والمعنى أَنَّه لا اختصاص لمعلوماتِك، إِنَّك أَنت العالمُ بكلِّ معلوم، ولا تختصُّ رحمتُك حياً دون حي[4]. وقد تابعه القرطبي (ت 671هـ) على هذا قائلاً: ((العلمُ هنا بمعنى المعلوم اي: لا يحيطون بشيء من معلوماتهِ، لأَنَّ علم الله سبحانه وتعالى الذي هو وصفه ذاته لا يتبعّض، ومعنى الآيةِ لا معلومَ لأحد))[5]. فقد عمد القرآن الكريم الى العِلم بمعنى المعلوم لإفادة أن علم الله لايشاركه به أَحد. وهذا العالم الذي ليس له شريك ليس عليك الا ان تحذره.

3: <u>فَعَل بمعنى فَاعِل</u>. هذا البناء من أبنية الصفة المشبهّة[6]. ((وهذا البناء بمعنى اسم الفاعل مع زيادة في المعنى وثبوته))[7]. من المواضع التي جاء فيها استعمال هذه الصيغة ما ورد في إنكار اتخاذ غير الله حكماً وبشاعةِ من يفعل ذلك. قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ الأَنعام 114. فقد استعملت الآية الكريمة ((حكماً بمعنى حاكماً))[1]. قال الشيخ الطوسي (ت 460هـ) موضحاً سبب هذا الاختيار: ((الحكم من كان أهلاً أَن يتحاكم اليه، فهو أَمدح من الحاكمُ بغير الحق، والحكم لا يقضي الا بالحق، لأَنَّها صفةُ مدحٍ وتعظيم))[2]. وقد تابع الطبرسي (ت 548هـ) سابقه على هذا مضيفاً اليه قوله: ((والمعنى هل يجوزُ لأحد أَنَّ يعدلَ عن حكم الله رغبةً عنه، او هل يجوز أن يكون حكم سرى الله يساويه في حُكْمِهِ؟))[3]. وفي هذا تحذير من اتخاذ غير الله حكماً من جهة وترغيب في اتخاذه دون سواه من جهة أخرى.

4- فُعُل ، وتردُ لمعانٍ عدة، منها:

أ- ***مُفْعَل:*** من المواضع التي جاءت فيها فُعُل لإفادة مُفْعَل في ذكر العذاب، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ القمر 6. أشار الفارابي وتبعه الزمخشري الى دلالة (نُكُر) على مُنْكَر[4]. وقد صرّح الطبرسي (ت 548هـ) بهذا المعنى بقولهِ: ((نُكُر اي مُنكَر، غير معتادٍ ولا معروف))[5]. وإذا كانت الدعوة لشيء مجهول فلابَّد ان تحذرها.

ب- ***مَفْعِل*** ، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ الكهف 102، ذهب الزجاج الى دلالة (نُزُل) بمعنى المنزل، إذ قال: ((اي مَنْزِلاً))[6] ومن المفسرين الطبري فقد ذهب

---

(4) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن 515/8.
(5) الجامع لأحكام القرآن 276/3.
(6) ينظر: همع الهوامع مع شرح جمع الجوامع لجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (ت 911هـ) تحقيق: محمد بدر، الدين النعساني، دار المعرفة للطباعة والنشر : 2/ 312.
(7) معاني الأبنية الصرفية في مجمع البيان 155-156.
(1) التبيان في تفسير القرآن 265/8.
(2) المصدر نفسه 265/8.
(3) مجمع البيان في تفسير القرآن 353/4.
(4) ينظر : ديوان الادب 261/1، الكشاف 432/4.
(5) مجمع البيان في تفسير القرآن 187/9.
(6) معاني القرآن واعرابه 314/3.

من قبل الى دلالة (نُزُلاً) تفيد المَنْزِل[7]. وقد تابعهم الشيخ الطوسي (ت460هـ) على هذا المعنى إذ رأى النُزُل هو المأوى والمَنْزِل[8]. ولم ينأ الشيخ الطبرسي (ت548هـ) عن سابقيه إذ قال : «نُزُل، أي : مَنْزِل، (...)، يريدُ هي مثواهم ومصيُرهم، وقيل معناه إنّا جعلنا جهنَّم مُعدَّةً مهيأةً للكافرين عندنا، كما يُهيأُ المنزلُ للضيف (...)، نُزُلاً، اي مَنْزِلاً، ومأوى، وقيل: ذاتُ نُزُل»[1]. وجاء قولُه (نُزُلا) لورودهم اليه وهو ما يقام به للنزيل، اي الضيف. وهو مكان (نزل) مُنِحَ إياهم لما أَعدوا لأنفسهم من عِدّةٍ، «وفيه ايماءُ الى أَنَّ لهم وراء جهنم من العذاب ماهي إنموذج له»[2]. من ملاحظة الأَقوال السابقة يتبيّن أَنَّ (النُزُل) أُريد به الموضع الذي ينزلُ به من قدم الى هذا الموضع، فَمَنْ ينزلُ في موضعٍ يحاول أصحابُ ذلك الموضع تقديم كلِّ ما يسعهم لنزيلهم إكراماً له، ومن جُعِلَ له في جهنم منزلاً سَيُقَدّمُ له من صنوف العذاب لنزولهِ عندهم؛ وبهذا المعنى يكون الوعيد والتخويف مما لايخفى على أَحد.

5- **أَفْعَل** ، هذه الصيغة دالةُ على اسم التفضيل، وهذا ما يكون بين شيئين اشتركا في صفة ما، وزاد أَحدُهما على الآخر فيها[3]. وقد يخرج من هذا ليدلَّ على بناء مَفْعُول[4]. ومنه ما توعّد به تعالى مبغض النبي (ﷺ) بقوله تعالى: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» الكوثر3، فقد عمدت الآية المباركة الى استعمال الأبتر بمعنى المبتور؛ لتضفي عليه معنى «التقليل من شأنه، وإذلاله، وتوعّدهُ بأنه منقطعُ لا عقب له»[5].. وقد تابع الطبري على هذا القول عدد من المفسرين ومنهم الطبرسي (ت 548هـ) فقد قال: «وقولُه: إنَّ شانئك هو الأَبتر، تقديره أَي : هو مبتور»[6]. أُستُعْمِل الأَبتر بمعنى المبتور؛ للإفراد بصفة البتر والتخصص به[7]. وحين يختصُ إخبار البتر بأَحد يكون التهديد أكثر شدةً وإيلاماً.

6- **فَاعِل** : وردت إشارة اللغويين والمفسرين الى مجيء بناء فاعل دالاً على بناء اسم الَمَفْعُول. ومن المواضع التي استعملت فيها صيغة فاعل بمعنى مفعول في سياق التخويف ما جاء على لسان الكفّار عندما يبعثون يقولون متعجبين من البعث: إننا لمردودون بعد موتتنا الاولى[1]، هذه الحالة صوّرها لنا قولُهُ تعالى: «ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ» النازعات 10، اشار الزمخشري الى ان الحافرة بمعنى المحفورة[2]. وقد تابع الطبرسي (ت548هـ) سابقه على هذا فقد قال: «والحافرةُ بمعنى المحفورة، مثل : ماء دافق اي : مدفوق، وقيل:

---

(7) ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن 16/ 32و38.
(8) التبيان في تفسير القرآن 97/16.
(1) مجمع البيان في تفسير القرآن 498/6.
(2) روح المعاني 47/16.
(3) ينظر : شرح الشافية 44/1، شرح المراح في التصريف 117-118.
(4) ينظر : المقتضب 3/ 245، 246، الصاحبي في فقه اللغة 257.
(5) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 328/30.
(6) مجمع البيان في تفسير القرآن 549/1.
(7) ينظر: البحر المحيط 520/8.
(1) ينظر : تفسير ابي السعود 230/5.
(2) ينظر : الكشاف 694/4.

الحافرة الأَرض المحفورة»[3] ولم يرد في القرآن الكريم استعمال الحافرة بمعنى المحفورة الا في هذا الموضع[4] وقد أكسبت المعنى إيحاء بالخوف والوعيد الشديدين. وبهذه المعاني يزيد التحذير من الحضرة التي سيكون المآب اليها.

7- فَعِيْل وترد لمعانٍ عدةٍ منها

أ- ***فَاعِل:*** ذكر بعضُ اللغويين أَنَّ بناءَ فعِيْل إذا كان بمعنى فَاعِل وَجَبَ أن يكون مؤنّثه بالهاء[5]، ومن هذا ماجاء في تحذير الله لعباده بأنه مراقب لهم، قال تعالى: «**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**» النساء 1، قال الطوسي (ت460هـ): «الرقيبُ العالم»[6]. وقال الطبرسي (ت 548هـ): «وأصلُ الرقيب من الترقب. وهو الانتظار، ومنه الرقبى؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينتظرُ موتَ صاحبهِ، يقال: رَقَبَ يرْقَبُ رقُوباً، ورقباً، فعلى هذا يكون الرقيب فَعِيْلاً بمعنى فاعِل، وهو الحافظ الذي لا يغيبُ عنه شيء»[1] ومن هذا المعنى ما جاء في اسلوب القصص القرآني المساق لغرض العبرة قولُه تعالى: «**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**» المائدة 13. ولا يخفى على احد قوّة وشدة العقوبة التي حلّت بهم التي قررها تعالى بقوله (قسية) وفيها قراءتان: فقد قرأ حمزة والكسائي بغير ألف وتشديد الياء، وأما القراءةُ بالألفِ فهي قراءة ابن كثير ونافع ، وعاصم، وابو عمرو وابن عامر[2]. وقد أوضح الطبري (ت310هـ) المعنى الذي أفادته القراءة الأولى، فقد ذكر «أنها تُفيد القسوةَ، لأَنَّ الله تعالى وصف قلوبهم بالإيمان الذي يُخالطه كفر، كالدراهم القسية التي يخالطُ فضّتها غشُ لنقضهم ميثاقهم وكفرهم به»[3]. وقد رأى الشيخ الطوسي (ت460هـ) أن القراءة بغير الأَلف أي قسية، أشد مبالغة[4]. اما القراءة الثانية فقد اوضح الآلوسي معناها بقوله: «وأما قاسيةُ فهي فاعلة، وأولى ما فيه أَن تكون قِسِيّة بمعنى قاسية إلاَّ أنَّ فَعِيلة ابلغ من فاعله، اي : جعلنا قلوبهم غليظةً نابيةً عن الإيمان والتوفيق لطاعتي، لذا جاء وصفها بالقسيّة لمخالطتها الغش»[5]. فقد عمد القرآن الكريم الى (قسية) لإيحاءها بشدةِ العقوبةِ وقوّتها. وهذا الإيحاء نتج عن الوزن الذي أُختير لمعناه أذ أَن «فَعِيْلة في هذا الموضع أبلغ في الذم من فَاْعِلَه»[6].

---

[3] مجمع البيان في تفسير القرآن 429/10.
[4] ينظر: المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : 207.
[5] ينظر: اصلاح المنطق لابن السكّيت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط2، 1956: 51، ديوان الادب 85/1.
[6] التبيان في تفسير القرآن 100/4.
[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 2/3.
[2] يُنظر : السبعة في القراءات 243.
[3] جامع البيان في تأويل القرآن 154/6.
[4] التبيان في تفسير القرآن 469/6.
[5] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 115/68.
[6] معاني الأَبنية الصرفية في مجمع البيان 162.

ب-**مُفْعِل**: صرّح اللغويون بمجيء فَعِيْل لمعنى مُفْعِل[7]. ومن المواضع التي جاءت بها في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿**ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون**﴾ البقرة 10 فقد جاء وصف العذاب بـ(أليم) بمعنى مُؤلم . قال الطوسي (ت460هـ): ﴿الأليمُ بمعنى المؤلم، المُوْجِع، فعيل بمعنى مَفْعِل﴾[8]. وقد تابع الطبرسي (ت548هـ) سابقه على هذا المعنى بقوله: ﴿الأَليمُ المُوْجِعُ، فَعِيْل بمعنى مُفْعِل، كالسَمْيعِ بمعنى المُسْمِع، والنذيُر بمعنى المُنْذِر﴾[1]. وقد تابع الزركشي (ت 749هـ) سابقيه على هذا المعنى فقد ذكر أن ﴿اليم بمعنى مؤلم﴾[2]. أما الآلوسي (ت1270هـ) فقد تابع سابقيه على دلالة الأليم على المؤلم موضّحاً الفائدة التي تترتب على هذا الاختيار فقد قال: ﴿أليم صفةٌ للعذاب بمعنى المؤلم وإطلاقه يشملُ كلَّ ألم وفي ايَّ مرتبة من مراتب العظمة﴾[3]. من هذا يتبينُ أن اختيار أليم بمعنى مؤلم فيه إيحاءُ بقوّة الوجع؛ لشموله على ضروب الآلام المختلفة التي عرفها البشر، ومالم تُعرف بعد. ومن مواضع اختيار هذا المعنى قوله تعالى : ﴿**واللهُ بصيرٌ بما يعملون**﴾ البقرة 96. قال الطبرسي (ت548هـ): ﴿البَصِيْرُ بمعنى المُبْصِر، كما أَنَّ السميعَ بمعنى المُسْمِع، ولكنه صَرَفه الى فَعِيْل (...) وعند المتكلمين المُبْصِرُ هو المُدْرِك للمُبْصرات، والبَصِيْر هو الحيُّ الذي لا آفةَ به، فهو ممن يجب أن يُبصر المبصرات إذا وجدت، وليس احدُهما هو الآخر، وكذلك القولُ في السميع والسامع﴾[4]. فقد عمد القرآن الكريم الى استعمال هذه الصيغة لما فيها من سعةٍ في المعنى تُبيّنُ عدم إخفاء اي شيء على الله جلَّ ثناؤه وما ذلك الا للتحذير.

جـ -**مَفْعُوْل**. من المواضع التي جاء فيها هذا المعنى ما ذكره الله تعالى من أخبار الأمم السابقة التي أُنزل عليها العذاب، حتى يحذر الناس من أن يكونوا مثل حال سابقيهم، قوله تعالى: ﴿**ذلك من أنباء القرى نقصهُ عليك منها قائمٌ وحصيد**﴾ هود 100. أشار الفرّاء الى أنَّ (حصيد) بمعنى (محصود)[5]. وأما فائدة حصيد حين تُعطى معنى محصود للإيحاءِ بأنَّ ﴿هؤلاء القوم قد قَطَعَ اللهُ دابرهم وقطع أمرهم البتة﴾[6]. وعلى هذا تكون الآية حاملةً من معنى الوعيد مالم تحمله حصيد بمعناها الاصلي، اي : فعيل ومن هذا المعنى ايضاً ما جاء في ذكر الكافر، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا**﴾ الفرقان 55. قال الطبرسي

---

(7) ينظر : ديوان الأدب 408/1، المخصص لابن سيدة 242/14.
(8) التبيان في تفسير القرآن 72/1.
(1) مجمع البيان في تفسير القرآن 48/1.
(2) البرهان في علوم القرآن 286/2.
(3) روح المعاني 150/1.
(4) مجمع البيان في تفسير القرآن 165/1.
(5) ينظر : معاني القرآن 27/2، مجمع البيان في تفسير القرآن 190/5.
(6) الميزان في تفسير القرآن 6/11.

(ت548هـ): «الظهير بمعنى المظهور، وهو المتروك المستخفُّ به»[1]. ومنه ايضاً ما ورد في ذكر القيامة، قال تعالى: «وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» يس 32. وقوله تعالى: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» يس 53. فقد صرّح عدد من المفسرين بأَنَّ (جميع) في الآيتين على زنة (فَعِيل) بمعنى مَفْعُول، فيكون معنى جميع مجموع[2]. ومن ذلك أيضاً قولُه تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ» القمر 44. لقد ذكر الفخر الرازي (ت606هـ) أنَّ في هذا القول فائدتين ، «أَحداهما: الكثرة، والثانية: الاتفاق، كأَنه قال : نحن كثيرُ متفقون، ولا يقومُ غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة، إنما قلنا فيه فائدتان، لأَنَّ الجمعَ يدلّ على الجماعة بحروفه الأصلية (ج م ع)، وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول»[3]. اما الآلوسي (ت1270هـ) فقد ذكر فائدةً أفادها جميع بمعنى مجموع . وذلك بقوله «فيه من الإحاطة والشمول ماليس في غيرهِ، فهو يُفيد الإفراد، واجتماعها وانضمام بعضها الى البعض»[4]. ومن المحدثين اللذين أَعطوا تعليلاً لاختيار جميع بمعنى مجموع، الدكتور عبد الحميد هنداوي وذلك بقوله: «إِنَّ اختيار اسم المفعول يوحي بمعنى الحدث اكثر من الصفة المشبّهة الدالة على ثبات الحدث وتأصيلهِ، فالصفات: عظيم وشريف وكريم لا تدلُّ على الحدوث بقدر ما تدلُّ على تأصّلِ الصفة في صاحبها، ولما كان المقصود من تلك الآيات ونظائرها هو صفة الجمع نفسها لاحدث الجمع اختارت الآيات صيغة فعيل التي توحي بثبات الصفة وتأصّلها، اي بصيغة مفعول»[5]. وعلى هذا فالتحذير بتركيز على الجمع لا على صفةِ الجمع؛ وذلك لأَنَّ الأَول اشد ايلاماً على المذنب لأَنَّ فيه الفضيحة امام البشر.

د- ***إِفْعَال*** ، لقد ورد هذا المعنى في سياق الوعيد الشديد، وذلك في قوله تعالى: «**فستعلمون كيف نذير**» الملك 17. قال الفرّاء (ت207هـ): «النذيرُ قد يكون بمعنى الإنذار، فقال الله تبارك وتعالى : «كَيْفَ نَذِيرِ» الملك 17 و«فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» الملك 18، يريد: إنذاري، وإنْكاري»[1] وقد تابع الفرّاء على هذا العديد من العلماء[2]. وفي مسائلهم عن الانذار تحذير مما لايخفى إذ يُجعل المخاطب وكأَنَّه شهد عاقبة الإنذار وأُريد منه الاخبار عن ذلك.

---

(1) مجمع البيان في تفسير القرآن 175/7 و 156/1 و 293/2.
(2) ينظر : الدر المصون 483/5، البحر المحيط 7/ 334.
(3) التفسير الكبير 67/29.
(4) روح المعاني 16/23.
(5) الاعجاز الصرفي في القرآن 107.
(1) معاني القرآن 205/3.
(2) ينظر: ديوان الأدب 408/1، الكشاف 4/ 581، الجامع لاحكام القرآن 7/10، الميزان في تفسير القرآن 27/ 69.

ثانياً: أبنية الأَفعال

1- فَعَلَ وترد لمعانٍ عدّة منها:

أ –**أَفْعَلَ**، من ذلك ماجاء في الذكر الحكيم في سياق الوعيد قولُه تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الحجر 12. أشار الزمخشري الى أن سلك وأسلك بمعنى واحد[3]. وهو يُفيد إدخال الاستهزاء في قلوبهم وإحضاره في أذهانهم ليتجنبوه[4]. ومنه قوله تعالى في وعيده للمكذّبين، ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ طه 61. لقد رأى الفارابي وابن سيده أن سحت وأسحت بمعنى واحد[5]. وكلا المعنيين يُفيدان الهلاك. فلا فرقَ في عاقبة من لم يمتثل لإنتهاء عن الكذب.

ب-**فَعَّلَ** ، من مواضع الوعيد التي وردت فيها هذه الصيغة ما جاء في الإخبار عن امرأة لوط (ع) قال تعالى : ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الحجر 60، قال الطبرسي (ت548هـ): ﴿وقَدَرْت بالتخفيف لغة في قَدَّرْت (...) ومن قرأ قَدَرْنا مخففاً كان في معنى التشديد﴾[1]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ المرسلات 23، فقوله تعالى (قَدّرْنا) بالتشديد حسب قراءة نافع والكسائي[2]. وذهب الفرّاء الى جواز القراءتين بالتشديد وعدمهِ[3]، وقد تابعه على ذلك الطبري[4] (ت310هـ) فقد رأى أن (قَدَر) مناسب لقوله تعالى (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) المرسلات 23، وتابعهم على ذلك الطبرسي (ت 548هـ) بقوله: ﴿إِنَّ قَدَرَ، وقَدَّر بمعنى ، والتخفيفُ أليق بقوله : "فَنِعْمَ القادرون" ، ومن شدّد أراد أن يجي باللغتين كما يقال : جادُ ومجد"[5]. والبناءان كلاهما يفيدان معنى قَفَيْنا، وكَتَبْنا[6]. فالوعيد ذاته مع تباين القراءة.

جـ- صَرّح سيبويه بمجيء **(فَعَلَ)** بمعنى **اسْتَفْعَلَ**[7]، ومن استعمال هذه الصيغة في سياق الوعيد، ما ذكره تعالى من حال المنافقين، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

---

(3) ينظر: الكشاف 573/2.
(4) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 320/14، الكشاف 573/2.
(5) ينظر: ديوان الادب 192/2، المخصص لابن سيدة 240/14.
(1) مجمع البيان في تفسير القرآن 339/6.
(2) يُنظر: السبعة في القراءات 666.
(3) يُنظر: معاني القرآن 223/3.
(4) ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن 236/29.
(5) مجمع البيان في تفسير القرآن 416/10 و 153/3.
(6) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 37/10.
(7) ينظر: كتاب سيبويه 2/ 240-241.

فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم» البقرة 17، فقد استعمل القرآن الكريم اسْتَوْقَد بمعنى أَوْقد، قال السيد السبزواري: «استوقد، اي: أوقد؛ لأَنَّ الاستيقاد هو الإيقاد»[8] فلم تكن (استوقد) بمعنى الطلب، اي طلب الإيقاد ثم اذهب الله النار، بل الإيقاد كان حاصلاً ثم أتى امرُ الله عليهم ومن هذا المعنى ما جاء في الذكر الحكيم في تشبيه المجرمين والسخرية منهم، قوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ» المدثر 51/50. فقد شبهوا بأنهم (حمر) وقد وصفت الحمر بأنها مستنفرة، وفي (مستنفره) قراءتان: أحداهما بكسر الفاء، والثانيةُ بفتحها[1]. «فإذا كانت بالكسر اصبح المعنى نافرة يقال : نفرت واسْتَنفَرت بمعنى، وإذا كانت بالفتح مُنَفّرة، اي: مذعورة»[2]. وقد اوضح الآلوسي (ت1270هـ) المعنى الذي أفادته هذه الصيغة بقوله: «المستنفرة من استنفر، والأَحسنُ اسْتَفعَل للمبالغة، كأَنَّ الحمر لشدة العدو تطلبُ الانفار من نفسها»[3]. ولا يخفى عليك ما في هذه الآية الكريمة من استهزاء بالمجرمين وتوبيخ لهم.

2- بناء فَعِلَ ويأتي لمعانٍ عدّة منها:

أ- ***تَفَعَّل***، جاءت هذه الصيغة في ذكر عاقبة من كذّب بالساعة التي لا تكذيب فيها، قال تعالى: «فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى» طه 16. قال الطبرسي: «وردى يردى إذا هلك، وتردّى بمعناه»[4] من هذا يتضح أن لا فرق بين المعنيين فكلاهما يفيدان هلاك المكذِّب.

ب- ***أَفْعَلَ*** من المواضع التي ورد فيها هذا المعنى أُسلوب القصص القرآني المساق للعبرة والاتعاظ، قال تعالى: «ونكرهم واوجس منهم خيفة» هود70 ، رأى الطبري (ت 310هـ) أَنَّ نكر وأنْكر بمعنى واحد[5]، وتبعه على ذلك ابن سيدة[6]. اما الطبرسي (ت 548هـ) فقد رأى ما رآه سابقوه من أن نكر وأنكر بمعنى واحد موضحاً السبب في إيثار نكر على أنكر، يكون الأوّل اشد مبالغة[1]. فالمبالغة لغةُ بالانكار ناتجة عن المبالغة في الحذر. وبطبيعة الحال أَنَّ القرآن الكريم يعمدُ دائماً الى اختيار الصيغ التي توحي بالشدة.

3- فَعَّلَ ، وترد هذه الصيغة لمعانٍ عِدَّة، منها:

---

[8] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 115/1.
[1] ينظر: السبعة في القراءات 660.
[2] الجامع لاحكام القرآن 89/19.
[3] روح المعاني 134/29.
[4] مجمع البيان في تفسير القرآن 4/7.
[5] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 17/12.
[6] ينظر: المخصص لإبن سيدة 254/14.
[1] ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن 5/ 177.

أ- ***فاعل***: صرّح ابن السكبت بمجيء (فَعَّلَ) لمعنى فاعل إذ قال: ((ما أتى على فَعَّلتُ وفَاْعَلتُ بمعنى واحد، يقال: ضَاعَفت، وضعّفْت ، وبأْعَدْته، وبَعّدته))[2]. ومن هذا المعنى ما ورد في التحذير بصيغة النهي بقوله تعالى: ((**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**" لقمان 18.

وذلك حسب قراءة ابن كثير وعاصم وابن عامر فقد قرؤا بالتشديد من غير ألف[3]. اما الباقون فقد قرؤا بالألف[4]. وقد أشار العديد من اللغويين والمفسرين الى أن صَعَّرَ بمعنى صَاعَرَ[5]. وقد أشار القرطبي الى تقارب المعنيين إذ ذكر أن ((الصعر، الميل ، وتصاعر: تعرض))[6]. وعلى تباين القراءة تبقى دلالة البناء واحدة وهي كراهة مثل هذا الفعل.

ب- ***أَفْعَلَ***. قد تجيء فَعَّلَ بمعنى أفْعَلَ، فقد ذكر سيبويه هذا المعنى بقوله: ((وقد تجيءُ فَعَلْتُ، وأَفْعَلتُ في معنى واحد، مشتركين كما جاء فيما صيرته فاعلاً ونحوه، وذلك وَعَّزت اليه، وأوعزتُ اليه، وسمّيت وأسميت))[7]. ومن مواضع ذلك في الذكر الحكيم في سياق توبيخ الكافرين، وزيادة غمهم قوله تعالى: ((هل ثَوَّبَ الكفَار ما كانوا يفعلون)) المطففين/ 36. قال الطبري (ت 310هـ): "ثَوَّبَ بمعنى: أُثيب))[8].

وبهذا يكون المعنى ، هل أُثيب الكافرون على أعمالهم؟ وهذا من ثاب يثوبُ، اي: رجع. وهو ما يرجع لهم من العذاب لمقابلة عملهم[1].

جـ- ***فَعَلَ***: رأى عدد من الصرفيين أَنَّ بناء (فَعَّلَ) قد يأتي بمعنى أصلهِ الثلاثي (فَعَلَ)، فلا يكون التضعيف فيه للتعدية[2]. ومن ذلك قوله تعالى: ((**حتى يميز الخبيثَ من الطيّب**)) ال عمران /179. فقولهُ (يميز) قُرأ بضم الياء وتشديدها، كما قرأ بالفتح محققة[3]، فقرأة التشديد يُميّز من القول : مازه يميّزُه، وميزه يُميّزه[4].ولم يرَ الطبرسي (ت548هـ) فرقاً بين القراءتين فكلتاهما تفيدان معنى واحد، كما أن كلتيهما متعديتان الى مفعولٍ واحد[5]، فالتشديد لم يفدْ المبالغة في التمييز بين الخبيث والطيب وانما التشديدُ حاله حال التخفيف في بيان القدرة على التمييز. فقدرةُ الله لا تحتاج الى مبالغة في التمييز لان ذلك يسير عليه عز وجل.

---

(2) اصلاح المنطق 144، ديوان الأدب 380/2.
(3) ينظر : السبعة في القراءات 513.
(4) تنظر: المصدر نفسه 513.
(5) ينظر: كتاب سيبويه 239/2، جامع البيان عن تأويل آي القرآن 74/21، الكشاف 497/3.
(6) الجامع لاحكام القرآن 79/10.
(7) ينظر: كتاب سيبويه 239/2.
(8) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 112/30.
(1) ينظر : الجامع لاحكام القرآن 268/19.
(2) ينظر : شرح المفصل 159/7، شرح الشافية 94/1، نزهة الطرف في علم الصرف، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1، 1298هـ: 15، شذا العرف في فن الصرف 44.
(3) ينظر: السبعة في القراءات 220.
(4) التبيان في تفسير القرآن 62/4.
(5) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 545/2.

د-**تَفَعَّل**، أَشار الحملاوي الى مجيء (فَعّل) بمعنى تفعَّل[6] ومن المواضع التي جاءت فيها هذه الصيغة في سياق التحذير بدلالة النهي قولهُ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الحجرات/ 1. قال الزمخشري (ت538هـ): ﴿قدّمه، وأقدمه، منقولان بتثقيل الحشو والهمزة، من قدمه اذا تقدّمه (...) وفي قوله: (لا تقدموا) من غير ذكر مفعول وجهان، أَحدُهما: أن يُحذف ليتنازل كل ما يقع في النفس مما يُقدّم، والثاني: أَن لا يُقصد قصد مفعول ولا حذفه، ويتوجه بالنهي الى نفس التقدمة، كأنه قيل: لاتقدموا على التلبس بهذا الفعل، ولا تجعلوه منكم بسبيل﴾[1] وقد اشار الطبرسي (ت548هـ) الى أن البناءين بمعنى واحد[2].

4- افْتَعَلَ، وتأتي لمعانٍ عّدِة منها:

أ-**تَفَاْعَل:** أَشار الصرفيون الى مجيء (افْتَعَلَ) بمعنى تَفَأْعَل، حيث أفادوا أن (تَفَأْعَل) لإفادة معنى المشاركة، اي كونها من فاعلين[3]. ومن ذلك ما جاء في الإخبار عن الكافرين وبيان حالهم في الآخرةِ قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ النمل / 66. فقد قرأ الحسن والأَعرج (ادّرك) بغير الف[4]، وهذا هو الأصل حسب قول الزمخشري: ﴿وأدّرك، افْتَعَل، ومعنى ادرك علمهم، انتهى وتكامل، وأدّرك : تتابع واستحكم، وهو على وجهين، أَحدهما : إن أسباب استحكام العلم وتكامله بأنَّ القيامة كائنة لا ريب فيها، والوجه الثاني: إنَّ وصفهم باسْتحكام العلم وتكامله تهكّم بهم، كما تقول لأجهل الناس: ما اعلمك! على سبيل الهزؤ﴾[5]. قد رأى الطبرسي عدم وجود فرق بين المعنيين، اذ أن افْتَعَلَ جاءت بمعنى تَفَأْعَل وكفى، وذلك بقوله: ﴿وما رُوي عن ابي بكر (بل ادرك) فمعناه، افْتَعَلَ، من ادركت، وأفْتَعَلَ، وَتَفْاعَل يجيئان بمعنى، ومن ثم صَحَّ قولُهم: ازدوجوا، وإنْ كان الحرف على صورة يجب فيها الانقلاب، ولكنه صَحَّ لما كان بمعنى تَفَأْعَلُوا﴾[6].

ب-**فَعَلَ:** ذهب سيبويه الى أَنَّ (افْتَعَلَ) تأتي بمعنى افَعَلَ مع زيادة معنى الأَولى[7]. وتابع ابنُ جني شيخَهُ على هذا[8]. أما الفرّاء فقد خالف سابقه في هذا، فقد رأى (فَعَلَ) و (افْتَعَلَ) بمعنى واحد، ومن هذا ما جاء في مخاطبة الكفار يوم القيامة ليزدادوا عذاباً، قال

---

[6] ينظر: شذا العرف في فن الصرف 44.
[1] الكشاف 349/4.
[2] ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 385:9، الجامع لاحكام القرآن 300/16.
[3] ينظر : نزهة الطرف في علم الصرف 15، شرح المفصل 160/7-161، الايضاح في شرح المفصل 132/131.
[4] ينظر: مختصر في شواذ القرآن ، لابن خالوية 115.
[5] الكشاف 379/3.
[6] مجمع البيان في تفسير القرآن 231/7، ينظر : التبيان في تفسير القرآن 111/20.
[7] ينظر : كتاب سيبويه 74/4.
[8] ينظر : الخصائص 3/ 267- 268.

تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ الملك 27، قال الفرّاء (ت207هـ): "تَدَّعون، وتَدْعوْن واحد، مثلُ تَدَّخِرُوْن وتَدْخرُون[1] فلا زيادة في معنى احدهما على الأخر. أما حسب رؤيا سيبويه فالتهكم بهم اشدُّ واكثر ايلاماً بسبب التضعيف.

5- ***تَفَاْعل***: ذكر سيبويه أَنَّ (تَفَاْعَلَ) يمكن أَنَّ تدلَّ على بناء (تَفَعَّل) وذلك بقوله: ﴿كما شاركت تفاعلت تفعّلت، الذي لبس في هذا المعنى ولكنه استثبات، وذلك قولهم: تَيَقّنْتُ واسْتيَقَنْتُ، وتبيّنت واسْتنبئتُ﴾[2] ومن ذلك ما جاء في الذكر الحكيم في بيان حال الضالين، قوله تعالى: ﴿**ومن يُرد أن يُضلَّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعد في السماء**﴾ الانعام/ 125 حيث شبه الله ذلك الضال بقوله (يصّعد) وهذا وعيدُ لذلك الضال، وفيه قراءتان، الأولى: بدون ألف وتشديد العين، اي يَصّعد، وهي قراءة نافع، وابي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.

الثانية: قُرأ (يصّاعد) بتشديد الصاد، والأَلفُ بعدها، وهذه قراءة عاصم[3]. رأى الطبري تقارب المعنيين بين القراءتين[4]. اما الطبرسي (ت548هـ) فقد ذهب الى ما ذهب اليه سابقه موضحاً المعنى الذي أُريد من كلِّ قراءة، فقد قال: ﴿ومن قرأ يصّعد، فادغم، ومعنى يصَّعد: أَنه يستثقل الإسلام عليه، فكأَنَّه يتكلَّف ما يثقل عليه شيئاً بعد شيء، كقولهم: يتعفف، ويتحرّج، ونحو ذلك، مما يتعاطى فيه الفعلُ شيئاً بعد شيء، ويصاعد مثلُ يصعدُ في المعنى، فهو ضاعف، وضعَّف، وناعم، ونعم، وهما من المشقّة﴾[5]. فالوعيد الذي وجّه للضال يبقى ذاته مع تباين القراءة. إذ أُريد مشقة وتكلّف الظلال، وماذلك الا تحذيراً منه.

6- اسْتَفْعَلَ، وتأتي لمعان عِدّةٍ منها:

أ- ***فَعَلَ***، ذهبَ الصرفيون وتابعهم اللغويون الى مجيء (اسْتَفْعَل) بمعنى الثلاثي (افَعَلَ)[1]، وذهب الرضي الى أَنَّ (اسْتَفْعَلَ) وان كان بمعنى (فَعَلَ) يُلمح منه معنى المبالغة[2]. من هذا المعنى ما جاء في الذكر الحكيم على لسان المنافقين، قوله تعالى: ﴿**قالوا إنّا معكم انما نحن مستهزؤن**﴾ البقرة 14. قال الطوسي: ﴿الإستهزاءُ ، طلبُ الهزء بايهام، امر ليس له

---

(1) ينظر معاني القرآن 171/3 ،روح المعاني 21/29.
(2) ينظر : كتاب سيبويه 74/4.
(3) ينظر: السبعة في القراءات 268.
(4) ينظر: جامع البيان عن تفسير آي القرآن 30/8.
(5) مجمع البيان في تفسير القرآن 362/4، 119/3، 321/10.
(1) ينظر : الإيضاح في شرح المفصل 133/2، الممتع في التصريف 195:1، نزهة الطرف في علم الصرف ، 16. ادب الكاتب: لابن قتيبة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، م. السعادة، مصر: 360، ديوان الأدب 436:2، الصاحبي في فقه اللغة 223.
(2) ينظر: شرح الشافية 111/1.

حقيقة في من يُظنُّ فيه الغفلة، والتهزّي، طلبُ الهزء بالشيء»[3]. وذهب الطبرسي (ت548هـ) الى أَنَّ يستهزؤن بمعنى يهزؤن[4]. من المعنى الصرفي لهذه الصيغة، ومن قول المفسرين تلحظ أن قوله: (مستهزؤن) يُفيد المبالغة في الهزء وهذا كان فعل المنافقين إذ يبالغون في هزئهم للمؤمنين. ومنه قولُه تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ» الصافات 14، قال الطبرسي (ت548هـ): «سخروا واستسخروا بمعنى واحد، وقيل : يستدعي بعضهُم بعضاً إظهار السخرية»[5]. والهزؤ والسخرية من الأشياء التي حُذِّر منها فإنُ فعِلتْ سواء بطلب فعلها ام بالممارسة الحقيقية لها فان مصير فاعلها قوله تعالى«فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» الصافات 23.

ب-**فَعِل** : ورد هذا المعنى في سياق بيان المرحلة التي بلغها الأَنبياء (عليهم السلام) في نصح البشر وارشادهم، قال تعالى: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ" يوسف 110. استعملت الآية القرآنية اسْتَيْئَسَ بمعنى يئس ، وصَرّح بهذا المعنى الكثير من العلماء، قال الطبرسي (ت 548هـ): «اسْتَيْأَسَ بمعنى يَئيسَ، كأَنَّه طلب اليأس لعِلمهِ بامتناع الأَمر»[1]. وقد تابع ابنُ المنير سابقه على هذا المعنى بقوله: «حتى اذا يئسوا من النصر»[2]. ولم ينأ الآلوسي عن سابقيه فقد ظلَّ في المعنى ذاته إذ ذكر «يئسَ الرسلُ من النصر عليهم في الدنيا، والاسْتفَعال بمعنى المجرّد»[3]. وبعد أن يئس الرسل من استجابة القوم حَقَّ الوعيد عليهم باستحقاقهم بأس الله الذي لا يُرد. يكُ المعنى أنَّ الرسل طلبوا اليأس.

اسْتعمال صيغة ذات معنى متعدد

وقف المفسرون عند كثير من آيات الذكر الحكيم يعطون لألفاظها وجوهاً عدة من الدلالات. وهذه الكثرة في الدلالات ناتجة عن كثرة الابنية ومعانيها التي تكونت منها لغة الكتاب العزيز، ومن تلك المواضع التي حملت صيغة ذات معنى متعدد في سياق التخويف قولُه تعالى: «وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ» يس/43. إذا أنعمت النظرَ في قولهِ تعالى (صريخ) تجد أَنها بزنة (فعيل) وهذا ما اجمع اغلبُ المفسرين عليه، وحين أَجمع المفسرون على أن (صريخ) بوزن فعيل، فقد نأى احدهم عن الآخر في معنى ذلك الوزن، وملخّص تلك الأوجه هي:

اولاً: صريخ، فعيل بمعنى فاعل ، اي صارخ، ومعناه مستغيث.

---

(3) التبيان في تفسير القرآن 79/1.
(4) ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن 51/1.
(5) المصدر نفسه 440/8.
(1) مجمع البيان 271/5.
(2) الانتصاف، طُبِعَ مع الكشاف 510/4.
(3) روح المعاني 68/13.

ثانياً: أن تكون فعيل بمعنى مَفْعِل ، اي مُصْرِخ، ومعناه منقذ، أو مغيث.
ثالثاً: ان تكون بمعنى المصدر ، أي :الصراخ نَفسُه، او فلا إغاثة، وعلى هذا يكون مصدراً بمعنى الإصراخ[4]. اما المحدثون فمنهم الدكتور عبد الحميد هنداوي فلم يرجّح قولاً على آخر . بل رأى الوجوه جميعها قريبة من الواقع، وهذا ما ذكره بقوله: ((قد يكون الصريخ بمعنى المنقِذ، او المغيث، لأَنَّ الايةَ في معرض تصوير تخويف البشر من قدرة الله تعالى، فهو إنْ يشأ يغرقهم فلا مغيث لهم إن صرخوا، واستغاثوا، وحَمْلُ الآية على معنى فلا صارخ ولا صراخ يمكن توجيهه على حال الاستئصال، فضلاً عن أَنَّ إثبات الصارخ والصراخ لهؤلاء الغرقى يدعمُ ما الآيةُ بصدده من تخويف العبد، وذلك بتصوير هيئة الصارخ، او كثرة الصراخ عند معاينة الاهوال مع افتقاد المغيث، والمنقذ، والمعين))[1] من خلال ما قيل في الآية الكريمة يتبين أثر الصيغة الصرفية التي اختارتها الآية المباركة وموافقها لسياق التخويف فالصيغة اوحت الى معان عدة، وبتعدد المعاني تتعدد ضروب المخاوف التي تدلُّ على هول الموقف وصعوبته.

---

[4] ينظر: مجاز القرآن ، لابي عبيدّة، معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سنركين، مطبعة الرسالة، 1981م: 126/2، الكشاف 288/3، المحرر الوجيز 455/4، التفسير الكبير 140/3، الدر المصون 486/5، البحر المحيط 339/7، وهامشه 331/7، روح المعاني 28/23.

[1] الاعجاز الصرفي في القرآن 183.

الباب الثاني
دراسة نحوية دلالية
الفصل الاول
التحذير الصريح

المرادُ به الظاهر والخالص مما يلتبس فهمه بسواه، وقد ورد هذا النوع من التحذير في القرآن الكريم على ضربين:

أولهما: أسلوب التحذير الذي عُرِف عند النحاة القُدامى وتابعهم المحدثون عليه.

قال سيبويه: «هذا بابُ ما جرى منه على الأَمر والتحذير، وذلك قولك إذا كنت تُحذِّر: إيَّاك، كأنّك قلت: إياك نحِّ، وإيّاك باعد، وإيّاك اتق، ومن أشبه ذا، ومن ذلك (أن تقول): نفسك يا فلانُ، أَي: اتق نفسك، الا أَنَّ هذا لايجوز منه إظهار ما أَضمرت ، ولكن ذكرته لأُمثلَ لك ما يُظهر إضماره. ومن ذلك إيضاً قولك: إياك والأَسد، وإياي والشر، كأَنَّه قال: إيّاك فاتقينَّ والأَسد، وكأَنَّه قال: إيّاي لأَتقِيَنَّ والشَّرَّ، فإياك متّقى ، والأَسدُ والشّرُّ متقيان (فكلاهما مفعولُ ومفعولُ منه)»[1]. إذا تتبعنا قول إمام النحاة نجده عَدَّ التحذير أَمراً، وذلك الأَمر هو : إيَّاك، وقد يكون الأَمر بمعنى : اتق إلاَّ أَنَّ هذا الفعل لايجوز أَن يقوم مقام الأَوّل؛ لأَنَّه

---

[1] كتاب سيبويه 1/ 273.

يُخرجه من أُسلوب التحذير. وقد تابع أبو العباس المبرد (ت285هـ) سابقه على هذا المعنى إذ قال: «إيّاك منصوب بالفعل؛ لأنّه والأسد متّقيان، وكذلك إيّاك والصبَّي. إلا ترى أَنَّ معنى إيَّاك إنما هو احذر واتق ونحو ذلك ، وان شئت قلت: إيَّاك أَنت وزيد فجعلت أَنت توكيداً لذلك المضمر»[2]. ولم يَكُ ابن يعيش بمنأى عن هذه المعاني فقد تابع سابقيه على إفادتها إذ ذكر أَنَّ (إيّاك) ناب مناب الفعل؛ لأَنَّ إياك يُعطي المعنى الذي يُعطيه الفعل الا أَنَّ هذا لا يعني جواز قيام الفعل مقام (إيّاك) وهذا بَيّن من قوله: «فَحُذِف الفعل واكتُفي بإيَّاك عنه (...) وكثر ذلك محذوفاً حتى لزم الحذف وصار ظهور العامل فيه من الإصول المرفوضة، فمن ذلك قولهم: إياك والأَسدَ، فإياك: اسمُ مضمر منصوب الموضع، والناصبُ له فِعْلُ مضمر وتقديره: إيّاك باعد، وإيّاك نحّ، وما أشبه ذلك، والأَسد معطوف على إيّاك»[3]. وقد تابع المحدثون السابقين فيما ذهبوا إليه في إنابة (إياك) مناب الفعل، حتى عُدَّ الأَصل. قال الدكتور صباح عباس السالم: «والمُحَذَّرُ منه يُنصب بإيّا التي أَنابها الاستعمال مناب إحذر، أو أَنَّه يُنْصب بإضمار فعل، وهذا هو المهم عندنا، أَو المغزى به فإنَّه يُنصب بإضمار الفعل، أو ما أشبهه ، هذا هو الأَصل»[1]. ولم يقتصر التحذير على «إيّاك» في إنابتها مناب الفعل بل شمل أخواتها وهي : إياك، وإياكُما، وإيّاكم، وإياكُنَّ. مما يُلاحظ في هذه الاشتقاقات أَنها اختصت بالمخاطب، فالخطابُ هو الأَصل في التحذير[2]، إذ لا يصحُّ التحذير للمتكلّم والغائب وإن وجدت نصوص تدلُّ على ذلك، فمن تحذير المتكلّم نفسه قولُ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لتذك لكم الأَسلُ والرماح والسهام. وإيّاي وأَن يحذف أَحدُكم الأَرنب»[3]، حيث تلاحظ في قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ذكر (إياي)، وهذا يعني تحذيره لنفسه، إلاَّ أَنَّ الدكتور فاضل السامرائي يُفسر المراد من تحذير المتكلم لنفسه بقوله: «أَمّا إنه يكون المقصود به المخاطب مع وروده بإسلوب تحذير النفس، وهو نحو قول عمر (رضي الله عنه): «وإياي وأن يحذف أحدُكم الأَرنب» أَي: احذروني في أَن يحذف أحدُكم الأَرنب، وهو وإن كان أَخرجه مخرج التحذير للنفس، أَن المقصود به المخاطب، وهو نظيرُ قولك: لا أرينك هنا بعد اليوم، فهو وإن كان بإسلوب النهي للمتكلّم أَنَّ المقصود به المخاطب (...) وأما أن يكون المقصود به المتكلّم نفسه»[4]. من هذا يتضح أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- لم يكن يقصد تحذير نفسه بل أراد تحذير السامع، وهذا تأويل لكلام عمر – رضي الله عنه- حتى يتوافق مع القاعدة التي وُضِعت.

أمَّا تحذير الغائب فقد عَدَّه ابنُ عقيل أكثر شذوذاً من تحذير المتكلم ، فقد نقل نصاً ورد عن العرب وبَيّنَ رأيه فيه وهذا يتّضح من قوله: «وأَشذ منه –(تحذير المتكلم)- مجيئه للغائب في قوله: «إذا بلغ الرجلُ الستين فإيّاه وإيّا الشوابِّ ولا يُقاس على شيء من ذلك»[1].

---

[2] المقتضب 3/ 212.

[3] شرح المفصل 25/2، ينظر: كتاب الواضح في علم العربية، لأَبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت 379هـ) ، تحقيق: د.امين علي السيد، دار المعارف، مصر، 1975م: 121-122.

[1] عيسى ابن عمر الثقفي، نحوه من خلال قراءته: صباح عباس السالم. منشورات مؤسسة الاعلمي ، بيروت، دار التربية، بغداد، ط1، 1395-1975م: 232.

[2] ينظر: شرح ابن عقيل 2/ 300.

[3] ينظر: همع الهوامع 169/1.

[4] معاني النحو د. فاضل السامرائي، مطبعة التعليم العالي في الموصل: 2/ 528.

[1] شرح ابن عقيل 2/ 300-301.

وحين أُوِّل قولُ عمر بن الخطاب ليتوافق مع القاعدة، وحين نُقِضَ ما ورد من تحذير الغائب عاد الدكتور السامرائي ليصرّح بجواز ذلك التحذير، فقد قال: «وظاهر أَنَّ الكثير والشائع في التحذير أَن يكون للمخاطب ويصحُّ أَن يكون للمتكلّم والغائب على قلّة»[2].

وقد يرد التحذير بإسلوب غير ما عُهِد بـ(إياك) أو اشتقاقاتها، إذ تحذف هذه الألفاظ ويُؤتى بما يؤدي الدلالة ذاتها. قال سيبويه: «وحذفوا الفعل من إياك لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام، فصار بدلاً من الفعل (...) ومثلُ ذلك: أَهلَك والليلَ كأَنّه قال: بادِرْ أَهلَك قبل الليل وإنّما المعنى أَن يُحذِّره أَن يُدركه الليلُ، والليلُ محذَّرُ منه»[3]. هذه الحالة الأُولى التي يُحذف فيها الفعل ويبقى المحذَّر منه. وقد ذكر سيبويه حالة اخرى بقوله: «مما جُعِلَ بدلاً من اللفظ بالفعل قولُهم: الحذرَ الحذرَ، والنَّجاء النجاء، وضرباً ضرباً، فإنّما انتصب (هذا) على إلزمْ الحذر، وعليك النجاءَ، ولكنَّهم حذفوا؛ لأَنَّه صار بمنزلة اِفْعَلْ»[4]. وهذا يعني أَنَّ الحالة الثانية التي يُحذف فيها الفعل تتطلب تكرار الاسم المنصوب.

وقد تابع أبو العباس المبرد (ت 285 هـ) سابقه فيما ذهب إليه مُسمّيا الحالتين اللتين يُحذف معهما الفعل، إذ قال: «وقد يُحذف الفعل في التكرير (وفي العطف) وذلك قولك: رأسَك والحائط، ورأسك والسيف يافتى، وإنما حُذِفَ الفعل للإطالة والتكرير، ودلَّ على الفعل المحذوف بما يُشاهد من الحال. ومن أَمثال العرب: رأَسَك والسيفَ ومن أَمثالهم: أَهلك والليل، وقد دلَّ هذا على أَنَّه يريد بادِرْ أهلك والليل، والأَوّلُ على أَنه نحّ رأسَك من السيف. وتقديُره من الفعل: اتق رأسك والسيف، فلو أَفردت لم يجز حذف الفعل الا وعليه دليل، نحو :زيداً، لو قلت ذلك لم يدر ما الفعلُ المحذوف»[1]. مما ذهب اليه النحاة يتبيّن أَن فعل التحذير يُحذف في حالتين:

اولهما : إذا كان المحذَّر منه مكرراً.

ثانيهما: إذا عُطِفَ على المحذَّر منه محذَّر منه آخر.

وفي الحالتين كلتيهما يكون المحذَّر منه منصوباً بفعل مضمر يُقدَّر معناه حسب السياق الوارد فيه[2]

لو تتبعنا القرآن الكريم نلاحظ أُسلوب التحذير لم يرد الا في موضع واحد، وفي هذا الموضع حُذِفَ الفعل ونُصِبَ المُحذَّر منه وعطف عليه محذَّراً آخر.

قال تعالى: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا» الشمس 13. رأى العديد من العلماء أَن قوله : (ناقة) نُصِبَ على التحذير، ثم عطف عليه قوله: «سقياها». الا أَن الفرّاء أعطى قوله: (ناقة) وجهاً آخر غير النصب، يتّضح لنا من قوله: «نُصِبْت الناقةُ على التحذير، حذّرهم إيّاها، وكلُّ تحذير فهو نصب، ولو رُفِعَ على ضمير هذه ناقةُ الله، فإنَّ العربَ قد ترفعه، وفيه معنى التحذير، ألاَّ ترى أَنَّ العرب تقول: هذا العددُ فاهربوا، وفيه تحذير،

---

[2] معاني النحو 2/ 528.

[3] كتاب سيبويه 1/ 273-274.

[4] المصدرُ نفسه 1/ 275-276.

[1] المقتضب 3/ 215-216.

[2] ينظر: شرح المفصل 1/ 29، شرح ابن عقيل 300/2.

وهذا الليل فارتحلوا، فلو قرأ قارئ بالرفع كان مصيباً»[3]. وقد تابع الفرّاء عددُ من المفسرين والنحاة إذ عَدّوا قولَه تعالى: «ناقةَ» منصوباً على التحذير، والتقديرُ: احذروا ناقة الله ولا تقتلوها، وقولُه: (سقياها) معطوفُ على ناقة، والتقدير: واحذروا سقياها[4].

أَمّا الضربُ الثاني من التحذير الصريح فهو ما ورد في الذكر الحكيم من لفظة (حذر) واشتقاقاتها، وقد سبق بيان ما تعنيه هذه اللفظة[1] فهي في مجمل معانيها تفيد التخويف. والتخويف والتحذير لايتمُّ معناها الا بثلاث دعائم يُقاما عليها، وهي: المحذِّرُ، وهو فاعل التحذير، والمحذَّرُ وهو الذي يُوجّه اليه التحذير، والمُحذَّر منه، وهو موضع المخالفة الذي يجب ان يُتّقى. وقد رأى الفخر الرازي التحذير بمثابة الرسالة والرسالةُ لابَّد لها من أمور ثلاث حتى تؤدي غرضها، فقد قال: «في الرسالة أُمور ثلاثة: المُرسِل، والرسول، والمرسل اليه»[2]. وفي هذا الموضع من البحث دراسة لآيات الذكر الحكيم التي أفادت التحذير الصريح بلفظة حذر واشتقاقاتها والدعائم الثلاث التي يُقام عليها التحذير.

الله سبحانه يحذّر من نفسه

أمر الله سبحانه وتعالى عبادَه بالحذر منه، وقدَّم لذلك الأَمر بأَنَّ ما يخفيه العبدُ لايخفى عليه، وإنما هو به عليم. قال تعالى: «**واعلموا أَنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أَنَّ الله غفورٌ حليم**» البقرة/ 235. من كلام للزمخشري (ت 538هـ) على قوله تعالى: واعلموا أَنَّ الله يعلم مافي انفسكم« قال الزمخشري : «يعلمُ مافي أنفسكم من العزم على ما لايجوز»[3]. لو تأملت قول الزمخشري يتبين لك أَنه أشار الى أنَ قوله تعالى : «**يعلم مافي انفسكم**» مقدمة للأمر بالحذر، فلأنه يعلم ما في انفسكم عليكم أن تحذروه.

اما القرطبي فقد رأى قوله تعالى: «**واعلموا أَنَّ الله يعلم مافي أنفسكم**» التحذيرَ بعينه، فقد قال: «هذه نهايةُ التحذير من الوقوع فيما يُنهى عنه»[4]. ثم قال تعالى : «فاحذروا» مما لايخفى عليك أَن هذا القول فعلُ أَمر، وللأمر دلالات عدّة. لنتأمّل معاً دلالة هذا الفعل (فاحذروه) من متابعة السياق الذي ورد فيه.

---

[3] معاني القرآن 3/ 268-269.

[4] ينظر: اعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالوية، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع: 110، التبيان في تفسير القرآن 30/ 360، التبيان في غريب اعراب القرآن 2/ 517، الجامع لأحكام القرآن 78/20، البحر المحيط 7/ 481-482، تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1988م: 4/ 518، روح المعاني 30/ 145، حاشية الخضري على ابن عقيل 87، الميزان 299/20، تفسير المراغي 30/ 171.

[1] ينظر صفحة من البحث.

[2] التفسير الكبير 28/ 228.

[3] الكشاف 216/1.

[4] الجامع لأحكام القرآن 3/ 190.

اختلف الأُصوليون كثيراً في حقيقة المعنى الذي وضعتْ له صيغة الأَمر، قيل : إنَّها للوجوب، والواجبُ ما يُستحقُّ العقابُ على تركهِ، أو ما ورد الوعيد على تركه[1]. والأَمر بالحذر في الآية المباركة قد سُبقَ بوعيد وتحذير. والوعيدُ والتحذير يترتبُ العقابُ على تركها، وهذا هو المعنى الذي نصَّ عليه الغزالي. وقد ذكر ابنُ المنَير أَنَّ قوله تعالى «فاحذروه» مترتبُ على سابقهِ، فعندما ذكر تعالى إخفاء النفس للعزم على ما لايجوز جاء التحذير من ذلك العزم»[2]. وعلى هذا القول يعود الضمير المتصل (الهاء) بالفعل إحذروا إلى القول المُضمر الذي فُسِّرَ بالعزم على ما لايجوز. لو تأمّلت البحر المحيط تجد أَبا حيان الأندلسي (ت 754هـ) جعل الهاء عائدةً إلى الله سبحانه وتعالى وذلك بقوله : «الهاءُ، في قوله: فاحذروه، تعودُ الى الله تعالى، أَي: فاحذروا عقابه»[3]. وحين جعل ابو حيان الهاء عائدة الى الله أَضمر قولاً آخر هو : (عقاب)، أي : فاحذروا عقابَ الله، وعلى قول أبي حيان تلاحظ أَنَّ الله أَخبر مهدداً بأَنَّه يعلمَ ما تخفيه الأَنفس من العزم وغيرهِ، والأَمر بالحذر ترتب على الإخبار بأَن يحذروا ذلك العالم. وعلى هذا الرأي يكون المحذِّر والمحذَّر منه متساويين، فهما في الحالتين الله سبحانه، وأَمَّا حسب الرأي القائل إنَّ الهاء عائدة إلى القول المضمر يكون المحذِّر الله تعالى، والمحذَّر منه العزم. من هذا تتبيّن لك دلالة قوله: «فاحذروه» إذ تدلُّ على التحذير والتخويف، وهذان المعنيان اكتسبهما الفعل من دلالته المعجمية مضافاً الى دلالة السياق التي أوحت بذلك.

وبعد أن امر الله تعالى بالحذر قال : «**واعلموا أَنَّ الله غفور حليم**» قال البيضاوي (ت791 هـ) : «إنّ قلت: المناسب أن يُقال: وإعلموا أَنَّ الله عزيزُ حليم» إذ العزَّةُ والغلبةُ مناسبتان للحذر، قلت: المقصودُ عدم القناط، فإنَّه لما قيل: إنَّ الله يعلم ما في أَنفسكم فاحذروه، يمكن أَن يحلَّ القنوط، اذ لايخلو أَحدُ من الخواطر الباطلة، (...)، ولما قيل : إن الله غفور حليم، حصل الرجاء بالعفو والمغفرة، ومنه قيل: فيه إيذانُ بأَنَّ المَنْهي عنه مما يجب أَن يتجنب عنه»[1]. وهذا يعني أَن القول انما جيء به بعد التحذير؛ لإفادة الترهيب والترغيب.

ومن تحذير الله لعباده من نفسه يطالعك قوله تعالى: «**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ**

---

[1] ينظر: المتحول من تعليقات الإصول ، لأبي حامد محمد الغزالي، تحقيق: محمد حسين هيتو: 136-137، منهج الاصول: السيد محمد الصدر 75/5. (لم يُذكر في هذين المؤلفين محل الطبع).

[2] الانتصاف طبع مع الكشاف 1/ 216.

[3] البحر المحيط 2/ 230.

[1] انوار التنزيل وأسرار التأويل، 1/ 248.

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ال عمران 28-30. من الواضح أَنّه تعالى أمر باتخاذ المؤمنين أولياء وتفضيلهم على الكافرين وذلك بقوله: ((من دون المؤمنين)) ، ((وقوله (دون) بمعنى غير، لأَنَّ لفظ دون مختصٌّ بالمكان، تقول : زيدُ دون عمرو، أي: في مكان أسفل منه، ثم أَنَّ من كان مبايناً لغيرهِ في المكان فهو مغاير له. فَجُعِلَ لفظ دون مستعملاً في معنى غير))[2] . وإذا حُمِلَ لفظُ (دون) على معناه الحقيقي في الآية الكريمة ، أَي : الاختصاص بالمكان يكون المعنى موافقاً ايضاً، فإنَّ الله تعالى قال : ((من دون المؤمنين)) أَي: مَنْ هم أَقلُّ مكانةً وأَدنى مرتبةً من المؤمنين. فالمؤمنُ بطبيعة الحال هو الأَعلى مكانة، ودونه ما سواه، وأُتْبِعَ النهي بالتهديد والوعيد، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يقول سيد قطب: ((وهذا تهديدُ وتحذيرُ من نقمةِ الله وغضبهِ، وقد جاء التحذير في صورة عجيبة حقاً))[3]. فَوَصَفَ سيد قطب التحذيرَ بالعجيب من غير تفصيل لوجه العجب. ولو تأمّلنا مواهب الرحمن نجد صاحبه الْمَحَ الى تفسير وجه العجب بقوله:((وإنَّما أَتى عز وجل بلفظ عام، أَي: مَنْ، ولم يُشخِّصْ، وذكرَ لفظ يفعل ولم يذكر المؤمنين، للإشارة إلى أَنَّه أَمرُ قبيحُ، لذا كنّى عنها في الخطاب، كما يُكنّى عن القبائح))[1]. فقوله : (من) فيه دلالة على شدة التحذير في الآية. وبعد هذا يذكر تعالى استثناءً لتلك الحالة بقوله: ((إلاَّ أن تتقوا منهم تقاة)) وقد ذكر الزمخشري أَنَّ هذا القول يمكن أن يُفيد معنى حذر، لأن قوله: ((تتقوا منهم تقاة)) يُفيدُ معنى تحذروا وتخافوا[2]. وبعد التحذيرات التي تُفْهم من السياق القرآني يُورد اللهُ تعالى تحذيراً صريحاً، وذلك بقوله : ((**ويحذّركم الله نفسه**)). لقد تباينت أَقوال اللغويين والمفسرين في بيان المعنى الذي أَفاده هذا القول، يتّضح هذا التباين بعد أَن نطَّلع معاً على الاراء الآتية:

الرأي الأَول: قال الزجاج: ((يُحذركم اللهُ نفسه، أَي: عذابُ نفسهِ))[3]. هذا القول يعني أَن يكون في الآية محذوفاً، والمحذوفُ مضاف أُقِيمَ المضافُ اليه مقامه. وكان من الممكن أَن يذكر تعالى مفعولاً به، قد يكون (عقابه) بدلاً من القول (نفسه) على حذف مضاف، الا أَنَّ هذا القول (نفسه) مما لاشك فيه له دلالة أَفادها أكثر مما يُفيدُه عقابه. وقد فُسِّرت هذه الدلالة بآراء عدّة.

قال الشيخ الطوسي (ت 460 هـ) : ((نفسه، يعني: عذابه، وإضافته إلى نفسهِ على وجه الاختصاص والتحقيق، كما لو حققه بصفة، بأنْ يقول: يحذركم الله المُجازِي لكم))[4]. أَمَّا الفخرُ الرازي (ت 606هـ) فقد أَوضح تلك الدلالة بقوله: ((الفائدةُ في ذكر النفس أَنَّه

---

[2] التفسير الكبير 13/8.
[3] في ظلال القرآن 3/ 172.
[1] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 5/ 191.
[2] ينظر: الكشاف 1/ 345.
[3] اعراب القرآن 66/1، ينظر : إعراب القرآن، للنحاس 1/ 320، تفسير القرآن العظيم 1/ 338.
[4] التبيان في تفسير القرآن 2/ 434.

تعالى لو قال: ويحذّركم الله، فهذا لا يُفيد، لأَنَّ ، الذي أُريد التحذير منه هو عقابُ يصدرُ من الله، أو من غيرهِ، فلمّا ذكر النفس زال هذا الاشتباه، ومعلومُ أَنَّ العقاب الصادر عنه يكون أَعظم أَنواع العقاب؛ لكونه قادراً على ما لانهاية له»[5]. وقد تابع الآلوسي (ت 1270 هـ) سابقه على المعنى ذاتهِ في بيانه للدلالة التي أَفادها قوله تعالى: (نفسه) ، إذ قال: «وفيه تحذيرُ عظيمُ، مُشْعِرُ بتناهي المنْهِي عنه في القبح، حيثُ عَلَّقَ التحذيرَ بنفسهِ، وإطلاقُ النفس عليه تعالى بالمعنى الذي أَراده جائز من غير مشاكلة على الصحيح، وقيل : النفسُ هي الذات»[1].

من قراءة النصوص السابقة يتضحُ التقارب بينها من حيث المعنى. المفسرون قرروا إنَّما ذُكِرتْ النفسُ بعد التحذير؛ للدلالة على أَليم العذاب وشدتهِ. ولو تأمّلنا معاً ما قاله السيد عبد الأَعلى الموسوي السبزواري نجده ينأَى عن سابقيه إذ قال : «إنَّ من قدَّر، يحذركم الله عذاب نفسه، ظاهرُ الآية أَشدُّ تحذيراً من التقدير؛ لأَنَّ الله سبحانه وتعالى أَكّد في آياتٍ أخرى عظيم عقابه ومما يتحرّز منه»[2]. ولما انكر الدلالة التي رآها سابقوه لم تلحظ أنه صرّح بدلالة لقوله (نفسه) لإرادة جعل التحذير عاماً مطلقاً لم يفيد شيء.

الرأي الثاني: «قال أبو اسحق: ويحذّركم اللهُ نفسه، أَي: يحذّرُكم الله إياه، ثم استغنوا عن ذلك بذا، وصار المستعمل»[3]. وقد جاءت النفسُ بدلاً من (إياه) فكلا اللفظين ذوا معنى واحد[4]. وإلى مثل هذا ذهب صاحب الميزان فقد قال: «وليس في ذلك الا للدلالة على أَنَّ الله سبحانه وتعالى نفسه هو المخوّف ، والواجبُ الاحتراز منه»[5]. من هذا يتضح أَنَّ المفسرين عدّوا (نفسه) من ألفاظ التوكيد التي جيء بها لتؤكد الكلام، وتُضفي عليه صفة تأكيد التحذير من الله تعالى.

الرأي الثالث: «إن النفس ها هنا تعودُ إلى اتخاذ الأولياء من الكفّار، أي: ينهاهم الله من نفس هذا العمل»[6]. وهذا يعني أن قوله: (نفسه) يعود الى التحذير الذي فهم من السياق الذي سبق التحذير الظاهري في قوله : «ويحذركم الله».

لو أَعدت النظر ثانية في الآراء الثلاثة تجد الله هو المحذِّر في الرأي الأول، والمحذَّر منه محذوف وهو العذاب، وفي الرأي الثاني قد تساوى المحذِّر والمحذَّر منه، ففي الحالتين كلتيهما هو الله تعالى، إذ يحذّر عباده منه، أَمّا الرأيُ الثالث فتجد المحذَّر منه تقدَّم على المحذِّر، ويمكن أَن يكون تقديم المحذَّر منه بياناً لأهميته وعظم خطره، وفي الأحوال كلِّها المحذِّر هو الله والمحذَّرون المؤمنون. بعد أَن حذّر الله عباده هددهم بأن المنتهى اليه بقوله: «وإلى الله المصير». قال صاحبُ المنار: «وهذا القولُ تهديدُ عظيم

---

[5] التفسير الكبير 8/ 13.
[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 3/ 126.
[2] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 5/ 195.
[3] نقلاً عن اعراب القرآن، للنحاس 1/ 320، ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن 3/ 230، لسان العرب 4/ 176.
[4] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 2/ 434، البرهان في تفسير القرآن: هاشم بن سليمان البحراني، افنساب، طهران: 2/ 265.
[5] الميزان في تفسير القرآن 3/ 151.
[6] التفسير الكبير 8/ 13.

يُشعر بتناهي المنهى عنه»[1]. ويقرب من هذا قول السيد عبد الاعلى السبزواري فقد قال: «هذا القولُ: وإلى الله المصير، تأكيد للتحذير؛ لأَنَّ من كان مصيرُه إلى الله تعالى لابدَّ له من التحرّر عن الوقوع في مخالفتهِ، والتحذير من سخطهِ وعقابهِ»[2]. وما يزالُ التحذير مستمراً متجدداً مع السياق القرآني حتى يصل قوله تعالى: «**أن تخفوا ما في صدوركم او تبدوه يعلمه الله**» قال الزمخشري (ت 538 هـ) : «وهذا القولُ بيانُ لـ(يحذّركم اللهُ نفسه)، لأَنَّ نفسه ذاتهَ المميزة عن سائر الذوات، متصفةُ بعلمٍ ذاتي، لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم (...) فكان حقُها أَن تُحذَرَ وتُتقى ، فلا يجسِرُ أَحدُ على قبيح، لأَنَّ ذلك مطّلعُ عليه لا محالةَ»[3]. وقد قَدَّرَ أحدُ المفسرين قولاً بعد قوله تعالى: «أو تبدوه يعلمه الله، فاحذروا»[4] ويبدو أَنَّ المفسرَ قَدَّر هذا الفعل حين رأى السياق القرآني يوصي لمثل هذا التقدير، فَعِلْمُ الله ما في نَفْسِ العبد يقتضي من العبد أن يكون حذراً. وهذه التحذيرات المتتالية في سياق الآية المباركة قد خُتِمَتْ بقوله تعالى: «**والله على كل شيء قدير**»، قال الفخر الرازي (ت 606 هـ) في هذا الجزء من الآية : «إتمامُ للتحذير؛ وذلك لأَنَّه لما بَيَّن أَنَّه تعالى عالم بكلِ المعلومات كان عالماً لما في قلبه، وهذا تمام الوعد، والوعيد، والترغيب، والترهيب»[1]. وفي سياق يرد التحذير صريحاً وأخرى يدلُّنا السياق عليه ويضعنا المفسر على موضعه نجد التحذير الصريح عاد مرةً أُخرى حاملاً معه دلالة جديداً يضيفها الى المعاني السابقة. قال تعالى «**ويحذّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد**» قال الرازي (ت 606هـ): «وتكرار يحذّركم الله نفسه، جاء لتأكيد الوعيد»[2]. مما يلاحظ في الاية المباركة إتصال الرأفة بالتحذير، وقد علل الشيخ الطوسي (ت 460هـ) هذا بقوله : «إن من رأفةِ الله بعباده يحذّرهم نفسه»[3]. أمّا الآلوسي (ت 1270 هـ) فقد رأى ما رآه سابقوه مضيفاً إليهم قوله «يحذركم الله نفسه، تكرار لما سبق، وإعادتُه له لا للتأكيد فقط بل لإفادة ما يفيده قوله: «والله رؤوف بالعباد»، وإنَّ تحذيره تعالى من نفسهِ من رحمته الواسعة للعباد (...)، وإنَّ تحذيره سبحانه وتعالى ليس مبنياً على تناسي صفة الرحمة بل هو متحققُ مع تحقيقها ايضاً»[4]. وقال السيد الطباطبائي : «وفي الكلام أَشدُّ التهديد. ويزيد من اشتداده تكرارُه مرتين في مقام واحد، ويؤكدُه تذييلُه أَولاً بقوله: والى الله المصير، وفي الثاني: والله رؤوف بالعباد»[5]. يتضحُ من الأقوال السابقة أَنَّ المفسرين أَجمعوا على أَنَّ التكرار أفاد

---

[1] تفسير المنار: محمد رشيد رضا، إصدار دار المنار، مصر، ط4، 1373هـ/ 1954م: 3/ 282.
[2] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 3/ 86.
[3] الكشاف 1/ 345.
[4] الاء الرحمن في تفسير القرآن: محمد جواد البلاغي، مطبعة العرفان، صيدا، 1933: 1/ 273.
[1] التفسير الكبير 8/ 13.
[2] المصدر نفسه 8/ 17.
[3] التبيان في تفسير القرآن 2/ 434، ينظر: تفسير القرآن العظيم 1/ 338.
[4] روح المعاني 3/ 126.
[5] الميزان في التفسير القرآن 3/ 151.

التوكيد، وما دام التحذير ناتج من رأفة الله فتكرار يعني تكرار الرأفة والخوف،وهذه الطريقة تدل على الترهيب والتحذير. من الله تارة، والترغيب في رحمته تارة اخرى. الا أَنَّك لو أَنعمت النظر فيما قاله صاحبُ مواهب الرحمن تجد أَنَّه بدأ من حيث انتهى مضيفاً دلالة اليهم أُخرى، إذ قال: «وإعادةُ القول ثانيةً تأكيد جديد لأَهمية الموضوع، وبيان نهاية التحذير، ومن لطائف التعبير أَنَّه تعالى جمع بين الإنذار والتبشير، وأَمّا القول: «والله رؤوف بالعباد» تأكيد التهديد والتخويف، فإنَّ مثل هذا التعبير إذا أُتى به في مقام التخويف والتحذير يكون لتثبيتِ، وإشعار المخاطب بأَنَّ المتكلِّم هو ناصحُ شفيق»[1]. من هذا يتضح أَنَّ قوله تعالى: واللهُ رؤوف بالعباد جاء مؤكداً لـ(يحذركم الله نفسه)؛ وذلك لوروده في سياق التحذير، والوعيد. وبعد أن تبيّن ما رآه المفسرون في هذا الموضع فلنقترب معاً من البلاغيين لنتعرّف على رأيهم في هذا التكرار.

رأى البلاغييون أَنَّ مثل هذا التكرار يُسمّى إطناباً ولم يرد في القرآن عفواً أَو غفلةً، وإنما أَفاد أَسراراً بلاغيةً جليلةً[2]. قال الشريف الرضي: «فان قال قائلُ: إنَّه تعالى كرر قوله «يحذّركم الله نفسه» في موضعين متقاربين من هذه السورة، فما الفائدة من ذلك؟

فالجوابُ : إنَّ ذلك ليس بتكرار؛ لأَنَّ الذي عناه بالآية الأُولى غير الذي عناه بالآيةِ الأَخرى، لأَنَّ الأَولى: إنَّما حذّرهم فيها عقابه على موالاة الكفّار، والثانيةَ: إنما حذَّرهم فيها ذلك على مواقعة المعاصي، فَحَسُنَ إعادة التحذير عند كلِّ منهي عنه؛ ليكون الخوف أعم والزجر أَبلغ، وليُعْلِمَ ايضاً أَنَّ المجرمين في العقاب على حد سواء، فيكون التناهي عن أَحدهما كالتناهي عن الآخر»[3]. وعلى هذا القول لم يكن أَيُّ تكرار وإنما كان لكل تحذير دلالة خاصةُ به، ولو كان تكراراً لحُملَ على قول الزركشي (ت 749هـ) حين قال: «الكلامُ إذا تكرر تقرر»[4] وهذا لم يخلُ من دلالة التفخيم والتأكيد[5].

لو أَعدت النظر ثانياً في الموضعين اللذين جاء فيهما الله هو المحذَّر منه تجد الأولى (البقرة 235) صُدِّرت بفعل الأَمر الدال على التهديد إذ قال تعالى: (اعلموا)، قال ابن قتيبة : «ومنه أن يأتي الكلامُ على لفظ الامر وهو تهديد»[1] ثم يتكرر هذا الفعل بالصيغة ذاتها في الآية ذاتها. أما في الموضع الثاني (ال عمران/ 28) تجد النهي الذي أَفاد النصح والإرشاد تصدَّر الآية التي جاء فيها التحذيرُ. من هذا يتبيّنُ أَنَّ التحذير الصريح حين يكون اللهُ هو المُحَذَّر منه يردُ بإسلوب مليءٍ بالتهديدات والتحذيرات الضمنية التي تُفْهَمُ من السياق، وهذا إنما يدلُّ على إرادةِ التنبيه على عظم المحذَّر منه. مضافاً اليه شدّة

---

[1] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 5/ 213.

[2] ينظر: حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، للشريف الرضي، شرح العلامة محمد رضا آل كاشف الغطاء، مطبعة الغري، النجف، 1355هـ، 1936م : 310-311.

[3] المصدر نفسه : 82-83.

[4] البرهان في علوم القرآن 3/ 10.

[5] المجاز عند المفسرين حتى نهاية القرن السادس للهجرة، اطروحة دكتوراه، للباحث: نجم عبد مسلم هاشم الفحام، اشراف نصيرة احمد الشمري، كلية التربية / جامعة الكوفة: 260.

[1] تأويل مشكل القرآن : عبد الله بن مسلم بن قتيبة (213-276هـ)، تحقيق: أَحمد صقر، دار إحياء الكتُب العربية ، عيسى البابي الحلبي، مصر: 280.

التحذير. كما تبين لنا أَنَّ فعلَ التحذير في تلك المواضع لم يخرج من معناه المعجمي وهو التحرّز. فقد أمر الله سبحانه بالاحتراز من مواقعة المعاصي.

الله سبحانه يحذر نبيه

جاء هذا المعنى في موضعين من الذكر الحكيم فقد حذَّرَ الله فيهما نبيه (ص) تحذيراً صريحاً أولهما: قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَّيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ المائدة 49. قال ابو البقاء (ت 616هـ) في بيان المعنى الذي افادته (إن): ((قيل : إن بمعنى أي، وهو بعيدُ؛ لأَنَّ الواو تمنعُ من ذلك والمعنى لا يفيد بذلك، لأَنَّ أن التفسيرية ينبغي أن يسبقها قول يُفَسَّرُ بها))[2]. وقال أبو السعود في بيان قوله تعالى ((وان احكم بينهم بما انزل الله اليك ولا تتبع اهواءهم))، ((تمهيدُ لما يعقبه من قوله: واحذرهم أَن يفتنوك، وإظهارُ الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب))[3]. من هذا يتضح أَنَّ فِعْلَ التحذيرِ سُبقَ بمقدمةٍ له وهذه المقدمة جاءت بإسلوبين: أَحدهما: أَمرُ، وهو (احْكمْ) والآخرُ: نهي وهو (ولاتَتَبعْ) وهذا فيه تأكيدُ لأَهمية المحذَّر منه فضلاً عن افادة الاسم الجليل لتلك الدلالة. أمّا فِعْلُ الأَمر (احذرهم) اتصل فيه الضمير (هم)، وهذا الضمير ((في موضع نصب، (...)، وقولُه: (أَنَّ يفتنوك) بدلُ، وإن شئت من أَنَّ يفتنوك))[1]. أمّا القرطبي (ت 671هـ) فقد رأى ((أن بدل من الهاء والميم في (واحذرهم) وهو بدل اشتمال، أو مفعولُ من أَجلِهِ، أَي: من أَجلِ أَن يفتنوك، والخطابُ له (ﷺ)، والمرادُ غيره))[2]، وقوله : (واحذرهم) ((تحذيرُ أَكيد له (ﷺ) من اضِلالهم له (ﷺ) بالصرف عن ما أَنزل الله، وإنّما أَمرْ تعالى بالحذر مع كونه (ص) معصوماً لأَجل إعلامهِ بفضاعة الأَمر وشدّته))[3]. وازداد التحذيرُ تأكيداً وقوّةً عند إعادةِ قوله((ما انزل الله اليك))، حسبما أفاده السيد عبد الاعلى السبزواري بقوله: ((وإعادة ما انزل الله اليك. هذا الكلام قد سبقه مثلُه في صدر الآية الكريمة، لتأكيد التحذير بتهويل الخطب))[4]. فإظهار الاسم الجليل للتهويل ، وتحذير النبي (ﷺ) مع كون العصمة قائمةً فيه للدلالة على الشدة، وإعادة القول للتهويل، هذه كلُّها تُفيد شيئاً واحداً هو بيان أَهمية المحذَّر منه الذي ذكره تعالى بقوله ((**إن يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك**)) وهذا القول وإن ذكر فيه لفظ

---

(2) التبيان في اعراب القرآن 1/ 441.
(3) تفسير ابي السعود 2/ 35، ينظر: تفسيرُ الخازنِ او ما يُعرفُ بـ(لباب التأويل في معاني التنزيل)، للإمام علاء الدين البغدادي المعروف بالخازن، مصطفى البابي الحلبي، مصر: 1/ 464.
(1) اعراب القرآن، للنحاس : 1/501-502.
(2) الجامع لاحكام القرآن 6/ 213.
(3) مواهب الرحمن في تفسير القرآن 11/ 327.
(4) المرجع نفسه 11/ 327.

الخصوص فانّ المرادُ به العموم، كما يُذكر العموم ويراد الخصوص[5]. وقد تابع القرطبي (ت671هـ) سابقه على هذا قائلاً: «قولُه عن بعض ما انزل الله إليك» أَي : كلُّ ما أُنْزِلَ اليك، والبعضُ يُستعمل بمعنى الكل»[6]. واسِتشهد على ذلك بقول الشاعر:

ترّاك أمكنة اذا لم ارضها أو يعتبط بعضَ النفوس حمامُها[7]

فقد ذكر الشاعر (بعض) وأَراد كل . وبقوله تعالى: «**ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك**» تكتملُ دعائمُ التحذير التي يُشيدُ عليها فهذا القول هو المحذَّر منه الذي اضفى عليه عز وجل دلالات الشدة يوحي السياق، وقد تعرّفنا من قبلُ على المحذِّر وهو الله عز وجل، والمحذَّر هو النبي (ﷺ) وبانتهاء سياق التحذير، يأتي الوعيد للمخالفين، وهذه سنَّةُ القرآن الكريم في سياق التحذير، قال تعالى: «**فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم**»، فجاء قوله : (فاعلم) لإفادة التهديد من إصابتهم بالذنوب[1]. وفي سياق الوعيد ينبغي أَن يُذكر الذنب العظيم الذي يستحق الوعيد، الا أَنَّ الآية المباركة تقول :«ببعض ذنوبهم» فقد ذُكِرَت إيهاماً لتعظيم التولّي[2] ويقرب من هذا ما ذهب اليه القرطبي بقوله : «عَبَّرَ عن ذلك باصابتهم ببعض الذنوب؛ وذلك لأَنَّ المجازاة بالبعض كافيةً في التدبير عليهم»[3]. فعلى هذين القولين تكون دلالة الوعيد الذي ترتبت على التحذير أَشدَّ قوَّةً، لأَنَّ العقابَ الذي سيُؤخذون به جزاءً على بعض الذنوب، فكيف إذا عُوقبوا بالذنوب كلها؟ فكما المحذر منه فيه دلالة الشدة جاء الوعيد يحمل الدلالة ذاتها.

أَما الموضع الثاني الذي حذَّر فيه الله سبحانه نبيه (ص) تحذيراً صريحاً قوله تعالى : «**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**» المنفقين /14.

حذر الله سبحانه وتعالى في هذه الاية المباركة نبيه (ﷺ) من المنافقين وقد بدأها بـ(إذا) قال النحاس (ت 338هـ) : «أَجاز النحويون جميعاً الجزمُ بـ(إذا)، ويمكن أَن تُجعل إذا بمنزلة حروف المجازاة، لأَنَّها لا تقع إلاَّ على فعل، وهي تحتاج إلى جواب، هكذا حروف المجُازاة»[4]. وبعد أَن تَمَّ الشرطُ وجوابُه بقوله: واذا رأيتهم تعجُبك، جاء التشبيه

---

(5) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 3/ 540.
(6) الجامع لأحكام القرآن 6/ 213.
(7) البيت للبيد بن ربيعة العامري، ينظر: شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق د.احسان عباس، طبع مطبعة حكومة الكويت: 313.
(1) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، للذكتور قيس اسماعيل الأوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، مطابع دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1989م:95.
(2) ينظر : الكشاف 1/ 498.
(3) الجامع لأحكام القرآن 6/ 214.
(4) ينظر: اعراب القرآن 3/ 435.

ليبيّن حالهم وتمَّ ذلك بقوله تعالى: «كأَنّهم خُشُبُ مسنّدة» . «والتّشديدُ في مسنّدة لمبالغة، وإنَّما وُصِفَ الخُشبُ بها؛ لأنَّها تشبه الأَشجار القائمة التي تنمو وتُثمر بوجه ما، وهذه الجملةُ في محل نصب على الحال، وصاحبُ الحال الضميرُ في (قولهم) وهذا بيانُ لوجه الشّبه»[1]. وبعد بيان حالهم بأنهم كالجماد جاء نعتهم بالجبن والانتقاصُ من قَدَرِهم إن كان لهم ذلك، فقد قال تعالى : «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» قال الرازي (ت 606هـ) : «نسبةُ الجبن اليهم ، وعابهم به (...) إنَّهم على وجل من أن يهتك اللهُ أَستارهم ويكشف أَسرارهم»[2]. أَمَّا أَبو حيان (ت754هـ) فقد عَدَّ قوله تعالى : «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» دليلاً على جبن من وصف بالجملة التشبيهية في قوله «كأَنّهم خُشُبُ مسنّدة»، وقوله: « كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» في موضع المفعول الثاني لـ(يحسبون)، أي : واقعةُ عليهم، وذلك لجبنهم، ومافي قلوبهم من الرعب[3]. لو أَعدت النظر في الآية الكريمة تجد أَنَّها ذكرت مجيء الكافرين للرسول (ﷺ) وبطبيعة الحال حين يجيئون لرسول الله (ﷺ) سيشاهدون من قبل من كان حاضراً، ثم تأتي المرحلة الثالثة فهم يقولون ويبدأ لاستماع لقولهم، فهذا التدرّج في الأَحداث من حدث إلى آخر حسب التسلسل الزمني مبتدأً بالمجيء، فالمشاهدة، ثم القول والاستماع ثم يليه الوصف الذي خرج للذَّم، وذم آخر تمثّل بقوله: «يحسبون كل صيحة عليهم»[4]. هذا السياق يشدُّ الأَذهان ويُنبئ قارءهُ او سامعه أَنَّ هناك أَمراً مهماً يُراد الإخبار عنه، وهذا الأَمر هو قوله تعالى : «هم العدو فاحذرهم» وقد جعل القرطبي قوله : «هم العدو»، مفعولاً ثانياً لـ(يحسبون)، واستدل على ذلك بأَن الكلامَ لا ضميرَ فيه يصفهم بالجبن أو الخور[5]. أمّا أبو حيان (ت 754 هـ) فقد ذهب إلى غير ما ذهب اليه سابقه فقد قال: «وتخريج (هم العدو) على أَنَّه مفعولُ ثانٍ لـ(يحسبون) تخريجُ متكلّف بعيدُ عن الفصاحة، بل المتبادرُ إلى الذهن السليم أَن يكون (هم العدو) إخباراً منه تعالى، وإن أَظهروا الإسلامَ، والأَمُر بالحذر متسببُ عن إخباره بأنهم العدو»[1]. أمّا صاحب الفتوحات الإلهية فقد عدَّ قوله تعالى «هم العدو فاحذروهم» جملة مستأنفة أَخبر الله بها، وذلك لأَنَّ الفاء التي اتصلت بفعل الأَمر جاءت لترتيب الحذر على كونهم أَعدى الأَعداء»[2]. وهذا يقترب من قول أبي حيان عندما عدَّ (هم العدو) إخباراً من الله. بعد أَن تبيّن قوله تعالى:

---

(1) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: اسماعيل بن عمر العجيلي الشهير بالجمل (ت 1201هـ)، مطبعة الاستقامة، القاهرة: 4/ 336.

(2) التفسير الكبير 30/ 15.

(3) ينظر: البحر المحيط 8/ 272، جامع البيان عن تأويل آي القرآن 28/ 107.

(4) ينظر: الميزان في تفسير القرآن 19/ 280-281.

(5) ينظر: الجامع لاحكام القرآن 18/ 124.

(1) البحر المحيط 8/ 272.

(2) الفتوحات الإلهية 4/ 326.

(هم العدو) هو سببُ الأَمر بالحذر لـ«والأَمرُ بالحذر يدلُّ على أَنَّ الضمير في قوله «هم العدو» للمنافقين»[3]. تأمل قوله: «**هم العدو فأحذرهم**» تجد الضميرَ مختصاً بالجمع، وقولُه (العدو) لفظُ يُفيد المفرد فكيف تطابق الجمع مع المفرد؟ أَجاب عن هذا الزمخشري (ت 538هـ) بقوله: «منظورُ فيه إلى الخبر»[4]، وبما أَنَّ الخبر (فاحذرهم) مفردُ فقد توافق مع المبتدأ، فكلاهما مفردُ. وقد تابع الآلوسي (ت1270هـ) سابقه على هذا بقوله: «أَتى بضمير العقلاء؛ لمراعاة معنى الخبر، أَعني العدو، بناءً على أَنَّه جمعُ ومفردُ وهو ها هنا جمع، ثم أَمر تعالى بالحذر؛ لأَنَّ التحذير منهم يقتضي وصفهم بالعداوة»[5]. إذا أَعدت النظر في قوله تعالى «**هم العدو فاحذرهم**» تجد ركنين من أَركان التحذير جاءا مضمرين يدلُّنا السياق عليهما، فالمحذِّرُ الله تعالى، ولم يصرّح بذاته الجليلة في الآية المباركة، والمحذَّر هو النبي (ﷺ)، والسياق أَخبرنا بذلك، وأَما المحذَّر منه فقد أَوضحته الآية بقوله : (هم العدو). وبهذا الآية تشترك مع سابقتها التي جاء فيها النبي (ص) محذَّراً وهي المائدة /49. إذ أَن ركنين من اركان التحذير لم يُصرّح بهما فاكتفت الآيتان بذكر المنذر منه، وما هذا الا اعتناءً بأهمية وعظم خطره. وبطريقة القرآن الكريم ذاتها التي يرد فيها التحذير إذ تُخَتَتمُ الآيةُ بالوعيد والتخويف، وفي الآية محل البحث أُختتِمت بقوله تعالى: «**قاتلهم الله أَنّى يؤفكون**» قال النحاس : «اي : عاقبهم فأهلكهم، فصاروا بمنزلة من قُتِلَ، وهذا أَشدُّ شدائد الدنيا، وكأَنَّ استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة»[1]. وهذا القول . قاتلهم الله. «أَشدُّ ما يكون من الذم والبلاء الذي ينزل بهم، وأَبلغ ما يكون في البيان من مكرهم»[2].

وإذا كان الوعيد يوحي بدلالات الشدة والقساوة إنما هي دلالة على شدة التحذير وعظم المُحَذّر منه؛ لاسيما أَنَّ القرآن الكريم يعادل بين الذنب والجزاء عند الأخذ به. وفي الآيتين محل البحث كانت الدلالة على معرفة عظم المُحَذَّر منه سياقية، إذ أَنَّ السياق القرآني أفاد ذلك، لما أورده من اساليب ومعان دلَّت عليه.

الله يحذّر من مخالفة نبيه

أمر الله جلَّت قدرتهُ عباده اخذ ما يأمرهم به نبيهم (ﷺ) وعدم المخالفة، قال تعالى : «**لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» النور/ 63.

---

[3] أنوار التنزيل وأَسرار التأويل 4/ 204.
[4] الكشاف 4/ 434.
[5] روح المعاني 28/ 112.
[1] اعراب القرآن 3/ 435.
[2] التبيان في تفسير القرآن 12/28.

قال الزجاج: ((المصدرُ في قوله : دعاء الرسول. مضافُ إلى الفاعل، أَي: كدعاء الرسول عليكم))[3]. أَمَّا المفسرون فذكر عددُ منهم أَن قوله تعالى: ((لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ، أَي: احذروا دعاءه عليكم إذا أَسخطتموه[4]. وقد ذهب الفخر الرازي إلى ما ذهب اليه سابقوه بقوله: ((وهذا النهيُ، أَي: لاتجعلوا ، معناه: احذروا)) (...)، ويدلُّ عليه قوله: ((فليحذر الذين يخالفون عن امره))[5] وعلى قول الفخر الرازي يعني أَنَّه أَخرج النهي من معناه لإفادة الأَمر. وهذا ما اكّده السيوطي ت905هـ بقوله : ((إنَّ النهي ينزلُ من الأَمر منزلة النفي من الايجاب))[1]. ثم أَمر تعالى متوعّداً بقوله : ((فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ)) وهذا تهديد، والتهديدُ بالمخالفة دليل الوجوب[2]. وعلى هذا فإنَّ الآية الكريمة تأَمر المخالف بوجوب الحذر من نزول العقاب، لأَنَّ العقاب يكون بعد تحقق المقتضي له، وقد تحقق ذلك عند حصول المخالفة، وفي هذا المقام أَورد الرازي (ت 606هـ) تساؤلاً وأَجاب عنه، فقد قال : ((لمَ لايجوز أَن يكون قوله (فليحذر) أَمراً بالحذر عن المخالف، لا أَمراً للمخالف بالحذر؟ قلنا : لو كان كذلك لصار التقدير : فليحذر المتسللون لواذاً من الذين يخالفون أمره، وحينئذ يبقى قوله: أن تصيبهم فتنة او عذاب اليم)) ضائعاً، لأَنَّ الحذر ليس فعلاً يتعدّى إلى مفعولين))[3]. والأَمرُ بالحذر في قوله: ((فليحذر، إن الفاء في أَوّله أَفادت ترتيب الحذر، أَو الأَمرَ به على ما قبلها من علمهِ تعالى بأَحوالهم، فإنّه مما يوجب الحذر البتة))[4] وبين هذا وبين سابقهِ (قول الرازي) اختلافُ كبير، فعلى قول الرازي يكون المحذَّر منه مخالفة أَمر النبي (ﷺ)، وأَمّا على القول الثاني يكون المحذَّر منه (علم الله) الذي ورد ذكرهُ في الآية الكريمة، وقد حصل هذا التباين بسبب عودة الضمير في قوله: (أَمره) فمنهم من عنى به النبي (ﷺ) ومنهم من أَراد به الله سبحانه. وفي الحالتين كلتيهما، المحذِّرُ هو الله تعالى، وأَمَّا المحذَّرون فقد أَوضحهم لنا الزمخشري بقوله: ((الذين يصدّون هم المنافقون، فحذف المفعول الأول، لأَنَّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه))[5]. من قول الزمخشري تلاحظ أَنَّه ركّز على المحذَّر والمُحذَّر منه دون النظر الى المحذِّر، وما ذلك الا اهتماماً بركني التحذير اللذين ذُكرا دون سواهما. فالمحذَّرون هم المنافقون. ((وجاء حرف الجر (عن) أَمَّا لتضمينه

---

[3] اعراب القرآن 128/1.
[4] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 18/ 466، مجمع البيان في تفسير القرآن 7/ 158. الجامع لأحكام القرآن 12/ 322.
[5] التفسير الكبير 24/ 28.
[1] الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، 1975: 2/ 304
[2] ينظر: أَساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 95.
[3] التفسير الكبير 24/ 42.
[4] الفتوحات الإلهية 3/ 242.
[5] الكشاف 3/ 205.

معنى الإعراض أو حملهِ على معنى يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر، إذ صَدَّ عنه، وحذف المفعول الأول؛ لما أَنَّ المقصود بيان المخالف، والمخالف عنه»[1].

ومن لم يمتثل ويحذر جاءه الوعيد بقوله: «أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قال النحاس: «إن في موضع نصب بـ(يحذر)، ولا يجوز عند أكثر النحويين، حذرُ زيداً، وهو في أَن جائز؛ لأَنَّ حروف الخفض تحذف معها»[2]. وإلى مثل هذا ذهب صاحبُ الفتوحات الإلهية قائلاً: «ان تصيبهم فتنة ، في تأويل مصدر مفعول يحذر، أَي: إصابته فتنة»[3] وعلى هذين القولين تكون عاقبة التحذير بمثابة مفعولٍ به؛ لأَنَّ القول سيصبح فليحذر الذين يخالفون عن امره إصابة الفتنة او العذاب الاليم. فالعذاب المترتب على مخالف التحذير مما لايخفى، فكما المحذَّر منه مبالغُ فيه من حيث ذكره، فقد أُعيد الاهتمام به في ذكر من لم يمتثل له، فدلالةُ التحذير على الشدة دلالة سياقية فضلاً عن الصورة التي ورد بها التحذير وهي فعلُ الأَمر الدال على الوجوب.

الله يحذّر عباده

حذَّر الله سبحانه وتعالى عباده في مواضع عدّة من القرآن الكريم، الا أَنَّ التحذير الصريح اقتصر على مواضع محددة منها قوله تعالى: «**إِنَّما يريدُ الشيطانُ أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل انتم منتهون، واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغُ المبين**» المائدة / 91-92. في هاتين الآيتين من الذكر الحكيم حذَّر تعالى عباده من المكائد التي يُريدها الشيطان للناس، حتى يبتعدوا عن طريق التكامل وينحوا نحو التسافل. الا أَنَّ من وسعت رحمتهُ غضبه نبَّه عباده وحذّرهم مما يريده بهم عدوّهم. وبعد أَن بيّن الله ما يريده الشيطان ختم ذلك بقوله: «**فهل انتم منتهون**» استفهام خرج لإفادة معنى آخر سوى الاستفهام، والنحاةُ الاوائل وفي مقدمتهم سيبويه نبهّوا إلى خروج الاستفهام عن أَصل معناه ليفيد معنى أخر،[1].والمعنى الذي يفيده الاستفهام يحدده السياق، وبما أَنَّ السياق الذي جاء فيه قوله تعالى «فهل أَنتم منتهون« سياقُ تنبيه وتحذير سيحمل الاستفهام معنى التنبيه والتحذير. قال الزمخشري (ت538هـ): في الآية محل البحث «وهذا أَبلغ ما يُنهى به، كأَنه قيل: قد تُلي عليكم ما فيها من الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟»[2]. وقال أبنُ

---

[1] الفتوحات الالهية 3/ 243.
[2] اعراب القرآن 2/ 456.
[3] الفتوحات الالهية 3/ 243.
[1] ينظر: الصفحة من الرسالة.
[2] الكشاف 1/ 660، تفسير النسفي، لأحمد بن محمود ، طبع بهامش لباب التأويل الهامش 1/ 485.

يعيش (ت643هـ): «هل: في معنى الأَمر، لأَنَّه لم يقصد الاستفهام وانما المرادُ الأَمرُ، والحثُّ على ما يُنجيهم ، فإنَّ المراد بـ(انتهوا) لا نفسَ الاستفهام»[3]. وأَمَّا القرطبي (ت 671هـ) فقال: «والقولُ: فهل أَنتم منتهون، وعيد شديد، زائدُ على معنى انتهوا»[4]. وذكر أَبو السعود أَنَّ قوله تعالى : «فهل انتم منتهون« يعني أَنَّ التحذير قد بلغ نهايته وذروته، كما أَنَّ كشف المفاسد بلغ النهاية[5]. أَمّا السيد عبد الأَعلى السبزواري الموسوي فقد قال : «وعيدُ شديدُ، وحثُّ جديدُ على الانتهاء بصيغة الاستفهام، بعد بيان الصوارف والتأكيدات للإعلام بأَنَّ الحالةَ في المنع والتحذير قد بلغت النهاية»[6].

ومن خلال الأَقوال السابقة يتبيّن أَنَّ الاستفهام في الآية الكريمة الذي أَفاد الأَمر بمعنى : انتهوا، تضمَّن تهديداً شديداً، أَفاد الترهيب والوعيد الشديدين، وهذان المعنيان يتوافقان مع السياق؛ لأَنَّ المقام يقتضي ذلك فالموضعُ موضعُ تخويف. ثم أَمر تعالى قائلاً: «**وأَطيعوا الله وأَطيعوا الرسول واحذروا فإنْ تولوا فاعلموا**». لو تأَمّلت الأَفعال التي وردت في هذا القول تلاحظ أَنَّها جاءت بصيغة واحدة، وهي صيغة الأمر. والأَفعال الدالة على الأَمر في قوله: «وأطيعوا، وأطيعوا، واحذروا، أفادت النصح والإرشاد، أَمَّا قوله: (فاعلموا) فأفاد التهديد[1]. وعندما كان السياق القرآني يُفيد الوعيد والتهديد الشديدين كيف عُطِفَ عليه بنصح وإرشاد. أَجابَ عن هذا القرطبي (ت 671هـ) بقوله : «وحَسُنَ عطف واطيعوا. لما كان في الكلام المتقدّم معنى انتهوا، كرر وأَطيعوا في ذكر الرسول (ﷺ) تأَكيداً ثمَّ حَذّر من مخالفة الأَمر، وهذا تأكيدُ للتحريم، وتشديد في الوعيد، وإمتثال للأَمر»[2]. وقد ذهب الزمخشري من قبلُ الى أَنَّ الأَمر بالحذر يتضمّن معنى الحال، ويتضحّ هذا من قولهِ: «وقولُه تعالى: واحذروا، الأَمرُ بالحذر ، أي: كونوا حذرين خاشين، لأَنَّهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كلِّ سيئةٍ، واحذروا ما عليكم من الخمر والميسر»[3]. وحينما حُمِلَ قوله تعالى : «فهل أَنتم منتهون« على معنى الوعيد لإفادة التحذير كما تبيّن سابقاً جاء قولهُ (واحذروا) ليوكّد ذلك المعنى، إلاَّ أَنَّ هذا التقدير يُقدِّم الحذر على الطاعة، والحالُ تقتضي تقديم الطاعة على الحذر، لأَنَّ «الحذرَ امتناع القادر من الشيء لما فيه من الضرر»[4]؛ لأَنَّ من أطاع الله ورسوله كان حذراً من الوقوع في المحارم التي نهى الله عنها بصدر الآية. ويمكن أَن يكون قوله تعالى: «واحذروا» عما نهاكم، وعلى هذا التقدير لا تأكيدَ في الآية المباركة. إلا أَنَّ الاية تحملُ توكيداً يتّضحُ من دلالات الأَفعال، فالأَمرُ باجتناب الأَرجاس أَوّلاً، والأَمر بطاعةِ الله وطاعة رسولهِ ثانياً، والأَمرُ بالتحذير الصريح ثالثاً، هذه الصيغ تُزيد التحذير والتأكيد للأَمر السابق بالانتهاء عن المحارم. وعلى الطريقة التي انتهجها

---

[3] شرح المفصل 1/ 48.
[4] الجامع لأحكام القرآن 6/ 292، ينظر: تفسير القرآن العظيم 2/ 87.
[5] ينظر: تفسير ابي السعود 2/ 59.
[6] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 12/ 391.
[1] يُنظر: الجامع لإحكام القرآن 6/ 292.
[2] المصدر نفسه 6/ 292.
[3] الكشاف 1/ 660.
[4] التبيان في تفسير القرآن 4/ 19.

القرآنُ الكريم في سياق التحذير الصريح حيث يختمه بالوعيد، وفي الآية محل البحث قال تعالى خاتماً إيّاها: ﴿فإنْ توليتم فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغُ المبين﴾ . فالنتامل معاً بعض ما قاله المفسرون في قوله تعالى : ﴿فاعلموا﴾ قال الطبري (ت 310هـ) : ﴿وهذا من اللهِ وعيدُ شديد لمن ولّى مدبراً عن أَمره ونهيهِ، فقولهُ: فان توليتم، عن أَمري ونهي فتوقّعوا عقابي وتوقّعوا سخطي﴾[1]. وقد تابعه على ذلك عدد من المفسرين فقد ذكروا أَنَّ قوله (فاعلموا) . إنما جيء به بعد التحذير لإفادة التهديد والوعيد[2]. مما سبق تلاحظ أَنَّ الله سبحانه وتعالى جمع أَساليب عِدّة في سياق آية التحذير، مبتدأ بالاستفهام الذي أُخْرِجَ من معناه الأصلي إلى معنى ثانٍ، فالأفعال التي أَفادت النصح والإرشاد من ضمنها فعل الأَمر (احذروا) ، إذ خرج من معناه المعجمي الذي يُعمد اليه في التخويف الى النصح والإرشاد ، ثم تُختتمُ الآية بالوعيد. من هذا يتضحُ أَنَّ الأَمر بالحذر جاء بعد سلسلة من الأَساليب متبوعاً بالتخويف حتى يتسنّى لمن يصل اليه التبليغ معرفة خطر المحذَّر منه ليتجنبه.

وينتقلُ التحذير الصريح في القرآن الكريم من العدو الأَول للبشر وهو الشيطان، إلى عدو البشر من جنسهم البشري، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعاً﴾ النساء / 71. يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين أمراً إياهم بأَخذ الحذر.

لقد تباينت أَقوالُ المفسرين في بيان معنى قوله: ﴿خذوا حذركم﴾، وهذا التباين نتج من أَنَّ الأَخذ يكون للشيء المادي الملموس، والحذرُ شئٌ معنوي، فكيف يتم التوافق بينهما؟ هذا ما دعا المفسرين واللغويين إلى تأويل الحذر وتفسيره بوجهةٍ متوافقةٍ مع الآية الكريمة. قال الشيخ الطوسي (ت 460 هـ) : ﴿خذوا حذركم، أَي: خذوا سلاحكم، فسمّى السلاح حذراً، لأَنَّ به يقي الحذر، واحذروا عدوكم بأَخذ السلاح، كما يقال: خُذْ حذرك بمعنى : اِحْذَرْ﴾[3]. وإلى المعنى ذاته ذهب الزمخشري (ت 538 هـ) فقد قال: ﴿كأَنَّه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه، ويعصمُ بها روحَه، والمعنى: احذروا واحترزوا﴾[4]. وقد أَيَّد صاحبُ مجمع البيان (ت548 هـ) هذين القولين لما رأى موافقتهما لمقاييس اللغة[1]. وعلى هذا الرأي يجب أن يُعدَّ قوله تعالى: ﴿خذوا حذركم﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه، مع إعطائه الموقع الإعرابي الذي يستحقُّه المضاف قبل حذفه. وسيكون التقدير: خذوا آلة حذركم، وهذا الذي قَصَدَ به الطبرسي كون الكلام موافقاً لمقاييس كلام العرب. من هذا يتبيّن أَنَّ الحذرَ خرج

---

[1] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 7/ 36، ينظر : التفسير الكبير 12/ 82.
[2] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 4/ 21، مجمع البيان في تفسير القرآن 3/ 240، روح المعاني 7/ 17، الميزان 6/ 125، مواهب الرحمن 392/12.
[3] التبيان في تفسير القرآن 5/ 253.
[4] الكشاف ط، بيروت: 1/ 521.
[1] ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 3/ 73.

من معناه المعجمي إلى معنى آخر يُستدلُّ عليه من السياق القرآني وهذا ما صرّح به الفخرُ الرازي (ت 606هـ) بقوله: «إنَّ الأَمر بالحذر يتضمَّن الأَمر بأَخذ السلاح، لأَنَّ أَخذ السلاح هو الحذرُ من العدو، وعلى هذا القول، إنَّ أَخذ السلاح مدلولُ عليه بفحوى الكلام»[2]. ولما أَخرج المفسرون الحذر من معناه الحقيقي إلى ما يحمل معناه استندوا الى باب من أَبواب التفسير. قال السيد عبد الأَعلى السبزواري الموسوي: «هذا بابُ التفسير بالمصداق، وإلاَّ فإنَّ الحذر أَعمُّ من الأَسلحة وما يحصلُ في النفس من الخوف، اي : إنّه أَعمُّ من النفسي والمعنوي والمادي»[3]. وهذا المعنى أَقربُ إلى الدلالة المعجميّة للفظة (حذر) التي تعني التحرّز[4]. وبعد الأَمر بأَخذ الحذر يأتي الأَمرُ الثاني الذي يجب العمل به بعد أَخذ الحذر وهو قولُه تعالى: «**فانفروا ثات او انفروا جميعاً**». وهذا القول «ليس تخييراً في كيفية الخروج وإنما التردد بحسب العدو، وهذا ما يؤكد أَنَّ المراد بالحذر هو التهيؤ العام»[5]. وحسب هذا التقدير لاتحتاج الآية الى تقدير حذف مضاف، فالحذرُ بقي على معناه الحقيقي ولم يُرد به أَيُّ معنى ثانٍ. وبتباين معنى الحذر في الآية الكريمة إلا أَنَّ المحذِّرَ واحد وهو الله جلَّت قدرته. أما المحذَّرون فهم المؤمنون، والمُحذَّر منه الأَعداء الذين خرج الحذر من معناه الأَصلي للتأهب ضدَّهم. ويتكرر الأَمرُ ذاتُه في السورة ذاتها، قال تعالى: «**وإذا كنتُ فيهم فاقمت لهم الصلواة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفة أخرى لم يُصلّوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم وذَّ الذين كفروا لو تغفلون عن اسحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مضر او كنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حِذركم إنَّ الله اعدَّ للكافرين عذاباً مهينا**». النساء / 102. لقد اختلف المفسرون والفقهاء في الآية المباركة في بيان الطائفة التي أُمرت بالصلاة، والأُخرى التي أُمِرتْ بأخذ الأَسلحة والحذر. وهذا الاختلاف أَحدثه الضمير (هم) الذي اتصل بحرف الجر (في)، فأَيُّ الفريقين يصلي، وأيُّهما مأمورُ بأَخذ سلاحهِ وحذرِهِ. وهذا الموضع ليس موضعاً للبحث في هذا الموضوع بل بحثُ للسياق الذي جاء فيه التحذير. قال الزجاج في الآية محل البحث موضّحاً صفاتها: «اختصر وأَوجز وأَطنب وأَسهب وأَتى بالبلاغةِ والفصاحةِ بحيث لا يفوتُها كلام ولا يبلغ كنهها بشر»[1]. فلنتدبرْ معاً ما قاله الزجاج من خلال تطبيقهِ على الآية المباركة. أَمَّا

---

[2] التفسير الكبير 10/ 176.
[3] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 9/ 23.
[4] ينظر: الصحاح 2/ 626.
[5] الميزان في تفسير القرآن 4/ 415.
[1] اعراب القرآن، المنسوب للزجاج: 1/ 31.

الاختصارُ والإيجاز فيتمثل بحذف المفعول من قوله تعالى: ﴿فليصلّوا معك﴾ ، وحذف الجار والمجرور من قولهِ: ﴿فلتقم طائفةٌ منهم معك﴾، والإضمارُ في قوله تعالى: ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾(أَي غيرُ الطائفة المأمورة بالقيام معه، فلا ينصرف الضمير من قوله: (وليأخذوا) إلى الظاهر قبله، وإنما التقدير: وليأخذوا باقيهم أَسلحتهم، فحذف المضاف فاتصل المنفصل[2]. وهذا هو الإيجاز والإطناب الذي ذكره الزجاج. وقولهُ تعالى: **وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم** قال الزمخشري (ت 538هـ): ﴿كيف جمع بين الأسلحةِ وبين الحذر في الأخذ؟ قلت: جعل الحذر هو التحرّز، والتيقّظ آلةً يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأَسلحة في الأّخذ وجعلها مأخُوذَين﴾[3]. وإلى القول نفسه ذهب الفخر الرازي (ت 606 هـ) فقد ذكر أَنَّ الحذر هو التحرّز؛ ولذلك جمع بينه وبين الأَسلحة[1]. أمَّا صيغةُ الأَمر الذي جاءت بها لفظة الحذر فقد أَوضح دلالتها القرطبي (ت 671 هـ) بقوله: ﴿إِنَّ الأَمر بأخذ الحذر في قوله: وليأَخذوا حذرهم، هو وصيةُ على الندب ، لأَنَّه شيء لولا الخوف لم يجب أَخذه، فكان الأَمرُ به ندباً﴾[2] وبهذه المعاني تلاحظ أَنَّ الحذر في هذه الآية التزم بدلالتهِ المعجمية وهي التحرّز والتأهّب.

ثم كرر الله جلّت قدرتُه الأَمر بالحذر بقوله: ﴿**خذوا حذركم**﴾ وفي هذه المرّة تلاحظ أَنَّ الحذر ذُكِرَ وحده ولم يجمع مع الأَسلحة، وقد عُدَّ الأَمر بالحذر حثاً على أَخذ السلاح. قال الشيخ الطوسي (ت 460هـ): ﴿**احذروا بأخذ أسلحتكم**﴾[3]. أمّا الفخر الرازي (ت 606 هـ) فقد عَدَّ الأَمر بأَخذ الحذر والسلاح زيادةً في التحذير حيث قال : ﴿والقولُ بأَخذ الحذر هو المبالغة في الحذر﴾[4] . ويأتي سياق التحذير مختوماً بالوعيد والتهديد للإيحاء بالقوّة والشدة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ أَعدَّ للكافرين عذاباً مهينا**﴾ أَورد الزمخشري (ت 538هـ) في هذا الموضع تساؤلاً يتمثل بقوله : ﴿كيف طابق الأَمرُ بالحذر قولَه : ﴿إِنَّ الله اعدَّ للكافرين عذاباً مهينا﴾؟ قلت : الأَمرُ بالحذر من العدو يُوهمُ توقّع غلبتهِ واغتراره، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أَنَّ الله يهين عدوَّهم، وليعلموا أَنَّ الأَمر بالحذر ليس لذلك، وإنما هو تعبدُ من الله﴾[5]. وقد تابع الفخرُ الرازي (ت 606هـ) سابقه على هذا المعنى مضيفاً اليه بعضَ الدلالة، إذ قال: ﴿إِنَّ الأَمر بالحذر ليس لما هم عليه من القوّة، والهيبةِ، وإِنَّما هو لأَجل أَن يحصل الخوف في قلوب المؤمنين﴾[6]. اما الآلوسي (ت

---

(2) ينظر: اعراب القرآن، المنسوب للزجاج 1/ 31.
(3) الكشاف 1/ 458.
(1) ينظر: التفسير الكبير 11/ 26.
(2) الجامع لأحكام القرآن 5/ 371.
(3) التبيان في تفسير القرآن 3/ 310.
(4) التفسير الكبير 11/ 26.
(5) الكشاف 1/ 548.
(6) ينظر: التفسير الكبير 26/11.

1270هـ) فقد عدَّ قوله تعالى: إن اللهَ أعدَّ للكافرين عذاباً مهينا» جملةً تعليليةً لما أَمر اللهُ به من الحذر، فقد قال «تعليلُ للأَمر بأَخذ الحذر، فلما كان الأَمرُ بالحذر موهماً لغلبتهِ واعتراره نفى ذلك الإيهام بالوعد بخذلان العدو»[1]. كما أَنَّ قوله تعالى: **إِن الله أعدَّ للكافرين عذاباً مهينا**» بقدر ما فيه من وعيد للكفّار، فيه طمأنةُ للمؤمنين ، فبعد أَن أُمِروا بالحذر وسيبقون حذرين جاءهم القول إنَّ الله معذبُ عدوكم الذي من أَجلهِ أُمرتُم بالحذر.

من الآيات والأقوال السابقة يتبين أَنَّ المحذِّر الله سبحانه وتعالى، أمَّا المحذَّرون في قوله تعالى: «**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**» فهم المؤمنون، أمَّا في قوله: «خذوا حذركم« فهم المصلّون وراء النبي (ﷺ) ، أما المحذَّر منه فهو عدو الإسلام. وليست خافية عليك دلالة شدة الترهيب التي تضمنها التحذير وذلك لما جمع بين الأَسلحة والحذر واختتام سياق التحذير بالوعيد.

ويطالعنا التحذير الصريح في قوله تعالى: «**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا بالدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون**» التوبة 12.

قال النحاس (ت 338هـ) «وما كان المؤمنون لينفروا كافة، لفظ خبر، ومعناه الأَمر»[2]. على هذا القول يكون المعنى: انفروا، وهذا الأَمرُ يدلُّ على الوجوب، إنَّ استعمال الخبر في معنى الأَمر في القرآن الكريم إنما هو من الصيغ المستعملة في الوجوب[3]. وبعد أَن حصل الأمرُ بالنفرة حصل شرطُ قيد النفرة وذلك قوله: «**ليتفقّهوا ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم**»، «ولاشك في أَنَّ الطائفة النافرة لم ينفروا إلاَّ والإنذار قد تقدَّم من الله اليها، وللإنذار، وخوف الوعيد نفرت»[4]. اما الآلوسي (ت 1270هـ) فقد رأى ان لإختيار قوله: (ينذروا، ويحذرون) سبباً يجعل هذه الأَلفاظ اكثر توافقاً من غيرها في السياق الذي جاءت فيه، ويتضح هذا من قوله: «والظاهرُ أَن يُقال: ليُعْلِموا بدل لينذروا، ويفقّهوا بدل يحذرون، لكنه أَخبر ما في النظم الجليل للإشارة الى أَنّه ينبغي أن يكون غرضُ المعلِّم الإرشاد، والإنذار، وغُرضُ المتعلِّم اكتساب الخشية، لا التسلّط والاستكبار»[1] . وهذا يعني ترغيباً بالعلم من جهة وترهيباً وتحذيراً من أَن يُغر صاحب العلم من جهة أخرى. وبعد أَن حصل التفقّه وحصل الإنذار، وأَصبحوا عالمين بشؤون

---

[1] روح المعاني 5/ 137.
[2] اعراب القرآن 2/ 46.
[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن 3/ 347.
[4] جامع البيان عن تأويل أي القرآن 11/ 70-71.
[1] روح المعاني 11/ 48.

دينهم وجب بعد هذا العلم الحذر، وقد تمثَّل ذلك بقوله : ﴿لعلهم يحذرون﴾ وهذا القولُ معناه الأَمر، فقد أَمر سبحانه القومَ بالحذر عند الإنذار، لأَنَّ معنى القول ليحذروا[2]. وإذا كان معنى لعلهم يحذرون احذروا سيعود الضمير في يحذرون إلى الفرقة الباقية مع النبي (ﷺ)؛ وذلك لأَنَّه يكون معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ليتفقهوا ولينذروا﴾ ومهما يكن من شيء سواء أَكان الفعل بمعنى الأَمر ام المضارع فالمحذَّر منه لم يرد له ذكرُ في الآيةِ المباركة، بل جاء اللفظ عاماً مطلقاً لم يُقيد بشيء، ويمكن أَن يُستنتج المحذَّر منه من حد الحذر الذي هو ﴿اعداد ما يتقي الضرر﴾[3] فيدخل الأَمر بالحذر في هذا الموضع كل ما تضمّنه التعريف من معان. وبهذا يكون التحذير عاماً مطلقاً لم يُقيد بأشياء تذكر.

لو تتبعت آيات الذكر الحكيم التي تحذّر المؤمنين تحذيراً ظاهرياً تجد من هذه الآيات حذّرت من أَقرب الناس صلةً منك أيها المؤمن. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التغابن /14. تجد في الآية الكريمة المحذَّر منهم الأَزواج ، والاولاد ﴿وقد أُدخلت (من) التي أَفادت التبعيض على هذا التعبير، فليس كل الأزواج والأَولاد أَعداءً﴾[4]. أَمَّا الأمرُ بالحذر في قوله: ﴿فاحذرهم، أي كونوا على حذر منهم، والضميرُ (هم) الذي حمله الفعل عائدُ للعدو، ويمكن أَن يكون عائداً للأزواج والأَولاد جميعاً﴾[5]. وعلى هذا سيكون المحذَّر منه العدو[1]. وإذا كان الأَمر كذلك ينبغي أَن يقال: الاعداء، لمراعاة الإفراد والجمع. الا أَنَّ هناك وجهاً يمكن أن يحمل عليه وهذا الوجه هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ الشعراء / 77 فالخبر جمع ومن قصد به مفرد. اما إذا أردت مراعاة الإفراد والجمع فتجعل الضمير عائداً الى الأزواج والأولاد. لقد أخفى قوله (عدد) الشدة والتهويل على المحذّر منه. قال السيد الطباطبائي: ﴿وتعليق العداوةِ بهم يُفيد التعليل، أَي: تعليل التحذير﴾[2]. من هذا القول يتضح حين قال تعالى: (عدوُ) ليكون التحذيرُ مسوّغاً على الأَزواج والأولاد. وهذه الآية المباركة تشترك مع سابقتها في بيان سبب التحذير في الآية الكريمة وهو العداوة.

وبعد التحذيرات التي وجهها تعالى للمؤمنين ينتقل القرآن الكريم ليحذّر المنافقين وتحذيرُ المنافقين في القرآن لا يخلو من مصلحة لهم، فلعلَّ من يعتبر بذلك التحذير ويرجع الى سبيل الرشاد، وفي آيات الذكر الحكيم تلاحظ تحذير المنافقين فيه من التهديد والوعيد

---

[2] ينظر: الكشاف 2/ 311، تفسير ابي السعود 2/ 303، روح المعاني 11/ 48.
[3] التبيان في تفسير القرآن 10/ 291.
[4] البحر المحيط، الهامش لابي حيان: 8/ 278.
[5] الكشاف 4/ 440.
[1] ينظر: روح المعاني 28/ 126.
[2] الميزان 19/ 307.

مما لايخفى، فلنتأمل معاً تلك المواضع، قال تعالى: ﴿يحذرُ المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل إستهزؤا إنّ الله مخرج ما تحذرون﴾ التوبة/64. تباينت أَقوالُ المفسرين في قولهِ تعالى: ﴿يحذر﴾ فمنهم من رأى الجملة إخباريةً تخبر عن المنافقين، وآخرون رأَوا الجملة بمثابة الأَمر، فقوله تعالى : يحذر ، معناه: ليحذرْ، على الأَمر من الله تعالى، قال الشيخ الطوسي (ت 460هـ): ﴿وحَسُنَ ذلك اي: (الأَمر)؛ لأَنَّ موضعَ الكلام موضع تهديد﴾[3]. وقد تابع الزمخشري سابقه على هذا إذ عَدَّ (يحذر) دالاً على الأَمر، قال: ﴿الأَمر بالحذر، أَي: ليحذرْ المنافقون، فإن قلت: الحذرُ واقعُ على إنزال السورة في قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة﴾ فما معنى قوله : ﴿مخرجُ ما تحذرون﴾ قلتُ: معناه محصّل مبرر إنزال السورة، أَو إنَّ الله مظهرُ ما كنتم تحذرونه، أَي: تحذرون إظهاره﴾[1]. من هذا يتبيّن أَنَّ الفعلَ (يحذر) دالُ على الأَمر مع كونه مضارعاً، وبتعبير آخر ، إنَّ هذا المضارع قد حذفت منه لامُ الأَمر، وحذف لام الأَمر أَجازه جمهور البصريين في ضرورة الشعر، إذ يجوز حذف لام الأَمر بشرط إبقاء عملها، وقد استندوا في إجازة ذلك إلى شواهد كثيرة جاء فيها المضارع مبنياً، أَو ساكن الحركة، قال سيبويه: ﴿إعلمْ إنَّ هذه اللام، قد يجوز حذفُها في الشعر، وتعمل مضمرةً، كأَنَّهم شبهوها بـ(أَنْ) إذا أَعملوها مضمرةً﴾[2]. الا أَنَّ الزمخشري في موضع ثانٍ توسّعَ في دائرة حذف لام الأَمر وتجاوز بها الشعر إلى النثر واِستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿هل ادلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم تومنون بالله وتجاهدون في سبيل الله﴾ الصف 10-11، فقد قال: ﴿فإن قلت: ما وجه قراءة زيد بن علي ، تؤمنوا، وتجاهدوا؟ قلت: وجهها أَن تكون على إضمار لام الأَمر﴾[3]. وعندما يكون الفعل (يحذر) خرج لإفادة الأَمر سيؤدي دلالة التخويف والوعيد، وهذان المعنيان ذهب اليهما الطوسي وتبعه الزمخشري وقد تمثّل هذا التخويف بإخراج الله سبحانه لما يحذرونه. اما الفخر الرازي (ت 606هـ) فقد عدَّ قوله: يحذر المنافقون ﴿استشعار حذر من أَن تنزّل عليهم آية تكشف أسرارهم﴾[4]. ولم يكن قوله : (يحذر) الوحيد في الآية المباركة الذي أَفاد التهديد بل إن قوله: (قل استهزؤا) خرج للدلالة ذاتها، وهذا ما صرّح به عددُ من العلماء، قال ابو عبيدة: ﴿مجازُه مجاز التوعّد، والتهدد، وليس بأمر طاعةٍ او فريضة﴾[5]. وقال الزمخشري (ت 538 هـ): ﴿الأَمرُ بالوجوب في أصلهِ، إلاَّ أَنْ يدلَّ دليل على خلاف

---

[3] التبيان في تفسير القرآن 10/ 291، التفسير الكبير 16/ 121.

[1] الكشاف 2/ 277.

[2] كتاب سيبويه 3/ 8-9، ينظر: الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لابن الانباري ومعه كتاب الانتصاف من الانصاف، تأليف: محمد محي الدين عبد الحميد، دار احياء التراث العربي، ط4، 1961: 2/ 547.

[3] الكشاف 4/ 100.

[4] التفسير الكبير 2/ 70.

[5] مجاز القرآن 2/ 1122، ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 10/ 171، التبيان في تفسير القرآن 10/ 291، وتفسير القرآن العظيم 2/ 351.

الوجوب»[1]. وهذا واضحُ للعيان فإنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يأمرُ بالاستهزاء، وإنما يُخرجه لغرض آخر «والعربُ تخرج الكلام بلفظ الأَمر، ومعناه فيه النهي او التهديد والوعيد»[2]. وقد جعل الدكتور قيس الأَوسي قوله تعالى: «قل استهزؤا» تحت عنوان التهديد والوعيد[3]. فتهديدان ووعيدان في الآية المباركة يمكن أَن يتوافقا مع تصدّر الآية بـ(أَمر) يؤتى به إفادة التخويف والتهديد أَيضاً ليصبح المعنى: ليحذر المنافقون تنزيل سورة يفتضحون بها. أَمَّا بعضُ المفسرين فقد اِستبعد أَن يكون الفعل يحذر، يُفيد الأَمر بالحذر، بل حملوه على ظاهرهِ من إفادة الإخبار، قال القرطبي (ت 671هـ): «يحذر المنافقون خبر، وليس بأَمر، ويدلُّ على أَنه خبر أَنَّ ما بعده، إنَّ الله مخرج ما تحذرون؛ لأَنَّهم كفروا عناداً»[4]. من هذا يتبيّن أَنَّ حذر المنافقين كان سابقاً لإنزال السورة التي يخشونها، فأَراد اللهُ عقابهم بما يحذرونه ويخافونه، لأَنَّه يكون أَكثر إيلاماً لهم، فاختار تنزيل السورة؛ لأَنهم أَبدوا حذرهم منه، وعلى هذا لا أمر في قوله تعالى: (يحذر). وإلى مثل هذا ذهب أَبو السعود إذ ذكر «أَنَّ المنافقين قد أظهروا الحذر، وكان إظهارهم للحذر بالاستهزاء، لذا جاء الأَمرُ، استهزؤا، أَي: افعلوا الاستهزاء، والمنافقون أَظهروا الحذر ولكنهم بالحقيقة لم يكونوا حذرين؛ لأنهم ليسوا بمؤمنين، لذا لا يحتاجون الى الحذر»[5]. من هذا يتبين أَنَّ أَبا السعود اخرج الفعل من دلالة الأَمر الى دلالة الإخبار، وهذا الإخبار أَفاد إظهار المنافقين للحذر غير الواقعي الذي ابتغوا منه الاستهزاء. وقد أَنكر صاحبُ تفسير المنار كون الحذر غير واقعي بقوله: «ويؤيده إسناد الحذر إليهم في أَولِ الآية وآخرها، ولو صَحَّ هذا ، أَي: (الحذر غير الواقعي) لذُكِرَ عنهم ذلك بالحكاية، فأَسند الحذر الى قولهم، ولم يسنده اليهم، كما أَسند إليهم كثيراً من الأَقوال، ويؤيّد وقوع الحذر منهم في قوله تعالى في السورة المضافة إلى اسمهم بقوله: «يحسبون كل صيحة عليهم» المنافقون / 4. وحذّرهم من تنزيل هذه السورة، وليس من الاستهزاء»[1] من هذا يتبين أَنَّ صاحب المنار أَيّد وقوع الحذر الحقيقي من المنافقين، وبهذا أعطى للفعل دلالة الإخبار لا غير. وبعد الأمر أو الإخبار يُبَيّنُ تعالى المحذَّر منه بقوله: «أَن تنزّلَ عليهم سورةٌ» ، فقوله: «أن تنزّل« في موضع نصب بـ(يحذر)، على أَنها متعدّيةُ بنفسها، ويجوز أَن تكون بحرف الجر، أي: من أن تنزّل ، فيكون معه نصباً أو جرّاً[2]. وقد ذهب صاحبُ الفتوحات الإلهية إلى ما ذهب اليه سابقه، فقد عَدَّ (بحذر) متعدياً بنفسهِ، ولو أَنَّه متعدٍ في الأَصلِ بنفسهِ لواحد لما اكتسب بالتضعيف مفعولاً ثانيا[3]. كما تباينت آراء المفسرين في بداية الآية الكريمة في تحديد صيغة الفعل (يحذر) أَخذ التباينُ طريقه ليصلَ إلى الضمائر التي في قوله تعالى: «عليهم، تنبئهم، قلوبهم «إلى من تعود هذه

---

(1) الكشاف 2/ 277.
(2) اساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 98-99.
(3) ينظر: المرجع نفسه 207.
(4) الجامع لأحكام القرآن 8/ 195، ينظر: تفسير المنار 10/ 610.
(5) تفسير أَبي السعود 2/ 280.
(1) تفسير المنار 10/ 610.
(2) ينظر : التبيان في اعراب القرآن 2/ 650.
(3) ينظر : الفتوحات الإلهية 295/2.

الضمائر؟ للمؤمنين أم للمنافقين ؟ ويظهر ذلك واضحاً حين نطلّع معاً على النقطتين الآتيتين:

اولاً: قال الزمخشري (ت538هـ): «الضمير في قوله (عليهم، تنبئهم) للمؤمنين، وفي (قلوبهم) للمنافقين، وصحَّ ذلك؛ لأَنَّ المعنى يقودُ اليه. ويجوز أَن تكون الضمائر عائدةً للمنافقين، لأَنَّ السورةَ إذا نزلت في معناهم فهي نازلةٌ عليهم»[4]. وإلى مثل هذا ذهب الفخر الرازي (ت 606هـ) فقد قال: «ويجوز أَن تكون الضمائر كلها للمنافقين؛ لأن السورةَ إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم»[5]. على هذين القولين يكون حرف الجر (على) بمعنى (في) ، أي : في شأن المنافقين. وعلى هذا يكون التحذير ذا دلالة بينة الشدة؛ لأَنَّ السورة كشفت ما يضمره المنافقون لأعدائهم وهم المؤمنون.

ثانياً: قال القرطبي (ت 671هـ): «ومعنى عليهم، أَي : على المنافقين»[1]. وإذا كان الضميرُ عائداً على المؤمنين ليس في ذلك تفكيكاً للضمائر، فإنَّ إنزال الوحي يُعدَّى بـ(إلى)، وبـ (على) الذي يتلقّاه الرسول (ﷺ) من الله تعالى. ويعدَّى بهما أيضاً إذا كان الحديث مع قومه. قال تعالى: «**قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا**» ال عمران/136. وقال تعالى: «**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا**» آل عمران 84.

حَذَرُ الكافرين

ذكر اللهُ في كتابه العزيز الكافرين وهم يُبدون الحذر واستعدادهم لما سيُلاقون وورد ذكرُهم وهم يُحَذّرون بعضُهم بعضاً. هذان المعنيان جاءا في موضعين من الذكر الحكيم بصيغة التحذير الصريح، وأوّلُ هذين الموضعين ما جاء في الذكر على لسان فرعون حين يخاطب قومه لمواجهة موسى (ع). قوله تعالى: «**إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ**» الشعراء 54-56. قال الفرّاء (ت207هـ): «يُقال: عصبةٌ قليلةٌ وقليلون وكثيرون، واكثر كلام العرب، أن يقولوا: قومك قليل، وقومنا كثير، وقليلون وكثيرون جائزُ عربي، وإنما جاز؛ لأَنَّ القلَّة تدخلهم جميعاً، فقيل: قليل وأُثِر قليل على قليلين، وجاز الجمعُ إذا كانت القلة تلزم جميعهم في المعنى، فظهرت اسماؤهم على ذلك»[2]. وذهب أَبو البقاء (ت 616هـ) الى مثل هذا فقد ذكر أنّه جمع (قليلون) على المعنى؛ لأَنَّ الشرذمة جماعة[3]. وقد رأى آخرُ هذا الجمع جيء به لتتوافق رؤوس الآيات،

---

[4] الكشاف 2/ 277.
[5] التفسير الكبير 16/ 121.
[1] الجامع لأَحكام القرآن 8/ 195، الفتوحات الالهية 295.
[2] معاني القرآن 2/ 280.
[3] ينظر: التبيان في اعراب القرآن 966/2.

ولو كان اللفظ مفرداً لكان جائزاً ايضاً[4]. يتبيّن مما سبق أَنَّ الأَقوال اقتربت بعضها من بعض فهي تُفيد أَنَّ قولَه: (الشرذمةُ قليلون) دالُ على الجمع، وقد وصِفَ الجمع بجمع المذكر السالم. وحين أجمعت الأَقوالُ على هذا تراها ابتعدت في دلالة المعنى الذي أَفاده هذا الجمع، يتّضح هذا التباين من الاراء الاتية:

الرأي الأَول: أَفاد بعضُ المفسرين إِنَّما ذُكِروا بالاسم الدال على القلة، وهو شرذمةُ ، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجُعِلَ كلُّ حزبٍ منهم قليلاً، واختار جمعُ السلامة الذي هو للقلّة. ويجوز أَن يريد بالقلّة الذلّة. والمعنى: أَنَّهم لقلّتهم لا يبالي بهم، ولا يتوقّع غلبهم[1]. من هذا يتبيّن إِنَّما ذُكروا بالقلة لإِذلالهم.

الرأى الثاني: وُصِفوا بالقلّةِ ثُمَّ جُمِعَ القليل جمع سلامةٍ الذي هو للقلّة، لأَنَّ الظاهر تقليل العدد[2].

الرأيُ الثالث: الجمعُ قليلون، جاء لموافقة رؤوس الآيات القرآنية والمعنى هو الذي فرض ذلك[3]. فعلى هذا الرأى لم يكن المقصود في الآية قلّة العدد ولا إِذلالهم من وصفهم بالقلّة. إِنَّما الفائدةُ اقتصرت على توافق رؤوس الآيات. ثم عطف تعالى قولاً آخرَ لفرعون مخبراً قومه عن قوم موسى قال: «إِنهم لنا لغائظون». فقد جاء هذا القولُ مؤكّداً بإِسلوبين من أَساليب التوكيد، أحدهما: تقديمُ الجار والمجرور على الخبر، وثانيهما: باللام الداخلة على خبر (إِنّ). فالقة التي أريد بها الاذلال او تقليل العدد، ثم ذِكِر غيظ القوم لهم، انما هو مقدمة لأمر يريد تقريره وهو في حالة الزهو والغرور والبغي[4] بأنه مستعد متأهب، قال «وإِنّا لجميعُ حذرون» لقد اختلف القرّاء والمفسرون في قراءة قوله: (حاذرون). فكلُّ ذهب إِلى قراءة اعتمدها ودليلٍ رآه في نفسه قوياً رصيناً يؤيّد قراءته به. وتلك القراءات هي:

القراءةُ الأَولى: (حاذرون) بالأَلف ، وقد اعتمد هذه القراءة الكوفيون وابنُ ذكوان[1]. ويكون المعنى حسب هذه القراءة «خائفين شرَّهم اي: مؤدّون ذو أداةٍ، وقوّة، ومستعدّون شاكون في السلاح»[2]. أَمّا القرطبي (ت 671هـ) فقد ذهب إِلى ما ذهب اليه سابقه إِذ ذكر «حاذرون، متأَهبون، أي: مستعدّون»[3] ولايكون حاذراً متأهباً الا ان يكون خائفاً. وفي معنى آخر لهذه القراءة وهو ما اعتمده أَبو حيان الأَندلسي (ت 754هـ) فقد قال: «إِن الحاذر هو الذي أَخذ يحذره ويجدد حذر وحذر متعدد»[4] من

---

(4) البيان في غريب اعراب القرآن : أبو البركات بن الأَنباري، تحقيق: د.طه عبد الحميد طه، راجعه، مصطفى السقا، دار الكتب العربي، القاهرة، 1969م: 2/ 214.

(1) ينظر: الكشاف 3/ 314، التفسير الكبير 24/ 137.

(2) ينظر: البحر المحيط 7/ 18 ، وهامش البحر المحيط، لأَبي حيان 7/ 17.

(3) ينظر: البيان في غريب اعراب القرآن 2/ 214.

(4) ينظر: الحوار في القرآن الكريم اسماعيل ابراهيم علي محمد السامرائي ، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة بغداد، اشراف أز د. عبد الرحيم احمد الزنة، 1989: 122.

(1) ينظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، مراجعة: محمد علي الضباع، مصطفى محمد، مصر: 2/ 335، التيسير: لابي عمر الداني النحوي، مطبعة استقلال لاهور: 15.

(2) مجمع البيان في تفسير القرآن 7/ 190، لباب التأويل 3/ 363.

(3) الجامع لأحكام القرآن 13/ 101.

(4) البحر المحيط 17/ 18.

قول أَبي حيان يتبين أَنه أَخذ معنى (حاذر) من صيغته، وهي صيغة اسم الفاعل التي تدلُّ على التجدد والحدوث. ففرعون وقومه يتجدد حذرهم خوفاً من موسى عليه السلام.

القراءة الثانية: (حذرون) اعتمد هذه القراءة القرّاء جميعُهم عدا الكوفيين وابن ذكران[5].

ومَنْ اعتمد هذه القراءة رأى المعنى: إننا قومُ من عادتنا الحذر، واستعمال الحزم[6].

ومعنى آخر لهذه القراءة ، قيل : حذرون ، اي: خائفون متحرّزون، وقيل مدججون بالسلاح[7]. هذا مارآه المفسرون أمّا سيبويه فقد أجاز القولُ: حَذِرُ بدل من حاذر، كما يقال: هو حذرُ زيداً، ويُقال: حاذِرُ زيداً[8].

وقد تابع سيبويه على هذا الكثير من العلماء ومنهم الكسائي والفرّاء، ومحمد بن زيد، فقد ذهبوا الى أَنَّ. معنى (حَذِر) من كان في خلقته الحذر، اي منتبهُ متيقّظ[9]. يتبيّن مما رأه سيبويه ومن تابعه أَنْ لا فرقَ بين القراءةِ الأُولى (حاذرون)، وبين القراءة الثانية (حذرون) أذ أَنَّ القراءتين كلتيهما تشتركان بمعنى واحد وهو التيقّظ. وقد أيّد الطبري القراءتين ولم يرَ أَيَّ فرق بينهما فقال: ((إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأَمصار، متقاربتا المعنى، فأيهما قرأ القارئ فمصيب والصواب فيه))[1].

اما الطبرسي (ت 548هـ) فقد رأى خلافاً بين القراءتين أوضحه بقوله: ((إنَّ الحاذر الفاعلُ للحذر، والحَذِرُ المطبوع على الحذر))[2]. من ملاحظة المعنى في هاتين القراءتين يتّضح أن دلالة (حذر) في الآية المباركة لم تخرج من الدلالة المعجمية للكلمة، لأَنَّ القول: رجلُ حذر يعني: متيقظ[3]، كما أَنَّ (حاذرون) متأهبون، وهذا هو المعنى المعجمي[4]. والقراءتان لم تنأ عن هذين المعنيين.

القراءة الثالثة: (حادرون) بالدال غير المعجمة، وعلى هذه القراءة تُنفى صفة الحذر اصلاً، لأَنَّ الحادر: السمين[5]. اما القرطبي (ت 671هـ) فقد رأى أَنَّ (حادرون) مشتقُ من القول: عينُ حَدْرةُ، أَي: ممتلئة، وعلى هذا يكون معنى القراءة، نحن ممتلئون غيضاً[6]. ويبدو أَنَّ من ذهب الى هذه القراءة لما رأى أَن تعالى أَخبر على لسان فرعون قوله: ((**وإنَّ لهم لغائظون**)) أَي: إنَّ قوم موسى (عليه السلام) يُغيظوا فرعون وقومه، فجاءت المقابلة بأَننا نغيظُهم أيضاً. وفي معنى آخر لهذه القراءة فيمكن أَنْ يُقال: رجلُ حادر، إذا كان سميناً، أي: ممتلئ اللحم، ويمكن أَن يكون معناه

---

(5) ينظر: النشر في القراءات العشر 2/ 335،التيسير 115.
(6) ينظر: التفسير الكبير 24/ 137. وتاج العروس من جواهر القاموس 10/ 568.
(7) ينظر: الجامع لاحكام القرآن 3/ 101، البحر المحيط 18/7.
(8) ينظر: كتاب سيبويه 1/ 198.
(9) ينظر: معاني القرآن، للفرّاء 111/2، اعراب القرآن للنحاس 2/ 489.
(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 77/19.
(2) مجمع البيان في تفسير القرآن 7/ 190.
(3) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس 10/ 564-565.
(4) ينظر: كتاب العين 199/3، الصحاح 626/2، لسان العرب 176/4.
(5) ينظر: الكشاف 3/ 315.
(6) ينظر: الجامع لاحكام القرآن 1/13.

ممتلئ السلاح؛ لأَنَّ المعنى يكون أكثر توافقاً مع الآية[7]. وهذا المعنى يقترب مما ذهب اليه الزمخشري من قبلُ ، فكلا المعنيين يُفيدان معنى القوّة ورباط الجأش، وهذا يبتعدُ من حيث المعنى عن (حذرون) إذا أُريد منها صفة السمن دون تأويل لمعان السمن. ويقتربُ من (حاذرون).

لو أَعدتا النظر ثانياً في الآية المباركة «**إنّا لجميعُ حاذرون**» نجد مفردات الآية المباركة تدلُّ على الجمع؛ وذلك لأَنَّها افتتحت بـ(إنّا) –الحرف المشبّه بالفعل مضافاً اليه الضمير (نا) فلفظُ (جميع) ثم اسم الفاعل بصيغة الجمع (حاذرون) . يتبيّن أَن لفظة جميع حين توسّطت بين الجمعين: إنَّا وحاذرون، افادت التوكيد، وهذا أمرُ شائعُ عند النحاة وعَدّوه مما يرفع توهّم عدم ارادة الشمول[1]. لكنّك حين ترى الفتوحات الإلهية تجد صاحبه يقول: «واما القولُ «لجميعُ» اي: جماعةُ فليست هذه الكلمة من أَلفاظ التوكيد، فهي بمعنى جماعة، أَي: إننا جماعة حاذرون»[2]. وحين يكون فرعون وجنوده حاذرين أَملاً منهم أَنَّ ذلك الحذر سينقلُهم الى بر الأَمان، إلاَّ أَنَّ الله تعالى بدد آمالهم حين قال: «**ونُريد أن نَمنَّ على اللذين أُستضعفوا في الأَرض ونجعلهم إئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم في الأَرض ونرى فرعونُ وهامان وجنودُهما منهم ما كانوا يحذرون**» القصص 6.

لقد تباينت الآراء في قراءة الفعل الدال على الوعيد وهو قوله (نري) قال الفرّاء : «قولُه: ويرى فرعون وهامان وجندهما، هكذا قراءةُ أصحاب عبد الله بالياء والرفع، والناسُ بعدُ يقرؤنها بالنون. ونُري فرعون وهامان وجنودهما. بالنصب، ولو قُرئت بالياء ونَصبُ فرعون. يريد: ويُري اللهُ فرعون. كان الفعل لله، ولم أَسمعْ أَحد قرأ به»[3]. والى مثل هذا ذهب الداني بقوله: «ويرى فرعون وهامان وجنودهما ، بالياء ، مفتوحة، وفتح الراء، وإمالة فتحتها، ورفعُ الاسماء الثلاثة بعدها، وهذه قراءة أَهل الكوفة الا عاصماً، وأَمَّا الباقون فقرؤا بالنون مضمومةً وكسر الراء، وفتح الياء بعدها ونصب الثلاثة بعدها»[4]. «والرواية بصرية ، وفرعون وما عُطِفَ عليه مفعول أَوَّل، وما كانوا يحذرون مفعولُ ثانٍ، وأَمّا إذا فُتِحتْ الراءُ تجب إمالة الأَلف إمالةً محضة، وتُرْفعُ الاسماء الثلاثة على الفاعلية. وسيكون له مفعول واحد فقط وهو (ماكانوا يحذرون)، وجنودهما الاضافة اليهما أمّا للتغليب أو أَنَّه كان لهامان جنودُ مخصوصةُ به»[1]. وعلى تباين القراءات تبقى الدلالة التي أُريد من الفعل إفادتها واحدة وهي الوعيد، حيث أوعدهم الله أَنه سيُريهم ما يحذرون، وفي هذا تخويف وتحذير مما لايخفى على لبيب

---

[7] ينظر : المصدر نفسه 1/13.
[1] ينظر : شرح ابن عقيل 2/ 207.
[2] الفتوحات الالهية 3/ 279.
[3] معاني القرآن 2/ 302.
[4] التيسير للداني 120، النثر في القراءات العشر 341/2.
[1] الفتوحات الالهية 3/ 334.

متأمل، أَمّا الشيءُ المُحذَّر منه، أَي: الرؤية التي تودعهم الله بها. لم تُصرَّح الآية الكريمة بها الا أَنَّ بعضَ المفسرين عَدَّ المحذَّر منه في الآية الكريمة مطلقاً، وهذا يتضّح من قول الطبري (ت 310هـ): «شيئاً ما حُذِّر القوم»[2]. اما بعضُ المفسرين فقد قيد الحذر في الآية الكريمة إذ عدَّ المحذَّر منه هو ذهاب ملكهم[3]. والتقديران لم يصرح بهما ، بل أن السياق دلَّ على ذلك المعنى. كما إنَّ الدلالة المعجمية للفظة (حذر) بقيت كما هي فلم يُرد بها غير معناها المعجمي في هذا الموضع.

ومن مجيء تحذير الكافرين بعضهم البعض تحذيراً صريحاً. وفي صيغة فعل الأمر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ المائدة 41.

وأنت تلاحظ الآية المباركة تُثبت صفات الكذب والاستماع للباطل لهؤلاء الناس، وهذا تنبيه من الله عز وجل لنبيه الاكرم (ص)، واستدعاء انتباهه الى ما سيقال فيما بعد الصفات . ثم يأتي القول (فاحذروا) ، وهذا الأمر يتمُّ بين المنافقين والكافرين، إذ يحذّر بعضهم بعضاً.

صرَّح عدد من العلماء أَن قوله: "فاحذروا" معناه : (إياكم) وعلى هذا يكون التقدير: إن أُتيتم هذا فخذوه وإن لم تأتوه إياكم أَخذه[4]، إلاَّ أنَّ إياكم حُذفت وأُقيم فعلُ الأَمر مقامها. وبهذا تكون قد أُخرجت من أسلوب التحذير الى التحذير المفهوم بدلالة (حذر) ، ثم يُتبع التحذير بوعيد من الله عز وجل وهو قوله« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيء».

وهذه سنة القرآن في التحذير الصريح إذ يُتبع بوعيد لاضفاء الشدة.

الحذرُ من الموت والاستعدادُ له

مما لا يخفى على أحد أَنَّ الله سبحانه وتعالى حذَّر وخوّف من الموت كثيراً حتى يتجنب الإنسان المعاصي ويقتربَ من الطاعات، إلا أَنَّ الحذر من الموت بصورته الصريحة لم يرد في القرآن الكريم الا في موضعين، وأَول هذين الموضعين سورة البقرة حيثُ يذكر الله تعالى حال المنافقين ومن أي شيء يحذرون. قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ

---

[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 20/ 29.

[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 8/ 131، الكشاف 3/ 39.

[4] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 6/ 238، معاني القرآن واعرابه 2/ 292، التبيان في تفسير القرآن 520/6، الكشاف 1/ 492، التفسير الكبير 12/ 233، تفسير ابي السعود 2/ 28.

بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ البقرة 19. شبّه الله تعالى المنافقين في القرآن الكريم تشبيهاتٍ عدّة وكانت تلك التشبيهات تبيّن حالهم وجهلهم. ففي الآيات الكريمة التي سبقت الآية محل البحث تلاحظ المنافقين كالذي استوقد ناراً فلما أضاءت أذهب الله نورهم وتركهم في الظلمات التي لا يهتدون بها إلى سبيل. وأَخذت الآياتُ المباركة في وصفها للمنافقين حتى وصلت آيتنا محل البحث. وفي هذه الآية تباينت أَقوال النحويين والمفسرين في بيان المعنى الذي أَفادته (أو) ، ومن تلك الآراء:

أولاً: (او) للإباحة ، والتقديرُ: أو كأصحاب صيّب[1]. من هذا يتضحُ أَنَّ أَصحاب هذا الرأي أجازوا تشبيه المنافقين بالذي استوقد ناراً، كما يمكن تشبيههم بأَصحاب الصيّب. لو دققت النظر في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾. تجد الآية الأَولى اختصت بالعاقل، والثانية بغير العاقل، وهذا ما دعا الطبرسي (ت 548هـ) أن يجعل قوله: «كصيب» على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه[1]. وعلى هذا يكون التقدير: أو كأصحاب صيّب. فتشبيهّ المنافقين بالذي استوقد ناراً، أو بأصحاب الصيب فالوصفان متساويان لا فرقَ بينهما، ومن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الإنسان 24، فالآثم والكفور متساويان في عدم وجوب الطاعة.

ثانياً: او بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقالي[2]. وحسب هذا التقدير حين شبّه الله المنافقين بالذي استوقد ناراً عاد ليقول: بل هم كأصحابِ صيّب إذ عَمُدَ إلى وصف أَعلى مرتبةً من سابقه وأكثر توافقاً مع الاجواء التي كانوا موصوفين بها.

ثالثاً: (أو) بمعنى الواو، وكأَنَّه قال: (وكصيّب)[3]، وهذا يعني أَنَّ حال المنافقين كالذي استوقد ناراً وكأصحاب صيّب. وعلى هذا سيكون المعنى اكثر إيحاءً بالشدة؛ لقساوة التشبيهين، ويزيدُ الموقف هولاً مجيء كلمة (صيّب) نكرةً حتى تُعطي معنى الشدةِ، والقسوة، وغزارة المطر[4]. وحين نسمعُ بالصيّب يتبادرُ الى أَذهاننا أَنَّه نازلُ من السماء لا غير. فلم ذكر تعالى السماءَ بعد الصيّب؟ أَجاب عن هذا الفخر الرازي (ت 606هـ) بقولهِ: «لو قال تعالى: كصيّب ، دون ذكر السماء، احتمل أَن يكون الصيّب نازلاً من بعض جوانب السماء دون بعض. أَمَّا لما قال: من السماء دلّ على أَنَّه عام مطبقُ اخذُ بآفاق السماء، فكما حصل في لفظة الصيب مبالغةُ في التنكير أَيّد ذلك بأن

---

(1) ينظر: اعراب القرآن المنسوب للزجاج 1/ 42، معاني القرآن واعرابه 1/ 62، مجمع البيان في تفسير القرآن 57/1، الجامع لأحكام القرآن 1/ 215.

(1) ينظر: مجمع البيان 1/ 57، التفسير الكبير 2/ 78، البحر المحيط 1/ 84.

(2) التفسير الكبير 2/ 78.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 2: 78.

(4) ينظر: المصدر نفسه 2: 78، البحر المحيط 1 / 84.

جعله مطبقاً»[5] وهذا له الاثر في بيان الخوف والرهبة التي كان فيها المنافقون. أَمَّا قولهُ تعالى: «فيه ظلماتُ» فاختلف المفسرون والنحاة في عودة الضمير المتصل بحرف الجر (في) وهذا الاختلاف يتّضح من ملاحظة النقاط الاتية:

أولاً: قال الزجاج : «إن الضمير لا يعودُ الى الصيب، لأَنَّ الصيِّبُ لا ظلمات فيه»[1].

ثانياً: قال الطبرسي (ت 548هـ): «الضميرُ الذي اتصل بـ(في) عائدُ الى الصيب، أو الى السماء»[2]. ثم قال تعالى: «رعدُ وبرق» لُيزيدَ الموقف هولاً يتلوه قولُه تعالى: «**يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت**» ومما لا يخفى عليك أَنَّ الضمير في قوله: «يجعلون» ، عائدُ الى أَصحاب الصيِّب فهم وان كانوا محذوفين لفظاً إلاَّ أَنَّهم باقون معنى. وجاء الفعلُ (يجعلون) في موضع جر؛ لأنه وصفُ لأصحاب الصيب[3]. اما النحاس (ت 338هـ) فقد رأى غير ما رأى سابقه إذ قال: «يجعلون، إن شئت حالاً من الهاء التي في قوله: (فيه) فإنْ قيل : كيف يكون حالاً ولم يعدْ على الهاء شيء؟ فالجوابُ: إنَّ التقدير في صواعقه»[4]. وقد جعل الفخرُ الرازي (ت606هـ) قوله: **يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت**. بمنزلة جواب لمن يسأل عن حالهم. فقد قال: «فكأَنَّ قائلاً قال: كيف حالّهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل : يجعلون اصابعهم في آذانهم»[5]. ومن الطبيعي أَنَّ الأَصابع لايمكن أَن تُجْعَلَ في الآذان، وإنما التي تكون هي الأَنامل، وإنما أُطلقت الأَصابع موضع الأَنامل مبالغة[6]. وفي هذا الرأي مبالغةُ ايضاً لأَنَّ الأَنامل لا يمكن جعلها في الآذان، وإنما الجَعْلُ لجزء صغير منها. فأصحابُ الصيِّب حين يسمعون الاصوات المخيفة، ويشاهدون الأَهوال من حولهم يشرعون الى وضع أناملهم في آذانهم أَملاً منهم أَنَّ ذلك سيخففُ البلاء عنهم.

إن التدرّج في الآية المباركة بضرب المثل، وبيان الأَهوال التي أَحاطت بهم، والأَفعال الذي عمد اليها المنافقون لبلوغ هدف واحد بينه تعالى بقوله: (حذر الموت) ويتبيّن هذا هو الغرض الرئيس حسبما أفاده سيبويه بقوله: «منصوبُ لأنّه موقوعُ له اي: مفعولُ لأجله، وحقيقتهُ أَنَّه مصدرُ، وتفسيرُ لما قبله، وليس صفةً لما قبله، ولا منه، لذلك كان منصوباً كما نصبت الدرهم حين تقول: عشرون درهماً، وفعلتُ ذلك مخافة فلان»[1]. والى مثل هذا ذهب الفرّاء (ت 207هـ) فقد نصب حذَر على غير وقوع من الفعل عليه فقد قال: «انما هو كقولك: أعطيتُك خوفاً وفرقاً، فأَنت لا تُعطيه الخوف، وإنما تُعطيه من أَجل

---

[5] التفسير الكبير 79/2، انوار التنزيل واسرار التأويل 1 / 98.
[1] اعراب القرآن المنسوب للزجاج 1/ 42.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 1/ 57، البحر المحيط 1/ 84.
[3] ينظر: اعراب القرآن المنسوب للزّجاج 42/1.
[4] اعراب القرآن 1/ 144.
[5] التفسير الكبير 2/ 80.
[6] المصدر نفسه 80/2.
[1] كتاب سيبويه 198/1.

الخوف، فنصبته على التفسير وليس بالفعل»[2]. اما الزجاج فمن جملة ما قاله في الآية محل البحث قوله: «وإنَّما نصبت (حذر الموت)؛ لأنّه مفعولُ به، والمعنى: يفعلون ذلك لحذر الموت، وليس نصبه لسقوط اللام، وإنّما نصبه أنه تأويل المصدر، وكأنَّه قال: يحذرون حذراً؛ لأَنَّ جعلهم أصابعهم في آذانهم من الصواعق يدلُّ على حذرهم الموت»[3]. اما ابنُ يعيش (ت 643هـ) فقد تابع سابقيه في هذه الآية المباركة على ما أفادوه، فقد عَدَّ حذر الموت منصوباً؛ لأَنَّه مفعولُ لاجله، وكذلك موقع من الصواعق، فهو مفعولُ له ايضاً، اي: من خوف الصواعق. لأَنَّ (من) تدخل بمعنى (اللام)، فتقول: خرجتُ من أَجل زيد، ومن اجل ابتغاء الخير ، واحتملتُ من خوف الشر[4]. وقد أَيّد ابو حيان (ت 754هـ) هذه الاقوال فقد ذكر أَنَّ «شروط المفعول من أَجله موجودةُ فيه، اذ هو متحدُ بالعامل فاعلاً وزماناً، ولذلك فهو مفعولُ من أَجله»[5]. وقد رأى مفسرُ آخر إنما نُصِبَ قوله تعالى: :حذرَ الموت)؛ لانه وقع موقعَ العلّة، اي: إنَّ حذرهم من الموت كان سبباً لما يفعلوه من وضع الأَنامل في الآذان، وسبباً لضرب المثل عليهم[6]. اما الشيخ الطوسي (ت 460هـ) فلم يرَ (حذَر الموت) مفعولاً له، وإنما عَدَّه منصوباً على التمييز[7]. وبعد الأَهوال والمخاوف وما يفعلونه حتى يتجنّوا ما يحذرون يقرر لهم ربُّهم بأَنَّه محيطُ بهم ويعلمُ حالهم، وذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. قال الحافظ عمادُ الدين ابن كثير (ت774 هـ): «ولا يجدي حذرهم شيئاً، لأَنَّ الله محيطُ بقدرتهِ»[1]. من هذا القول يتبيّن أَنَّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ مترتبُ على قوله: (حذَرَ المَوْتِ)، لأَنهم حين يتصوّروا أَنَّ أَفعالهم تنجيهم من الموت يأتي الله بقوله (والله محيط بالكافرين) ليُبددَ امالهم. وهذا يضفي على التحذير الشدة والهول ويجعله اكثر تخويفاً اما الموضع الثاني الذي ورد فيه الحذر من الموت حذراً ظاهرياً فهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ البقرة/243. مما هو واضحُ أَنَّ الفعل رأى يحمل اكثر من معنى ، ويتضح معناه من السياق الذي يرد فيه، فلنلاحظ معاً المعنى الذي أَفاده الفعل (ترى) في الآية محل البحث. قال الطبري (ت 310هـ): «الرؤيا، رؤية القلب، لا رؤية العين»[2]. ومن الطبيعي أن يدلَّ الفعل (ترى) على

---

[2] معاني القرآن 1/ 17.
[3] معاني القرآن واعرابه 1/ 62.
[4] ينظر: شرح المفصّل 1/ 53.
[5] البحر المحيط 1/ 84.
[6] ينظر: حاشية انوار التنزيل واسرار التأويل 99/1، روح المعاني 75/1.
[7] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 1/ 17.
[1] تفسير القرآن العظيم 1/ 53.
[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن 2/ 585.

رؤيـة القلـب والبصـيرة؛ لأَنَّ النبـي الأكـرم (ﷺ) لـم يـرَ بعينـهِ الـذين خصَّـهم سـبحانه بالآيـة المباركة. وقد تابع النحاس (ت 338هـ) سابقه على هذا بقوله: «ترى، رؤية القلب، أي: ألم تتنبّه الى هذا. وألم يأتك علمه»[3]. اما ابو البقـاء (ت 606هـ) فقد ذهـب الـى غيـر مـا ذهـب اليـه سـابقوه حيـث ذكـر أن الفعـل (تـرى) يـدل علـى العلـم، فـالقول: أَلـم تـرَ، اي: ألـم تعلـم، وإستدلَّ على ذلك بأَنَّ الفعل (ترى) تلاه حرف الجر (الـى)[4]. وهؤلاء الذين أراد الله سبحانه الاخبار عنهم قال فيهم: «وهم ألوف»، قال الطبـري: «اي:وهـم مؤتلفون» مـن هذا يتبيّن أَنَّ المـراد بـ(ألوف) ليس العدد، اِنما المراد بيان صفة الخارجين. اما السببُ الـذي دعـاهم الـى الخـروج تمثَّـلَ بقوله تعالى: «**حذَرَ الموت**». وهذا مفعولُ لأَجلهِ ، وهو مصدر[1]. وقد تـابع الفخـر الـرازي (ت 606هـ) سابقه على هذا، إذ قال: «منصوبُ لأَنَّه مفعولُ له، اي : لحـذر المـوت، ومعلـوم أَنَّ كلَّ احد يحذر المـوت، فلمَّـا خصَّ هذا الموضـع بالـذكر عُلِمَ أَنَّ سـبب المـوت كـان فـي تلـك الواقعة اكثر»[2]. ولما كانت أسبابُ الموت فـي ذلـك الموضـع كثيـرة كـان بطبيعـة الحـال أَن يحذروا تلك الأسباب. اما السيد صاحبُ الميزان فقد عَدّ قوله تعـالى: (حـذرَ المـوت) مفعـولاً مطلقـاً ، أَي : يحـذرون المـوت حـذراً[3]. ومـا دام الأَمـر الـذي يحذرونـه وخرجـوا بسـببه الموت، جعل الله عاقبتهم ما يحذرون، قال تعالى: «**فقال لهـم الله موتوا**». وجـاء التعبيـر بفعـل الأَمر (موتوا) «ليُبيّنَ أَنهم ماتوا ميتةَ رجل واحد بأمر الله ومشيئته»[4]. إنّك لو تأملت الآيـة المباركة لم تجد فيها تفصيلاً وبياناً لكيفية الموت، من أَنه كان جماعياً، أم انفرادياً في زمانٍ محدد؟ وهل مـاتوا بسـبب مـا هربـوا منـه، حـذراً مـن المـوت؟ لقد أجـاب السيد عبـد الأَعلـى السبزواري عن هذه الأَسئلة بقوله : «ولعلَّ السر في إخفاء ذلك أَن الاية جاءت لأَخذ العبـرة ، وبأَنَّ الفرار لا يُغيّر المصير»[5]. مـن خـلال مـا سـبق يتبيّن أَنَّ دلالـة (حـذر) فـي الايتـين الكريمتين لم تخرج من الدلالة المعجميـة للفظـة ذاتهـا بـل لازمتهـا، والحـذرُ مـن المـوت هـو المسوّغ للأَفعـال التـي يعمدُ اليهـا المـذكورون فـي الآيتـين المبـاركتين. قـال صـاحبُ المنـار: «هذا التحذيُر إنَّما جاء على أُسلوب القرآن وسنتّهِ بالموعظة ترعيباً وترغيباً»[6].

---

[3] اعراب القرآن 1/ 275.
[4] ينظر : التبيان في اعراب القرآن 1/ 193.
[1] ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 1/ 275-276.
[2] التفسير الكبير 175/6، الجامع لأحكام القرآن 13/ 231.
[3] ينظر: الميزان في تفسير القرآن 2/ 279.
[4] الكشاف 1/ 286، لبابُ التأويل 1/ 183.
[5] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 4/ 102.
[6] تفسير المنار 2/ 427.

الحذرُ من الآخرة

حذَّر الله سبحانه وتعالى عباده من الآخرة في كتابه العزيز في كثيرُ من المواضع الا أَنَّ الحذر من الآخرة باستعمال لفظة (حذر) أَو أَحد اشتقاقاتها لم يرد إلاَّ في موضعين، أَحدُهما قولُه تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر/ 9 تعددت قراءآت وآراء النحاة والمفسرين في قراءة قوله (أمّن) وقد كانت الآراء على النحو الآتي:

اولاً: التخفيف، اي : تخفيف الميم في قوله: (أَمن، وهذه قراءة ابن كثير ونافع وحمزة[1]. فعلى هذه القراءة تكون الهمزة بمعنى : يا، والتقديرُ، ((يامن هو قانتُ. فأُقْيِمتِ الهمزةُ مقام (يا)، فعلى هذا الوجه ستكون (أمن) نداء، كما يقال: يا زيد أَقْبلْ، ويقال: أزيدُ أَقبل)) [2]. أَما الزجاج (ت 316 هـ) فقد أنكر أَن تكون الهمزةُ للنداء ، إذ قال: ((ولا وجه للنداء ها هنا، لأَنَّ الموضع موضع معادلة، فليس النداء مما يقع في هذا الموضع، إنما يقع في نحو هذا الجملُ التي تكون اخباراً وليس النداء كذلك))[3]. أمّا الزمخشري (ت 538هـ) فقد تابع سابقه على هذا إذ رأى تخفيف الهمزة يقتضي كونها استفهاماً[4]. اما الفخر الرازي (ت606 هـ) فقد رآى ما رآه سابقاه الا أنه أراد جواباً عن هذا الاستفهام فلم يجد له في الآية المباركة مما جعله يقدّره. فقد قال: ((لا شبهةَ أَنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: أمّن هو فأنت كغيره، وإنما حَسُنَ هذا الحذف لدلالة الكلامُ عليه، لأَنَّه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، وذكر بعدها ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾))[5]. وعلى هذا تلاحظ الفخر الرازي جعل (أمن) للمعادلة حيث عادل فيها بين شيئين، ففي الآية التي سبقت الآية محل البحث قال تعالى: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ الزمر/62. ثم يذكر الله سبحانه القانت الساجد القائم. فكأَنَّ الكلام معادلة بين شيئين. أَي المتقدم ذكرُه أَفضل، أم هذا القانت الساجد؟ ومن معان التخفيف التي ذُكرتْ أَنَّ (أَمن) بمعنى: أَم المعادلة التي تكون بمعنى (بل) التي تُفيد الإضراب الانتقالي والهمزةُ للاستفهام الإنكاري، ((وحسب هذا سترسم الميم في النون كرسمها في قراءة التخفيف، وهذا اتباع لخط مصحف الامام كما يؤخذ في الجزرية))[1].

ثانياً: التشديد، أَي: تشديد الميم في قوله: (أمن)، وهي التي اعتمدها الفرّاء جميعهم عدا من قرأ بالتخفيف[2]. وعلى هذه القراءة يكون التقدير: أَم الذي هو قالت أفضل ممن ذُكروا،

---

(1) ينظر: النشر في القراءات العشر 2/ 362.
(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 23/ 201.
(3) اعراب القرآن 2/ 649.
(4) يُنظر: الكشاف 4/ 116.
(5) التفسير الكبير 24/ 250-251.
(1) الفتوحات الالهية 3/ 592.
(2) ينظر: النثر في القراءات العشر 362/2.

أَي: (أَمّن) بمعنى: أَبَلْ[3] وبهذا تقدر أم: (من) التي تُعَد مبتدأ وخبرُه محذوف تقديُره: أَمن هو قانت كغيره، وإنما حُذفت لدلالة الكلام عليه[4]. وبعد أَن يذكر الله جّلت عظمته القانت يُبيّن لنا حال ذلك القانت بقوله: (ساجداً وقائماً) ، أَي: في حال سجوده، وفي حال قيامه[5]. ثم تنتقل الآية المباركة لتبيّن سبب تلك الأَفعال، القنوت ، السجود، القيام، وهذا يتضح بقوله تعالى: ((يحذر الآخرة))، أي: يحذر عذاب الآخرة، أَي: حُذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه[6]. وقد تابع أَبو البقاء سابقه على هذا إذ قال: ((يحذر الآخرة، أي : يخاف عذابَ الآخرة))[7]. وقد عَدَّ الدكتور فاضل السامرائي مثل هذا الحذف يُؤتى به (للاختصار) وذلك إذا دلَّ عليه المعنى، نحو قولهم: ((هذه الظهرُ أو العصر أو المغرب: إنَّما يُريد: صلاة هذا الوقت واجتمع القيظ، يريد اجتمع الناسُ في القيظ، (...) قولك ومنه قولنا: جئتُك طلوع الشمس، أي: وقت طلوع الشمس، وانتظرني صلاة ركعتين، أي: مقدار صلاة ركعتين، وهو مفهومُ من الكلام))[1].

وهناك من عَدَّ قوله تعالى: ((يحذر الآخرة)) ((حالاً ثانياً متداخلة أومترادفة او جملةٌ مستأنفةً معترضةً))[2]. وإلى مثله ذهب الآلوسي فقد قال: ((يحذر الآخرة، حال على التداخل والترادف أو استئناف وقع جواباً، عما نشأ من حكاية حاله، كأَنَّه قيل: ماله يفعل ذلك ، فقيل: يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه، فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه، مع الإضافة الى ضمير الراجي لأَنَّه يحذرُ ضرَّ الدنيا ويرجو خيرها))[3] وإنَّ قوله تعالى: ((يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)) إشارة الى أَنَّ الانسان عند المواظبة ينكشف له في الأَول مقام القهر، وهو قولُه ((يحذر الآخرة)) ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله: ((ويرجو رحمة ربه((ثم تحصل أنواع المكاشفات، وهو المراد بقوله: ((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون))، إنَّ الله تعالى أَضاف في مقام الخوف (يحذر الآخرة) فما أَضاف الحذر الى نفسه، وفي مقام الرجاء أَضافه إلى نفسه، وهذا يدلُّ على أَنَّ جانب الرجاء أَكما وأليق بحضرة الله تعالى))[4]. وقوله تعالى: ((يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)). يجمع خوفَ العذاب، ورجاء الرحمة، ولم يُقَيّد الرحمة بالآخرة، فانَّ رحمة الآخرة ربّما وسعت الدنيا))[5]. ومن هذا المعنى حيث يُخبر الله سبحانه وتعالى عباده بأَنَّ

---

[3] ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 2/ 811.
[4] ينظر: الكشاف 4/ 116.
[5] ينظر: تفسير القرآن العظيم 4/ 47.
[6] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 23/ 202، اعراب القرآن، للنحاس، 2/ 811، التبيان في تفسير القرآن 23/ 13.
[7] البيان في غريب اعراب القرآن 2/ 322.
[1] معاني النحو 3/ 246.
[2] الفتوحات الالهية 3/ 592.
[3] روح المعاني 23/ 246.
[4] التفسير الكبير 24/ 250.
[5] الميزان في تفسير القرآن 17/ 243.

رحمته محل رجاء، وعذابه يجب أن يُحذر لأَنَّ عذابه لا يبلغه عذاب. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ الإسراء 57. تلاحظ في هذه الآية المباركة جمع الله سبحانه وتعالى رحمته التي وسعت كلَّ شيء والخوف من عذابه الذي قال فيه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ قال الشيخ الطوسي (ت 460هـ) في الآية محل البحث، «أي: متقى»[1]. وقال الزمخشري: «حقيقتهُ بأن يحذره كلَّ أَحد من ملكٍ مقرّب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم»[2]. وقال الفخر الرازي (ت 606 هـ) في الآية محل البحث: «إن لم يحذره بعضُ الناس لجهلهِ فهو لا يخرج عن كونه بحيث يجب الحذرُ منه»[3]. وهذا القول، اي: إن عذابَ ربك كان محذورا، معناه: «ينبغي أَن يُحذرَ منه، ويخاف وقوعه وحصوله عياذاً بالله»[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ «جملةُ تعليلية لقوله سبحانه: «ويخافون عذابه» وفي تخصيصه بالتعليل زيادة تحذير للكفرة من العذاب، وتقديمُ الرجاء على الخوف، لما إنَّ متعلّقه أسبق من متعلّقه في اتحاد أُسلوبي الجملتين إيماءً الى تساوي رجاء اولئك الطالبين للوسيلة اليه تعالى بالطاعةِ والعبادة وخوفهم»[5].

مما سبق يتبين أن سياق التحذير الصريح في القرآن الكريم جاء يحمل أَساليب عدَّة، كالأَمر الذي يُفيد التهديد والوعيد ، وتكرار جمل التحذير وأفادتها لمعان فضلاً عن التوكيد، والنهي الذي أفاد التحذير وترتيب العقاب على مخالفة ذلك النهي، والاستفهام الذي يُفيد الأَمر. وليس أيُ امر انما هو يعطي دلالة التهديد والوعيد. وكما لاحظت أنَّ معاني الرأفة والرحمة وردت في سياق التحذير واكتسبت من السياق دلالة التحذير. وفي مواضع التحذير الصريح جميعها لم تخرج لفظة (حذر) من معناها المعجمي، الا في موضع واحد فقد أَعطت معنى السلاح، والسلاح هو آلة يُتقى بها، وهذا المعنى يقترب من معنى (حذر) التي هي اعداد ما يتقي الضرر. كما ورد التحذير في بعض المواضع معللاً، فلما يذكر الله جلّت قدرته تحذيراً من امر ما يعلل ذلك التحذير حتى يتسنّى لمن يصل اليه التحذير التدبر في الاسباب التي دعت الى الحذر. اما المنافقون فقد جعل الله سبحانه عاقبة أَمرهم ما يحذرون، فحذرهم من إنزال سورة تفضحهم وحذرهم من الموت لم ينفعهم وانما كانت عاقبتهم ارسال عليهم ما يحذرون. إنَّ هذه المعاني تزيد السياق قوة وتأثيراً . ويزيد من ذلك كون التحذير صريحاً بيناً لا غموض فيه.

---

[1] التبيان في تفسير القرآن 15/ 491.
[2] الكشاف 2/ 647.
[3] التفسير الكبير 2/ 233.
[4] تفسير القرآن العظيم 3/ 46.
[5] روح المعاني 15/ 100.

وبعد التحذير الصريح ننتقل معاً الى سياق اخر يرد فيه التحذير ضمنياً.

الباب الثاني
دراسة نحوية دلالية

الفصل الثاني
التحذير الضمني

حذّر الله سبحانه وتعالى عباده في مواضع عدّة من الكتاب العزيز وقد جاء ذلك التحذير بألفاظ عمد القرآن اليها يتبين سامعها نُذُر الوعيد والهلاك إذا ما اتعظ بها. لقد كثرت السياقات التي افادت التحذير ومن بين تلك السياقات اعتماد لفظة (نذر) ليؤدَّى بها دلالة التخويف والتحذير. لو تأملنا المعجمات اللغوية في بيانها لهذه المفردة لاحظنا «النّذْر: اسم الإنذار، والنُذُر جماعة النذير، وتقول: أنْذَرتهم فَنُذِروا (...). والتناذر: إنذار بعضهم بعضاً (...) ونذر القوم بالعَدُوّ أي عَلِموا بمسيرهم»[1]. وقال ابنُ منظور: «نذِر بالشيء وبالعدو بكسر الذال، نْذراً عَلمهُ فَحذِرَهُ، وأَنْذَرَهُ بالأَمر إنذاراً ونُذْراً (...) وأَنْذَره خَوّفهُ وحذَّره (...) يقال: أَنْذَرتُ القوم سَيْرَ العدُوَّ إليهم فَنُذِروا، أي : أعْلمتُهم ذلك فَعَلِموا وتحرّزوا»[2]. وقد تابع الزبيدي سابقيه في معنى (نَذَرَ) إذ ذكر «انْذِرِ القوم أي: إحذر منهم، وكن منهم على علم وحذر. أَنْذَره بالأمر إنْذاراً ونَذْراً اي: أعْلَمهُ، وقيل: حَذَّره وخوَّفه في إبلاغه»[3]. من هذا يتبيّن أَنَّ (نَذَرَ) تُعطي معنى (حَذَّر) ودلالة اللفظة معجمياً تُفيد التخويف. أما الاسم من (نذر) فهو الإنذار، وقد صرّح المعجميون أَنَّ الإنذار إبلاغ ولا يُسْتعمل الا عندما تريد دلالة التخويف والتحذير، وهذان المعنيان (التخويف والتحذير) يحتاجان الى مُخوّف ومحذّر وذلك هو المُنْذِرُ. قال ابن منظور : «الإنذار: الإبلاغ، ولا

---

[1] كتاب العين 8/ 180.
[2] لسان العرب 5/ 201-202.
[3] تاج العروس 14/ 199-200.

يكون الا في التخويف (...) أَصلُ الإنذار الإعلام ، يقال: أنْذَرتُه أنْذِره إنذاراً، إذا اعلمتُه، فأنا مُنْذرُ ونذير، اي : مُعْلِم ومُخوِّف ومحذِّر»[4]. وقد أفاد الجوهري من قبلُ الدلالة ذاتها إذ قال: «الإنْذار الإبلاغ ولا يكون الا في التخويف (...) والنذير المُنْذِر، والنَّذِير الإنذار»[5]. أمّا الزبيدي فقد رأى ما رآه سابقاه إذ قال: «الإنذار بمعنى التخويف في الابلاغ (...) النَّذِيرُ المُنْذِر وهو المُحَذِّر، فَعِيل بمعنى مُفْعِل، وقيل : المُنْذِر المُعْلِمُ الذي يُعرف القوم بما يكون قد دهمهم من عدوٍ أو غيره، وهو المُخوف أيضاً، وأَصلُ الإنذار الإعلام. الانذار الإبلاغ ولا يكون الا في التخويف»[1]. أما المفسرون فقد أضافوا بعض الدلالات على ما ذكره المعجميون.

قال الطوسي: «الإنذارُ هو التحذير من مُخوّف يتّسعُ زمانهُ للاحتراز، فإنْ لم يتّسع زمانُه للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن إنذاراً»[2]. وفي موضعٍ ثانٍ قال: «الإنذار الإعلام بموضع المخالفة ليُتّقى (...) النذير هو المُخبْر بما يُحْذر منه ويُصرف عنه وهو يقتضي المبالغة»[3]. والمعاني ذاتها تلاحظ عند القرطبي فقد تابع سابقيه في افادتها، قائلاً: «الانذارُ الإبلاغ والإعلام ولا يكون الا في تخويف يتّسع زمانُه للاحتراز فإن لم يتسع زمانهُ للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن إنذاراً»[4]. مما ذهب اليه المفسرون يتبيّن أنهم اتفقوا مع اللغويين في دلالة (نذر) ، إذ أفادوا أنها إنذارُ وتحذير وإبلاغ وهذه معانٍ متقاربةُ إذ أَنَّها في مجملها تدلُّ على التخويف، إلا أَنَّ المفسرين توسعوا في دلالة اللفظة من حيث الزمن بتقريرهم الفسحة الزمنية التي بين حصول الإنذار ونزول العذاب فإن اتسعت واصبح بإمكان المُنْذَر أخذ الحذر فذلك هو الإنذار. ومادام الإنذار يحمل هذه المعاني فهو بحاجة الى من يكمل وظيفته. إذ يتطلب الإنذار منذراً وهو «المُخْبِرُ عما يُحْذر منه ويُصرف عنه»[5]. ومُنْذَراً يوجهُ الإنذار اليه حتى يأخذ حذره. ومُنْذراً منه وهو موضع المخالفة الذي يجب أن يُتقّى ويترتب العقاب على مخالفته. وفي هذا الموضع لنتدبر معاً في مواضع الذكر الحكيم التي أَفادت التحذير بدلالة (نذر).

اللهُ سبحانه مُنْذِراً

أَفادت بعض آيات الذكر الحكيم الدالة على الإنذار أَنَّ الله سبحانه هو فاعل الإنذار، وقد أُعْتُمِد لبيان هذا المعنى صيغة الاسم وصيغتي الفعل الماضي والمضارع. فلنتدبر تلك المواضع من القرآن الكريم.

---

[4] لسان العرب 5/ 202-203.
[5] الصحاح 2/ 825-826.
[1] تاج العروس 14/ 200، 203.
[2] التبيان في تفسير القرآن 10/ 62.
[3] المصدر نفسه 25/ 224 و158/20، ينظر: الكشاف 4/ 301، التفسير الكبير 12/ 232.
[4] الجامع لأحكام القرآن 1/ 185، ينظر: روح المعاني 1/ 129، 18/ 231، الميزان 15/ 873، 26/20.
[5] التبيان في تفسير القرآن 224/25.

ما جاء في دلالة كون الله سبحانه مُنْذِراً بصيغة الاسم قوله تعالى: ﴿حم ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الدخان 1-3. مما لا يخفى في الآيات المباركة أَنَّ الله سبحانه أقسم بالكتاب المبين الذي عنى به القرآن[1]. وهذا القسم يحتاج إلى قولٍ يقع عليه، فلنتأمل معاً ما جاء في بعض كتب المفسرين في تحديدهم للمقسم عليه.

لو تأمّلت الكشاف تجد صاحبه عَدَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ جواب القسم ، أَمَّا قولُه : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، فهو جملة مستأنفة فُسِّر بها جواب القسم، وبهذا يكون المعنى: ((أنزلناه في ليلة مباركة؛ لأَنَّ من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب))[2]. وقد تابع الآلوسي (ت1270هـ) سابقه على هذا المعنى إذ عُدَّ قوله تعالى: ((إنَّا كنا منذرين استئنافاً، قال: ((وقولُه: إنا كنُّا منذرين استئناف يُبيّن المقتضي للإنزال، أي : أنزلناه، لأَنَّ من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب))[3]. أمَّا السيد صاحب الميزان فقد قال: ((إنَّ قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ واقع موقع التعليل، وهو يدلُّ على استمرار الإنذار منه قبل هذا الإنذار))[4]. من هذا يتضح أَنَّ صاحب الميزان ذهب الى ما ذهب اليه سابقوه. فقد عَدَّ الجملة تعليلية، أَي : تعليل الإنزال، وعلى هذا سيكون القسم واقعاً على الإنزال. أمَّا أَبو حيان الأَندلسي (ت754هـ) فقد ذهب الى غير ذلك، اذ رأى قوله:﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جواب القسم، وما سبقه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ اعتراضاً لايُحسن وقوع القسم عليه، وهو تفخيم للكتاب[1]. وفي الحالتين كلتيهما سواء أَكان قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جواباً للقسم أم لا ، فالجملة ((إنذار وتحذير))[2] والمُنْذِر فيها الله سبحانه.

أَما ما جاء بهذا المعنى (اللهُ مُنْذِر) باستعمال صيغة الفعل الماضي فقوله تعالى﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ النبأ 40.

---

(1) ينظر: الجامع لأَحكام القرآن 16/ 125-126.
(2) الكشاف 4/ 270.
(3) روح المعاني 25/ 112، ينظر: لبابُ التأويل في معاني التنزيل 4/ 120، تنوير الأَذهان من تفسير روح البيان، للشيخ أسماعيل البروسوي، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان، بغداد، ط1، 1990م: 4/ 26.
(4) الميزان في تفسير القرآن 18/ 131-132.
(1) ينظر: البحر المحيط 8/ 32، هامش البحر المحيط لأبن حيان 8/ 31.
(2) في ظلال القرآن 25/ 106.

أشار عددُ من المفسرين في الآية محل البحث الى أَنَّ الآية إخبار من الله تعالى ويُراد من ذلك الإخبار تحذير العباد ليتجنبوا مواضع سخط الله.

قال الشيخ الطوسي : «معناه الإخبار من الله تعالى إنَّه خوّف عباده واعلمهم المواضع التي ينبغي أَن يحذروها»[3]. وبعد أن تبيّن المُنْذِر وهو الله سبحانه يتبيّن المُنْذِر منه في الآية وهو العذاب الذي وصفه الله سبحانه بكونهِ (قريب)، وبالإشارة الى قرب العذاب دلالة بينة توحي بشدة الإنذار وقوّته ، لاسيما أَنَّ المُنْذَر منه قد قُرِرَ اقترابه. ومن مجيء الإنذار بصيغة الماضي يطالعُك قولُه تعالى: «فَأَنذَرتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى» الليل14.

أشار الشيخ الطوسي ومن تبعه إلى أَنَّ الانذار صادرُ من الله سبحانه وتعالى وبذا يكون الله سبحانه المُنْذِر في الآية المباركة[4]. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنَّ الإنذار تركّز على قوله : «ناراً تلظى» فهذا القول هو المُنْذَرُ منه حسب ظاهر الآية الكريمة ، إلاَّ أَننا لو تدبّرنا معاً ما ذهب اليه الشيخ الطوسي نجده ذهب الى غير ذلك، إذ رأى المُنْذِرَ الله تعالى، أنذر عباده من اقتراب المعاصي التي تؤديّ الى العاقبة المذكورة، وهذا يتبين من قوله: «وعيدُ من الله تعالى للمكّلفين، تقول: خوّفتكم المعاصي التي تؤذيكم الى نار تلظى، والتّلظي تلهّب النار بشدة الإيقاد»[5]. وبهذا فإنَّ الآية فيها دلالة على شدّة الإنذار لاسيما ذكرها لعاقبة المُنْذَر منه ووصفُ تلك العاقبة (النار) بالشدة والهول. وقد ظلَّ القرطبي في المعاني ذاتها مفيداً أَنَّ قوله تعالى : «فأنذرتكم» أُريد به الدلالة على التحذير والتخويف، قال: «فأنذرتكم ، فحذّرتكم وخوفتكم»[1].

اما ما جاء في الذكر الحكيم بيان كون الله مُنْذِراً بصيغة الفعل المضارع فيطالعُك قولُه تعالى: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ، يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» غافر 15-16. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَن فعل الإنذار هو الفعل المضارع (ينذر) وفاعله الله عز وجل، وبهذا يكون الله سبحانه المُنْذِر، وهذا ما قرره الزمخشري بقوله: «اللهُ هو الذي ينذر»[2]. وقد تابع القرطبي سابقه على هذا المعنى إذ قال: «والضميرُ في قوله: لينذر كناية عن الله سبحانه»[3]. يُعدُّ الفعل (ينذر) بمثابة مركز الثقل في الآية الكريمة حسبما أفاده المفسرون؛ وذلك لأَنَّ الله تعالى جعله (ينذر) علّة للإلقاء[4]. و«الإلقاء اشارة الى أمر الرسالة التي من شأنها الإنذار»[5]. فالارتباط وثيق بين الإلقاء وبين الإنذار ؛ لأَن الأَخير بيان للوظيفة[6]. وحين تعيّن الله

---

(3) التبيان في تفسير القرآن 30/ 250، ينظر: الجامع لأَحكام القرآن 19/ 188، روح المعاني 20/ 31.
(4) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 30/ 360، روح المعاني 30/ 150.
(5) التبيان في تفسير القرآن 30/ 360.
(1) الجامع لأحكام القرآن 20/ 86.
(2) الكشاف 27/4.
(3) الجامع لأحكام القرآن 15/ 300، ينظر: التبيان في تفسير القرآن 24/ 62.
(4) ينظر: روح المعاني 24/ 56، في ظلال القرآن 24/ 61.
(5) الميزان في تفسير القرآن 17/ 318.
(6) ينظر: في ظلال القرآن 24/ 61.

سبحانه وتعالى مُنْذِراً في الآية المباركة كان ذلك بدلالة السياق، إذ أَن سياق الآية الكريمة أَوحى بذلك. ثم قرر تعالى المُنْذَر منه وكان حسب الظاهر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، إلا أَنَّك لو تأملت روح المعاني تجد صاحبه عَدَّ يوم التلاق مفعولاً به لكنه لم يرَ كونه المقصود بالإنذار، فقد رأى المُنْذَر منه محُذِفاً وتقديره: «ليُنذر العذاب او نحوه يوم التلاق»[7]. اما الطرف الثالث في الإنذار وهم المُنْذَرون فقد خصّهم تعالى في الآية محل البحث بقوله ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ فالضميرُ (هم) الذي وُجِّه الإنذار اليه عنى به العباد كلهم، لأن العباد كلهم سيبرزون امام الله جلّت قدرتُه.

من المواضع التي ورد فيها ذكر الله سبحانه مُنْذِراً يتضح أَن الموضع الذي جاء بصيغة الاسم جاء الإنذار فيه عاماً مطلقاً لم يقيدّ بشيء، إذ أنَّ المُنْذَر منه لم يذكر. أمّا المواضع الأَخر التي أفادت الدلالة ذاتها وهي بصيغة الفعل فقد اقتصر الإنذار فيها على العذاب، اي: إن العذاب الذي توعّد الله به هو المُنْذَر منه في تلك المواضع، وفي ذلك دلالة على شدة الإنذار وهوله لاسيما كونه صادراً من الله تعالى من جهة، والامُر المترتب على مخالفة الانذار عذاب صادرُ منه عز وجل من جهة ثانية.

النبي مُنْذِراً

حدد الله عز وجل وظيفة نبيه الأَكرم (ﷺ) في الكتاب العزيز من الرسالة التي كُلِّفَ بها، وكانت تلك الوظيفة الإنذار والتبشير. فلنتدبر معاً المعاني التي وُظِّفت لبيان هذا الغرض من خلال التدبّر في آيات الذكر الحكيم التي أَفادت هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسل عن أَصحاب الجحيم﴾البقرة / 119.

فالوظيفةُ حُددت في الآية المباركة بقوله: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ وهي الغرضُ من الإرسال. وقد جاء قوله: (بشيراً) منصوباً على الحال، ونذيراً عُطِفَ عليه»[1]. وبعد التبشير والإنذار لا يؤخذ النبي (ﷺ) بكفر هؤلاء القوم[2]؛ لأَنَّ وظيفته التي كُلِّفَ بها قد أدّاها. ومن المعنى ذاته قولُه تعالى: ﴿وبالحقّ أَنزلناه وبالحق نزل وما أَرسلناك الا مبشراً ونذيراً﴾ الإسراء / 105. مما يُلاحظ في الآية الكريمة أَنَّ إنزال الحق والإرسال مرتبطان معاً، فحين حصل الإنزال تبعه الإرسال لتأدية الغرض فالقولُ «وبالحقّ أنزلناه« أَي: بسبب إقامة الحق، فتكون الباء متعلقة بأنزلنا[3]. أَمّا القرطبي فقد رأى الباء أَعطت معنى (مع). إذ قال : «وبالحقّ بمعنى: مع،

---

[7] روح المعاني 24/ 26.
[1] الجامع لاحكام القرآن 2/ 92.
[2] ينظر: المصدر نفسه 2/ 92.
[3] ينظر: التبيان في اعراب القرآن 2/ 835.

أَي: مع الحق»[1]. وعلى هذا يكون قوله: (وبالحق) في محل نصب حال، أَي: أَنزلناه ومعه الحق. وحين كان النزول في محل الحال كانت الوظيفة حالاً أيضاً وهذا ما قاله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً» فالتبشيرُ للمطيعين بالجنة، ونذير مُخوّف للعاصين من النار. وقد عدَّ الآلوسي ت(1270 هـ) قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً» اقتصارا الوظيفة على هذين الأَمرين. التبشير والانذار[2]. وقد تابع السيد الطباطبائي سابقه على هذا المعنى فقد قال : «وماهو الا رسولُ منه يبشر به، وينذر ، ليس له أَن يتصرّف بزيادة او نقيصة»[3]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» سبأ/28. أَجمع المفسرون على أَنَّ في الآيةِ المباركة تقديماً وتأخيراً، فقد رأوا الأصل في الاية المباركة أَن يكون ، وما أَرسلناك الا للناس كافة بشيراً ونذيراً. الا أَنَّ السياق القرآني اختار الأَول لفائدةٍ ما سيُشار اليها لاحقاً. وأنت تلاحظ قوله تعالى : (نذيراً) عُطِفَ على قوله : (بشيراً) وهو حالُ من الكاف في قوله: (ارسلناك)، وبهذا يكون المعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ[4]. وبهذا يكون المفعول به قد أفاد فائدةً دلاليةٍ وهي كونه مقتصراً على الوظيفة المذكورة. اما القرطبي فقد ذهب الى ما ذهب اليه سابقه في التقديم والتأخير والمعنى، الا أَنَّ التقديم والتأخير لا يخلو من الحذف، وموضع ذلك هو قوله: «أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً»، «والتقدير: ذا كافة، أَي: ذا منع للناس من أَن يشذّوا عن تبليغك»[5]. وما ذهب اليه القرطبي يتبين أَنَّ الآية تحوي على إنذارين: إِنذار مستترُ، السياق القرآني أَوحى به، والثاني: إنذار أَفاده قولُه تعالى: (نذيراً). أَمَّا الآلوسي (ت 1270هـ) فقد أَوضح الفائدة من التقديم والتأخير بقوله : «وما أرسلناك لا لشيء من الأَشياء الاَّ لتبليغ الناس»[1]. فتقديم الجار والمجرور أَدّى معنى دلالياً وهو الاهتمام بالأَمر الوظيفي وهذا الاهتمام استدعى التقديم. وليس بمنأى عن هذه المعاني قوله تعالى: «إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ» فاطر23-24. ذكر الشيخ الطوسي (ت460 هـ) أَن قوله تعالى: «إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ، معناه لستَ الا مخوّفاً من عقاب الله ومعاصيه»[2]. ولو تأَمّلت كتب التفسير في

---

[1] الجامع لاحكام القرآن 10/ 339، وينظر : التفسير الكبير 21/ 67.
[2] ينظر: روح المعاني 15/ 187.
[3] الميزان في تفسير القرآن 13/ 220.
[4] ينظر: الكشاف 3/ 583.
[5] الجامع لأحكام القرآن 300/14.
[1] روح المعاني 21/ 142-143.
[2] التبيان في تفسير القرآن 22/ 425.

هذا تلاحظ المفسرين قد أجمعوا على أنَّ فيه فائدةَ التسلية للنبي (ﷺ)[3]. وقد أوضح الفخر الرازي (ت 606هـ) الغرض من التسلية بقوله: «وأما القصدُ من وراء التسلية هو لمواساة النبي الأكرم حين لقي من قومهِ أشد ضروب العذاب والافتراءات؛ فجاء قولُه تسليةً وتخفيفاً عليه من معاناته»[4]. وقوله تعالى «إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ» كسابقيه في إفادة المعنى الدلالي، إذ ذُكِرَ أَن قوله: «ان انت الا نذير «أُسلوب سُمي قصراً اضافياً أي: ليس لك الا إنذارهم»[5]. وبعد القول الذي أفاد التسلية يذكر تعالى وظيفة النبي (ﷺ) المتمثّلة بالتبشير والإنذار. قال تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» وهذا يعني «إرسالاً مصحوباً بالحق على أنه صفة لمصدر محذوف ، ويمكن أن يتعلّق بـ(بشيراً) ومتعلِّق قولهِ (نذيرا) محذوف لدلالة المقابل على مقابلهِ، اي: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعيد الحق»[6]. ثم يقرر الله سبحانه بأنَّ كلَّ أُمّة بعث فيها نذيراً، وفي هذا المقام أورد الزمخشري تساؤلاً وأجاب عنه فقد قال: «كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟ قلت : لمّا كانت النذارة مشفوعةً بالبشارة لا محالة دلَّ ذكرها على ذكرها ، لاسيما قد اشتملت الآية على ذكرهما»[7] وقد تابع الآلوسي (ت 1270هـ) سابقه على هذا المعنى مضيفاً اليه أَنَّ الإنذار مناسبُ لهذا المقام[1]. والى مثلِ هذا ذهب السيد الطباطبائي بقوله : «لم يُذكر البشير مع النذير مع كونه (ﷺ) متلبساً بالوصفين معاً؛ لأَنَّ المقام مقام الإنذار ، فالمناسبُ هو التعرّض لوصف الإنذار مع انه مذكور في الآية التالية»[2].

ومن هذا أيضاً قولُه تعالى: «هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى» النجم / 56. لقد تباينت أقوال العلماء في هذه الآية المباركة في معنى النذير، فقد رأى الفرّاء (ت207 هـ) المقصود بالنذير النبي محمد (ﷺ)، لكنه (الفرّاء) أورد تساؤلاً في هذا المحل مفادُه ، كيف يكون النبي (ﷺ) من النُذرُ الأُولى وهو آخر الانبياء وخاتمهم؟ ثم أَجاب الفرّاء عن هذا بقوله: «هذا واحد من بني آدم، وإن كان آخرهم أو أولُهم، ويقالُ: هذا نذير من النُذُر الاولى في اللوح المحفوظ»[3]. وحين حدد الله سبحانه وتعالى وظيفة نبيه الكريم (ﷺ) في الإنذار تجد في مواضع أخر الله يأمرُ نبيه (ﷺ) لبيان وظيفتهِ بنفسه. قال تعالى : «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» العنكبوت/50. فقد جاء بيان الوظيفة بإسلوب القصر.

---

[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 22/ 425، التفسير الكبير 16/ 18، الجامع لاحكام القرآن 14/ 341.
[4] التفسير الكبير 22/ 188.
[5] الميزان في تفسير القرآن 17/ 37.
[6] روح المعاني 22/ 188.
[7] الكشاف 3/ 608.
[1] ينظر: روح المعاني 22/ 188.
[2] الميزان في تفسير القرآن 17/ 37.
[3] معاني القرآن 3/ 103 ، التفسير الكبير 29/ 25، الجامع لاحكام القرآن 17/ 120.

قال الآلوسي: «اي: ليس من شأني الا الإنذار بما أُتيتُ من الآيات لا الإتيان بما اقترحتموه»[4]. وقد تابع صاحبُ الميزان سابقه على هذا المعنى إذ رأى الآية جاءت لقصر شأن النبي (ﷺ). وقد عمدت الآية المباركة الى استعمال (نذير) كما هو معهود في اللفظة التي استعملت لبيان الوظيفة. إلا أَنَّ الفخر الرازي (ت 606هـ) أَخرج النذير لمعنى (منذر) فقد قال: «نذيرُ مبين، أَي: منذرُ مخوّفُ من معصية اللهِ، مظهر طريق الحق»[5]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» ص/65. رأى السيد الطباطبائي في هذه الآية ما رآه في سابقتها فقد قال: «إنما أَنا منذر، يُفيد قصَره في كونه منذراً، ونفي سائر الاغراض التي ربّما تتلبّس به»[1]. وقد رأى الطبرسي (ت 548هـ) أَنَّ منذر تعني مخوّف ، فقد قال: «منذرُ ، مخوّفُ من معاصي الله، ومحذِّرُ من عقابه»[2]. وليس بمنأى عن هذا المعنى قولُه تعالى: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» الأَحقاف/9. قال الآلوسي: «على معنى قصر أَفعاله (ﷺ) على اتباع الوحي (...) (وما أنا الا نذير) الحصر إضافي»[3]. واما قوله تعالى : «نذير»قال فيه الشيخ الطوسي (ت 460هـ) : «اي : لستُ الا مخوّفاً من عقاب الله ومحذّراً معاصيه»[4]. ومنه ايضاً «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» الملك/25-26. في هذه الاية المباركة نفى النبي (ﷺ) علمه بموعد القيامة فعندما ينفي (ﷺ) علمه بالقيامة ، فعلى أيّ شيء يكون الإنذار؟ هذا ما أجاب عنه الفخرُ الرازي بقوله: «المرادُ أَنَّ العلمَ بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعِلمُ الأَول حاصلُ عندي، وهو كافٍ في الإنذار والتحذير. أَما العلمُ الثاني فليس الاَّ لله يعلمه، ولا حاجةَ في كوني نذيراً مبيناً له»[3]. وبعد أَن يأمر الله سبحانه نبيّه الكريم (ﷺ) بإخبار قومهِ أَنّه نذيرُ من الله ترد آياتُ تحمل المعنى ذاته إلاَّ أَنَّها لم تتصدر بالأَمر بل جاء الإخبار وبيان الوظيفة من النبي ذاته (ﷺ). قال تعالى: «إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» ص/70. قال الفرّاء (ت207 هـ): «إِنْ شئت جعلت (إِنَّما) في موضع رفع ، كأَنَّك قلت: ما يوحى اليَّ إلاَّ الإنذار»[5]. من هذا القول تلاحظ اقتصار الوحي على الإنذار، وقد أجاز الفرّاء وجهاً آخر، اذ

---

[4] روح المعاني 21/ 22.
[5] التفسير الكبير 25/ 78.
[1] الميزان في تفسير القرآن 17/ 223.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 16/ 271.
[3] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 25 / 11.
[4] التبيان في تفسير القرآن 16/ 271، ينظر: التفسير الكبير 27/ 8.
[3] التفسير الكبير 30/ 74.
[5] معاني القرآن 2/ 411.

تلاحظه جعل الوحي سبباً للإنذار، فلأنَّ النبي (ﷺ) نذير أُوحي اليه، فقد قدّر الفرّاء ذلك بقوله: «وما يوحى اليَّ إلاَّ لأني نذير»[1]. وعلى هذا الوجه يكون موضع (إنما) النصب، وهذا ماقرره ابو البقاء العكبري[2]. ولم ينأ ابنُ جني (ت 392 هـ) عمّا ذهب اليه الفرّاء ، فقد رأى الآية الكريمة يمكن أَن تُحْملَ على الحكاية فقد قال: «هذا على الحكاية، حتى كأَنَّه قال: إن يُوحى. أَي: ان يقال لي: إلا أنت نذيرُ مبين، فإنْ قيل: فإذا كانت حكاية فقد كان يجب أَن يُرد اللفظُ عينهُ، وهو لم يقلْ له: أَنا نذيرُ مبينُ، فهلا أَعاده البتة. فقال: إنْ يُوحَى إليَّ إلا أنت نذيرُ مبين، قيل: هذا أراد، إلا أَنه إذا قال: إنما أَنا نذير مبين فكأَنّه قد قال : أنت نذيرُ مبين، أَلا ترى تقول لصاحبك: أَنت قلت: إنَّكَ شجاع، فزدت الحرف ولم يقل: إنّك شجاع، وإنما قال: أَنا شجاع، فلما أردت قول حاكياً له أوقعت موقع أَنا ، إنّك»[3]. من قول ابن جني يتضح أَنَّ تعالى حين أخبر نبيه (ﷺ) بأَنه نذير عَبّر عن ذلك بالضمير (أنت)، ولما أَراد النبي (ﷺ) الإخبار عن هذا عمد الى الضمير (أنا) ليكون مختصاً بالخطاب، وليس هذا يعني تغييراً في القرآن الكريم، وإنما هو على الحكاية. وقد تابع المفسرون سابيقيهم على هذه المعاني، فقد ذكر الشيخ الطوسي (ت460هـ) أَن قوله: «**إنما يُوحى إليَّ إنما انا نذير مبين**»، له معنيان:

الأوّل: ليس يوحى اليَّ الا لأُنّي أَنا نذيرُ مبين، أَي: مخوّف من معاصي الله.

الثاني: ليس يُوحى اليَّ الا الإنذار البيّن الواضح[4]. وعلى هذا التقدير جُعِلتْ (إنّما) بمعنى اللام التي تُفيد الحصر، ومعنى الحصر: إنه (ﷺ) لم يوحَ اليه الا لأَنه نذيرُ مبين[5]. ومن المعنى ذاتهِ قوله تعالى: «**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**» الذاريات 50/ 51. ذكر الفخرُ الرازي (ت 606هـ) في الآية محل البحث أَنَّ دعائم الإنذار الثلاث وهي : المُنْذِر، والمُنذَرُ، والمُنْذَرُ منه قد اكتملت في الآية المباركة فقد قال: «في الرسالةِ أُمور ثلاثة: المُرْسِل، والرسول، والمُرْسَل اليه، وهنا ذُكِرَ الكل، فقولهُ: لكم إشارة الى المُرْسَل اليه، وقولُه (منه) إشارة الى المُرْسِل، وقولُه (نذير) بيانُ للرسول، وقد قُدِّم المُرْسَلُ اليه في الذكر؛ لأَنَّ المُرَسلَ اليه أَدخل في أَمر الرسالة؛ لأَنَّ عنده يتم الأَمر، ثم المُرْسِلُ متعيّن وهو الباعثُ، وأَمّا الرسولُ فباختياره (...)، وفروّا إلى الله بيانُ المهروب إليه، ولم يذكر الذي منه الهرب لأَحد وجهين: أَمَّا لكونه معلوماً، وهو هولُ العذاب أَو الشيطان، أو ليكون عاماً، كأَنَّه يقول: كلُّ ماعدا الله عدوُ لكم ففروا إليه من

---

[1] المصدر نفسه 2/ 411، الجامع لأَحكام القرآن 15/ 227.
[2] ينظر: التبيان في اعراب القرآن 2/ 1170.
[3] المحتسب 2/ 235.
[4] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 23/ 579، تفسير القرآن العظيم 44/4.
[5] ينظر: الكشاف 104/4، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 221/23، الميزان في تفسير القرآن 224/17.

كل ما عداه»[1]. وتلاحظ قولُه تعالى «إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» جاء مرةً أخرى الا أَنَّ كثير من النحاة والمفسّرين رأَوا إعادةَ القول ليس بتكرار له وانمَّا جاء لفائدةٍ أخرى ومن النحاة النحاس فقد قال: «ليس بتكرير؛ لأَنَّه خوَّف في الثاني مَنْ عبدَ غير اللهِ جلَّ وعز، وفي الأَوّل من لم يفر إلى طاعته ورحمته»[2]. وقد تابع الشيخ الطوسي (ت 460 هـ) سابقه على هذا المعنى إذ قال: «إنَّ الثاني منعقدُ بغير ما انعقد به الأَوّل إذ تقديره: إنَّي لكم منه نذير مبين في الامتناع من جعل اله آخر معه. وتقديرُ الأَوّل: إنّي لكم منه نذير مبين في ترك الفرار اليه»[3]. وقد ذهب الآلوسي مذهب سابقيه مضيفاً إلى ذلك دلالةً اخرى وهي الحث والمبالغة في النصيحة[4]. من هذه الأَقوال يتبيّن أنه لم يكن هناك تكراراً في المعنى، بل إنَّ الآيتين الكريمتين وان اتفقتا في الأَلفاظ الا أَنَّ المحذَّر منه قد تباين في الموضعين، ففي الأَول انصرف التحذير إلى مَنْ لم يفر إلى الله، وفي الموضع الثاني صرِف التحذير الى عبادة غير الله. أَمَّا السيد صاحبُ الميزان فقد صرَّح بوجود التكرار في هذا الموضع إذ قال: «وكُرِرَ القولُ لتأكيد الإنذار»[5].

من العرض السابق للمواضع التي جاء فيها النبي الأكرم (ﷺ) مُحَذِّراً تلاحظ تلك المواضع كلَّها الا واحداً أُخْتِيرُ لها صيغة (نذير) لإفادة ذلك المعنى. لقد صرّح المفسرون أَن النذير هو «المخبر عما يُحذرُ منه (...) وهو يقتضي المبالغة»[1]. وقد أَعطت لفظة (نذير) معنى المنذر في المواضع التي احتلتها، ولا فرق بين المعنيين فقد رأى الجوهري أَنَّ النذير يدلُّ على معنى المنذر[2]. وتابعه على هذا العديد من المفسرين، فقد رأى الآلوسي : « النذيرُ: صفة مشبهّه بمعنى منذر»[3]. ولم ينأ السيد صاحب الميزان عن هذا المعنى فقد ظلَّ في الفلك ذاته[4]. وما دام النذير يمكن ان يكون بمعنى المنذر مع الاتحاد في الدلالة، فلا غرابة أن يكون المنذر بمعنى النذير، وهذا ما جاء في الموضع الذي أُسْتُثْنِي من قبلُ. كما جاء النذيرُ في تلك المواضع بمعنى الإنذار، وقد أجاز الزمخشري (ت 538 هـ) هذا فقد قال: «النذيرُ بمعنى الإنذار»[5]. وعندما يكون النذيرُ هو المُعْلِمُ بموضع المخالفة، والإنذار: الإبلاغ والتخويف من المخالفة، فلا ضيرَ أَنَّ النذير والإنذار يدلان على المعنى ذاته في السياق القرآني وهما في جوهريهما يفيدان التخويف.

ومن مواضع الذكر الحكيم التي جاءت فيها صيغة (نذير) لكن ليس في بيان وظيفة النبي (ﷺ) بل في سياق طلب القوم أرسال النذير، من هذا المعنى قولُه تعالى : «لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ

---

(1) التفسير الكبير 28/ 228-229.
(2) اعراب القرآن 2 / 244.
(3) التبيان في تفسير القرآن 27/ 396.
(4) ينظر: روح المعاني 27/ 18.
(5) الميزان في تفسير القرآن 18/ 382.
(1) التبيان في تفسير القرآن 25/ 224.
(2) ينظر: الصحاح 2/ 825.
(3) روح المعاني 18/ 231.
(4) ينظر : الميزان في تفسير القرآن 15/ 173.
(5) الكشاف 4/ 578.

﴿مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ الفرقان 7. أشار عدد من العلماء الى أَنَّ (لولا) تُفيد معنى (هلاّ) التي أَفادت التخصيص في الآية المباركة. حتى يشترك الملك مع النبي (ﷺ) في الوظيفة التي هي الإنذار والتخويف[6]. وقد أيّد الزمخشري (ت 538هـ) هذا الرأي إذ رأى إنزال الملك مع النبي (ﷺ) واشتراكه معه لمساندته له في دعواه ، قال: «حتى يتساندا في الإنذار والتخويف»[1]. ومثلُ هذا قولُه تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فاطر 42. أشار المفسرون الى أَنَّ النذير في الآية المباركة النبي الاكرم (ﷺ)، فقد طلب القوم مجيئه ليكون سبباً في هدايتهم ، وبالاستجابة الى طلبهم وبُعِثَ النذير فلم يزدهم الا نفوراً من الحق[2].

مما سبق يتبين أَنَّ اقتصار وظيفة النبي (ﷺ) على الإنذار جاء بإسلوب القصر المعروف عند النحاة، أي: بـ(ما) و (الا) . وفي مواضع أخرى جاء اقتصار الوظيفة بدلالة السياق، إذ أَن السياق القرآني أوحى بذلك.

الانذار من يوم القيامة

خوّف الله سبحانه وتعالى عباده وحذَّرهم من يوم القيامة في مواضع عدّة من الذكر الحكيم. وقد تعددت السُّبُل التي خُوّف بها العباد من ذلك اليوم الموعود ومن بين تلك السُّبل التي عَمَدَ القرآن اليها استعمال لفظة (نذر) بصيغها المختلفة ، فتارةً تلاحظها تُفيد التخويف من يوم القيامة وهي بصيغة الفعل الماضي، وتارةً تجدها بصيغة الفعل المضارع وأُخرى تلاحظها تفيد المعنى ذاته لكنها بصيغة فعل الأَمر. فلنتدبر من تلك المواضع في الذكر الحكيم.

لم يرد التخويف من العذاب بصورة التحذير الضمني بصيغة الفعل الماضي، وكان فيه النبي محمد (ﷺ) منذراً الا في موضع واحد من الذكر الحكيم وهو قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فصّلت 13. أشار الشيخ الطوسي الى أن قوله تعالى : «أنذرتكم« معناه خوّفتكم إياها. وقد أخرج النبي (ﷺ) هذا الكلام مخرج التخويف، وأمّا قوله (صاعقة) فهو المفعول الثاني للفعل (انذر) وأُريد بالصاعقة العذاب[1]. ولم يصرُّح بالعذاب دنيوياً أم أُخروياً في الآية محل البحث.

---

(6) ينظر: معاني القرآن، للفرّاء 2/ 262، التبيان في تفسير القرآن 18/ 473، الجامع لأحكام القرآن 5/13، روح المعاني 18/ 238.

(1) الكشاف 2/ 265.

(2) ينظر: التفسير الكبير 26/ 34، التبيان في اعراب القرآن 2/ 1077.

(1) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 24/ 113.

ومن مواضع استعمال (نذر) بصيغة المضارع وأُريد التخويف من يوم القيامة قوله تعالى: ﴿يامعشر الجنّ والانس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ الأنعام / 130.

أشار عدد من المفسرين إلى أنَّ هذا القول (اي: الآية المباركة) مما يقال في يوم القيامة؛ حتى يزداد المخاطبون عذاباً فوق العذاب الذي سيلاقونه. قال الشيخ الطوسي (ت460 هـ): «احتجاج عليهم بأَنَّ الله بعث اليهم الرسل إعذاراً وإنذاراً وتأكيداً للحجّة عليهم. (...) وهذا إخبار وحكاية عَمّا يقال لهم وقت حضورهم في الآخرة»[2]. لو تدبّرت الآية الكريمة تجد الإنذار جاء فيها مستفهماً عنه، إذ جاء معطوفاً على قوله : ﴿يقصون عليكم﴾ وهذا قد سُبِقَ بالاستفهام في قوله : ﴿ألم يأتكم﴾ ، فاُسْتُفْهِم عن القصص والإنذار توبيخاً لهم، والتوبيخ يُزيد العذاب. وفي قوله تعالى: ﴿يقصّون عليكم﴾ أشار الآلوسي (ت 1270 هـ) الى أَنَّ هذا القول مبيّنُ لصفة الرُسُل ، وموضحُ الى أَنَّ المراد من الإرسال الإنذار[3]. من هذا الرأي يتبين أَنَّ الآلوسي رأى قوله: (يقصون) يُفيد الإنذار؛ لأَنَّ القصص إنذارُ، وعلى هذا يكون الإنذار الذي أشار اليه الآلوسي قد أُكِّدَ لماَّ ذكر تعالى قوله (وينذرونكم)، على هذا سيكون في الآية إنذاران: أحدهما بذكر القصص، والثاني في قوله : (ينذرونكم).

لو أعدت النظر في الآية المباركة تلاحظ أَنها خاطبت الجنَّ والأنس، وقررت أَنَّ الإنذار قد بلغهما، وفي هذا الموضع أَورد الفرّاء (ت207هـ) تساؤلاً مفاده أَنَّ الرسل من الأنس خاصة فكيف قال (منكم)؟ أجاب الفرّاء ومن تبعه عن هذا، أنه من باب التغليب، كما يُغلَّب المذكّر على المؤنث[1]. ومن معاني الانذار من يوم القيامة بصيغة الفعل المضارع قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾الزمر/ 71. وأَنت تلاحظ الحوار بين خزنة النار ومن أُريد له دخول النار، إذ يستجوب الخزنةُ الكافرين عن الرُسُل الذين أنذروهم العذاب وخوفوهم منه. كما تلاحظ الآية المباركة اقتصر تخويفها على اليوم الموعود. وأُضيف ذلك اليوم إلى المخاطبين إذ قال تعالى: ﴿يومُكم﴾. لقد أشار الزمخشري

---

[2] التبيان في تفسير القرآن 8/ 299-300، ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 367، الجامع لأحكام القرآن 7/ 87.

[3] ينظر: روح المعاني 8/ 28.

[1] ينظر: معاني القرآن 1/ 354، التبيان في تفسير القرآن 1/ 580.

الى هذا موضحاً سبب إضافة اليوم الى المُخَاطبين بقوله: «فإن قلت: لِمَ أُضيفَ اليهم اليوم؟ قلت: أرادوا لقاء وقتكم هذا، وهو وقتُ دخولهم النار لا يوم القيامة»[2]. من هذا يتبين التشابه بين هذه الآية وبين سابقتها (الانعام 130)، فالآيتان كلتاهما أضافت اليوم الى المخاطبين، واشتركت الآيتان في التعبير ، ففي كلتيهما قال تعالى: «**وينذركم لقاء يومكم هذا**» فالتعبيران متوافقان في الدلالة من جهة، وفي بناء الجملة من جهة ثانية. وهذا يدلُّ على شدة هول المنذر منه، وهو يوم القيامة. ويطالعُك الانذار من يوم القيامة بصيغة الفعل المضارع في الذكر الحكيم في قوله تعالى: «**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**» الشورى /7. إذا أنعمت النظر في الآية الكريمة تلاحظ الإنذار ورد فيها مرّتين: أولُهما قوله تعالى: «**لتُنذر ام القرى**»، وهذا إنذار عام لم يُخصص الشيء المُنْذَرُ منه. وثانيهما قولُه تعالى: «**وتُنذر يوم الجمع**» وفي هذا الموضع خُصِصَ الإنذار من القيامة بعد أَن كان عاماً مطلقاً. لقد أَوضح الآلوسي (ت 1270 هـ) السبب الذي دعا الآية إلى ذكر الإنذار بهذا الأُسلوب إذ قال: «زيادةٌ في الإنذار وبيانُ لعظمةِ أَهوالِهِ؛ لأَنَّ الإفراد بالذكر يدلُّ عليه وكذلك إيقاع الإنذار عليه ثانياً، والظاهرُ إنَّ حذف المفعول الثاني من الأَول لإفادة العموم، وإن كان الأَول من الثاني لذلك أيضاً»[1]. ولم ينأ السيد صاحب الميزان عن هذا المعنى فقد أفاد أَنَّ تكرار الإنذار أُريد منه الدلالة على بيان أَهمية وعظم يوم القيامة، وبيان سخط الله وتخويفه لنا[2]. وسواء أكان حذف المفعول به الثاني في قوله: «**لتنذر ام القرى**» أم تكرار الإنذار في قوله: «**وتنذر يوم الجمع**» تبقى دلالة السياق واحدة؛ لأَن الدلالتين (العموم والتأكيد) تفيدان التخويف وتزيدان الموقف هولاً. وقد ذهب الشيخ الطوسي من قبلُ إلى أَنَّ قوله تعالى: «**وتنذر يوم الجمع**»، أَي : تخوّفهم يوم الجمع، وهذا الإنذار والتخويف إنما يكون في الدنيا لا في الآخرة ؛ لعدم فائدته في اليوم الآخر؛ لأَنَّ الأَمر قد قُضي، وحسب هذا الرأي يكون انتصاب (يوم) على أنه مفعولُ ثانٍ لـ(ينذر) وليس ظرفاً[3]. وقد رأى الآلوسي (ت 1270 هـ) قوله تعالى : «**تنذرهم يوم الجمع**» لا يخلو من الحذف، إذ أَنَّ التخويف يكون

---

[2] الكشاف 4/ 146، وينظر: الجامع لأحكام القرآن 15/ 284.
[1] روح المعاني 25/ 13-14.
[2] ينظر : الميزان في تفسير القرآن 18/ 19.
[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 25/ 145.

من عذاب ذلك اليوم وليس من اليوم ذاته، فقد قال : ((والإنذارُ يتعدّى الى مفعولين وقد يستعملُ ثانيهما بالباء، وقد حُذِف ههنا ثاني مفعولي الأوّل وهو (يوم الجمع) والمرادُ به عذابُه، وأَولُ مفعولي الثاني وهو أُم القرى ومن حولها، فقد حذف من الأَول ما أَثبت في الثاني، ومن الثاني ما أَثبت في الأَوّل وذلك من الاحتباك))[4]. فحذفُ من الأَول ما أُثبت في الثاني، وحذف من الثاني ما أُثبت في الأول يفيد الدلالة على عظم الأَمر المُحَذّر منه؛ لما جاء في إسلوب يستدعي التأمل فيه.

أَما مواضع الذكر الحكيم التي تُنْذِر وتُحِّذر من يوم القيامة بصيغة فعل الأَمر، إذ أُمر النبي الأَكرم (ص) أن يُحذِّرَ قومه من ذلك اليوم. قولُه تعالى : ((**وانذر به الذين يخافون ان يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع لعلهم يتقون**)) الأَنعام/51. هذه الآية المباركة أُولُ ما ورد في الذكر الحكيم تحمل فعل الأَمر (أنذر) وقد جاء فيها المنذر منه يوم الحساب. أَفاد العديد من المفسرين في الآية محل البحث أَنَّ قوله تعالى: (أَنذرْ) بمعنى (حَذِّرْ)، والخطابُ فيه موجّه الى النبي (ﷺ) [1]. فدلالةُ الأَمر في الآية الكريمة تخويف وتحذير حسبما يفيده معنى الفعل ولمن وجّه اليه الخطاب. وبعد أن أَمر تعالى نبيه (ﷺ) بالإنذار ذكر الوسيلة التي ينذر بها وهو الضمير في قوله (به). أشار عدد من المفسرين في بيانهم لهذا الجزء من الآية الى أن الضمير راجع الى العذاب او الى الانذار[2]. فالنبي (ﷺ) أُمِرَ أن ينذر من العذاب الذي ينتظرُ الناس في يوم القيامة، أَو ينذر من مخالفة الإنذارات التي سلفت. أَمَّا الفخر الرازي (ت 606 هـ) فقد رأى غير ما رآه سالفه إذ عَدَّ الضمير في قوله تعالى : (به) راجعاً الى ((القرآنُ، أو الله، والأَوّل أولى؛ لأَنَّ الإنذار والتخويف إنمّا يقعُ بالقول وبالكلام لا بذات الله تعالى))[3]. وعلى تباين الآراء في معنى الشيء الذي يكون وسيلة الإنذار يبقى المُنْذَرون لا خلاف في تحديدهم في الآية الكريمة. وهم الذين قال تعالى فيهم: ((**الذين يخافون أَن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه من ولي ولا شفيع**)). وأنت تلاحظ الآية الكريمة اقتصرت دلالة إنذارها على القوم المذكورين لا على سواهم وهذا الجانب اتفق عليه المفسرون، إذ ذكروا أَنَّ الإنذار خُصِصَ لهؤلاء لأَنهم المنتفعون به، وذِكرُ المنتفع به أَولى من غيره. وهذا ما يتضح من قول الآلوسي في الآية محل البحث: ((إِنَّ من الكفرة من لا يتّعظ ولا يتأَثّر، وقد التحق بالأَموات وانتظم في سلك الجمادات فما ينجع فيه دواءُ الإنذار، ولا تُفيدُه العظة والتذكار، إذ يُنْذَرُ مَنْ يُتوقّع في الجملة منهم الانتفاع، ويُرجى منهم القبول والسماع، وهو المراد بقوله: ((**الذين يخافون أَن يُحشروا**)) . فالمرادُ من الموصول

---

[4] روح المعاني 15/ 13، وينظر : التفسير الكبير 27/ 148.

[1] ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 7/ 200، التبيان في تفسير القرآن 7/ 153، تفسير المراغي 124/28.

[2] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 7/ 153، مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 35، 430/6.

[3] التفسير الكبير 12/ 232، ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 305، الجامع لأَحكام القرآن 6/ 430-431.

المجوزون للحشر على الوجه الآتي سواء كانوا جازمين بأَصله كأهل الكتاب وبعض المعترفين. كما قيل: إنَّ المرادَ بالموصول المؤمنون، الا أَنَّهم قُيدّوا بالمفرطين؛ لأَنَّه المناسبُ للإنذار ورجاء التقوى»[1]. من هذا تتبيّن الدلالة في اختصاص الانذار بالقوم المذكورين، وجاء هذا الاختصاص بإسلوب الدلالة اللفظية التي أشارت اليه الآية المباركة ، فهل يعني من حيث الدلالة المعنوية أَنَّ الإنذار لهؤلاء المذكورين ولا يعمّ سواهم؟ نتعرّف على جواب هذا السؤال من قراءتنا لما أورده السيد صاحب الميزان، فقد قال: «والأَمرُ بالانذار خصوص الذين يخافون لا يُنافي عموم الإنذار لهم ولغيرهم، ولمّا كان خوفُ الحشر إلى الله معيناً لنفوسهم على القبول، ومقرّباً للدعوة إلى إفهامهم أفاد تخصيص الأَمر بالإنذار لهم، ووصفهم بهذا الوصف تأكيداً لدعوتهم وتحريضاً له أَنَّ لا يسامح في أَمرهم»[2]. من هذا يتبيّن أَنَّ الإنذار عامُ مطلقُ. ولما اختص بقوم معينين كانت دلالته اكثر تأثيراً ، فمن خاف الحشر وآمن يُنذر من ذلك اليوم الموعود، فكيف من لا يخافه؟ بطبيعة الحال ينبغي أَن يكون الإنذار الموجّه لمن لا يخاف الحشر أَكثر قوّةً وتأثيراً ووقعاً في النفس. إذا أَعدت النظر في الآية الكريمة وما تلاها من بيان لها تلاحظ المُنْذِرِ في الآية الكريمة هو الرسول الأعظم (ﷺ)، والمُنْذَرين هم (الذين يخافون أن يحشروا)، وهذان ركنان من أَركان الإنذار أَمّا الركنُ الثالث وهو المُنْذَرُ منه فلم تجد ذكراً له في الآية وأَنت تعلم أَنَّ الفعل (أَنْذِرْ) متعدٍ إلى مفعولين استوفى أحدهما وهو قوله تعالى: «**الذين يخافون أَن يُحشروا**» أمّا المفعولُ الثاني فلم يُصرّح به. لقد أَوضح بهاء الدين الآلوسي في معرض تفسيره للآية المفعولَ الثاني الذي أُضْمِر فقد ذكر «المفعول الثاني لَ(اِنذر) أمَّا العذاب الأُخروي المدلول عليه بما في حيّز الصلة، أو مُطلق العذاب الذي ورد به الوعيد»[3]. من هذا يتبين أَن المُنْذَرَ منه عذاب يوم الحشر الذي سيصيب من لا يتعظ بالإنذار، أو مطلق العذاب كالعذاب الدنيوي والأُخروي معاً. وبهذا فإنَّ الحذف فيه الدلالة على الايحاء بشدة التحذير مما لا يخفى فالمُحَذَّرُ عليه اتقاء أسباب العذاب الدنيوي والأُخروي معاً. وفي موضع ثانٍ من الذكر الحكيم يأتي الأَمر بالانذار وذلك في قوله تعالى: «**وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ**» ابراهيم / 44. تلاحظ الآية المباركة أُفْتِتحت بفعل الأَمر (أنذر) وهذا الأمر وُجّه من الله سبحانه الى النبي الأَكرم (ﷺ). قال الشيخ الطوسي (ت 460 هـ): «أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه (ﷺ) أَن يقول للناس على وجه التخويف لهم من عِقابهِ،

---

[1] روح المعاني 7/ 157-158، ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 5/ 1430، الكشّاف 2/ 26، الجامع لأَحكام القرآن 6/ 430-431.

[2] الميزان في تفسير القرآن 7/ 98.

[3] روح المعاني 7/ 158.

ويُحذّرهم يوم يجيئهم العذاب من الله»[1]. من هذا القول تتبيّن لك دلالة فعل الأمر التي أفادت التحذير والتخويف، وهذه الدلالةُ تشترك مع سابقتها التي تصدّرت الآية / 51 من سورة الأنعام التي سبق بيانُها. إذا أعدت النظر في الآية الكريمة محل البحث تلاحظ الإنذار وُجِّه إلى الناس، وعلى هذا يكون الناس هم المُنْذَرُون في الآية الكريمة، ثم يأتي تخصيص القول بالذين ظلموا، فالأول (الناس) عامُ مطلق ، والثاني مقيدّ، وهذا يُوضّح ما أرادته الآية بالناس، فقد أرادت الظالمين، فيكون التخويف من العذاب مختصاً بالظالم بدليل السياق القرآني. ولم يَكُ إطلاق الإنذار في الآية ثم تخصيصه لمجرد سياق قرآني ، بل لدلالة عُمِدَ إلى هذا العدول تتضحُ من قراءتنا معاً قول الآلوسي : «ونكتةُ العدول اليه من الإظمار؛ للإشعار بأَنَّ المراد بالإنذار هو الزجر عمّاهم عليه من الظلم شفقةً عليهم لا التخويف والإزعاج والإيذاء، فالمناسبُ عدم ذكرهم بعنوان الظلم»[2]. من هذا القول يتضح أَنَّ الدلالة التي أفادها الإنذار قد خرجت من معناه المعجمي؛ لأَنَّ الانذار معجمياً لا يكون الا في التخويف[3]. أَمّا الآلوسي فقد أَخرج الإنذار في الآية محل البحث من دلالة التخويف إلى النصيحة . اما السيد صاحبُ الميزان فقد رأى سبباً اخر غير ما رآه سابقه يتضح من قوله : «أنذرَ بعذاب الاستئصال في الدنيا وذلك بقوله: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾»، وهذا إنذارُ بعذابٍ غير مصروف عن أَمّة ظالمة. وأَما الفردُ فربّما صُرِفَ عنه؛ ولذلك ترى أَنّه قال أوّلاً: «وأنْذِرْ الناس«، ثم يقول: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل : فيقولون، أي: الناس؛ لأَنَّ عذاب الاستئصال لا يُصيب المؤمنين. وبالجملة فقوله: «﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إنذار للناس بعذاب الاستئصال الذي يقطع دابر الظالمين منهم»[1]. من هذا يتضح أن دلالة قوله تعالى : «﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾». أُنذر الناسُ بعذابٍ لم يُصرّح بماهيته في الآية الكريمة، ولما ذُكِرَ القومُ الظالمون بعد الإنذار أُريد أَنَّ الانذار يُفيد استئصالهم. يبدو أَنَّ المفسِّر ذهب الى هذه الدلالة لما رأى في قول الظالمين طلباً للبقاء حين داهمهم العذاب.

إذا أَعدت النظر في الآية محل البحث تلاحظ رسالة الإنذار اكتملت دعائمها التي تُشيدّ عليها، فالنبي (ﷺ) المُنْذِرُ، والظالمون المُنْذَرون، وهم المفعول الأول للفعل (أنْذِرْ). أما المُنْذَرُ منه: فقولُه تعالى: «﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾» وعلى هذا يكون في موضع المفعول الثاني لفعل الأمر (أنْذِرْ). والإنذارُ من اليوم الآخر ليس المقصود أَصلاً بل المقصود عذابُ وهول ذلك اليوم. قال الآلوسي (ت 1270هـ)[2]«معناه : أَنْذرهم هوله وما فيه، فالايقاعُ عليه مجازي، وهو بتقدير مضاف، ولا يجوز أن يكون ظرفاً للإنذار؛ لأَنّه في الدنيا»[2]. وأَنت

---

[1] التبيان في تفسير القرآن 13/ 306.
[2] روح المعاني 13/ 247-248.
[3] ينظر: لسان العرب 5/ 202 ، الصحاح 825/2، تاج العروس 14/ 200.
[1] الميزان في تفسير القرآن 12/ 82.
[2] روح المعاني 13/ 248.

تلاحظ الآية المباركة ركّزت الإنذار على يوم القيامة الذي سّمته يوم العذاب، علماً أَنَّ يومَ القيامة لم يكن يوم عذابٍ فحسب بل يوم ثواب أَيضاً. لقد أَوضح القرطبي (ت671 هـ) السبب الذي دعا الآية إلى الاقتصار على ذكر العذاب في هذا الموضع، قال : ((وإنّما خصَّه بيوم العذاب وإن كان ذلك اليوم هو يوم الثواب؛ لأَنَّ الكلام خرج مخرجَ التهديد))[3]. فَذِكُر الإنذار الذي يُفيد التخويف أَو النصيحة اللتين أُريد إفادتهُما يتوافقان مع الاقتصار على ذكر العقاب دون سواه وبهذا تكون دلالة الإنذار أكثر تأثيراً وايحاءً للقوة.

ومن الأَمر بالإنذار من يوم القيامة قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مريم /39. أَشار الفخر الرازي (ت 606 هـ) في الآية محل البحث إلى أَنَّ قوله تعالى: ((أنذرهم)) أعطى معنى خوّفهّم وحذّرهم من عبادة غير الله، والخطابُ فيه موجّهُ إلى النبي الاكرم (ﷺ) [1]. وقد تابع السيد صاحبُ الميزان سابقه في هذا المعنى إذ أَفاد أَنَّ الاية تُفيد التخويف من يوم القيامة، قال : ((خوفّهم يوماً يقتضي فيه الأَمر فيتحتم عليهم الهلاك الدائم فينقطعون عن سعادتهم فينحسرون عليها حسرةً لا تُقّدر))[2]. وبعد أن تبين أَنَّ الآية أَفادت التخويف والتحذير من القيامة ، السبب الذي سُمّي ذلك اليوم بيوم الحسرة بعد ذكر الإنذار؟ أَجاب عن هذا الآلوسي بقوله: ((ولعلَّ التخصيص، لما أَنَّ الحسرة يومئذٍ أَعظم الحسرات؛ لأَنَّه هناك تنقطعُ الآمال وينسدُّ بابُ الخلاص من الأَهوال))[3]. ومما لا يخفى على أَحد ما للحسرة من تأثير في النفس الإنسانية، فهي من العقوبات والآلام التي لا يقوى على إزالتها إلاَّ الله سبحانه. فتخصيصُ الإنذار بيوم القيامة وتخصيص القيامة بالحسرةِ دلالة على هول وفضاعة المُنْذَر منه.

مما سبق يتبيّن أَنَّ النبي (ﷺ) هو المُنْذِرُ في الآية المباركة، والمُنْذَرُ منه يومُ القيامة أَو عذابُه إن كان التعبير مجازاً، وأَمّا المُنْذَرُون فهم الضمير (هم) في فعل الأَمر (أَنْذِرْ) الذي قال فيهم تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . أَشار الزمخشري (ت538 هـ) إلى أَنَّ هذا القول بيان لحال المُنْذَرين، وهذا يتّضح من قوله: ((وهم في غفلة، متعلّقُ بأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين))[4].

ومن المعنى ذاته في الإنذار من يوم القيامة بصيغة الأَمر يطالعك قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ المؤمن/18. أَشار الشيخ الطوسي الى ان الأَمر في الآية الكريمة موجه من الله سبحانه

---

[3] الجامع لأَحكام القرآن 10/ 378.
[1] ينظر: التفسير الكبير 21/ 221.
[2] الميزان في تفسير القرآن 5/ 514.
[3] روح المعاني 15/ 94.
[4] الكشاف 3/ 18.

وتعالى إلى نبيه الكريم (ﷺ) ليخوّف العباد من يوم القيامة الذي سمّاه يوم الآزفة[1]. ليُدلَّ على أَنَّه آتٍ قريب. وهذا القول (الآزفة) نعتُ لمحذوف مؤنث على تقدير: يوم القيامة، أو يوم المجازاة الآزفة[2]. وحين يُخبر تعالى أَنَّ يوم القيامة آتٍ قريب فقد أعطى للإنذار صفة الرهبة: لأَنَّ الشيء المُحّذَّر منه قد قرب أَوانُه. ولم تكتفِ الآية بالتخويف بذكر أَنَّ القيامة دنا وقُتها، بل ذكرت ما يُزيد الإنذار هولاً، وهو قوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾. أشار عدد من المفسرين إلى أَنَّ هذا الجزء من الآية متعلِّق بالانذار، فلمّا أَنذرهم تعالى بيَّنَ لهم هول اليوم المُنْذَر منه بتعبير يُنبئُ عن شدة الخوف، وفرط التألّم، وشدة الفزع، ومن هذا الوصف يتبيّن أَنَّ قلوب المُنْذَرين لا تخرج فيموتوا، ولا ترجع الى مواقعها فيتنفسوا بل تبقى م [3]. وفي هذه المعاني من التهويل مما لايخفى على أحد.

وأنت تلاحظ قوله: «كاظمين» يُبيّنُ حال المُنْذَرين، فقد أَشار العديد من اللغويين المفسرين ومن بينهم الفرّاء (ت 207 هـ)، والزمخشري (ت 538 هـ) الى أَنَّ قولَه (كاظمين) حال من الهاء في قوله: (وأَنْذِرْهم)، وبهذا يصبح المعنى: وأَنْذِرْهم مقدّرين مشارفين الكظم[4]. وبهذا فإنَّ دلالة الإنذار التي هي التحذير والتخويف تركّزت على قوله: «إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين» مما يجعله مُنْذَراً منه ثانياً بعد أن كان المُنْذَر منه قوله: «يوم الآزفة».

حذف المفعول الثاني لفعل الإنذار

أنذر الله سبحانه وتعالى عباده في مواضع عِدّة من كتابه العزيز. ومما لا يخفى أَنَّ فعل الإنذار متعدٍ إلى مفعولين، اولُهما المُنْذَرُ وثانيهما المُنْذَر منه وهو الذي سماه الشيخ الطوسي «الإعلام بموضع المخالفة»[1]. وتبعه على هذا عددُ من المفسرين[2]. وهذه هي سُنَّةُ القرآن عند ذكره الإنذار ، إذ يذكر موضع المخالفة لتقيه وذلك هو التحذير بعينه. لكنّك في مواضع من الذكر الحكيم لم تجد السُّنّة التي اعتمدها القرآن بل اختار أُسلوباً آخر، اذ تُرِكَ ذكرُ المفعول الثاني (المُنْذَر منه) للقارئ أو المفسر استنتاجه. لقد تمَّ إفادة هذا المعنى باستعمال فعل الإنذار بصيغه المختلفة: الماضي، والمضارع، والأَمر. وفي هذا الموضع فلنتدبر بعض ما جاء في الذكر الحكيم لإفادة ذلك المعنى.

من المواضع التي وظّفت الفعل الماضي مع عدم ذكر المُنْذَر منه قولُه تعالى: «إِنَّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» البقرة 6. أَشار عدد من

---

[1] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 24/ 64.
[2] ينظر: الجامع لأحكام القرآن 15/ 299.
[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 15/ 303، التفسير الكبير 27/ 49، روح المعاني 24/ 58، الميزان في تفسير القرآن 17/ 319.
[4] ينظر: معاني القرآن 3/ 6، الكشاف ط بيروت 4/ 156.
[1] التبيان في تفسير القرآن 25/ 224.
[2] ينظر: التفسير الكبير 12/ 232، روح المعاني 18/ 231، الميزان في تفسير القرآن 15/ 173.

المفسرين إلى أَن الخطاب في الآية موجّه الى النبي (ﷺ) [3]. وعلى هذا سيكون النبي (ﷺ) المُنْذِر . أمَّا المُنْذَرون وهم المفعول الأوّل للفعل (انذر) فهم اللذين يعود عليهم الضمير (هم) في قوله : ((((عليهم، أنذرتهم)). وقولُه: ((ءأنذرتهم)) بهمزتين[4]. وأَنت تلاحظ الآية الكريمة ذكرت ((وسواءُ)) وهذا القولُ ((مأخوذُ من التساوي، كقولك: هذان الأمران عندي سواء أَي: معتدلان))[5]. وعلى هذا يكون الإنذار وعدمُه سواء حسب ما صرّحت به الآية. في هذا الموضع أَورد الفخر الرازي تساؤلاً وأَجاب عنه، فقد قال: ((إذا قيل: إنَّ الإنذار وعدمه سواء فلِمَ الإنذار؟ الجواب: إنَّ الله تعالى قال : ((وسواءُ عليهم)) وما قال: سواءُ علينا، فالإنذار بالنسبة الى النبي (ﷺ) ليس كعدم الإنذار؛ لأَنَّ أَحدهما مخرج له عن العهدة أو سبب في زيادة سيادته، وأَما بالنسبة اليهم على السواء))[1]. من هذا يتضح أَنَّ النبي (ﷺ) أَدّى ما عليه تجاه قومه وهو إنذارهم وبقيَ ما عليهم من الهداية أو سواها. ومن هذا المعنى يطالعُك قولُه تعالى: ((وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) يس 10.

قرأ ابن محيصن (أنذرتهم) بهمزة واحدة على الخبر، وقد علل ابن جني هذه القراءة، أَنَّ ابن محيصن أراد همزة الاستفهام الا أَنه حذفها تخفيفاً[2]. ومما يُلاحظ في الآية المباركة أَنها ذكرت المُنْذِر وهو النبي الأَكرم (ﷺ) لاسيما أَنَّ الخطاب موجّه اليه، وذكرت المُنْذَرين وهم الذين أُريدوا بالضمير (هم) في قوله: ((عليهم، انذرتهم، تنذرهم)) ، أَما المُنْذَر منه فلم تلحظ له ذكراً في الآيتين. ومن الإنذار بصيغة الفعل الماضي دون ذكر المُنْذَر منه قولُه تعالى: ((وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)) الاحقاف 21. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَن فاعل (أنذر) هو النبي هود –عليه وعلى نبينا واله السلام- وعلى هذا يكون هو المُنْذِر في الآية المباركة، أمّا المُنْذَرون فهم قومُه، وتُرِك استنتاج المُنْذَر منه الى المفسّر أَو القارئ. قال الفخر الرازي : ((اذ أَنذر قومه، أَي: حذّرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا))[3]. تلاحظ الفخر الرازي استنتج المُنْذَر منه من دلالة الآية، لاسيما أَن هناك قولاً متعلّقاً بالإنذار وهو قوله تعالى: ((أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)). أَشار الشيخ الطوسي ومن تبعه من المفسرين الى أَنَّ هذا القول تفسير للإنذار، أَي : بيان لسبب الإنذار[4]. وفي هذا الموضع أَشار

---

[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 1/ 61، الجامع لأحكام القرآن 1/ 185، مواهب الرحمن في تفسير القرآن 1/ 88.

[4] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 1/ 61، الجامع لأَحكام القرآن 1/ 185، النشر في القراءات العشر 362/1.

[5] التبيان في تفسير القرآن 1/ 61.

[1] التفسير الكبير 26/ 46.

[2] ينظر: المحتسب 2/ 205.

[3] التفسير الكبير 28/ 27.

[4] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 26/ 280، الكشاف ط بيروت 4/ 306، الجامع لأحكام القرآن 16/ 204.

الآلوسي إلى أَنَّ قوله تعالى : «الا تعبدوا الا الله» متعلّق بقوله : (انذر) وتعلّقه بحرف جر مقدّر، وبهذا يكون التقدير: أنذرهم لا يعبدوا الا الله»[1]. وأنت تعلم أَن مخالفة الإنذار يُستحق عليها العذاب؛ لذا كان استنتاج العذاب على كونه المُنْذَر منه بسبب دلالة السياق عليه.

أَمّا ما ورد في الذكر الحكيم من مواضع إنذار بصيغة الفعل المضارع ولم يُذكر المُنْذَر منه فمنها قولُه تعالى : «وهذا كتابٌ انزلناه مبارك مُصدّق الذي بين يديه ولتُنذر أُمّ القرى ومن حولها» الأَنعام 92. أشار بعض النحاة والمفسرين الى أَن قوله تعالى : «لتنذر» بيان ما لأَجله أُنزل الكتاب[2]. أَمّا الشيء المُنْذَر منه فلم يُصرّح به في الآية المباركة بل ترك ذكره ويستدلُّ عليه من دلالة الآية. ومن المفسرين من صرَّح بذكر المُنْذَر منه في معرض تفسيره للآية محل البحث فقال أَحدهم: «ومعناه، أَي: لتنذر به عذابَ الله وبأسِهِ مَنْ في أُم القرى»[3]. ومن حذف المُنْذَر منه، والإنذارُ بصيغة الفعل المضارع يطالعك قولُه تعالى : «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» القصص/46. وأنت تلاحظ الآية المباركة اقتصرت على ذكر المُنْذِر وهو فاعل الفعل (تنذر)، وذكرت المُنْذَرين وهم الذين اثبتت صفتهم بقوله تعالى : «مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ»، أما المُنْذَر منه فلم تلحظ له ذكراً[4]. ومن هذا المعنى يطالعك قولُه تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» السجدة 3. مما يلاحظ في الآية المباركة إنَّها كسابقتها فلم تُصرّح بذكر المُنْذَر منه، وقد اشار الآلوسي عند تفسيره للآية محل البحث الى إن العقاب هو المفعول الثاني للفعل (تنذر)، وهذا ما توحي اليه دلالة السياق[5]. أي أن العقاب هو المُنْذَر منه في الآية ولم يقف تشابه الآية المباركة مع سابقتها في عدم ذكر المُنْذَر منه فحسب بل تماثلت معها في وصف المُنْذَرين فقد قال تعالى: «قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ»، وهذا القول صفة القوم المنْذَرين[1]. أشار الفخر الرازي الى أَنَّ تخصيص الإنذار في من ذُكِرت صفته في الآيتين الكريمتين لا ينفي شمول الإنذار لعامة الناس. وهذا أَوضحه بقوله : «إنَّ تخصيص الإنذار لا يوجب نفي ما

---

(1) ينظر: روح المعاني 26/ 25.
(2) ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 1/ 565، الكشاف 2/ 45، الجامع لأحكام القرآن 7/ 38.
(3) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 7/ 271.
(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 13/ 292.
(5) ينظر: روح المعاني 21/ 118.
(1) ينظر: التبيان في اعراب القرآن 3/ 1047، الجامع لأحكام القرآن 14/ 85.

عداه، الا ترى قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء 214 ولم يُفهم منه أَنه لا ينذر غيرهم، ولم يُؤمر بإنذار غيرهم؟ وانذار المشركين كان أَولى))[2]. ومن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ يس 6.

تعددت أقوال النحاة والمفسرين في الآية المباركة في تحديد المعنى الذي أفادته (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾. رأى الفرّاء أَن معنى الآية المباركة لتنذر قوماً لم يُنذر آباؤهم[3]. وحسب هذا الرآي إنّه جعل (ما) نافية. وقد تابع الفرّاء في رأيه عددُ من النحاة والمفسرين ، إذ رأوا المُنْذَرين في الآية المباركة لم يُسبق لآبائهم أَن أُنذروا[4]. ولمّا رأى المفسرون (ما) نافية لم يكتفِ بعضُهم بهذا الوجه بل أَعطاها وجهاً آخر وذلك بجعلها مصدرية أو موصولة[5]. وحسب تقدير المصدرية يكون معنى القول: لتنذر قوماً إنذار ابائهم، أمّا على وجه كونها موصولة فمعنى الكلام، لتُنذر القوم الذين أُنذر آباؤهم. وهذان الوجهان يُثبتان النذارة لآبائهم التي نُفيت حين عُدّت (ما) نافية. وبتباين الآراء في بيان معنى (ما) تتباين الفائدة التي تُفيدها الفاء في قوله تعالى: (فهم غافلون)؛ وذلك لأَنَّ القولين قول الإنذار، والغفلة أَحدُهما مرتبطُ بالآخر. لقد أَوضح الزمخشري تباين المعنى الذي يترتب على جعل (ما) نافية، أَو موصولة، قال: ((فإنْ قلت: أَيُّ فرق بين تعلقي قوله: (فهم غافلون) على التفسرين، قلت: هو على الاوّل متعلّقُ بالنفي، أَي: لم يُنْذَروا فهم غافلون، على أَنَّ عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم. وعلى الثاني بقوله: إنّك لمن المرسلين لتنذر، كما تقول: أَرسلتُك إلى فلان لتنذره فانّه غافل، أَو فهو غافل))[1]. فالغفلة سبب الإنذار، وحسب الرأي الثاني فلأَنهم غافلون أُنذروا ليُوقظوا من غفلتهم.

مما سبق في الآية الكريمة تلاحظ ركنين من أَركان الإنذار قد ذُكرا. فقد ورد في الآية الكريمة المُنْذِر والمُنْذَرين آما الركن الثالث فقد ترك للقارئ او المفسر استنتاجه، وقد أشار الزمخشري الى المُنْذَر منه بقوله: ((لتنذر قوماً ما أُنذر اباؤهم من العذاب))[2].

ومما جاء الانذار بصيغة المضارع مع عدم ذكر المُنْذر منه قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ فاطر 18. مما يُلاحظ في الآية المباركة تخصيص الإنذار بفئةٍ معينة وهم الذين قال فيهم تعالى: ﴿تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ في هذا الموضع أَجمع المفسرون على أَنَّ التخصص بهؤلاء القوم؛ لأَنَّهم المنتفعون بالإنذار دون سواهم، والنبي

---

(2) التفسير الكبير 25/ 167.
(3) ينظر: معاني القرآن 2/ 272.
(4) ينظر: معاني القرآن، للأخفش 2/ 449، اعراب القرآن، للنحاس 2/ 709، الكشاف 4/ 4، مجمع البيان في تفسير القرآن 8/ 415، التبيان في اعراب القرآن 2/ 1078، الجامع لأحكام القرآن 14/ 6.
(5) ينظر: التفسير الكبير 26/ 42.
(1) الكشاف 4/ 4.
(2) المصدر نفسه، 4/ 4.

(ﷺ) أقدر على انذار هؤلاء وتحذيرهم؛ لذا كان اختصاص الانذار بهم، وقد لجئ الى هذه الطريقة في الانذار؛ لما شوهد من الأكثرية لا يؤثر فيهم إنذار ولا يهمهم تحذير[3]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ يس11. فما قيل في الآية السابقة يمكن ان يقال هنا.

أمّا مجيء الإنذار بصيغة فعل الأمر دون ذكر المُنْذَر منه فمنه قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء 214. لقد أوضح المفسرون السبب في تخصيص الإنذار بأقرباء النبي (ﷺ). وأشار المفسرون الى أن أقرباء النبي (ﷺ) حين عُمِدَ لإنذارهم لتُحْسم أطماع الأجانب» إذ أن اقرباء المُنْذِر قد أُنْذِروا فكيف غيرهم؟[1] وبهذا فإنَّ الإنذار يكون عاماً شاملاً للناس جميعهم، وذلك فهم من دلالة السياق. من هذا المعنى يطالعُك قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾ المدثر/2 . حين تطرّق المفسرون الى الآية الكريمة أوضحوا أَنَّ قوله تعالى انذر بمعنى حَذِّرْ. قال الزمخشري : «فأنذر، فحذِّر قومك من عذاب الله إن لم يُؤمنوا»[2]. وقد تابع الفخر الرازي سابقه على هذا بقوله: «حَذِّر قومَك من عذاب الله»[3]. ومثل هذا ما رآه أَبو حيان الأَندلسي فقد ذكر «قم فأنذر، أي: قم فحذِّر عذاب الله ووقائعه»[4]. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنها لم تقتصر على عدم ذكر المُنْذَر منه بل تعدّت ذلك الى عدم ذكر المُنْذَرين وهذا يعني أَنَّ الفعل (أنذر) المتعدي الى مفعولين لم يستوفِ أَحداً منهما. لقد أَوضح السيد صاحب الميزان هذا الجانب من الآية بقوله: «الظاهرُ أَنَّ المراد به الأَمر بالإنذار من غير نظر الى من ينذر، فالمعنى: افْعَلْ الإنذار، وذُكِرَ أَنَّ مفعول الفعل محذوف ، والتقدير: أَنْذِرْ عشيرتك الأَقربين، لمناسبته ابتداء الدعوة (...) وذكر آخرون أَن المفعول المحذوف عامُ وهو جميع الناس»[5]. فالاية المباركة اقتصرت على جانب واحد وهو الأَمر بالإنذار. فالمفعول الأَول استدلّ عليه من دلالة السورة المباركة ، لاسيما أنها من أوائل السور من حيث النزول، والإنذار هو الصفة الغالبة ويوجه إلى أقرباء النبي (ﷺ) أو الى عموم الناس وبهذا كانوا المُنْذَرين بدلالة السورة. ومن مجيء الانذار بصيغة فعل الأَمر دون ذكر المُنْذَر منه قولُه تعالى: «إنا ارسلنا

---

[3] ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 2/ 695، التبيان في تفسير القرآن 22/ 423 و 14/ 399، الكشاف 3/ 607 ، مجمع البيان في تفسير القرآن 22/ 447، التفسير الكبير 26/ 15، روح المعاني 22/ 185-186، الميزان في تفسير القرآن 17/ 66، أمثال القرآن؛ لمحمد طاهر الموسوي، منشورات مكتبة التوجيه العامة، بغداد، 1380هـ/ 1960، 95.

[1] ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 2/ 504، التبيان في تفسير القرآن 19/ 67، الجامع لأحكام القرآن 13/ 143، روح المعاني 19/ 134، الميزان في تفسير القرآن 19/ 328-329.

[2] الكشاف ط، بيروت :4/ 645.

[3] التفسير الكبير 30/ 190، ينظر: الجامع لأَحكام القرآن 20/ 61.

[4] البحر المحيط 8/ 370.

[5] الميزان في تفسير القرآن 20/ 80، ينظر: تفسير القرآن العظيم 4/ 440، روح المعاني 29/ 116.

نوحاً الى قومه أن أنْذِر الناس» نوح 1. وأنت تلاحظ الآية المباركة فيها النبي نوح –عليه وعلى نبينا وآله السلام- مُنذراً إذ أُمر بتأدية الإنذار، وذلك بقوله تعالى : «أَن انذر».

لقد تباينت أَقوال المفسرين في هذا الموضع من الآية وقد نتج هذا التباين من (أن) التي سبقت فعل الطلب.

قال الزمخشري : «أَصلُه بأن أَنذر، فحذف الجار وأوصل الفعل، وهي أن ناصبة للفعل، والمعنى: أرسلناه بأَنْ قلنا له أَنْذر»[1]. ولم يكتفِ الزمخشري بهذا الوجه لـ(أن) بل أعطاها وجهاً آخر بجعلها مفسرة؛ لأَنّ الإرسال فيه معنى القول[2]. وقد تابع الآلوسي سابقهُ على هذا موضّحاً المعنى الذي تفيده إذا قُدِّرت مفسرة، فقد قال: «انذر قومك، على أَنَّ (أن) تفسيرية؛ لما في الإرسال من معنى القول دون حروفه، فلا محلَّ للجملة من الإعراب (...) إنَّ تقدير القول هنا ليس لئلا يفوت معنى الطلب، بل لأَنَّ الباء المحذوفة للملابسة ، وإرسال نوح لم يكن متلبساً بإنذاره لتأخره عنه، وإنَّما هو متلبسُ بقول الله تعالى له عليه السلام أنذر، ولمّا كان هذا القول منه تعالى لطلب الإنذار قبل المعنى: أرسلناه بالأَمر بالإنذار، وكان هذا القائل لا يبالي بفوات معنى الطلب، وكيف يفوت معنى الطلب وهو مذكور صريحاً في أنذره ونحوه»[3].

من العرض السابق لبعض مواضع الذكر الحكيم التي ذُكِرَ فيها فعل الإنذار دون استيفائه مفعوله الثاني يتبيّن أَنَّ القرآن الكريم عمد الى هذا الأُسلوب ليُركّز الاهتمام على الإنذار والمنْذَرين ، أَمّا المُنْذَرُ منه فأُريد له البقاء عاماً شاملاً تستوحيه من دلالة سياق الآية المباركة أو من الدلالة المعجمية للإنذار. فالمواضع التي تتحدث عن الكافرين يكون أَمراً طبيعياً مفعولها الثاني (المُنْذَر منه) العذاب الذي توعّد الله الكافرين به، والآية التي تذكر الحشر يكون المُنْذَر منه أهوال ذلك الحشر. أمّا ما تستوحيه من الدلالة المعجمية فالإنذار هو «**التخويف مطلقاً**»[4]، وبهذا يكون المُنْذَر منه كلُّ شيء حُرِّم وخّوف تجاوزه في مواضع القرآن الأَخرى.

القرآن مُنْذِراً

حين تتدبّر الذكر الحكيم يتبيّن لك أَنَّ منزّله أودع فيه دلالات عدّة تُفصِحُ عن أَسباب نزوله، ومن بين تلك الدلالات أَن يكون الكتاب مُنْذِراً للعصاة ومُبشّراً للمحسنين. فلنتدبّرْ معاً آيات الذكر الحكيم التي أفادت كون الكتاب منذراً.

قال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»الفرقان/ 1، تباينت أَقوال النحاة والمفسرين في الآية الكريمة في تحديد المُنْذِر ، هل أُريد به منزّل الفرقان، أَم أُريد العبد الذي أُنزل الفرقانُ عليه، أم الفرقان ذاته. هذا التباين الذي حصل في الآية

---

[1] الكشاف ط بيروت 4/ 415.
[2] ينظر: الكشاف ط بيروت 4/ 415، ينظر: البحر المحيط 8/ 338.
[3] روح المعاني 29/ 69.
[4] المصدر نفسه 1/ 129.

الكريمة نتج من التباين في تحديد خبر الفعل المضارع الناقص (يكون) . وعلى الرغم من تباين الآراء إلاَّ أَنَّها في مجملها لم تستبعد كون الفرقان منذراً ، أي: عُدَّ خبر (يكون)[1]. أَمّا الفخر الرازي فقد ظلَّ في الفُلْكِ ذاتهِ، إذ استبعد كون الفرقان منذراً من جهة، إلا أنَّه وجد مخرجاً يؤيد إمكان عَدَّ الفرقان منذراً في الآية محل البحث، يتضح لنا هذا من قراءة قوله: «المرادُ ليكون هذا العبد نذيراً للعالمين. وقولُ من قال: إنَّه راجعُ إلى الفرقان فأضاف الإنذار اليه كما أَضاف الهداية اليه في قوله: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي» الاسراء / 9. فبعيدً، وذلك لأَنَّ المُنْذِرَ والنذير من صفات الفاعل للتخويف، وإذا وُصِفَ به القرآن فهو مجاز»[2]. من قول الرازي تلاحظ أَنّه جعل قوله: «نذيراً» خبراً ليكون، ولم يرَ أَيّ ضيرٍ في ذلك، إلاَّ أَن المعنى دعاه الى التأويل المجازي، فدلالة السياق أَوحت الى أَن القرآن منذرُ.

إذا تدبّرت الآية المباركة تُلاحظ أَنَّها أُفتتحت بقوله تعالى : «تَبَارَكَ» وهذا القولُ يُوحي بكثرة البركة واليُمن ولا بَّد أَن يكون ما يتلوه دالاً على هذين المعنيين، إلاَّ أَنَّ القرآن الكريم آثر أَن تكون خاتمة الآية تخويفاً وترهيباً. فما السببُ في ذلك؟ إذا تدبّرنا معاً ما قاله الفخر الرازي يتبين لنا جوابُ ذلك إذ قال: «إنَّ هذا الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، كما أَنّه كلَّما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان أَكثر؛ لِما أَنّ ذلك يؤَدّي في المستقبل الى المنافع العظيمة»[1]. أَمَّا السيد صاحبُ الميزان فقد رأى الآية اكتفت بذكر الإنذار؛ لأَن السورة في مجملها تفيد التخويف، وهذا يتضح من قوله: «والاكتفاءُ بذكر الإنذار دون التبشير؛ لأَنَّ الكلامَ في السورة مسوق سوق الإنذار والتخويف»[2].

إذا تأملّنا مّرةً أخرى الآية المباركة نلاحظ الفرقان قد جُعِلَ منذراً للعالمين أجمع، إذ شمل الخلائق كلَّها ولم يقتصر على مخلوق دون آخر، فقد تعدّى الإنس الى الجّن، كما تعدّى العقلاء الى سواهم من الحيوانات والجماد والنبات، وهذا يتضح من اللام في قوله تعالى: «للعالمين» «التي تُفيد الاستغراق»[3]. وبهذا فإنَّ دلالة الإنذار التي أفادها القرآن الكريم تصبح اكثر إيحاءً بالشدة والقوّة ، لاسيما الانذار عاماً شاملاً للمخلوقات. أَمّا الآلوسي في هذا الموضع من الآية فقد قال : «اللفظة وإن كانت شاملة لجميع الخلائق من الجماد، والنبات، والحيوان، والإنسان، والجن، والملك. لكن سياق الآية قد جعلَ فيها الإنذار غايةً لتنزيل القرآن»[4]. من هذا يتبيّن أَنَّ الآلوسي أفاد الدلالة ذاتها، ولا تباينَ بين الدلالتين في إفادتهما معنى القوة في الإنذار الا أن التباين في سبب تلك الدلالة، فعلى الأَوّل لكون القرآن شاملاً، وعلى الثاني لكونه غاية التنزيل.

---

(1) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 18/ 470 ، الكشاف ط بيروت 3/ 262، التبيان في اعراب القرآن 2/ 980، الجامع لأحكام القرآن 130/ 2، روح المعاني 18/ 232.

(2) التفسير الكبير 24/ 45.

(1) المصدر نفسه 24/ 46.

(2) الميزان في تفسير القرآن 15/ 174.

(3) المرجع نفسه 15/ 174.

(4) روح المعاني 18/ 232.

وتطالعُك الدلالة ذاتها بصيغة الفعل المضارع بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الاحقاف 12.

أَشار عدد من المفسرّين إلى أَنَّ قوله تعالى : ﴿لِيُنْذِرَ﴾ راجعُ إلى الكتاب؛ لتقدّم ذكر الكتاب في قوله : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ . وأَنت تلاحظ الآية الكريمة أسندت الإنذار للكتاب فجعلته منذراً. قال الزمخشري : ﴿لينذر بالياء، من نَذَرَ وَيُنْذِرُ إذا حَذَر﴾[1]. وحين اتفقت كلمةُ المفسرين في الآية محل البحث على أَن القرآن منذرُ تلاحظ اتفاقاً آخر في تحديد المحل الاعرابي لقوله : ﴿وبشرى﴾. على الرغم من تعدد الآراء . قال الفرّاء (ت 207 هـ): ﴿البشرى تكون رفعاً ونصباً، الرفعُ على وهذا كتابُ مصدقُ وبشرى، والنصبُ على لتنذر الذين ظلموا وتبشّر﴾[2]. وسواء أَكان المحل الإعرابي رفعاً أم نصباً تبقى دلالة الآية واحدة وهي أَنَّ الغابة من إنزال الكتاب النذارة والبشارة وهذه الطريقة ترهيباً حيناً وترغيباً حيناً آخر. قال الفخر الرازي (ت 606هـ): ﴿وحاصلُ الكلام أَنَّ المقصود من انزال هذا الكتاب إنذارُ المعرضين، وبشارةُ المطيعين﴾[3]. ويطالعك في الذكر الحكيم من الدلالة ذاتها (الكتاب منذر ومبشر) وبصيغة الفعل المضارع قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ، قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ، وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الكهف 1-4. إذا أَنعمت النظر في هذه الآيات المباركة تلاحظ أَنها تتحدث عن القرآن الكريم وتبين وظيفته التي أُنزل من أَجلها وهي الإنذار والتبشير. قال الرازي: ﴿لِيُنذر بأساً شديداً، هذا بيان ما لأجله نزل الكتاب﴾[4]. ولو أعدنا النظر في قوله تعالى : ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ نلاحظ الفعل (يَنْذِرُ) تعدّى الى أَحد مفعوليه وهو قوله : ﴿بأساً﴾ ولم يتعدَّ إلى الثاني، أي إنَّ الآية المباركة ذكرت المُنْذَرَ منه دون ذكر المُنْذِر، وهذا ما أَشار إليه العديد من المفسرين، إذ جعلوا المُنْذَرَ محذوفاً وتقديره: ﴿الكافرين﴾، وعلى هذا تكون الآية: لينذر الكافرين بأساً شديداً، واستدلَّ من قدّر هذا الحذف بأَنَّ الآية الكريمة ذكرت بعد الإنذار قوله: ﴿ويُبشّر المؤمنين﴾ فالمخالفةُ دعت الى هذا التقدير[5]. وبعد أَن خُصصت دلالة الإنذار بالكافرين بوحي من السياق أَوردت الآية إنذاراً آخر خُصِصَ بقوم قال تعالى فيهم: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، ولهذا

---

(1) الكشاف ط بيروت 3/ 301، وينظر: الجامع لأَحكام القرآن 16/ 191، روح المعاني 26/ 16.
(2) معاني القرآن 3/ 51، ينظر: التفسيرُ الكبير 28/ 12، الجامع لأَحكام القرآن 16/ 91.
(3) التفسير الكبير 28/ 12.
(4) المصدر نفسه 21/ 76.
(5) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 7/ 706، الجامع لأَحكام القرآن 10/ 352-353، روح المعاني 202/15.

من الأَهمية مما لايخفى. قال الفخر الرازي: «الأَوّل عامُ في حق كل من استحق العذاب، والثاني خاص بمن أَثبت لله ولداً. وعادة القرآن جارية بأَنّه إذا ذكر قضية كُلّية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أَعظم جزئيات ذلك الكلي»[1]. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنَّها وجّهت الإنذار لمن جعل لله ولداً، وعلى هذا يكون من ارتكب ذلك الذنب مُنْذَراً، الا أَنّك لم تلحظ ذكراً للمُنْذَر منه. إذ ذُكِرَ المُنْذَرون دون ذكر من أَي شيءٍ أُنْذِرُوا. أَمّا في قوله تعالى: «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا» فقد ورد فيه ذكر المُنْذَرُ منه دون المنذرين. لقد أَوضح الزمخشري السبب في هذا بقوله: «فإن قلت: لِمَ اقتصر على أَحد مفعولي أنذر؟ قلت: جعل المُنذر به هو الغرض المسبوق إليه، فوجبَ الاقتصار عليه، والدليلُ عليه تكرير الإنذار في قوله: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» متعلّقاً بالمُنْذَرين من غير ذكر المُنْذَر به»[2]. ويقربُ من هذا ما ذهب اليه الآلوسي فقد قال : «أنذر يتعدّى الى مفعولين، حُذِفَ المفعول الأَوّل وأُقْتِصرَ على الثاني في قوله: «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا»؛ إيذاناً بأَنَّ ما سبق له الكلام هو المفعول الثاني، وإنَّ الأَول لا حاجة الى ذكره وهو الذين كفروا، (...)، وقولُه: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وظلالهم (...) وفي الآية صنعة الاحتباك حيث حذف من الأَوّل ما ذكر فيما بعد وهو المنذر، وحذف مما بعد ما ذكر في الأَول وهو المنذر به»[3]. من النصّين السابقين يتبين أَنَّ الاهتمام لما كان موجهاً الى ذكر العذاب حذف المُنْذَرون؛ لأَنَّ السياق يدل عليهم، فأُقْتُصِرَ على بيان العذاب لإضفاء الشدة عليه. أّما حين أُريد بيان عظم ما يُقترف من ذنوب أُقْتُصر الذكر على مقترف ذلك الذنب دون ذكر العذاب الذي سيلحقه؛ لأَنَّ ما دام الذنب عظيماً سيكون عذابه مساوياً لعظم الذنب. وفي موضع ثانٍ من الذكر الحكيم يرد المعنى ذاته إذ تجد القرآن منذراً . قال تعالى : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ، لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ» يس 69-70. وأنت تلاحظ قوله تعالى : (لينذر) بالياء وحسب هذا يمكن أَن يكون القرآن منذراً[1]. ولو تأمّلت سياق الآيتين الكريمتين تلاحظ حديثهما عن القرآن الكريم فلا غرابة أن يكون القرآن منذراً. أَما الفخر الرازي فقد أَوضح رأيه في ذلك بقوله: «لينذر، بالياء على وجهين: أحدهما أَنْ يكون المُنْذِر هو النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث سبق ذكره في قوله: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ»، وقوله: «وَمَا يَنبَغِي لَهُ» ، وثانيهُما أَن يكون المراد أَنَّ القرآن

---

[1] التفسير الكبير 21/ 76-77.
[2] الكشاف 2/ 703.
[3] روح المعاني 202/15.
[1] ينظر: النشر في القراءات العشر 2/ 355.

ينذر، والأول أقرب الى المعنى، والثاني أقربُ الى اللفظ، أمّا الأول؛ فلأنَّ المُنْذِر صفة للرسل اكثر من المُنْذِر صفة للكتب، وأما الثاني؛ فلأنَّ القرآن أقرب المذكورين الى قوله: لينذر»[2]. من هذا يتبيّن أنَّ الفخر الرازي حين عَدَّ القرآن منذراً استند إلى دلالة لفظية. إذ رأى القرآن فاعلاً للفعل المضارع ينذر. أمَّا المُنْذرون في الآية فهم اللذين عنى بهم تعالى في قوله: «من كان حياً» . أشار الزمخشري الى سبب حصر الانذار بهولاء بقوله: «من كان حياً، أي: عاقلاً متأملاً ، لا الغافل كالميت ، أو معلوماً منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان»[3]. فالقرآن الكريم عمد إلى إنذار من يتوقع منه الاستماع والاتعاظ بذلك الإنذار فاحتصّ به، أما سواه فلم يُنذر في الآية محل البحث.

حين يكون القرآن الكريم بجملته منذراً يرد في الذكر الحكيم أن من آياته وأحاديثه نُذُراً للعباد. فقد جاءت آيات لتؤدّي مهمة الإنذار وهذا ما أوضحه تعالى بقوله: «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ» إبراهيم 49-52.

هذه الآيات الكريمة وبعضُ الآيات السابقة لها جاءت لتفيد دلالة الإنذار. أشار العديد من المفسرين الى أنَّ هذه الايات هي الواعظة والمذكرّة لاسيما أنّ قوله تعالى: «ولينذروا» متعلّق بالبلاغ[1]. قال الزمخشري في هذه الآيات : «كفايةُ في التذكير والموعظة»[2]. وكأنَّ تلك الآيات اختصت في تأدية وظيفة الإنذار فضلاً عن تأدية القرآن لها. ولم ينأ الفخر الرازي عن هذا المعنى فقد أفاد الدلالة ذاتها إذ قال: «هذه الآياتُ مشعرةُ بأنَّ التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح. وإنَّ المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفُه فاشتغل بالنظر والتأمّل»[3]. إنَّ هذه التخويفات والتهديدات لم يُصرّح بها حين ذكر تعالى : «وَلِيُنْذَرُوا» بل كان هناك قولاً سبق هذا القول قد أُضمر وهو «لينتصحوا»[4]. فالإنذار في الآية المباركة قُدّم له بنصيحة تؤدّي معناه. أما الدكتور فاضل السامرائي فقد ذهب إلى أبعد من هذا بقوله: «أما العطفْ، ولينذروا، وليعلموا، وليذكّر، فهو من باب عطف الشيء على مرادفهِ، كقولنا: عملك عني وظلال، فالآيةُ المباركة قد جمعت الألفاظ ذات المعنى المتقارب التي تدلُّ على

---

(2) التفسير الكبير 26/ 105-106.
(3) الكشاف 4/ 27. وينظر: التفسير الكبير 26/ 105-106.
(1) ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 2/ 188، التبيان في اعراب القرآن 2/ 775.
(2) الكشاف ط بيروت 2/ 546.
(3) التفسير الكبير 20/ 150.
(4) ينظر: الكشاف ط بيروت 2/ 568.

الوعظ والتهديد»[5]. على هذا سيكون الإنذار الذي تحمله الآيات التي جاءت منذرةً فيها من الدلالة على الشدة مما لايخفى؛ لاسيما وتلك التهديدات يتلو بعضها بعضاً.

ما سبق تبينت لك مواضع الذكر الحكيم التي أَفادت دلالتها كون القرآن مُنْذراً. ولو تدبرت المواضع الأَخر التي ورد فيها القرآن مرافقاً لذكر الإنذار تلاحظ القرآن الكريم جُعِلَ الوسيلة التي اعتمدها الإنذار، فلم يكُ القرآن في تلك المواضع منذراً بل كان الواسطة التي أُعْتُمِدت في التحذير والإنذار. هذه الدلالة أفادها القرآن باستعمال لفظة (نذر) بصيغتي: الفعل المضارع، وفعل الأمر. فلنتدبر معاً تلك المواضع.

من مواضع مجيء هذا المعنى بصيغة المضارع قوله تعالى: «وأوحي الّ هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ ائنكم لتشهدون انّ مع الله الهة اخرى» الانعام 19. تلاحظ في الآية المباركة القرآن الكريم لم يكن منذراً بل النبي الاكرم (ﷺ) المُنْذِر ، لكنَّ القرآن كان الوسيلة التي اعتمدها (ﷺ) في إنذاره وتبليغه. وأنت تلاحظ دلالة الانذار في الآية المباركة جاءت عامةً مطلقةً لا تختص بأُناس دون سواهم.

قال الفرّاء في قوله تعالى: «ومن بلغ: «يريد ومن بلغه القرآن من بعدكم»[1]. فكلُّ من يبلغه القرآن يدخل مع المُنْذَرين. وإلى مثل هذا ذهب الزمخشري فقد رأى قوله: «ومن بلغ» فيه دلالة على إنذار المُخاطبين، لأَنَّ تقدير الكلام: أُنْذِرُكم به وأُنْذِر كلَّ من بلغه القرآن من العرب والعجم[2]. وتطالعك الدلالة ذاتها والانذار بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ» الأَنبياء 45. أَفاد القرطبي (ت 672هـ) أَنَّ الآية تحذيرُ بالقرآن الكريم وهذا يتضح من قوله: «قل إنما انذركم بالوحي، اي: أُحذّركم بالقرآن»[3]. فلم يكن القرآن في الآية محل البحث مُحذِّراً بل كان واسطة التحذير. أَما الزمخشري فقد أَورد في هذا الموضع تساؤلاً وأَجاب عنه، فقد قال: «الصم لا يسمعون دعاء المبشّر كما لايسمعون دعاء المُنْذِر، فكيف قيل: «إذا ما يُنذرون»؟ قلت: اللامُ في الصم إشارة الى هؤلاء المُنْذَرين، كائنة للعهد لا للجنس، والأَصلُ: لا يسمعون إذا ما يُنْذَرون، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسد أَسماعهم إذا أُنذروا، أَي: هم على هذه الصفة من الجرأَة والجسارة على التصام من آيات الإنذار»[4]. فهم ليسوا صُمَّاً في الأَصل بل أُطلقت تلك الصفة عليهم للدلالة على عدم سمعهم واصغائهم للإنذار، وفي ذلك توبيخ لهم على فعلهم. أَما الآلوسي فقد أَوضح سبب اختيار الدعاء مع الإنذار في الآية محل البحث بقوله: «إنَّ إيثار الدعاء الذي هو عبارةُ عن الصوت والنداء على الكلام؛ وذلك لأَنَّ الإنذار عادةً يكون بأصوات عالية مكررةٍ مقارنة

---

[5] معاني النحو 3/ 259.

[1] معاني القرآن 1/ 329.

[2] ينظر: الكشاف 2/ 11، الجامع لأَحكام القرآن 5/ 398.

[3] الجامع لأحكام القرآن 11/ 292.

[4] الكشاف 3/ 119 وينظر: التبيان في تفسير القرآن 17/ 253، التفسير الكبير 22/ 175-176، الميزان في تفسير القرآن 14/ 291.

لهيئات دالّة عليه فإذا لم يسمعوها يكن صممهم في غايةٍ لم يُسمع بمثلها، وقيل : لأَنَّ الكلام في الانذار»[1]. من هذا يتضح أَنَّه تعالى قال : (الدعاء) للدلالة على أَنَّ الإنذار في الاية محل البحث قد أُدّي بصوت عالٍ وجهوري وهذا ما يُضفي عليه صفة الشدة. والمعنيان – الإنذار والدعاء- متوافقان فكلاهما تبليغُ وتحذيرُ. ومن ورود القرآن الكريم وسيلةً في الإنذار قولُه تعالى : «إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا»مريم 97. أشار العديد من المفسرين الى أَنَّ النبي الأكرم (ﷺ) هو المُنْذِر في الآية المباركة، أَما الوسيلة التي اعتمدها في تأدية الانذار فهو القرآن الكريم.[2]

اما مجيء هذا المعنى بدلالة فعل الأَمر فقد جاء في موضع واحد من الذكر الحكيم وهو قولُه تعالى: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» الانعام 51. أَشار الفخر الرازي الى أَنَّ النبي الاكرم (ﷺ) هو المُنْذِر في هذه الآية، أَمّا الضمير الذي حمله قوله تعالى:(به) فعائدُ الى القرآن[3].وعلى هذا يكون القرآن وسيلة النبي (ﷺ) لإنذار قومه؛ لما يحمله القرآن من آيات تخويف وعبر ومواعظ.

ما سبق عرضُ موجزُ لمواضع الذكر الحكيم التي أَفادتْ أَنَّ القرآن مُنْذِرُ ومحذِّرُ، وقد جاء هذا المعنى بدلالة الاسم (نذير) مرةً واحدة، وأربع مرّات بدلالة الفعل المضارع، ومرّتين بالصيغة ذاتها إلاَّ أَنه –القرآن- وسيلة الإنذار. أَمَّا الفعلُ الماضي فلم نلحظ له ذكراً في تلك المواضع. من هذا يتبيّن لمّا أُريد بيان صفة القرآن أُختير له (نذير) «والنذير يكون بمعنى المُنْذِر»[4]، وإذا أُريد هذا المعنى (مُنْذِر) أصبحتْ دلالةُ الإنذار شاملةً وبلغتْ مرتبةً عظيمةً[5]. أَمَّا اختيار صيغة الفعل فهي تفيد التجدد والحدوث، اي: إنَّ إنذار القرآن متجدداً مستمراً. وهاتان الدلالتان (الشمولية والاستمرار) تضيفان صفة الترهيب عند ذكر القرآن منذراً.

الشيبُ نذيراً

قال تعالى : «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ» فاطر 37.

---

[1] روح المعاني 17/ 53.
[2] ينظر: التفسير الكبير 21/ 256، الجامع لأَحكام القرآن 11/ 163، الميزان في تفسير القرآن 14/ 117.
[3] التفسير الكبير 12/ 232.
[4] لسان العرب 5/ 202.
[5] ينظر: روح المعاني 150/1.

مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنَّ الله سبحانه قرر مجيء النذير وترتب على مجيئه العذاب الذي أحلّه الله بهم. قرر عدد من المفسرين في الآية محل البحث أن النذير أُريد به الشيب، فالمشيبُ هو المُنْذَر من اقتراب الاجل الذي سيحلُّ بالانسان[1].

التحذير بلفظة خَشِيَ واشتقاقاتها

من السُبُل التي أُتّبعت في الذكر الحكيم لبيان خوف العباد وحذرهم استعمال لفظة (خَشِي) فقد جاء في الذكر الحكيم في مواضع عدّة هذا اللفظ وأُريد به دلالة الخوف والحذر. لو تأمّلنا المعجمات اللغوية في بيانها لـ(خَشِيَ) وجدنا أصحاب المعجمات قد أَجمعوا على أَنَّها تفيد معنى الخوف. قال الخليل: ((الخشيةُ الخوفُ، والفِعْلُ خَشِي يخشى، ويقال: وهذا المكان أَخشى من ذاك))[2]. ولم يبتعد اللغويون بعد الخليل عن هذه المعاني فقد أَفادوا المعنى ذاته. فقد ذكر الجوهري: ((خشاه تخشيةً، اي: خوّفَه)) [3]. أمّا ابن منظور فقد تابع سابقيه في هذه المعاني مفيداً أن الخشية تعطي معنى الحذرَ إذ قال: ((الخشيةُ الخوفُ، وخشي الرجل يخشى خشيةً، أي: خاف (...) وفي حديث خالد أَنّه لما أَخذ الراية يوم مؤتة دافع الناس وحاشى بهم، أي: أَبقى عليهم وحذر فانحاز (...) والخشيةُ من الله الكراهة، ومن الآدميين الخوف (...) وخشاه بالأمر تخشيةً ، أي: خَوّفه))[1]. أمّا المفسرون فلم ينأوا عن المعجميين في إفادة المعنى ذاته لـ(خَشِي). قال الطوسي (ت 460 هـ): ((الخشيةُ توقّع المضرّة من غير قطع بها لا محالة))[2]. فالخشيةُ بهذا المعنى تقترب من الحذر؛ لأَنَّ الأَخير يعني الاستعداد[3]. وتوقّع المضرّة الذي تُفيده الخشية يتطلّب الاستعداد وهذا هو الحذر. وبما أَن الحذر والتحذير يُفيدان التخويف فإِنَّ الخشية تدلُّ على الخوف الشديد الذي يرافقه اضطراب الاعضاء؛ لعظم المخُشى منه واستدل الفخر الرازي على ذلك بقوله: ((لأَنَّ تركيب حروف خ ش ي في تقاليبها يلزمُه معنى الهيبة، يُقال: شيخ للسيد والرجل الكبير السن، وهما جميعاً مهيبان))[4]. والى ما يقرب من هذا ذهب الآلوسي إذ قال: ((الخشيةُ خوفُ يشوبه تعظيم؛ لأَنَّها مأخوذةُ من قولهم: شجرة خشية، اي: يابسةُ؛ ولذا خُصّت بالرب. إن الخشية تكون من عظم المُخشى وإن كان الخاشي قوياً (...) ويدلُّ على ذلك تقاليب الخاء والشين والياء))[5]. اما السيّد الطباطبائي فقد اقترب في بيانه للخشية من الحذر كثيراً وهذا يتّضح من قوله : ((الخِشيةُ ظن لحوق المضرّة ، (...) الخشية انزعاج النفس بقوهّم المضرّة، والظنُّ كذلك يزعج النفس فيسمّى باسمه على طريق البلاغة))[6]. مما ذهب اليه

---

(1) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 22/ 434، الجامع لأحكام القرآن 14/ 352، التبيان في اعراب القرآن 2/ 1076، روح المعاني 22/ 201، الميزان 17/ 48.
(2) كتاب العين 284/4.
(3) الصحاح 2327/6.
(1) لسان العرب 14/ 228-229.
(2) التبيان في تفسير القرآن 30/ 257.
(3) ينظر: كتاب العين 3/ 199، الصحاح 2/ 626، لسان العرب 4/ 876.
(4) التفسير الكبير 28/ 177.
(5) روح المعاني 13/ 141.
(6) الميزان في تفسير القرآن 18/ 377، 13/ 343 و ينظر: الاعجاز البياني للقرآن 209.

اللغويون والمفسرون يتبيَّن أَن الخشية خوف عظيم؛ وذلك لاختصاصها بمخشى منه عظيم مقابل ضعف الخاشي. وفي هذا الموضع لنتدبر آيات الذكر الحكيم التي أفادت هذا المعنى.

أَنذر الله عباده وحذّرهم في مواضع عدّة وكانت عاقبة الإنذار والتحذير الطاعة والتمسّك بالدين الحنيف عند أُناس معينين، وضربُ آخر من البشر لم يزده الإنذار والتحذير الا تمرّداً وعناداً للآيات ربّه. وحين كان الأَمر كذلك ذكر الله سبحانه النزر القليل الذي سمع التحذير وآمن به وأُتمر بأمره وانتهى بنهيه، هذا ما دعا القرآن الى تغليب هذا النُزر في الذكر وتخصيص الإنذار بهم؛ لأَنهم المنتفعون به دون سواهم على الرغم من أَنَّ الرسالة لعامة العباد. وفي هذا الموضع لنتأمّل معاً مواضع الذكر الحكيم التي حملت لفظة (خشى) وانصرفت دلالة التحذير للمنتفعين بالتحذير. ونتدرج بهذا من الفعل الماضي ثم المضارع فهاتان الصيغتان جاء فيهما هذا المعنى.

من صيغة الفعل المضارع يطالعك قولُه تعالى : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ يس 11. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنَّ انذارها اختصَّ بمن خشى الرحمن بالغيب. أَشار الشيخ الطوسي في الآية محل البحث إلى أَنَّ الإنذار اختصَّ بالخشية بالغيب؛ وذلك لأَنّه من كانت صفته هذه ينتفعُ بالتخويف دون غيره[1]. والى مثل هذا ذهب القرطبي فقد قال : ((إنّما يقبلُ إنذارك من يخشى عقاب الله))[2]. ومن هذا المعنى يُطالعك قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ق33.

أَشار العديد من العلماء إلى أَنَّ قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أَي: من خشى ربَّه في حال الغيبة عن مراءاة الناس، وخشى عقاب الله وهو غائب، أَو خشية بسبب الغيب الذي أَوعده به من عذابه، ومن كان حاله كذلك قيل له: أُدخل الجنة[3]. لو أَعدت النظر في الآيتين الكريمتين تلاحظ أَنَّ تعالى جمع بين الخشية وهي الخوف والحذر وبين الاسم الكريم الدال على سعة الرحمة فقال : ((الرحمن)) وهذا ما تعرّض اليه الزمخشري موضحاً السبب الذي دعا الآية المباركة الى جمع الخشية والرحمن معاً. قال : ((فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت : للثناء البليغ على الخاشي وهو خشية مع علمه أَنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأَنه خاشٍ مع أَنَّ المُخشى منه غائباً))[1]. أمّا الفخر الرازي فلم يرَ ما رآه سابقه في الآية بل رأى وجهاً آخر أَوضحه بقوله: ((إنَّ من اسماء الله اسمين يختصان به هما: الله والرحمن، فاللهُ يُنبىء عن الهيبة، والرحمن يُنبىء

---

(1) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 22/ 422.

(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 14/ 339.

(3) ينظر: معاني القرآن، للفراء 2/ 79، اعراب القرآن، للزجاج 1/ 251، اعراب القرآن، للنحاس 2/ 223، التبيان في تفسير القرآن 26/ 371، الكشاف 4/ 389-390، التفسير الكبير 28/ 177، التبيان في اعراب القرآن 2/ 1176، الجامع لأحكام القرآن 17/ 20، الميزان في تفسير القرآن 26/ 354.

(1) الكشاف 4/ 389-390.

عن العاطفية، فقال في موضع يرجو الله، وقال ههنا: خشى الرحمن، يعني مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه»[2]. من هذا القول يتضح أَنَّ الآية المباركة جمعت الخشية التي بمعنى الخوف والحذر والرحمن الذي يدل على سعة الرحمة؛ للدلالة على جعل التعبير أكثر إيحاءً بالشدة؛ وذلك لأَنَّ الرحمن ينبغي عليك خشيتهُ وحذره كيف لو كان غير الرحمن كأن يكون الجبّار؟

ومن ورود هذا المعنى بصيغة الفعل المضارع يطالعك قوله تعالى : «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» الأنبياء 49. أشار المفسرون في الآية محل البحث ما أشاروا اليه في الآيات السابقة، إذ يُلاحظ إجماعهم على أَنَّ قوله: «يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ»، أي : يخشون عذاب ربهم في حال غيبتهم عن الناس، كما أَنَّ المقصود في الآية المباركة خوف وحذر الخاشي من عذاب يوم القيامة[3]. ومن هذا المعنى قولُه تعالى: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ» فاطر 18. قال الزمخشري في الآية محل البحث: «اي : يخشون ربهَّم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه غائباً عنهم»[4]. والى مثل هذا ذهب الآلوسي إذ قال: «إنَّما تنذرُ بهذه الإنذارات ونحوها الذين يخشون ربهم بالغيب، أي: يخشونه حال غائبين عن عذابه سبحانه، أو عن الناس (...) إنَّما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون عداهم»[5]. ومنه أيضاً قولُه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» الملك/ 12. قال القرطبي: «أي يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو بالغيب، وهو عذابُ يوم القيامة»[1]. مما سبق تلاحظ الآيات المباركة تُثني على من يخشى ويحذر ربَّه في غيبته؛ لأَنَّ ذلك لا ينبغي وراء الخشية والحذر رياء الناس. ولما خصَّ الله سبحانه المنتفع بالإنذار والتحذير من يخشى في حال الغيب تلاحظ في مواضع أُخر ذكر المنتفع بالإنذار دون تخصيص الغيب. من هذا المعنى يطالعك قولُه تعالى: «طه، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى» طه 1-3. أشار عدد من المفسرين الى أَنما خُصَّ الخاشي؛ لأَنَّه المنتفع بالإنذار والتحذير. قال الزمخشري في الآية محل البحث: «لمن يخشى، لمن يؤول أمرهُ الى الخشية»[2]. ولم ينأ الالوسي عن هذا المعنى ذاكراً السبب في عدم ذكر غير

---

[2] التفسير الكبير 26/ 47-48، ينظر: روح المعاني 26/ 190.
[3] ينظر: تنوير الأذهان 17/ 465، روح المعاني 17/ 57.
[4] الكشاف 3/ 607.
[5] روح المعاني 22/ 185-186، ينظر: الميزان في تفسير القرآن 24/ 260.
[1] الجامع لأَحكام القرآن 17/ 465.
[2] الكشاف 3/ 51، ينظر: الجامع لأَحكام القرآن 11/ 199، البحر المحيط 6/ 225، الميزان في تفسير القرآن 16/ 120.

الخاشي وذلك بقوله : «اي: لمن شأنه أَن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لرقّة قلبه، ولين عريكته، او لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف (...) وخصَّ الخاشي بالذكر مع أَنَّ القرآن تذكرة للناس كلهم؛ لتنزيل غيره منزلة العدم»[3]. ولمّا يُجهل ذكر من لم يخشَ وجعله كالعدم فإنَّ هذا لا يخلو من وعيد وتخويف له. فلنسيانه أحكام الله نُسي ذكره وأُحرز له من الوعيد ماقُرِرَ في مواضع أخر. وفي السورة ذاتها يرد المعنى ذاتها، قال تعالى: «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى» طه 44. أشار الطبرسي في الآية محل البحث الى ان الدعوة يجب أن تكون «على الرجاء والطمع، لا على اليأس من فلاحه»[4]. اما بقية المفسرين الذين جاءوا بعد الطبرسي فلم يكونوا بمنأى عن هذا المعنى إذ افادوا يجب أن تكون الدعوة على رجاء التوبة والخشية والحذر من العقاب[5]. وهذه الطريقة ترهيباً حيناً وترغيباً حيناً آخر. ومن هذا قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ» النازعات 26.

قال الشيخ الطوسي : «إنما خصَّ من يخشى بالعبرة الذي يعتبر بها وينتفع بالنظر فيها دون الكافر الذي لايخشى عذاب الله»[1]. ومما يلاحظ في الآية المباركة أَنها لم تُصرّح بالمخشى منه، وقد أوضحه السيد صاحب الميزان بقوله: «الظاهرُ أَن مفعول يخشى منسي، والمعنى: العبرةُ لمن كان له خشية، وكان من غريزته أَن يخشى الشفاء والعذاب، وقيل المفعول محذوف، والتقدير: لمن يخشى الله، والتقدير الأَول ابلغ»[2]. وفي السورة ذاتها يرد المعنى ذاته، قال تعالى: «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا» النازعات 45. أُشار المفسرون في الآية محل البحث ما أشير اليه في الآية التي سلفت[3].

أَمّا الآلوسي فقد أوضح ما أوضحه سابقوه في اختصاص الإنذار بمن يخشى مضيفاً أَنَّ الآية تُفيد التأكيد وهذا ما أَفاده بقوله: «المعنى: إنما أَنت منذر الخاشي، دون من لا يخشى، اي: ما انت منذر الا من يخشى. دون غيره غير مناسب للمقام، على أنّه قيل عليه ان من يخشى صلة منذر ليس متعلّق انما في شيء؛ ليجعل الجزء الأَخير المقصور عليه الإنذار، وهذا انما هو للتأكيد، زيادة في الاعتناء بشأن الخبر، وليس للحصر ، اذ لا يتعلق به عرض عليه بحسب الظاهر»[4].

ومن هذا يطالعُك قوله تعالى: «سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ» الأَعلى 10. ذكر القرطبي السبب في اختصاص الخاشي بالتذكرة دون غيره بقوله: «إِنَّ تذكرةَ الخاشي أبلغ من تذكرة

---

[3] روح المعاني 16/ 150.
[4] مجمع البيان في تفسير القرآن 11/7.
[5] ينظر: التفسير الكبير.
[1] التبيان في تفسير القرآن 30/ 259.
[2] الميزان في تفسير القرآن 30/ 189.
[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 266/30، الجامع لأَحكام القرآن 19/ 210، روح المعاني 37/30.
[4] روح المعاني 30/ 38.

الراجي؛ فلذلك علّقها بالخشية دون الرجاء، وان تعلّقت الخشية بالرجاء»[5]. وحين تلاحظ اختصاص الإنذار بمن يخشى الله تلاحظ الثناء على من كانت صفته الخشية والحذر، قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» الرعد 21.

مما يلاحظ في الآية الكريمة أنها ذكرت (ويخشون ربهم) فالخشيةُ من الله عامة غير مقيدة بشيء، الا أَنَّ الشيخ الطوسي صرّح بأَنَّ الخشية في هذا الموضع هي من عقاب الله اذ قال: «قوله: يخشون ربهم أي : يخافون عقابه فيتركون معاصيه»[1]. وعلى هذا يكون في الآية محذوفاً وهو مضاف أُقيم المضاف اليه مقامه. وقد تابع الزمخشري سابقه على هذا المعنى وذلك بقوله: «يخشون ربهم، أي: يخشون وعيده كلَّه، ويخافون خصوصاً سوء الحساب»[2]. وحسب قول الزمخشري يكون التخويف في الآية المباركة شديدَ اللهجة؛ وذلك لأَنَّ الآية المباركة ذكرت الخشية وهي أَشد من الخوف وخصصتها لله سبحانه، ثم ذكرت الخوف وخصصته بالعقاب، فالأَكثر خيفة للأَكثر هيبة وهو الله، والأَقلُّ خيفة لمن دون الله. ولم ينأ الآلوسي في الآية عما ذهب اليه سابقوه فقد قال: «يخشون ربهم، أي: وعيده سبحانه. والظاهر أَنَّ المراد به مطلقاً وقيل: وعيدُه تعالى على قطع ما أُمروا بوصله، ويخافون سوء الحساب، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام»[3]. وبهذه المعاني فإنَّ الآيات الكريمة تحملُ من الوعيد مما لا يخفى، إذ أن من يخاف الله ويحذر سوء الحساب خائفاً وجلاً من ذلك اليوم، فكيف يجب أن يكون حال غيره من الخوف والحذر؟.

وفي مواضع من الذكر الحكيم قرر تعالى أَنَّ العلماء أشدُ العباد خشية من ربهم، قال تعالى : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ» فاطر 28.

قال الشيخ الطوسي: «ليس يخاف الله حق خوفه، ولا يحذر معاصيه خوفاً من عقابه الا العلماء»[4]. وقد ظلَّ الزمخشري في المعنى ذاته إذ قال: «إنما يخشاه من عرفه حق معرفته، وعلمه كنه علمه. إنَّ الله عزيزُ غفور، تعليل لوجوب الخشية الدالة على عقوبة العصاة وقهرهم، وإثابة أَهل الطاعة»[5]. وقد ذهب الفخر الرازي الى ما ذهب اليه سابقه موضحاً السبب في ذكر الخشية مع العزّة والمغفرة، قال: «ذكر ما يُوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونُه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ»[1].

من هذا يتبيّن أَنَّ الآية المباركة جمعت الخوف والرجاء؛ وذلك لإفادة الترهيب والترغيب، فالترهيب يُوجب ذكر الخوف والترغيبُ يُوجب ذكر الرجاء ليتبين للسامع أو

---

[5] الجامع لأحكام القرآن 30/ 331، ينظر: اعراب ثلاثين سورة من القرآن 60، روح المعاني 30/ 108.
[1] التبيان في تفسير القرآن 13/ 244.
[2] الكشاف 2/ 525.
[3] روح المعاني 13/ 141، ينظر: الميزان في تفسير القرآن 13/ 343.
[4] التبيان في تفسير القرآن 22/ 427.
[5] الكشاف 3/ 611.
[1] التفسير الكبير 25/ 21، ينظر: تفسير القرآن العظيم 3/ 531، الميزان في تفسير القرآن 22/ 43.

القارئ مراتب الخشية والخوف من الله عز وجل حتى يحذر. أَما الآلوسي فقد ظلَّ في المعاني التي سبقه اليها المفسرون موضّحاً السبب في تقديم المفعول وهو قوله: «الله» على الفاعل وهو قوله: «العلماء» إذ قال: «وتقديمُ المفعول؛ لأَنَّ المقصود بيان الخاشين والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخّر لكان المقصود بيان المخشى والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، كما قال: «لايخشون احداً الا الله» الاحزاب 39 والمقام لا يقتضيه، وانكر بعضهم إفادة انما للحصر وليس بشيء»[2]. وهذا يوضّح مكان الخشية وعظم اهميتها، إذ أَنَّ تقديمها يُضفي عليها دلالة الاهمية وعظم المكانة. اما السيد الطباطبائي فقد جمع مع الآية وقوله تعالى: «جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» البينة 8. قال السيد الطباطبائي : «فالعِلمُ بالله يتتبع الخشية منه، والخشيةُ منه تبتع الايمان به، بمعنى الالتزام القلبي بربوبيته وإلوهيته ثم العمل الصالح»[3]. ومن هذه المعاني يطالعُك قولُه تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» الزمر 23.

أشار عدد من المفسرين في الآية محل البحث إلى انها تُفيد التخويف، لاسيما أَن الاية ذكرت ألفاظاً تُوحي بذلك. قال الفرّاء: «تقشعرُّ خوفاً من آية العذاب إذا نزلت»[4]. وقد تابع الزمخشري سابقه على هذا المعنى إذ قال: «تقشعرُّ جلودُهم من أيات الوعيد، وتخشى قلوبُهم في أُول وهلة، فإذا ذكروا الله ومبنى أَمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ُبالقشعريرة ليناً في جلودهم»[1]. ومثله ما ذهب اليه الطبرسي بقوله: «أي: تأخذُهم قشعريرة خوفاً مما في القرآن من الوعيد»[2]. أمّا الآلوسي فقد أَوضح ما يفيده قولُه تعالى: (تقشعر) بقوله: «اقشعرَّ جلدُه، وقف شعرهُ إذا عرض له خوفُ شديد من أَمر هائل دهمه بغتةً، والمرادُ تصوير خوفهم بذكر لوازمه المحسوسة، ويطلق عليه التمثيل وإن كان من باب الكناية، وهو تصويرُ للخوف بذكر آثاره، وتشبيه حالة بحالة فيكون تمثيلاً حقيقةً (...) وذكر القلوب لتقدّم الخشية التي هي من عوارضها»[3]. من هذا يتبين أَنَّ الآية الكريمة أوضحت صفة من يخشى الله بقوله: «تقشعر» ثم أوردت الآية صفة ثانية لهؤلاء القوم

---

[2] روح المعاني 22/ 191.
[3] الميزان في تفسير القرآن 3/ 340.
[4] معاني القرآن 2/ 418.
[1] الكشاف 4/ 124.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 8/ 494، ينظر: التفسير الكبير 26/ 273، الجامع لأحكام القرآن 15/ 249.
[3] روح المعاني 24/ 259؛ ينظر: الميزان في تفسير القرآن 24/ 256.

وهي: ﴿**تلين جلودُهـم وقلوبهُـم**﴾ وهذا جمعٌ للتخويف من عظمة الله من جهة ورجاء الأمل من جهة أخرى، وهذا هو الترهيب حيناً والترغيب حيناً آخر.

وجوب الخشية من الله

قرر الله سبحانه وتعالى وجوب الحذر والخشية منه تعالى وعدم خشية غيره، من هذا المعنى قاله تعالى: ﴿**ولاتخشوهـم واخشوني**﴾ البقرة 150. مما يلاحظ في الآية المباركة أنها نهت وأمرت فالنهي انصرف لعدم خشية غير الله والأمر أفاد الخشية من العقاب. قال الطوسي: ﴿واخشوني واخشوا عقابي بدلالة الكلام عليه في الحال، وانما ذكرهم فقال : ﴿ولا تخشوهم﴾[4]. اما القرطبي فقد اشار الى أَن الاية تدلُّ على تحقير كل من يخشى غير الله، وتحث على اختصاص الخشية بالله[1]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**الـم تـر الى الذين قيل لهـم كفوّا ايديكـم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليكـم القتال إذا فريق منهـم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا ربنا لـم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا**﴾ النساء 77. مما يلاحظ في الآية ان تعالى ذكر أن البعض يخشى الناس كخشيته من الله، بل أحياناً تفوق خشيته من الناس خشيته من الله. كما يُلاحظ في الآية أنها جمعت هذين المعنيين برابط وهو قوله: (أو) لقد تعرّض الشيخ الطوسي في الآية محل البحث موضحاً دلالة هذا القول بقوله: ﴿ليس معنى أو ههنا الشك؛ لأَنَّ ذلك لا يجوز عليه تعالى وفي معناه قولان: أحدُهما أنها دخلت للإبهام على المخاطب، والمعنى: إنهم على أحدى الصفتين وهذا أصلُ (أو) وهو بمعنى واحد على الابهام وثانيهما على طريق الإباحة نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين، ومعناه: إن قلت يخشون الناس كخشية الله فأنت مصيب، وإن قلت: يخشونهم أَشد من ذلك فأنت مصيب؛ لأَنَّه قد حصل لهم مثل تلك الخشية وزيادة﴾[2]. ومن تقرير اختصاص الخشية لله سبحانه دون سواه يطالعُك قولُه تعالى: ﴿**الذين كفروا من دينكـم فلا تخشوهـم واخشون**﴾ المائدة 3.

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من نهي عن خشية غير الله وأمر بخشيته هو، كما لا يخفى الوعيد الذي ينتظر من يخالف النهي والأمر فإنَّ ذلك يستحق غضب الله وسخطه وهذا أَشدُّ الوعيد. قال الآلوسي: ﴿وهذا فيه من الوعيد؛ وذلك لأَنَّ معنى (واخشون) أَن أُحلَّ عليكم عقابي إنْ خالفتم أمري وارتكبتم معصيتي﴾[3]. ولم ينأ صاحبُ الميزان عن هذه المعاني إذ

---

[4] التبيان في تفسير القرآن 2/ 28.
[1] ينظر: الجامع لأحكام القرآن 2/ 170، روح المعاني 2/ 18.
[2] التبيان في تفسير القرآن 5/ 262، ينظر: روح المعاني 5/ 85.
[3] روح المعاني 60/6.

قال: ((فلا تخشوهم واخشوني، لاتخلو من تهديد وتحذير، لأَنَّ فيه أمراً بخشيته خاصة، دون الخشية العامة التي تجب على المؤمن على كل تقدير وفي جميع الأَحوال ، فلننظر في خصوصية هذه الخشية، وإنَّ ماهو السبب الموجب لوجوبها والأَمر بها))[1]؟

مما ذهب اليه المفسّران تُلاحظ أَنهما استدلاّ على وعيد وتحذير الآية بما في دلالة النهي والأَمر على ذلك. فتقرير الله خشيته وعدم خشية غيره تحذيرُ بعينه. ومن هذا المعنى يطالعك قولُه تعالى: ((**فلا تخشوا الناس واخشون**)) المائدة /44. فالآية المباركة لا تخلو من دلالة التحذير والوعيد الذي يترتب على مخالفة النهي والأمر اذ قرر تعالى وجوب خشيته وعدم خشية الناس كائناً من كان.[2] وليس بمنأى عن هذه المعاني قولُه تعالى: ((**الا تقاتلون قوماً نكثوا ايمانهم وهموّا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين**)) التوبة 13. قال الطوسي: ((أتخشوهم، أتخافوهم، جُمِعَ بين التقريع والتشجيع، والمعنى: أتخشون أَن ينالكم من قتالهم مكروه، فالله أَحقُّ أَن تخشوا عقابه في ارتكاب المعاصي))[3]. من هذا يُلاحظ أَنَّ قوله ((أتخشوهم)) فيه دلالة على الترهيب والترغيب ، فالترهيب من عظمة الله سبحانه وخشية غيره، والترغيب في مواجهة اعداء الله والنصرُ مكفولُ لهم. أما الزمخشري فقد رأى دلالة واحدة الا وهي الترهيب وهذا يتضح من قوله: ((أتخشوهم، تقرير لهم بالخشية منهم وتوبيخ عليها))[4]. اما الفخر الرازي فقد أوضح الدلالة التي يُوجهها قولُه تعالى: ((فاللهُ أحق أن تخشوه)) قال الرازي: ((يُفيد ذلك كأَنَّه قيل: إن كنت تخشى احداً فالله أَحق أن تخشاه؛ لكونه في غلبة القدرة، والكبرياء، والجلالة، والضرر المتوقّع منهم غاية القتل، أمَّا المتوقّع من الله فالعقاب الشديد في القيامة، والذم اللازم في الدنيا))[5]. مما ذهب اليه الرازي تتبين فيه الدلالة على عظم التهديد والتحذير؛ لاسيما أَن التخويف شمل العذاب الدنيوي والأُخروي معاً. لكنه لم يغفل دلالة الترغيب في الآية لمواجهة اعداء الله. ومنه ايضاً قوله تعالى: ((**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**)) الاحزاب 37. فالاية المباركة تبين وجوب خشية الله وعدم خشية غيره، وهي كسابقاتها في اتباع طريق الترهيب والترغيب. ومن طريقة الترهيب ما ورد في الذكر الحكيم من خشية الجمادات دون العقلاء فإذا كان من لا يعقل حذراً من ربه فكيف ينبغي أن يكون العاقل المتأمّل؟ قال تعالى: ((**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن**

---

(1) الميزان في تفسير القرآن 6/ 177.
(2) ينظر: التفسير الكبير 12/ 4، روح المعاني 6/ 145.
(3) التبيان في تفسير القرآن 10/ 215-216.
(4) الكشاف 2/ 252.
(5) التفسير الكبير 15/ 235؛ ينظر: روح المعاني 61/10.

من الحجارة لما يتفجرّ منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما اللهُ بغافل عما تعلمون﴾ البقرة 74. أشار عدد من المفسرين في الآية المباركة إلى أنَّ الآية حين ذكرت الحجارة وهي خاشية من الله لتبين التذلل والخشوع من الله وعظمته فهي منقادة لأوامره[1]. ومن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾الحشر 21. مما يُلاحظ في الآية المباركة أنها خصّت الجبل بخشيته من الله. وفي هذا الموضع رأى النحاس أَن الآية فيها دلالة على أَنَّ من يكون القرآن معه يجب ان يكون خائفاً حذراً له منزهاً عّمن يخالفه[2]. أَما المفسرون فقد أشاروا الى أَنَّ الآية المباركة توبيخ للإنسان؛ وذلك لقساوة قلبه امام عظمة القرآن[3]. أما السيد صاحب الميزان فقد ظلَّ في المعاني ذاتها موضّحاً الدلالة في اختصاص الجبل في الآية المباركة فقد قال: «المرادُ تعظيم أَمر القرآن بما يشمل عليه من حقائق المعارف، وإصول الشرائع، والعبر، والمواعظ، والوعد والوعيد. والجبل مع ما فيه من الغلظة، والقسوة، وكبر الحجم، وقوة المقاومة قبال النوازل متأثّراً، متفرقاً، من خشية الله، والالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبة في قوله: «من خشية الله» للدلالة على علّة الحكم فإنما يخشع ويتصدّع الجبل بنزول القرآن ؛ لأنه كلام الله عز وجل»[1]. وفي هذا دلالة الترهيب من جهة لاسيما ان ذلك الجبل اضطرب من قوارع القرآن وتحذيراته كيف بالإنسان الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً؟ ودلالة الترغيب في الحث على استلهام ما في القرآن من عبر ومواعظ وأمثال للاتعاظ بها.

من العرض الموجز لبعض مواضع الذكر الحكيم التي جاء فيها التحذير بلفظة (خِشِيِ) واشتقاقاتها يتبين أن اللفظة لم تقتصر على إفادة التحذير بل جمعت معه دلالة أخرى وهي الترغيب، فالترهيب من الله وبيان عظمته يصاحبه الثناء على تلك الخشية والوعد بالنجاح لمن يكون حاله كذلك. كما أَن بيان خشية الجمادات من القرآن تبعت الرعب في قلب الإنسان الى جنب طمأنته الى ان الامثال التي ضُربت هي في صالحه لكي يأخذ منها العبرة والموعظة ويحذر.

---

(1) ينظر : التبيان في تفسير القرآن 1/ 309، الجامع لأحكام القرآن 1/ 465-466، روح المعاني 1/ 297، الميزان في تفسير القرآن 1/ 203.

(2) ينظر: اعراب القرآن 3/ 405.

(3) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 28/ 572، الجامع لأحكام القرآن 18/ 44، روح المعاني 18/ 61-62.

(1) الميزان في تفسير القرآن 19/ 221.

أشار ابن منظور الى ان الخشية لما تكون من الله يكون معناها العلم[2]، ورد هذا المعنى في موضع واحد من الذكر الحكيم وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الكهف 80.

اشار عدد من المفسرين في الآية المباركة الى أن قوله : ﴿فخشينا﴾ يُدلُّ على معنى الكراهة والعلم؛ وذلك لأنَّ الله سبحانه منزّه عن الخشية[3].

التحذير بلفظة (خوف)

من السُبل التي اعتمدها القرآن الكريم لإفادة التحذير لفظة (خوف) فقد جاءت هذه المفردة في مواضع عِدّة من الذكر الحكيم وأُريد بها دلالات عِدّة من بينها التخويف حسبما أَفاده المعجميون.

قال الخليل: ﴿خاف (...) منه التخويف والإخافة والتخوّف، والنعتُ: خائف وهو الفزع﴾[1]. وقد تابع ابن منظور سابقه على إفادته لدلالة خوف . فقد قال: ﴿الخوفُ : الفزع (...) ومنه التخويف والإخافة والتخوّف (...) وخُوّف الرجلُ إذا جُعِلَ فيه الخوف، وخَوّفته إذا جعلتُه بحالة يخافه الناس﴾[2]. أَمّا المفسرون ومنهم الشيخ الطوسي فقد أَفاد أَن الخوف ﴿انزعاج القلب لما يتوقّع من المكروه﴾[3]. وفي موضعٍ ثان أَفاد الشيخ الطوسي في بيانه للخوف ما أفاده سلفاً، فقد قال: ﴿الخوفُ انزعاج النفس بتوقّع الشر﴾[4]. أَمّا الفخر الرازي فقد أَشار في حديثه عن الخوف أَنه يُراد به التحذير، وهذا يتّضح من قوله: ﴿يحتملُ أن يكونه المراد من الخوف الحذر، كما قال في الملائكة: ﴿يخافون ربَّهم﴾ النحل/50 أي : يحذرون المعاصي خوفاً من العقاب﴾[5] . أَمَّا السيد عبد الأَعلى السبزواري الموسوي فقد أَفاد الدلالة ذاتها مبيناً السبب الذي يدعو للخوف: ﴿الخوفُ توقّع الضرر وهو قابل للشدّة والضعف وغالبه يرجع الى الاعتقاد وهو قد يحصل من مبادٍ حقيقية كالخوف من عقاب الله وعظمته وقاهريته، وقد يكون عن مبادٍ ظنية خيالية﴾[6]. مما يُلاحظ في هذا البيان أَنَّه

---

(2) ينظر: لسان العرب 14/ 229.
(3) ينظر: معاني القرآن للفرّاء 2/ 157، التبيان في تفسير القرآن 16/ 81، الكشاف 2/ 712، التفسير الكبير 21/ 161، الجامع لاحكام القرآن 11/ 36، روح المعاني 16/ 11، الميزان في تفسير القرآن 16/ 194.
(1) كتاب العين 4/ 311-312.
(2) لسان العرب 9/ 99-100.
(3) التبيان في تفسير القرآن 11/ 460.
(4) المصدر نفسه 12/ 63.
(5) التفسير الكبير 14/ 150.
(6) مواهب الرحمن في تفسير القرآن 4/ 315.

يقترب من مفهوم الحذر؛ لأَنَّ الخوف توقّع الضرر، والحذر إعداد ما يتقي به الضرر، والمعنيان كلاهما –توقّع الضرر، واعداد ما يقي الضرر- يحتاجان الى مقدمة تسبقهما، والمقدّمة هي المعنى المشترك بينهما وهو التخويف وهذا ما اتفق عليه اللغويون والمفسرون في إفادتهم لـ(خوف) وفي هذا الموضع نقف عند جزء يسير من آيات الذكر الحكيم التي حملت لفظ (خوف) وارادت به التخويف والتحذير.

قال تعالى: ﴿أنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران 175. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنَّ الله سبحانه وتعالى أَمر عباده بالخوف منه دون سواه، لاسيما من الشيطان الرجيم، لأَنَّه عزَّ وجل أَحق أَن يُخاف منه[1]. ومن مواضع الذكر الحكيم التي ذكرت التخويف ضمناً الى ان صَرّحت به قوله تعالى: ﴿أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأَرض أو يأتيهم العذاب من حيثُ لا يشعرون أو يأخذهم في تقلّبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوّف فإنَّ ربكم لرؤوف رحيم﴾ النحل 45-47. مما لايخفى في الآيتين الكريمتين أنهما قد تدرّجنا في مراتب التخويف والوعيد، فمن انهيار الأَرض فإرسال العذاب عليهم من مأمنهم أو أثناء تقلّبهم ثم ذكر التخويف صريحاً في قوله: ﴿على تخوّف﴾ وفي هذا القول دلالة على التخويف الشديد؛ لأَنَّ التخوّف ﴿تمكّن الخوف من النفس واستقراره فيها. فالأخذُ على تخوّف مبنياً على المخالفة بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه ويحذروه بما استطاعوا من توبة وندامة﴾[2] . ومن مواضع التخويف يطالعُنا قولُه تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذّب الأولون او آتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسلُ بالايات الا تخويفا﴾ الاسراء 59. قرر تعالى في هذا الموضع الغرض من الإرسال بقوله : ﴿تخويفا﴾. لقد أوضح الشيخ الطبرسي الدلالة من التخويف فذكر أَنَه يدلُّ على ﴿العظة والزجر لهم من عذاب الله﴾[3]. وقد تابع الفخر الرازي سابقه في هذا المعنى مفيداً أَنَّ الآية تخويف من العذاب الذي سيُعجل اليهم إذا لم يتعظوا مما هم عليه او من عذاب الآخرة[4]. إلا أنَّ ذلك الزجر والتخويف من العذاب سواء أَكان دنيوياً أم أخروياً لم يزد من خُوّف الا عناداً وتمرّداً وهذا ماقرره تعالى بقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ الإسراء 60. أَفاد السيد الطباطبائي الدلالة المبتغاة من التخويف في الآية محل البحث بقوله: ﴿أَمّا التخويف بالموعظة والبيان أو بالآيات المخوّفة التي هي دون الآيات المهلكة المبيدة، والمعنى: ونخوّف الناسَ فما يُزيدهم التخويف الا طغياناً، ولا أَي طغيان كان ، بل طغياناً

---

[1] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 4/ 54-55.
[2] الميزان في تفسير القرآن 12/ 263.
[3] مجمع البيان في تفسير القرآن 6/ 423.
[4] التفسير الكبير 4/54-55.

كبيراً، اي انّهم لايخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه»[1]. ومن لم يتّعظ بالإنذار والتخويف فقد أُحرز له من العذاب ما قُرِرَ في مواضع أَخرى من الذكر الحكيم.

وحين يُلاحظ في الذكر الحكيم الله هو المخوّف والمحذِّر من العذاب، يُلاحظ في مواضع أَخرى أَنَّ العباد هم الذين يخافون ويحذرون ذلك العذاب. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الانعام 51. والعذاب الذي نُعِتَ بأَنّه عظيم أُريد منه عذابُ يوم القيامة[2]. وعلى هذا سيكون التحذير من العذاب اكثر ايحاءً بالشدة؛ وذلك لوصفه بالعظمة. ويطالعنا الإيحاء بشدة العذاب قولُه تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ مريم/45 ولايخفى ما في الآية المباركة من وعيد وتحذير فالابن يخاطب أباه باسلوب مليء بالرأفة والحنان فيقول: «ياأبت» ثم يخوّفه عذاب الرحمن ، فجمع العذاب والرحمن للإشارة إلى شدة العذاب؛ لأَنَّ ذكر الخوف فذكر المس ثم نذكر العذاب اشارة إلى التهويل[3]. ومما يدخل مع حذر العباد من الله وعذابه قوله تعالى: ﴿**اني أَخافُ اللهَ واللهُ شديد العقاب**﴾ الأَنفال 48. والخوف من الله حذر من اقتراب معاصيه الذي يؤدي ارتكابها الى العقاب الشديد. فالآية المباركة تحذر من الله سبحانه ومن عذابه. ومما يدخل في التحذير من الوعيد قولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق45. ذكر الفخر الرازي أَن التخويف يكون مما في القرآن الكريم، والوعيد إشارة الى اليوم الآخر.[1]

وحسب طريقة القرآن الكريم في ذكر من ينتفع بالتحذير والإنذار، إذ ذكر تعالى النُزر القليل الذي يؤثر فيهم الإنذار تغليباً لهم على سواهم، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الذاريات 37. ولا يخفى في الآية المباركة اختصاص التخويف لمن يخاف العذاب لانه المنتفع به[2].

وحين يخوف اللهُ عز وجل عباده بإرسال العذاب أو الوعيد بإرساله، او يخصّ النزر القليل بالتخويف يُلاحظ ثناءً على من يخاف الله، الا أَنَّ الملاحظ في هذا المحل أَنَّ الخوف حسب الظاهر ليس من الله ذاته بل من مقامه. قال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ

---

[1] الميزان في تفسير القرآن 13/ 138.
[2] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 7/ 95.
[3] ينظر: الايضاح في علوم البلاغة 30.
[1] التفسير الكبير 28/191-192.
[2] ينظر: التفسير الكبير 28/219.

مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ» إبراهيم 14. ولا يخفى عليك أَنَّ الآية المباركة خصّت الخوف من مقام الله عزَّ وجل، قال الزمخشري: «لمن خاف مقامي، يمكن أن يكون على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه»[3]. وقد تابع الفخر الرازي سابقيه على هذا المعنى إذ ذكر «مقامي ، أَي: إقامتي على العدل والصواب، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول»[4]. وقد تابع السيد صاحب الميزان سابقيه فيما ذهبوا إليه مضيفاً وجهاً آخر لقوله تعالى: (مقامي) فقد قال: «اسم مكان أُريد به مرتبة قيمومنه تعالى للأمر كله»[5]. وسواء أُريد بالمقام المصدر أَم اسم المكان فيه من التخويف مما لايخفى، فالخوفُ من مقام الله عز وجل أَو من تمكّنه من الأَمر يُستحق الثناء. ويطالعنا من هذا المعنى قولُه تعالى: «لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» الرحمن 46. وهذا ثناء من الله سبحانه وجهه لمن صفته الخوف من الله عز وجل[1]. ومنه أيضاً قوله تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى» النازعات 40-41. مما يُلاحظ في الآية الكريمة تقديم الخوف على الجزاء المترتب عليه، وقد بيَّن الفخر الرازي الدلالة التي يفيدها تقديم الخوف بقوله: «إعلم أَنَّ الخوفَ من الله لابُدَّ وأَن يكون مسبوقاً بالعلم بالله على ما قال: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فاطر 28 ولمّا كان الخوفُ من الله هو السبب المعيّن لدفع الهوى لاجرمَ قَدَّم العلة على المعلول»[2] فالاعتناء بالخوف هو سبب تقديمه على غيره.

ومما يوضع في هذا الموضع الآيات التي يُؤمّن الله سبحانه بها عباده بأَنَّ لا خوف عليهم ولا حزن، وما هذا الا ترغيباً في الإيمان وتحذيراً وترهيباً من الكفر. والشواهد على هذا كثيرة يقف الباحث عند جزء يسير منها لبيان الصورة.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» البقرة 62. أوضح السيد عبد الأَعلى السبزواري في الآية محل البحث المراد من نفي الخوف عن المؤمنين بقوله: «أي لا خوف عليهم من المتوقّع، ولا حزن على المواقع، ونفي ذاتها يقتضي نفي جميع ما يتصوّر فيهما من الإفراد أَبداً لجميع مراتبها من الخارجية، والعقلية، والخيالية فإِنَّ الحضور المطلق المستفاد من قوله: «عند ربهم» تقتضي نفي الخوف والحزن بالنسبة إليهم، فإِنَّ الوصول إلى مرتبة الكمال التام والمستغرق في فيوضات الكمال المطلق بالذات لا يتصور فيه نقص حتى يتعلّق به الخوف والحزن»[3]. وحسب هذا القول أَنَّ الآية تُفيد النفي

---

[3] الكشاف ط بيروت 2/ 523، ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 5/ 308.
[4] التفسير الكبير 9/ 101.
[5] الميزان في تفسير القرآن 12/ 35.
[1] ينظر: التفسير الكبير 29/ 122.
[2] التفسير الكبير 31/ 51.
[3] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 1/ 321.

المطلق للخوف بجميع الأَشكال، وما ذلك الا ترغيباً في الايمان بالله عز وجل واليوم الآخر وترهيباً وتحذيراً من الكفر. وفي موضع ثانٍ ذهب السيد السبزواري الى ما يُفيد الدلالة ذاتها بقوله: «ونفي جنس الخوف والحزن يشمل جميع الأَحوال والأَزمان في الدنيا والبرزخ والنشر والحشر إلى عالم الخلود في الجنة الذي هو عالم الكمال ونشأته وظهور الحق»[1]. ويتكرر المعنى ذاته في قوله تعالى: «**إِن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**» المائدة 69. فالآيةُ المباركة تجرّد من آمن بالله واليوم الآخر عن الخوف تماماً. وما ذلك الا ترغيباً في الأَيمان وترهيباً من الكفر فحين يُسلب من الإيمان شيء يعني تقريره لضده. ويدخل ضمن هذا قوله تعالى: «**بلى من أَسلم وجهه لله وهو مُحْسِنٌ فله أَجرُهُ عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» البقرة 112.

أشار الشيخ الطوسي في الآية محل البحث إلى أن من يخاف الله عز وجل ويحذر يكون آمناً مطمئناً من عذاب الله وسخطه[2]. وبطبيعة الحال من لم يكن مؤمناً فمصيره ما قُرِر من العذاب في مواضع القرآن الآخرى.

وقد ظلَّ المفسرون في المعاني ذاتها في إفادتهم لمثل هذه الآيات الكريمة[3]. وباستقراء الايات السابقة وما قيل فيها يتبين لنا ان دلالة (خوف) في الذكر الحكيم لم تقتصر على التخويف والتحذير بل أُريد منها الترغيب . فتخويفُ وتحذير من الله الى جنب ترغيب في الجزاء المترتب على ذلك التخوف. وما هذا الا ترغيباً في الخوف والحذر من الله سبحانه.

---

[1] المرجع نفسه 4/ 404 و 1/ 477.

[2] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 1/ 414.

[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 6/ 548 و 7/ 153 و 11/ 460، التفسير الكبير 14/ 69 و 17/ 126 و 27/ 122 و 27/ 225 و 30/ 159 و 28/ 105.

الباب الثاني

الفصل الثالث

التحذير بصور اخرى

التحذير بصور أُخرى

بعد أن اطلعنا على التحذير الصريح والتحذير الضمني بقي لنا أن ندرس ما ورد ذكره بصور فُهِمَ من أسلوبها وصورتها أَنَّ المرادَ منها التحذير، لما حملته من معان تُفيد تلك الدلالة، وتلك الصُّور هي:

- الأَمر.
- النهي.

- النداء.
- الاستفهام.
- التقديم والتأخير.

سنقفُ عند كلِّ صورة منها بايجاز معرضين لآيات الذكر الحكيم وما أفاده اللغويون والمفسرون من دلالات التحذير فيها.

الأمر

قال ابنُ منظور: ((الأَمرُ معروفُ نقيض النهي، أمَرَه به، وأمَرَهُ (...) وأمَرَهُ إيّاه يأمرُه أمراً فإتَمَرَ، اي: قَبِلَ أمْرَهُ))[1]

أَمّا الأَمرُ عند النحاة فهو ((طلب إيجاد الفعل))[2]. أو ((قولُ القائل لمن دونه إفْعَلْ))[3].

لو رجعت الى كتاب سيبويه تجده أَفرد باباً خاصاً سمّاه باب الأَمر والنهي ، جمع فيه الصيغ المختلفة التي يأتي بها هذا الأَسلوب والمعاني التي يُفيدها[4].

لو تدبرت التنزيل العزيز تلاحظ أَنه اعتمد أَسلوب الأَمر كثيراً، وقد تباينت المعاني التي أفادها بتباين المواضع التي جاء فيها فضلاً عن إفادته معناه الحقيقي (طلب الفعل). من بين المعاني التي أفادها الأَمر الوعيد والتهديد، وهذان المعنيان يأتيان لإفادة التحذير، فالآيةُ المباركة تعدُك وتهددُك أمراً لكي تحذرَه وتتجنبه وفي هذا الموضع من البحث لنقف سويةً عند بعض مواضعِ الذكر الحكيم التي جاء فيها الأَمر دالاً على الوعيد والتهديد.

---

(1) لسان العرب 4/ 26-27.
(2) البحر المحيط 181/1.
(3) التعريفات ، لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، بيروت 1969م:38.
(4) ينظر: كتاب سيبويه 1/ 137.

قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة 90. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنَّها ذكرت أُموراً ثم قررت أَنها من عمل الشيطان، وعملُ الشيطان ليس عليك الا اجتنابه وقد اعتمدت الآية لتقرير هذا المعنى أُسلوباً خطابياً مباشراً يُوحي اليك لا محالة تجاوزه او إنكاره، وهذا الأُسلوب هو الأَمر المتمثّل بقوله ﴿فاجتنبوه﴾ اي : كونوا جانباً منه[5]. ومن مواضع أُسلوب الأَمر في الذكر الحكيم بدلالة التهديد والوعيد يطالعُك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الأنعام 30. وأَنت تلاحظ الآية المباركة عمدت إلى فعل الأمر (ذوقوا) وجعلت المذاق للعذاب والمرادُ من ذلك التخويف[1] . ومن المعنى ذاته قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ السجدة 20. وأنت تلاحظ في الآية الكريمة حال الفاسقين وهم في النار يحاولون الخروج منها فلم تؤتِ محاولاتهم ثمارها، فهل مَنْ في ذلك الموقف بقوى على التذوّق، أهو في حالة تسمح له بذلك؟ جوابُ هذا يدعوك إلى أن تُخرج الأمر من معناه الحقيقي الى معنى ثانٍ يتوافق مع دلالة السياق القرآني، وسياقُ الآية تهديد وتحذير من الفسق فيكتسبُ الفعل دلالته من دلالة السياق.

ذكر أَحدُ الباحثين الدلالة التي يفيدها فعلُ الأَمر (ذوقوا) بقوله ﴿فأنزلَ الله الكافرين منزلةَ من يتذوّق الطعام فجعلهم يستلذون بهذا العذاب كأنهم سعوا إليه بأرجلهم وعملوا جاهدين على نيله﴾[2]. وفي هذا تحذيرُ وترهيب كما لايخفى. ومن الأَمر بدلالة الوعيد قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الانعام 91. وليس خافياً عليك أَنَّ الله سبحانه وتعالى لا يأمر نبيه (ﷺ) بترك قومهِ للعبِ بل إنما أَمر بإنذارهم وتبشيرهم لكن الأَمر جاء لإفادة تحذيرهم مما هم عليه. قال الشيخ الطوسي في الآية محل البحث: ﴿ضربُ من الوعيد والتهديد، كأَنّه قال: دعهم فسيعلمون عاقبة أمرهم﴾[3]. ومن هذا المعنى يطالعَك قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر 3. قال النحاس ﴿ذرهم في موضع أمر فيه معنى التهديد﴾[4]. وقد تابع النحاس على هذا عدد من المفسرين إذ رأوا الأمر أفاد

---

(5) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 7/ 18، روح المعاني 7/ 16، مواهب الرحمن في تفسير القرآن 12/ 386.

(1) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 291.

(2) الترغيب والترهيب في القرآن الكريم (دراسة بلاغية): موسى سلوم عباس الربيعي، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة المستنصرية، اشراف د. هند حسين طه، 1998م: 70.

(3) التبيان في تفسير القرآن 7/ 213، ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 333، التفسير الكبير 13/ 79، روح المعاني 8/ 221.

(4) اعراب القرآن 190/2.

الوعيد[1]، وذلك لأَنَّ الله سبحانه لا يأمر بالتمتع المحرّم واللهو، إنّما يحذِّرُ من هذه الأُمور فاكتسب الأَمر دلالته من السياق. ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ المؤمنون 53-54.

أشار الفخر الرازي الى ان قوله : (فذرهم) أُريد به الوعيد والتهديد[2] ومن الأَمر بالتمتع يطالعُك قولُه تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ابراهيم 30. وأَنت تُلاحظ الفعل (تمتعوا) لم يفد معنى الأَمر، فكيف يأمر الله بشيء ثم يُعاقب على إطاعتك ذلك الأَمر؟ قال صاحبُ الميزان : ((ليس المرادُ أمرَهم بالتمتع بل تهديدهم وزجرُهم بإسلوب مقنع))[3]. من هذا يُلاحظ أَنَّ الأَمر حين يُفيد دلالة الوعيد يكون الخطاب مقنعاً لكنَّ المفسّر لم يفصح عن سبب الإقناع. أما أَحد البلاغيين فقد اشار في الآية محل البحث الى ما يمكنك منه فهم سبب الإقناع إذ رأى قوله (تمتعوا) جيء به للكشف عن ((غرضهم الفاسد الذي كانوا يخفوه ليكون أَبلغ في فضيحتهم))[4]. وإذا ما تخفيه قد أُخرج وأُفتضح ، فأيُّ تخويفٍ بعد هذا؟ ومن الأَمر بالتمتع قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ النحل 55. وأنت تلاحظ الآية المباركة تأمرُ بالكفر والتمتع فهل يصحُّ أَن يأمر الله بمثل هذا؟ لم يبقَ عليك الا أن تخرج الأمر من معناه الحقيقي الى معنى آخر يتوافق مع السياق القرآني. والسياق القرآني في هذا الموضع وعيد وتهديد، والمرادُ من هذه المعاني أَن تحذر الكفر وتحذر التمتع. قال الطبرسي : ((ابتداء خطاب لهم على التهديد والوعيد، يقول: فتمتعوا أَيّها الكفّار في الدنيا قليلاً فسوف تعلمون ما يحلُّ بكم في العاقبة من العقاب، وأليم العذاب، وحُذِفَ لدلالة الكلام عليه))[1]. ومن هذا المعنى يطالعُك قوله تعالى ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الروم34. فالأمر بالكفر والتمنع يأباه الله ورسوله ولمّا يأمر به تكون دلالته التهديد والوعيد[2]. قال أبو عبيدة في الآية محل البحث: ((مجازُه مجاز التوعّد والتهدد، وليس بأمر طاعة أو فريضة))[3]. ومن مواضع الذكر الحكيم التي تُعطي حرية العبادة للعابد على جهة التهديد والوعيد بصيغة الأَمر قولُه تعالى:

---

(1) ينظر: التبيان في تفسير القرآن 14/ 318، الكشاف ط بيروت 4/ 318، المقتضب 86/2، الميزان في تفسير القرآن 12/ 97.
(2) التفسير الكبير 23/ 105.
(3) الميزان في تفسير القرآن 12/ 57.
(4) علم المعاني، للدكتور درويش الجندي ، مطبعة مكتبة النهضة، مصر، ط2، 1962م: 87.
(1) مجمع البيان في تفسير القرآن 6/ 366، ينظر: الكشاف ط بيروت 2/ 588، التفسير الكبير 20/ 52.
(2) ينظر: معاني القرآن للأخفش 2/ 438.
(3) مجاز القرآن 122/2. ينظر: اساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 207-208.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الزمر 15.

مما لا يخفى أنَّ الآية الكريمة تأمر بعبادة ما يشاء الإنسان، فكيف ذاك وقد قرر تعالى العبادة له وحده لا شريك له؟ قال الرازي: ﴿لاشبهةَ في أَنَّ قوله: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ ليس أمراً بل المرادُ منه الزجر، ثم بيّن كمال الزجر بقوله: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا انفسهم﴾ ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفضاعة فقال: ﴿الا ذلك هو الخسران المبين﴾ كان التكرير لأجل التأكيد (...) فيا أيُّها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى﴾[4]. ومن الوعيد الذي خُصَّ به الكافرون بصورة الأَمر قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ الطارق 17. إذ يلاحظ أنَّ الأَمرَ في الآية يُراد به إعطاء الكافرين مهلةً زمنية ثم يأتيهم عذابُ الله الذي وُعدِوا به من قبلُ. وقد جاء الأَمر مرتين: مهّلْ وأمهلْ، وتكرارُ الأمر يُفيد زيادة تسكين رسول الله (ﷺ) والتصبّر[5]. وزيادة التسكين والتصبّر لرسول الله (ﷺ) يُفيد زيادةَ إرعاب الكافرين وكل ذلك ﴿زجرُ وتحذيرُ للقوم، وكما أَنّه تحذير لهم فهو ترغيب في خلاف طريقهم في الطاعات﴾[1].

مما سبق يتبين لك أَنَّ الأَمر إذا نصَّ عليه القرآن لشي يخالف رضا الله سبحانه فإنَّ دلالته تكون تهديداً ووعيداً، والتهديد والوعيد يبلغ تأثيرهما مبلغه عند المتلقي لاسيما أن الآمر لا يُضَرُّ بشيء إذا فعل المأمور ذلك الشيء بقدر ما يَضرُّ نفسه؛ لأن الأمر ينزل العقاب متى شاء وعلى من يشاء.

النهّي

لغةً: ﴿خلافُ الأَمر ، نَهاه، يَنْهاه نهياً فانتهى وتناهى، كفَّ (...) ونَفْسُ نهاةُ: منتهية عن الشيء، وتناهوا عن الأَمر والمنكر نهى بَعْضُهم بعضاً﴾[2]. من هذا يتضح أَنَّ النهي طلب الكفِّ عن الفعل.

أَمّا النهيُ عند النحاة فهو نفي الأَمر، يقول سيبويه : ﴿إِنَّ لا تضرب نفيُ لقوله اضرب﴾[3]. وبهذا المعنى يكون النهي هو ذاته عند اللغويين.

مما لاشك فيه أَنَّ المتكلم حين يريد من المخاطب عدم فعل شيء ما فإِنَّه إراد بذلك الطلب هدفاً معيّناً يترتبُ على الطلب. وما دامت الأَغراض التي يهدف اليها المتكلّم كثيرة تتعدد بتعدد المواقف التي يتمُّ فيها الخطاب فقد رافق ذلك تعدد دلالات الطلب لاسيما النهي الذي نحن بصدده ، فالأُسلوب واحد ودلالاته متعددِة، ومن بين الدلالات التي تهمنا في هذا

---

[4] التفسير الكبير 255/26، ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 493/8.
[5] التفسير الكبير 31/ 134.
[1] المصدرُ نفسه 31/ 134.
[2] لسان العرب 15/ 343.
[3] كتاب سيبويه 1/ 136.

المحل التحذير. لقد صرَّحَ سيبويه بأن النهي فيه دلالة التحذير وذلك بقوله: «وأَمَّا النهيُ فإنه التحذير، كقوله: الأَسدَ الأَسدَ، والجدارَ (الجِدارَ)، والصبيَّ (الصبيَّ)، وإنما نهيته أَن يقرب الجدار المخوّف (المائلَ)، أو يقربَ الأَسدَ، أو يُوطئ الصبيَّ، وإن شاء أَظهر في هذه الأَشياء ما أضمر في الفعل فقال : اضرب زيداً، واشتم عمراً، ولا توطئ الصبي، واحذر الجدار، ولا تقرب الأَسد»[1].

أَما البلاغيون فقد تابعوا سيبويه فيما ذهب اليه، إذ أفادوا أَن النهي من بين معانيه التحذير[2].

وفي هذا الموضع من البحث لنتأمل معاً بعض آيات الذكر الحكيم التي أُريد من نهيها دلالة التحذير.

قال تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ» ابراهيم / 42 أشار الزمخشري الى أَنَّ الآية المباركة موجهةُ الى النبي (ﷺ)، وأُريد من توجيه الخطاب الى النبي (ﷺ) التثبيت على ما هو عليه، كما أن الخطاب فيه وعيد وتهديد للظالمين، ولا يخلو من تسلية المظلوم وتهديد الظالم[3]. ولم يكُ بقية المفسرين بمنأى عما ذهب اليه الزمخشري بل تبعه على ذلك الكثير من المفسرين ومنهم الطبرسي (ت 548هـ) إذ ذكر أَنَّ النهي أَفاد «وعيد الظالم وتعزيةَ المظلوم»[4]. ومثل هذا رأى الآلوسي (ت1270هـ) فقد قال: «وهو إيذانُ بكون ذلك الحسبان واجب الاحتراز منه في الغاية، (...) ويجوز أَن يكون ذلك على طريق الكناية والمجاز بمرّتين: الوعيدُ، والتهديد»[5]. من قراءتك لما رآه المفسرون لا تلحظ فرقاً فيما ذهبوا اليه. في المعنى الذي أفاده النهي. فإرادةُ تثبيت النبي (ﷺ)، أَو الوعيد، أو التهديد أَو التنبيه من أَجل الاحتراز كلُّها مفردات تحمل الدلالة ذاتها لإسلوب النهي في إفادته معنى التحذير من مثل هذا العمل. ومما ورد في الذكر الحكيم من النهي عن اتخاذ شركاء مع الله سبحانه قولُه تعالى: «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ» النحل/ 51. وأنت تلاحظ الآية الكريمة حذّرت من اتخاذ الهين وأمرت باتخاذ الإله الواحد وهو الله جلّت قدرتُه. وفي هذا المقام سؤالُ يفرضُ نفسه، الا وهو ما السببُ في ذكر العدد اثنين؟ أَجاب الفخرُ الرازي عن هذا السؤال بقوله: «إِنَّ الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً، وأُريد المبالغة في التنفير عنه عُبِّر عنه بعبارات كثيرةٍ؛ ليصيرَ توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح. فالمقصودُ بقوله«

---

[1] المصدر نفسه 1/ 253-254.

[2] ينظر: مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي، مصطفى البابي الحلبي، مصر ، ط1937،1م:152-153، علم المعاني 39، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: احمد الهاشمي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط12،55، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 487-488.

[3] ينظر: الكشاف 2/ 561.

[4] مجمع البيان في تفسير القرآن 6/ 32، 140/19.

[5] روح المعاني 13/ 244.

لاتتخذوا إلهين اثنين« المقصودُ منه تكرير تأكيد التنفير عنه»[1] من هذا يتّضحُ أَنَّ التعبير بالهين اثنين يُضفي القوّةَ والشدةَ على التحذير الذي أَفاده النهي. ومن النهي عن الإشراك بالله قولُه تعالى: «لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا» الاسراء 22. أَفاد عدد من المفسرين أَنَّ الآية الكريمة تخاطب النبي (ﷺ) والمراد أُمتهُ[2]. فقوله تعالى (لاتجعل) أُريد منه التنبيه لما أَراده الله سبحانه للإنسان حتى يُحذّره من الابتعاد عن رحمته[3]. وقد ذهب سيد قطب الى المعنى ذاتهِ إذ قال في الآية محل البحث: «النهيُ عن الشرك والتحذير من عاقبته»[4]. أَمَّ العاقبةُ التي تنتظرُ من خالف التحذير فقد ذكرها تعالى بقوله: «مذموماً مخذولا»

لقد أَوضح صاحبُ لباب التأويل معنى هذه العاقبة بقوله: «فمعناه أن يذكر له أَنَّ الفعل الذي أَقدمَ عليه قبيح ومنكر، فهذا يعني كونه مذموماً ، ثم يُقال: لِمَ فعلت هذا الفعلَ القبيح وما الذي حملك عليه؟ وهذا هو اللوم، (...)، والمخذول هو الضعيف الذي لا ناصرَ له»[5]ولا يخفى عليك من هذه المعاني شدة العاقبة التي ترتبت على مخالفة التحذير، فكما الذنب قويُ شديدُ كانت عاقبتهُ قوّيةَ شديدةً مؤثرةً في النفس الإنسانية. ومن هذه المعاني قولُه تعالى: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ»الشعراء/ 214. جاء النهي في الآية المباركة عن الإشراك بالله تعالى، وفي هذا النهي من القوة والشدة ما لا يخفى لا سيما أَنَّ الخطاب موجّهُ إلى النبي (ﷺ) والمرادُ غيرُه. لقد أَوضح الفخر الرازي (ت 606هـ) في تفسيره لهذه الآية الأَهميّة من توجيه الخطاب للنبي (ﷺ) وارادةُ غيرِهِ به بقوله: «إِنَّ من شأن الحكيم إذا أَراد أَن يُؤَّكدّ خطابَ الغير أَن يوجّه إلى الرؤساء في الظاهر، وإِنْ كان المقصودُ بذلك هم الأَتباع»[1]. فحين وجّه تعالى النهي إلى النبي (ﷺ) وهو القائد سيكون له الأَثر الكبير على الأَتباع، لأَنَّ الرئيس قد نُهيِ فما بالكَ بالأتباع؟ بطبيعة الحال يكونون اكثر نهياً وتحذيراً . وقد ذهب الطبرسي من قبلُ الى مثل هذا بقوله: «وإنّما أَفرده بالخطاب ليُعْلَمَ أَنَّ العظيم الشأن إذا أُوعد فَمَنْ دونهِ كيف حالُه؟ وإذا حُذِّر هو فغيرُه أولى بالتحذير»[2]. لو تدبّرت سورة الأَنعام تجد أُسلوب النهي جاء في الكثير من المواضع موجّهاً الخطاب إلى النبي (ﷺ) والمرادُ أُمّتُه للسبب ذاته وفي المعنى ذاته من عدم اتخاذ شركاء مع الله تعالى. قال تعالى: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» الانعام 14. لقد أَشار المفسرون إلى أَنَّ النبي (ﷺ) أُمِرَ بأمرين : أحدهما أَن يقول: إنّي أَوّلُ من أسلم،

---

[1] التفسير الكبير 20/ 47.
[2] ينظر : التبيان في تفسير القرآن 15/ 464، الجامع لأَحكام القرآن 10/ 236، روح المعاني 15/ 52، تفسير المراعي 15/ 33.
[3] ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل 1/ 406.
[4] في ظلال القرآن 15/ 25.
[5] لباب التأويل 3/ 175.
[1] التفسير الكبير 23/ 172.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 7/ 206.

والثاني ألاَّ يكون من المشركين، والتقديرُ: قيل لي: لا تكونن من المشركين[3]. ومنه أَيضاً قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الأَنعام 35. فالنبي الأَكرم (ﷺ) منزّهُ عن الجهل ولهذا يكون الخطاب له الاَّ أَنَّ المقصودَ أُمتُه[4]. ومنه ايضاً قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الانعام / 68. أَشار الفخر الرازي إلى أَنَّ المقصود بالآية المباركة غير النبي (ﷺ)[1]. أَمّا النهي في الآية المباركة فقد خصَّ القعود بقوله: ﴿فلا تقعدْ﴾ ، قال الزمخشري (ت 538هـ) : ﴿فلا تقعد معهم ، بعد الذكرى، بعد أَن نذكر النهي﴾[2]. ومن هذه المعاني قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الانعام 114. أَشار الشيخ الطوسي (ت460هـ) إلى أَنَّ الخطاب مُوجّهُ للنبي (ﷺ) والمرادُ به الأُمّة[3]. وتبعه على هذا الطبرسي (ت548هـ) فقد ذكر أَنَّ الخطاب للنبي (ﷺ) والمرادُ غيرهُ وهو الإنسان[4]. ومن هذا قولُه تعالى ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هود/ 17. أَشار الزمخشري إلى أَنَّ هذا تسليةً لرسول الله (ﷺ)، ووعدُ له بالانتقام منهم، ووعيدُ لهم[5]. كما أَشار الدكتور قيس الأَوسي إلى أَنّ النهي في الآية الكريمة أَفاد التهديد[8]. ومن خطاب موسى –وعلى نبينا وآله وعليه السلام- والمرادُ غيرهُ قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾طه/16. قال الشيخ الطوسي (ت460هـ) : ﴿نهيُ متوجّه إلى موسى من الله والمرادُ به جميعُ المكّلفين﴾[1]. وقد أشار الآلوسي (ت1270هـ) إلى أَن النهي في الآية المباركة ورد ﴿بطريق التهييج والإلهاب﴾[6]. وفي السورة ذاتها وُجِّه النهيُ إلى النبي الأَكرم (ﷺ) وأُريد به أُمّتهُ. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ طه/ 131 أَشار عدد من المفسرين إلى أَنَّ الخطاب في هذه الآية وُجّه الى النبي

---

[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 8/ 95، الكشاف 2/ 9، مجمع البيان 3/ 14.
[4] ينظر: الجامع لأحكام القرآن 16/ 47.
[1] ينظر: التفسير الكبير 13/ 25.
[2] الكشاف 33/2، ينظر: مجمع البيان 4/ 316.
[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 8/ 266.
[4] ينظر: مجمع البيان 4/ 352.
[5] ينظر: الكشاف 2/ 415، مجمع البيان 198/5، تفسير القرآن العظيم 2/ 451.
[8] ينظر: اساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 487.
[1] التبيان في تفسير القرآن 78/1.
[6] روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني 73/16.

(ﷺ) والمرادُ المكلفون جميعهم، إذ مُنِعوا عن النظر الى مالم يكن لهم حق فيه، وذلك لأَنَّ النبي (ﷺ) أَبعد شيء عن إطالة النظر إلى زينة الدنيا وزخرفها[1].

مما سبق يتبين أَنَّ القرآن الكريم لما أَراد النهي عن اتخاذ شركاء مع الله تعالى، أَو النهي عن الجلوس مع الظالمين ، أو النهي عن الافتراء، أو النظر إلى المُحرمات عَمَدَ إلى مخاطبة الرسول (ﷺ) دون غيره؛ لأَنَّه الرجلُ الأَوّل في الأمة وبنهيهِ إيحاء الى شدّةِ المنهي عنه كما بُيّن من قبلُ. وأنت تقرأ القرآن متتبّعاً أُسلوب النهي الذي أَفاد التحذير يطالعُك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة 168. يُلاحظ أَنَّ الآية المباركة نهت عن اتباع خطوات الشيطان.

لقد رأى عدد من المفسرين النهي في قوله تعالى : ﴿لا تتبعوا﴾ أَفاد التحذير. قال الفخر الرازي (ت 606هـ): ﴿إِحْذَرْ أَن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان، وزُجِرَ المكلَّفُ بهذا الكلام عن تخطّي الحلال إلى الشُّبَه (...)، ثُمَّ بَيّنَ العلَّة في هذا التحذير، وهو كونه عدوّاً مبيناً، أَي: متظاهر بالعداوة﴾[2]. وقد تابع القرطبي (ت 671هـ) سابقه على هذا المعنى عند تفسيره للآية محل البحث ، إذ قال: ﴿الواجبُ على العاقل أَن يأَخذ حذره من هذا العدو الذي أَبان عداوته من زمنِ آدم. فقد أَمر تعالى بالحذر منه، فقال جلَّ من قائل: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوُ مبين﴾، (...) وهذا غايةُ في التحذير﴾[3]. والى مثل هذا المعنى ذهب السيد عبد الأَعلى الموسوي السبزواري إذ قال: ﴿الحذرُ منه (الشيطان) ومخالفته بكلِّ وجهٍ أَمكن ، (...) ومن إخباره تعالى بأَنَّ الشيطان عدوُ للإنسان وإيكال الأَمر إلى الفطرة يُستفاد غاية التحذير، والسعي في الابتعاد عنه﴾[4]. ومن أُسلوب النهي الذي حُذّر به من الشيطان قولُه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ الأَعراف 27. رأى عدد من المفسّرين أَنَّ النهي في الآية المباركة وهو قولُه تعالى: ﴿لا يفتننكم﴾ أَفاد التحذير من الشيطان ، ولم يكتفِ أَحدُ المفسرين بتصريحهِ أَنَّ النهي أَفاد التحذير بل جعله اكثر بلاغةً وإيحاءً بالشدة، إذ قال: ﴿وإِنَّما صحَّ أَن يُنهى الإنسان بصيغة النهي عن الشيطان؛ لأَنّه أَبلغُ في التحذير من حيث يقتضي أن يطلبنا بالمكروه ، ويقصدُنا بالعداوة، فالنهي له يدخل فيه النهي لنا عن ترك التحذير منه﴾[1]. وقد تابع الفخر الرازي (ت606هـ) سابقه في هذا إذ قال : ﴿حَذَر أَولادَ آدم من قبول وسوسة الشيطان فقال: ﴿يابني آدم لا يفتننكم﴾ (...) فبهذا الطريق حذّر تعالى بني آدم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان، فقال : ﴿لا

---

[1] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 224/17، التفسير الكبير 22/ 131، روح المعاني 16/ 283.
[2] التفسير الكبير 4/5.
[3] الجامع لأَحكام القرآن 2/ 209.
[4] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 2/ 317.
[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 409، ينظر: الجامع لأحكام القرآن 186/7، تفسير القرآن العظيم 199/2.

يفتننكم»[2] يتضحُ من هذا أَنَّ الرازي أَشار إلى طريقة التحذير وهي النهي إذ ذكر «فبهذا الطريق حَذّرَ تعالى بني آدم بالاحتراز» وأَيُّ طريقٍ، وأَيُّ أُسلوب اعِتمدته الآية المباركة إلاَّ أُسلوب النهي؟ ومثل هذا ما ذهب اليه ابنُ كثير (ت 774هـ) في الآية محل البحث إذ قال: «يُحذّرُ تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيّناً لهم عداوته القديمة والتسبب في هتك عورتهِ بعدما كانت مستورة»[3]. وحين اجتمعت كلمةُ المفسرين على أَنَّ النهي أَفاد التحذير نرى إجماعاً آخر وهو أَنَّ التحذير في الآية المباركة قد عُلِلَ، قال الزمخشري (ت538هـ): «إنه يراكم هو وقبيله، تعليل للنهي، وتحذيرُ من فتنتهِ»[4]. ولم يكُ تعليل التحذير في الآية المباركة موجوداً فحسب بل التأكيدُ كان له وجودُ ايضاً قال الفخر الرازي (ت606هـ) في قوله تعالى: «ينزع عنهما لباسهما»: «تأكيد التحذير لبني آدم؛ لأَنَّه لما بَلَغَ تأثير وسوسة الشيطان في حَقّ آدم مع جلالة قدرهِ الى هذا الحد فكيف يكون حال آحاد الخلق؟»[5] ولما عُلِلَ التحذيرُ وأُوكّدّ أصبح أَكثر قوةً مما لو لم يُعللْ ويؤكّد.

ويطالعُنا من المعنى ذاته قولُه تعالى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا» مريم / 43. وأنت تلاحظ في الآية الكريمة النهي بقوله: (لا تعبد) جاء لإفادة الزجر حتى لا يخرج المخاطب الى المنهى عنه، كما يُفيد النصح من عبادة الشيطان[1]. لو تأملت المعاني التي سبقت النهي لَلاَحظت فيها من التنبيه، والنصح والإرشاد ما لا يخفى، فقوله تعالى: «ياأبت لم تعبد ما لايسمع ولا يُبصر ولا يغني عنك شيئاً» تنبيهُ على أَن الإله ينبغي أن تتوافر فيه هذه الأُمور ليكون العبد آمناً من الوقوع في الغلط[2]. وكأَنَّ إبراهيم -عليه وعلى نبينا وآله السلام- قيل أَن يُحذّر أَباه بإسلوب النهي عمد إلى أُسلوب آخر يستدعي به شد الأَذهان والانتباه. ومن كلام للرازي في بيان المعنى الذي أَفاده النهي في الآية محل البحث قال: «أَمّا هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي حمله على النظر في تلك الدلالة»[3] أي : دلالة عبادة الشيطان التي تؤدّي إلى التهلكة. وقد طاف الآلوسي (ت 1270 هـ) في رحاب المعنى ذاته اذ ذكر أَنَّ النهي أَفاد التنبيه، كما أَنَّه جاء مؤكداً بقوله تعالى: «إِنَّ الشيطان كان للرحمن عصيا»[4] ومما رآه الآلوسي يكون التحذير أَشدَّ لهجةً؛ لكونه مؤكداً. وما يزال الباحثُ مع مواضع الذكر الحكيم التي حَذّرت من الشيطان الرجيم

---

[2] التفسير الكبير 14/ 53، ينظر: البرهان في علوم القرآن 2/ 259.
[3] تفسير القرآن العظيم 2/ 213.
[4] الكشاف 2/ 98، ينظر: التفسير الكبير 14/ 53.
[5] التفسير الكبير 14/ 53.
[1] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 16/ 129.
[2] ينظر: التفسير الكبير 21/ 224.
[3] المصدر نفسه 21/ 224.
[4] ينظر: روح المعاني 97/16.

حتى يطالعُه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاطر 5-6 لقد أَشار عدد من العلماء إلى أَنَّ الغرور عُنِي به الشيطان أو الدنيا[5]. وسواء أَعُني بالغرور الشيطان أَم الدنيا فالتحذيرُ منهما في الآية المباركة مما لايخفى فتحذيرُ بإسلوب النهي، وآخر بإثبات العدواة للشيطان. قال صاحبُ مجمع البيان في الآية محل البحث: «إنّه سبحانه وتعالى حذّرهم الشيطان»[1] . أَمّا الآلوسي (ت1270هـ) فقد ذهب إلى ما ذهب إليه سابقوه في تفسيره للغرور مشيراً إلى الفائدة التي أَفادها تكرار النهي في الآية الكريمة، قال: «وتكريرُ فعل النهي للمبالغة فيه، (...) كونوا على حذرٍ منه في مجاميع أَحوالكم»[2]. ومن المواضع التي حُذِّر فيها من الشيطان وقد وُجِّه التحذير فيها لآدم –عليه السلام- قولُه تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ طه 117. وأنت تلاحظ الآية الكريمة اعتمدت أسلوب النهي (فلا يخرجكما) للتحذير من إخراج آدم –عليه السلام- من الجنة. قال أبو حيّان (ت 754هـ) في الآية محل البحث: «عَرَّف تعالى آدمَ عداوة إبليس له ولزوجته ليحذر»[3]. من هذا القول تلاحظ النهي قد سُبق بتنبيه وذلك بإثبات عداوة الشيطان، وعلى هذا ينبغي عليه الحذر حتى لا يكون العدو المذكور سبباً في اخراجه من الجنّة. أَمَّا إبنُ كثير فلم يبتعد عن هذا المعنى حيث ذكر أَن النهي في الآية بمثابة «إيّاكَ أَن تسعى في إخراجك منها، فتتعب ، وتُعنى، وتشقى، في طلب رزقك. فانّكَ ههنا في عيشٍ رغيدٍ، هنيٍّ ، بلا كلفة ولا مشقة»[4] وهذه المعاني هي التحذير بعينه. وقد بقي على هذه المعاني عددُ من المفسرين والبلاغيين فقد أفادوا أَنّ النهي خرج ليحذّر آدم من أَن يُختدع بقول الشيطان[5]. ومن المواضع التي جاء فيها أُسلوب النهي لإفادة التحذير ما جاء في ذكر قصّة آدم –عليه السلام- لمَّا نُهي عن الاقتراب من الشجرة، قال تعالى« ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة 35. وأنت تلاحظ الآية الكريمة نهت عن الاقتراب من الشجرة ولم تنه عن الأَكل منها. قال تعالى: «ولاتقربا» إنَّ النهي عن القرب دون الأَكل له من الفائدة مالم يُفدْها لو ذُكِرَ النهي عن الأَكل. قال أَبو حيّان (ت754هـ) «نهاهما عن القربان، وهو أَبلغ من أَن يقع النهي عن الأَكل؛ لأَنَّه إذا نهى عن

---

[5] ينظر: اعراب القرآن، للنحاس 2/ 685-686، التبيان في تفسير القرآن 22/ 413، الجامع لأَحكام القرآن 324/14.

[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 8/ 41.

[2] روح المعاني 22/ 168.

[3] البحر المحيط 6/ 284.

[4] تفسير القرآن العظيم 3/ 163.

[5] ينظر: التفسير الكبير 22/ 123، تفسير المراغي 16/ 159، اعجاز القرآن في دراسة كاشفة للاساليب البلاغة العربية 220.

القربان فكيف يكون الأكل منها؟ والمعنى: لاتقرباها بالأكل»[1]. والى مثل هذا ذهب الآلوسي (ت 1270هـ) إذ قال: «ظاهرُ هذا النهي التحريم، والمنهي عنه الأكل من الشجرة، إلاَ أنّه سبحانه نهى عن قربها مبالغة»[2]. وقد ظلَّ صاحبُ الميزان في المعنى ذاته إذ قال: «وكأنَّ النهي كان عن أكل الثمرة؛ وإنما تعلّق بالقرب من الشجرة إيذاناً بشدة النهي ومبالغة في التأكيد»[3]. وقد تابع السيد عبد الأعلى السبزواري الموسوي سابقيه في هذا إذ بيّن سبب اختصاص النهي بالقرب دون الأكل بقوله: «كنايةٌ عن كثرة الاهتمام بترك المنهي عنه، فكأنه تعالى نهى عن الإقتراب منه فضلاً عن ارتكابه (...)، فيكون محصّل المعنى التأكيد والمبالغة في ترك الأكل من الشجرة»[4]. ومن هذا المعنى قوله تعالى: «وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» الاعراف 19. أشار المفسرون إلى أَنَّ النهي في قوله تعالى: «ولا تقربا» أفاد المبالغة في النهي والتشديد عليه[5]. وما قيل في الآية السابقة يمكن أَن يقال في هذه الآية. ومن الآيات التي حملت هذا المعنى ما جاء في الذكر الحكيم من نهي عن اقتراب المعاصي، قال تعالى« تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» البقرة 187. وأنت تلاحظ الآية المباركة نهت عن اقتراب الحدود والدنو منها، قال الرازي (ت 606هـ) «بُولغ في ذلك فنهى أَن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيّز الحق والباطل»[6]. من هذا يتضحُ أَنَّ الرازي رأى مبالغةً في النهي؛ لأَنَّ الآية نهت عن الاقتراب من تلك الحدود فكيف ارتكابها؟ وإلى مثل هذا المعنى ذهب الآلوسي إذ قال : «النهي عن القرب من تلك الحدود التي هي الأَحكام كناية عن النهي عن قرب الباطل بطريق الكناية التي هي أَبلغ من الصريح»[1]. أَمّا السيد عبد الأَعلى السبزواري الموسوي فلم يكُ بمنأى عن هذه المعاني إذ قال: «النهي عن الإقتراب اليها كنايةُ عن مخالفتها ، عَبّر عنها بالاقتراب لشدة الحيطة ومبالغة في التحذير، فإنَّ من قَرَبَ من شيء أَوشك أن يتعدّاه»[2]. ومن المعنى ذاته يطالعُك قوله تعالى: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» البقرة 229.

وأنت تُلاحظ الآية الكريمة نهت عن تعدّي حدودَ الله واتبعت ذلك النهي بالوعيد لإضفاء الشدة عليه، وقد أشار الفخر الرازي الى أَنَّ الآية الكريمة اتبعت النهي بالوعيد بذكرها الظلم تنبيهاً على حصول اللعن عند مخالفة النهي، وهذا فيه أَعظم التهديد[3] وقد ذهب

---

[1] البحر المحيط 1/ 158.
[2] روح المعاني 1/ 234.
[3] الميزان في تفسير القرآن 1/ 130.
[4] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 1/ 206.
[5] ينظر: التفسير الكبير 14/ 43، روح المعاني 8/ 98، الميزان 8/ 34.
[6] التفسير الكبير 5/ 126.
[1] روح المعاني 2/ 69.
[2] مواهب الرحمن في تفسير القرآن 3/ 85.
[3] ينظر: التفسير الكبير 6/ 110.

الآلوسي الى ما ذهب اليه سابقه فقد رأى تذييل الآية بالتهديد غرضهُ المبالغة في النهي[4].

ومن المواضع التي جاء فيها النهي مختصاً بالقرب قولُه تعالى« لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» النساء 43. وقولُه: «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ» الأنعام 151، وقولُه تعالى: «ولا تقربوا الزنى» الاسراء 32. مما سبق يتبيّن إنَّ أُسلوب النهي حين أُريد به التحذير عن أكل ثمر الشجرة، أو ارتكاب المحرّمات، أو النهي عن الصلاة في حالة السكر ، وغيرها مما سبق إيراده عمد الى أسلوب بلاغي له من الايحاء بالقوة ماليس لسواه، إذ نهت عن الاقتراب مكانياً، فكيف الدخول الى المنهي عنه وممارسته مادياً؟ ومما يلاحظ أن هذه الطريقة أُعتمدت مع النواهي والأَحكام التي يترتب على مخالفتها آثار جمة. لو تأمّلت مواضع الذكر الحكيم التي عُنيت بتنظيم الحياة والشؤون الإجتماعية تلاحظ أُسلوب النهي قد تكرر ذكرُه بشكل ملحوظ، وفي تلك المواضع كان النهي دالاً على التحذير من تجاوز المنهي عنه؛ لأَنَّ بمخالفة المنهي عنه تضطربُ الحياة ويذهب استقرارُها فلنتدبرْ معاً بعض تلك المواضع من الكتاب العزيز. قال تعالى : «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» البقرة / 264. فقد عمدت الآية الى أُسلوب النهي بقوله: «لاتبطلوا» لتحذّر من أَن تكون الصدقة رئاء الناس ويفتخر صاحبها بها. فأُسلوب النهي في هذا الموضع قُصِدَ به الترهيب؛ لما فيه من مظاهر الزجر عن الأَذى والمن[1]. ومن المواضع التي عُنِيتْ بتنظيم الحياة قوله تعالى: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» هود 84-85. تلاحظ في الآيتين الكريمتين القومَ قد نُهوا عن نقص المكيال والميزان. رأى العديد من المفسرين النهي في الآية المباركة (لا تنقصوا) أَفاد التحذير من الغلاء الذي ينزل بهم إذا ما عمدوا إلى التطفيف، قال الشيخ الطبرسي (ت 548هـ): «المعنى : إنّه حذّرهم الغلاء، وهو زيادةُ السعر، وزوال النعمة ، وحلول النقمة»[2]. وقد تابع الفخر الرازي (ت 606هـ) سابقه على هذا المعنى إذ قال: «إنّه حذّرهم من غلاء السعر، وزوال النعمة، إنْ لم يتوبوا، فكأَنّه قال: اتركوا هذا التطفيف وإلاَّ أَزال الله عنكم ما حصل عندكم من الخير والراحة»[3]. لو أَعدت النظر في الآيتين المباركتين تلاحظ القومَ قد نُهوا عن نقص المكيال فأُمِرُوا بإيفاء المكيال ثم نُهوا عن بخس

---

[4] ينظر: روح المعاني 2/ 140.

[1] ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها 92، الصورة الفنية في المثل القرآني 302.

[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 5/ 187.

[3] التفسير الكبير 18/ 40.

الناس أَشياءهم، وهذه السياقات والأَساليب متقاربة الدلالة ، فما الفائدةُ من تكرارها؟ هذا ما أورده الزمخشري وأَجاب عنه، إذ قال: «فإن قلت: النهي عن النقصان أَمْرُ بالإيفاء، فما فائدةُ قوله: أوفوا؟ قلت: نُهوا أوّلاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأَنَّ في التصريح بالقبيح نعياً على المنهي وتعييراً له، ثم ورد الأَمرُ بالإيفاء الذي هو حَسِنُ في العقول مصرّحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه»[1]. ولم ينأ الفخر الرازي عن هذا المعنى فقد أوضح سبب التكرار بقوله: «وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه؛ لأَنَّه قال أوّلاً ولا تنقصوا المكيال والميزان. ثم قال : أَوفوا المكيال والميزان، وهذا عينُ الأَوّل ، ثم قال: ولا تبخسوا الناس أَشياءهم، التكرير يُفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام»[2]. من هذا يتضح اِنَّ أُسلوب النهي الذي أَفاد التحذير قد أُكِّدَ بإسلوبي الأَمر ثم النهي؛ لما للمنهي عنه أَو المحذَّر منه من أَهميةٍ بالغةٍ يُراد الالتزام بها. ومن الشؤون الإجتماعية المهمة العهدُ فقد حَذَّر تعالى من نقضه إذ قال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا» النحل 92. ولا يخفى عليك أَنَّ الآية اعتمدت أُسلوب النهي لتجعله وسيلة تحذّر به من نقض العهد، قال الدكتور فضل حسن: «وها هو القرآنُ يحذّرُ من نقض العهد ويُبيّن ماله من نتائج ضارةٍ وآثار سيئة، فيقول: «ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا»[3]. وفي السورة ذاتها يحذّر الله من أَمر خطير يتضحُ لك عند قراءتك لقوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ» النحل 116. فجاء التحذير من الكذب على الله سبحانه. وفي الآية الكريمة أورد الزمخشري تساؤلاً عن المعنى الذي أفادته الآية ثم اجاب عنه، قال: « فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو فصيح اللسان وبليغُه جعل قولهم كأَنَّه عينُ الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلّت الكذب بحليته وصوّرته بصورته»[4] ومن التحذير من الكذب قوله تعالى: «قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى» طه 61.

وانت تلاحظ ان الآية الكريمة قدمت (ويلكم) التي تُفيد التهديد والوعيد على التحذير[5]؛ وذلك لتُبيّن مدى بشاعة الأَمر المحذر منه، «لأَن موسى (ع) قدّم قبل كل شيء الوعيد والتحذير»[1]. ومن جملة ما جاء في الذكر الحكيم من الشؤون الإجتماعية تحديد طريقة التعامل بين الولد ووالديه، وفي هذا المعنى نقتصرُ على موضع واحد يبين الحرص الشديد والاهتمام البالغ بهذه العلاقة، قال تعالى: «فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا» الإسراء 23. وأَنت

---

(1) الكشاف 2/ 417

(2) التفسير الكبير 40/18.

(3) البلاغة ، فنونها وافنانها 91.

(4) الكشاف 615/2، وينظر: مجمع البيان 390/6، التفسير الكبير20/ 132، تفسير القرآن العظيم 608/2.

(5) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 8/ 18.

(1) التفسير الكبير 22/ 73.

تلاحظ الآية الكريمة اختص نهيها بقوله «أُفٍّ» يدلَّ على أَنَّ النهي شمل أَنواع الإيذاء كلها. قال الرازي (ت 606هـ) : «فإنَّ اللفظ إنما دلَّ على المنع من التأفيف، والضرب أَولى بالمنع من التأفيف، (...) وإذا عرفت هذا فتقول: المنعُ من التأفيف إنّما يدلُّ على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالأَدنى إلى الأَعلى»[3]. ومن التحذير باسلوب النهي في العلاقة بين الأَب وابنه ما ورد ذكرُه في قصة يوسف –ع- حين حذّر يعقوب –ع- ابنه بعدم ذكر رؤياه لإخوته، قال تعالى«قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» يوسف /5. تلاحظ ان الآية المباركة عمدت إلى أُسلوب النهي (لاتقصص) لتفيد معنى التحذير والنصيحة الموجّه من يعقوب –ع- الى ابنه[3]. لما في القصة من آثار جمّة تؤدي إلى الكيد الذي سيلاقيه يوسف –ع- ، لقد أشار الزمخشري (ت 538 هـ) إلى أَنَّ الأَثر المترتب على رواية القصة وهو قوله: (فيكيدوا) له من البلاغة في التخويف التي تتضحُ من قوله: «فيكيدوا ، منصوب باضمار (أن)، والمعنى: إنْ قصصتها عليهم كادوك. فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كمل قيل: فيكيدوني؟ قلت: ضمن معنى فعل يتعدّى باللام ليُفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون اكد وأبلغ في التخويف»[4]. ومن الطبيعي أَن يعمد يعقوب -ع- الى التعابير التي توحي بشدة العاقبة ليتوافق مع تحذيره لولده كي يتجنّب ما حُذِّر منه.

وفي القصة ذاتها خاطب يعقوب -عليه السلام- بنيه يحذرهم أمراً، قال تعالى «وقال يابنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة» يوسف /67، وأنت تلاحظ ان يعقوب. -عليه السلام- ينهى بنيه عن الدخول من باب واحد لسبب أَوضحه الآلوسي بقوله: «نهاهم. -عليه السلام- عن ذلك حذراً من إصابة العين»[1]. فالموضوعات كلاهُما اللذان جاءا على لسان يعقوب –ع- أفادا التحذير الذي ورد بإسلوب النهي. ومن التحذير بالإسلوب ذاته قوله تعالى :«ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا» الاسراء 27/26. مما لا يخفى عليك أَنَّ الآية جعلت المبذّر أَخاً للشيطان؛ لتنبّه على قبح هذا العمل. قال الرازي: «نبّه تعالى على قبح التبذير بإضافتهِ إياه إلى أَفعال الشياطين، فقال: إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، والمرادُ من هذه الأُخوّة التشبيه بهم في هذا الفعل القبيح، وذلك؛ لأَنَّ العرب يُسمّون الملازم للشيء أَخاً له فيقولون: فلانُ أخو الكرم والجود»[2]. وحين حُذِّر من التبذير وورد في سياق التحذير ذكر الشياطين كان التحذير أَشد قوةً وتأثيراً.

---

[3] المصدر نفسه، 20/ 189، ينظر: روح المعاني 16/ 55.
[3] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 17/12، مجمع البيان في تفسير القرآن 209/5، التفسير الكبير 89/18.
[4] الكشاف 2/ 444.
[1] روح المعاني 15/13.
[2] التفسير الكبير 20/ 193، وينظر : الميزان في تفسير القرآن 13/ 82.

قد يرد النهي ويفهم التحذير منه لكن ليس بإسلوب النهي الشائع عند النحاة. بل بإسلوب آخر تفهمُه من السياق تارةً ويدلُ عليه المفسّر تارةً اخرى فلو تأمّلنا معاً قوله تعالى :«أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ» التوبة 13. نجد الاستفهام بقوله : «أتخشوهم» جاء لإفادة النهي الذي يُعطي معنى التحذير من الشيء المنهي عنه. لقد صرّح أَحد الباحثين بأَنَّ النهي في الآية محل البحث أَفاد الترهيب ويتضحُ هذا من قوله : «جاء النهي هنا بإسلوب الاستفهام إنكاراً لفعل الخشية من غير الله، وبهذا يكون قد أَفاد الترهيب من هذا الفعل»[3].

مما سبق يتبين أَن القرآن الكريم حين اعتمد أُسلوب النهي بدلالة التحذير أَراد التنبيه على عظم المنهي عنه لاسيما أَنَّ تلك الدلالة وردت في مواضع الذكر الحكيم التي تقرر العبادة لله وحده لا يشاركه أحدُ بها، كما وردت في آيات الأَحكام، والشؤون الإجتماعية التي يؤدّي تجاوزها الى اضطراب الحياة. كلُّ ذلك جاء بإسلوب يُنبئُ عن شدة لهجة التحذير فالنهي عن الاقتراب دون فعل الشيء كما سبق بيانه، وذكر الأَدنى والاستدلال به عقلياً على الأَعلى، فضلاً عن التكرار الذي أفاد التأكيد الذي ورد في بعض المواضع، أو سبق النهي بألفاظ توحي بالوعيد مثل (ويل) كلُّ هذا إنَّما أُريد به بيان عظم التحذير الذي أفاده النهي.

النداء

لغة: «الصوت مثل الدُّعاء، والرُّغاء، وقد ناداه، ونادى به وناداه منادةً ونداءً ، اي: صباح به، والنِّداء ممدود، الدعاء بأرفع صوت، وقد ناديته نداءً ، وفلان أندى صوتاً من فلان أي: أَبْعَدُ مذهباً وارفع صوتاً ، وتنادوا، اي نادى بعضهم بعضاً»[1].

أما في اصطلاح النحاة فهو «تنبيه المدعو ليقبل عليك»[2]، أو «التصويت: بالمنادى ليعطف على المنادي»[3]. أَما البلاغيون فقد أفادوا المعنى ذاته فقد ذكر السبكي في بيانه للنداء أنه «طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصه»[4]. وهذه الأحرف المخصوصة هي : «الهمزةُ، وأي، و يا، و آ، وآي، و أيا، و هيا، و وا»[5]. وأنت تلاحظ تعدد الأَحرف التي أُستعملت في أُسلوب النداء ولم يكُ تعددها لمجرّد الكثرة بل كان تعددها تبعاً لدلالات معينة ومن تلك الدلالات المسافة التي تفصل بين المنادي والمنادى، فقد خُصّصت الهمزة وأي لنداء القريب، أي حين تكون المسافة الفاصلة بين المنادي والمنادى قريبة وقد عُمد الى هذين الحرفين؛ لانعدام المد فيهما فإنَّ العرب يمدون أحرف النداء «للشيء المتراخي او للإنسان المعرض عنهم، إذ يرون أَنَّه لا يقبل

---

[3] الترغيب والترهيب في القرآن الكريم (دراسة بلاغية): 94.
[1] لسان العرب 15/ 315-316.
[2] الإصول في النحو لأبي بكر بن السراج ، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، النجف ، 1973م، 1/ 401.
[3] شرح المفصّل 8/ 118.
[4] عروس الافراح، لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الجلبي،مصر، 2/ 333.
[5] كتاب سيبويه 1/ 325.

عليهم الا باجتهاد او النائم المستثقل»[1]. أمَّا الأدوات الأخرى فقد خُصصت للمسافات البعيدة[7]. استعمل القرآن الكريم أُسلوب النداء في مواضع عدّة. ولمّا كانت المواضع التي ورد فيها هذا الأُسلوب متعددة رافقها تعدد الدلالات التي أفادها أُسلوب النداء، ومن الدلالات التي تفيدنا في هذا الموضع التحذير، فالآية المباركة تعمد إلى أُسلوب النداء لتستدعي إصغاء المخُاطب عن طريق النداء، فإنَّ الله سبحانه وتعالى حين ينادي الإنسان يريد أن يَقْبِلَ عليه ولمّا يستحوذ على سمعه يُلقي ما يريده عليه. «فان الفائدة التي يتوخاها القرآن الكريم من النداء لفت نظر المنادي وتنبيهه على الأمر الذي يلي النداء[3]، وهذا يوضّح أَهمية ما يأتي بعد النداء سواء أَكان أَمراً أم نهياً أم إخباراً. وفي هذا الموضع لنتأمّل معاً بعض آيات الذكر الحكيم التي اعتمدت أُسلوب النداء في مواضع التحذير.

قال تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة 47. مما يُلاحظ في الآية المباركة افتتاحها بالنداء وذلك في قوله تعالى:

«يابني اسرائيل» وهؤلاء القوم قد جاءهم ذكرُ من الله سبحانه قبل بعثة النبي محمد (ﷺ) فكفروا به، ثم كفروا ببعثة النبي محمد (ﷺ) وكادوا لدعوته الكيد تلو الكيد فعمد تعالى إلى تذكيرهم بنعمه التي أَنعمها عليهم محذّراً إياهم قسوتهم من الرسالة المحمديّة وجاء الأَمر بالتذكير مسبوقاً بالنداء حتى يستدعي انتباههم ويشد أَذهانهم ثم يُلقي عليهم ذلك التذكير.

ففي استعمال (يا) في هذا الموضع دلالة على غفلتهم وتماديهم بالباطل حسبما أَفاده أَحدُ الباحثين إذ قال : «فجاء النداء بالحرف (يا) وأَنزلهم منزلة البعيد بسبب غفلتهم من الحق وتماديهم بالباطل»[4]، وحسب هذا لم تكُ الآية تحذيراً لليهود فحسب بل تحذير لكلِّ من يبلغهُ النداء حتى لا يكون مثل هؤلاء القوم فهي تحذير «من مرالق الطريق التي عثرت فيها اقدام الأُمم المستخلفة قبلهم»[1]. ومن المعنى ذاته قولُه تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الحج 1. وأنت تلاحظ ان الأَمر بالتقوى والتخويف من زلزلة الساعة قد سبِقَ بإسلوب النداء، فحين يُقْبلِ المخُاطَب على المُخاطِب ويكون معه يقرر له ما ينفعه ويجنبه المخاطر[2]. فالنداءُ استدعى الانتباه من يوم القيامة التي من علاماتها الزلزلة والاضطراب «لينظروا الى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوّروها في عقولهم»[3]. ومن الأمر الذي سُبق بنداء قوُله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر 1-2 وأنت تلاحظ ان الآية المباركة تأمر النبي (ﷺ) بالإنذار وقد صرّح عدد من المفسرين في

---

(1) كتاب سيبويه 1/ 325.
(7) ينظر: شرح ابن عقيل 2/ 255.
(3) الترغيب والترهيب في القرآن 97.
(4) المرجع نفسه 102.
(1) في ظلال القرآن 1/ 78.
(2) ينظر: البحر المحيط 6/ 349، أنوار التنزيل وأسرار التأويل 2/ 57، روح المعاني 17/ 110.
(3) الكشاف 3/ 141.

الآية محل البحث ان الامر في قوله: (انذر، يعطي معنى حَذِّر)[4]. والأمر بالتحذير لم يَكُ مفاجاءةً بل سُبق بتنبيه وطلب إقبال، ولمّا تمَّ الانتباه والاقبال اللذين نتجا عن النداء جاء الأمر، وهذا يدلُّ على عظيم الشيء المراد فعلُه؛ لاستدعائه الإقبال التام. ومنه ايضاً قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الجمعة 6. الآية المباركة تدحض ادّعاءات اليهود الزائفة بأنهم أولياء الله فإن كانوا كذلك فِلمَ كرههم للموت وملاقاة الله؟ فالوليُّ بطبيعة الحال ﴿يحبُّ لقاء وليه، ومن أَيقن أَنه ولي الله وجبت له الجنة ولا حاجب بينه وبينها الا الموت ، فأحب الموت وتمنى أَن يحلَّ به فيدخل دار الكرامة ويتخلّص من هذه الحياة الدنية﴾[5]. هذه المعاني مُهّدَ لها بالنداء، وأُستعمل فيها حرف نداء البعيد مع كون الله سبحانه قريباً منهم عالماً بحالهم للدلالة على ﴿تنبيههم على غفلتهم مرهّباً المسلمين من هذه الغفلة لكي لا يقفوا مثل هذا الموقف وينالوا سخط الله تعالى كما نالته اليهود بغفلتها عن الحق﴾[1]. ومن إنزال القريب منزلة البعيد للتنبيه على عظم الأَمر المدعو اليه قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الكافرون 1-2.

النداء صادرُ من النبي (ص) الى الكافرين ، ولم يَكُ الكافرون بمنأى عنه بل قريبون منه مكاناً لكن الآية المباركة عمدت الى حرف النداء (يا) الذي يُفيد البعيد لتُدلَّ على أنهم بعيدون عن الرسول بكفرهم بالله سبحانه وتعالى، وهذا تنبيهُ وتحذير من عظم ما ارتكبوه . وقد ذكر الآلوسي الدلالة التي يفيدها النداء في الآية محل البحث بقوله: ﴿ولعل نداؤهم بـ(يأيها) للمبالغة في طلب اقبالهم لئلا يفوتهم شيء مما يلقى اليهم، (...) او للمسارعة الى ذكر ما يقال لهم لشدة الاعتناء[2] كما ورد في الذكر الحكيم الامر مسبوقاً بالنداء فقد ورد اسلوب النهي مسبوقاً بنداء ايضاً. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ النساء43. وأنت تُلاحظ الآية المباركة عمدت إلى أُسلوب النهي لتحذّر من قرب الصلاة في حالة السكر، وقد قدّمت لهذا التحذير أُسلوب النداء لتستدعي انتباه المُخاطَب الى هذا التحذير، ولم يخلُ النداء بـ(يا) من الدلالة، فقد أَنزلت الآية المخاطبين منزلة البعيد لتفيد عظيم الشيء المنهي عنه على الرغم من أَنَّ الله سبحانه أَقرب من حبل الوريد لعباده.

---

[4] ينظر: الكشاف ط بيروت 645/4، التفسير الكبير 190/30، الجامع لأحكام القرآن 61/20، البحر المحيط 8/ 370.

[5] الميزان في تفسير القرآن 19/ 267.

[1] الترغيب والترهيب في القرآن 102.

[2] روح المعاني 250/30.

ومن المعاني التي يُفيدها النداء ما تدخل ضمن التحذير تعظيمُ الامور. قال سيبويه : «وإذا قلت يا عجباً فكأنك قلت: تعال يا عجبُ فإنَّ هذا من أيامك»[3] من هذا يتبين أنك لما تنادي غير العاقل للدلالة على تعظيم أمر المنادى . ومن هذا ما ورد في الذكر الحكيم من مواضع التحذير قولُه تعالى: «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» يس 30.

قال الزمخشري : «ياحسرة على العباد ، نداء للحسرة عليهم، كأنَما قيل لها: تعالي ياحسرة فهذه من أحوالك التي حقِّك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسل، والمعنى: إنهم احقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون، أو هم متحسَّرُ عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين، ويجوز ان يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحّنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه»[1]. وقد تابع الزمخشري على هذا عدد من المفسرين إذ رأوا نداء الحسرة يُفيد تعظيمها. قال الطبرسي: «وما معنى دعاء الحسرة وهي مما لايعقل، الجوابُ: إنَّ العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أَمر عظيم تقع فيه جعلته نداءً، فلفظُه لفظ ما ينبّه والمنبّه غيرُه (...) ومعنى النداء تنبيه على أمر عظيم»[2]. أَما ابو حيان فقد ذهب الى ما ذهب اليه سابقاه فقد قال : «ونادوا الحسرة وان كانت لا تجيب على طريق التعظيم»[3]. فالمتحسّر ينادي كلَّ من يتبادر إلى ذهنه ظنّاً منه أَنه يُنقذه من العذاب الذي حلَّ به حتى يلجأ الى ما لايعقل، فأيُّ تخويف وتحذير بعد هذا؟

قال الآلوسي : «كأَنَّ المتحسّر انحسرت عنه قِواه من فرط ذلك، أو ادراكه إعياء عن تدارك ما فرّط به، والظاهرُ أَنَّ (يا) للنداء، وحَسْرةُ هو المنادى، ونداؤها مجاز بتنزيلها منزلة العقلاء، كأَنَّه قيل: ياحسرة احضري فهذه الحال من الأَحوال التي من حقّها أَن تحضري فيها»[4].

رأى ابنُ جني قولَه تعالى: «ياحسرةً على العباد» قُرأت «ياحسره على العباد» بالوقف على الهاء، وقد علل ذلك، بقوله: «إنَّ قراءة من قرأ ياحسره على العباد بالهاء ساكنة، إنما هي لتقوية المعنى في النفس؛ وذلك أَنَّه في موضع وعظ، وتنبيه ، وإيقاظ، وتحذير، فطال الوقوف على الهاء كما يفعلُه المستعظم للأمر المتعجّب منه»[5]. وقد رأى الآلوسي ما رآه سابقه من أَنَّ الوقف على قوله: «ياحسرة» يضفي على المعنى دلالة التعظيم فقد قال: «قف على حسره» وقفاً طويلاً تعظيماً للأمر، ثم قل : (على العباد) ووقفوا على الهاء مبالغة في التحسّر؛ لما في الهاء من التّأهُّه»[1]. ومن المعنى الدلالة ذاتها يطالعك

---

[3] كتاب سيبويه 2/ 217-218، ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين 298.
[1] الكشاف 13/3.
[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 292، ينظر: التبيان في تفسير القرآن 7/ 123.
[3] البحر المحيط 4/ 107.
[4] روح المعاني 23/ 3-4.
[5] المحتسب 2/ 208.
[1] روح المعاني 23/ 4.

قولُه تعالى: ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)) الانعام31.

وأنت تلاحظ في الآية الكريمة الخاسرين ينادون الحسرة وكأنها تسمع نداءهم وما ذلك الا بياناً لشدة هول الموقف الذي هم فيه. ومن ندم المفرطين وجزعهم قولُه تعالى: ((يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)) الكهف 42.

قال الزمخشري : ((يجوز أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما كان منه ودخولاً في الإيمان (...) كلمةُ أُلجئ اليها فقال جزعاً مما دهاه من شؤم كفره. ولولا ذلك لم يقلها))[2]. وتمنّي عدم الاشراك تحذير من الإشراك.

الاستفهام

لغة ((معرفتُك الشيء بالقلب، فَهِمَه فَهْمَاً وفَهَماً وفهامه عَلِمَه (...) واستفهمه مسألة أن يُفْهِمَهُ، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهّمْتَه تفهيماً))[3].

أَمَّا الاستفهام عند النحاة فلم يك مغايراً لمعناه المعجمي، فقد ذكر ابنُ هشام أَنَّ الاستفهام طلبُ الفهم[4]. أمّا البلاغيون فقد أَفادوا المعنى ذاته إذ ذكر السبكي في حدِّهِ للاستفهام بأَنَّه : ((طلبُ الفهم))[5].

لم يقتصر الاستفهام على دلالة طلب الفهم فحسب بل يخرج لإفادة دلالات عدة تفهمها من طريقة الخطاب (التنغيم) الذي يخاطبك به المُسْتَفْهِم إنْ كنت متلقيا، وتستدلُّ على دلالته من السياق إن كنت قارئاً. ومن الدلالات التي تهمنا في هذا الموضع التحذير، فقد ورد عن العرب استعمال أُسلوب الاستفهام ليُحذّروا به. قال سيبويه : ((حَدَّثنا بعضُ العرب أَنَّ رجُلاً من بني أَسد قال يومَ جَبَلَة واستقبلهَ بعيرُ أعور فتطيّر منه، فقال : يابني أَسد أعور وذا ناب؟! فلم يُرد أَن يسترشدهم ليُخبروه عن عوره وصحّته لكنه نبههم كأَنّه قال: أتستقبلون أعور وذا ناب؟! فالاستقبال في حال تنبيهه إياهم كان واقعاً (...) وأراد أَن يُثبت لهم الأعور ليحذروه))[1].

من هذا يتّضح أَنَّ الاستفهام خرج من دلالته الأَصلية (طلب الفهم) الى دلالة أَخرى تم التوصّل اليها بطريق الاستدلال العقلي؛ لأَن ((الاستفهام في أَصل وضعهِ يتطلّب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه))[2] وإذا كان الوصول إلى الدلالة عقليّاً يكون تأثيرُها في نَفْسِ متلقيها عظيماً؛ لذا اعتمد القرآنُ الكريم أُسلوب الاستفهام ليُدلَّ به على التحذير. ويتمُّ ذلك عن طريق تجسيد الموقف ورسم الحدث أَمام العباد ليتدبرّوا تلك

---

(2) الكشاف 2/ 724.
(3) لسان العرب 12/ 459.
(4) ينظر: مغني اللبيب 1/ 13.
(5) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص 2/ 246، ينظر:البرهان في علوم القرآن 326/2.
(1) كتاب سيبويه 1/ 343. ينظر: علم المعاني 55، جواهر البلاغة 95.
(2) من بلاغة القرآن ، لأحمد بدوي، دار النهضة، القاهرة، 1978م : 163.

الأَحداث بأناة. وفي هذا الموضع من البحث لنتأمل معاً بعض آيات الذكر الحكيم التي وظّفت الاستفهام لتدلَّ به على التحذير.

إذا أَنعمت النظر في مواضع التنزيل العزيز التي ذكرت الكفر أَو التنفير منه تلاحظ بعضها اعتمد أُسلوب الاستفهام ليُدلَّ به على شناعة الكفر وتهويل جرمه، وما ذلك الا تحذيرُ من الكفر. قال تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ)) الانعام 93. مما يُلاحظ في الآية المباركة أَنها استفهمت عن عظم ذنب من يفتري على الله الكذب وتركت جوابَ سؤالها للقارئ أو المتلقّي يستنتجه حين يتأمّل معنى الاستفهام. قال الرازي في بيانه لدلالة الاستفهام في الآية محل البحث: ((يُفيد التخويف العظيم))[1].

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ((ام تقولون على الله ما لا تعلمون)) البقرة 80 فقد أُخرج الاستفهام مخرجَ التحذير من هذا الفعل. قال الطبرسي ((هذا توبيخ من الله سبحانه لهم))[2]. ومن هذا المعنى قولُه تعالى: ((أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)) الاسراء 40، فجاء الاستفهام راداً ردَّ تحذير وإنكار لادّعاء المشركين بأَنَّ الملائكة أُناث وقد اصطفاهم الله سبحانه، فأنكر الله تلك الافتراءات وجعلها منافيةً للعقل، وأوقع الشيء المنكر بعد حرف الاستفهام؛ للدلالة على أَنَّه غير حاصل ومدّعيه كاذب[3]. ومن إنكار الكفر والتحذير منه يطالعُك قولُه تعالى : ((وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا)) الكهف 35-37. ولا يخفى عليك الحوار في الآيات المباركة بين من شيّد جنةً في الأَرض وبين صاحبه، وقد جاء إنكار الكفر وبيان شناعتهِ بعد أَن ظنَّ صاحبُ الجنة أَنها لن تبيد بإسلوب الاستفهام الذي اعتمد الهمزة، وقد أفاد دخول الهمزة على الفعل الماضي دلالة التوبيخ الى جنب الإنكار[4]؛ لأَنَّ الرجل المؤمن حين أَنكر على صاحب الجنة قوله الذي ادعى فيه بأَنَّ جنته لن تزول استحق أَن يُوبخ وينكر عليه فعله ((فأفاد الاستفهام هنا الترهيب من الإشراك بالله تعالى وانكار المعاد، ثم أَنَّ الإنسان يجب عليه أن لا يطغى على الله))[5]. ومما يحسب من الدلالة ذاتها قولُه تعالى: ((أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ، أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ

---

[1] التفسير الكبير 13/ 84-85.

[2] مجمع البيان في تفسير القرآن 5/ 122.

[3] ينظر: البرهان في علوم القرآن 2/ 330-331.

[4] ينظر: دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني النحوي، قراءة وتعليق: ابو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ط2، 1989م :140.

[5] الترغيب والترهيب في القرآن 81.

الرَّحْمَانِ عَهْدًا ، كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا» مريم 77-79. ولا يخفى عليك إنكار الكفر والتوبيخ منه الذي أفاده الاستفهام، ثم تُبع ذلك بالوعيد الذي توعدَّ الله سبحانه به من يقوم بهذه الأعمال، وهذا بدوره يزيد التحذير في الآية من الكفر. ومن تحذير الله سبحانه عباده من اتخاذ إله غيره بإسلوب الاستفهام قولُه تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» القصص 72-74. وأنت تلاحظ تكرار أُسلوب الاستفهام في الآيتين الكريمتين إذ ذكر تعالى: «أرأيتم» و «مَنْ إله» و « أين شركائي» وكلُّ هذا ترهيبُ وتحذير من عبادة غير الله سبحانه وتخويف من هذا العمل[1].

ومن الاستفهام عن الشركاء المزعم وجودهم قولُه تعالى: «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقولُ للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون» الأنعام 22. فالاستفهام جيء به لزيادة عذاب من زعم أَن له شريكاً يلجأ اليه، فقيل له: أَين شريكُك؟ ولماذا لم يحضر معك اليوم؟ فلا جواب الا التحسر والندم على تلك المزاعم، وبهذا أدى الاستفهام أروع معاني الترهيب والتحذير من تلك الافعال؛ ومن إنكار عبادة غير الله من جهة وتقرير عبادة الله وحده من جهة أُخرى بإسلوب الاستفهام قولُه تعالى: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يس 20-22. ولا يخفى عليك حديث الرجل الذي ينصحُ فيه القوم ويرشدهم لما فيه سعادتهم ويحذّرهم مما يؤدّي بهم الى الهاوية. فقد اعتمدت الآية الاستفهام لتبين إنكار المتكلّم على نفسه عبادة غير الله، وإنكاره على نفسه ذلك الفعل «ليجعلهم أكثر تقبّلاً للنصيحة فلا يُثير في نفوسهم الغضب بمجاهرتهم بالنكير وإنما يطوي الإنكار في أثناء الكلام»[1]. وبهذا الأُسلوبِ اللطيفِ الرقيقِ يكون قد أفاد الترهيب من عبادة غير الله؛ لأَنَّ تلك العبادة لو كانت نافعةً لاتخذها لنفسه فإنه أُولى بها، وما دامت عكس ذلك لم يرضَ بها لنفسه وحذّر غيَره منها بإسلوب مهذّب.

---

[1] ينظر: التبيان في تفسير القرآن 20/ 173 و 177.
[1] الترغيب والترهيب في القرآن 85.

لو تتبعت مواضع الذكر الحكيم التي أَخبرت عن الأُمم السابقة تلاحظ أَنَّها اعتمدت أُسلوب الاستفهام كثيراً لإفادة تحذير السامع كي يتعظ بمن قبله، فلنقفْ سوية عند بعض مواضع الذكر الحكيم التي أخبرت عن الامم السابقة معتمدة الاستفهام.

قال تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الانعام 5-6. وأنت تلاحظ الآية المباركة وظفت اداة الاستفهام (كم) لبيان الهلاك الذي أُلحق بالسابقين نتيجة تكذيبهم الحق. لقد أفاد المفسرون أَنَّ الاستفهام في الآية المباركة أريد منه التحذير[2]؛ وذلك لأَنَّ السامع إذا علم بإهلاك من قبله وعلم سبب الهلاك حذره ويطالعك من هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ الأعراف 4. وأنت تلاحظ الاستفهام في الآية المباركة يستفهم عن القرى التي أُهلكت بسبب عصيانها ربها، ومما يُلاحظ في الآية أَنها استفهمت عن القرى التي أُهلكت فجاءها البأس، والمفروض ان يكون الاستفهام عن القرى التي جاءها البأس الذي نتج عنه الهلاك. قال الفرّاء في هذا المعنى: «إنما أتاها البأسُ من قبل الهلاك ، فكيف تقدّم الهلاك؟ قُلت: لأَنَّ الهلاك والبأس يقعان معاً، كما تقول: اعطيتني فأحسنت ، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله وانما وقعا معاً فما سستجيز ذلك، وإن شئت كان المعنى، وكم من قرية أهلكناها فكان مجيء البأس قبل الهلاك، فأُضمرت كان، وإنما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى ولا يكون في الشروط التي خلفتها بمقدم معروف أن يُقَدّم المؤخر، أو يُؤخر المقدم مثل قولك: ضربته فبكى، وأعطيته فاستغنى الا أَن تدع الحروف في مواضعها، وقولُه: «أهلكناها فجاءها» قد يكونان خبراً بالواو، أهلكناها وجاءها البأس بياتاً»[1] من هذا يتبين أَنَّ المُسْتَفْهَم عنه إذا أُريد به الهلاك أو البأس فلا فرق بينهما؛ لأَن البأس هو الهلاك والهلاكُ هو البأس، وفي وجه آخر رأَى الفرّاء ذلك على إضمار (كان). وقد ذهب الشيخ الطوسي الى مثل ما ذهب اليه سابقه فقد ذكر:«أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسُنا، وقد قيل: هو مثلُ زرني واكرمني فإنَّ نفس الإكرام هي الزيارة، أهلكناها فجاءها بأسُنا، فكان صفة اهلاكنا إنْ جاءهم بأسُنا»[2]. أمّا النحاس فقد رأى في الاستفهام عن الهلاك دون البأس دلالةُ غير ما رأى سابقه وذلك بقوله: «فإن قلت: فما وجه دخول الفاء في قوله: «فجاءها بأسُنا» والبأس لا يأتي المهلكين انما يجيئهم البأس قبل الهلاك. ومن مجيء البأس يكون الإهلاك ؟ فإنّه يكون المعنى في قوله: «أهلكناها» قربت من الهلاك ولم تُهلك بعد، ولكن لقربها من الهلاك ودنوها وقع عليها لفظ الماضي لمقاربتها له وإحانته إياها، ونظيُر هذا قولهم: قد قامت الصلاة (...) فأوقع عليها لفظ

---

[2] ينظر: الكشاف 2/ 5، مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 275.
[1] معاني القرآن 1/ 371.
[2] التبيان في تفسير القرآن 8/ 372.

الماضي على الهلاك لمقاربته منه، ومراده الآتي، وكان المعنى: وكم من قريةٍ قاربت الهلاك فجاء البأسُ ليلاً او نهاراً»[3]. وهذا الرأي يصرف الاستفهام الى وقت العذاب الذي تمَّ فيه البأس والهلاك. وعلى تباين الرأيين في تحديد المُسْتَفْهم عنه تبقى دلالة الاستفهام واحدة وهي تحذير السامع حتى لاتكون نهايته نهاية من ذُكِرَ في الآية. قال الشيخ الطوسي في الآية محل البحث: «إنّ الله أهلك قريات كثيرة بتمرّدهم في المعاصي فحذّر أَن يُعمل مثل عملهم فينزل بالعامل مثل ما نزل بهم»[4]. ومثله ما ذهب اليه الطبرسي إذ قال: «وهذا تحذير أن ينزل بهم ما نزل بأولئك ، فقال لهم: وكم من قرية»[5]. ومن أخبار الأُمم السالفة التي جيء منها في الذكر الحكيم لُيؤخذ بها العظةُ والحذر مما كان عليه المعاقب قولُه تعالى: «الم ترَ كيف فعل ربُّك بعاد» الفجر 6. أشار عدد من المفسرين في الآية محل البحث الى أَنها تحذيرُ للسامعين لئلا يكونوا مثل سابقيهم فيستحقوا عذاب الله[1].

اما السيد قطب فقد بَيّن إفادة أُسلوب الاستفهام في هذا المحل بقوله: «وصيغةُ الاستفهام في مثل هذا السياق أَشدُّ إثارةً لليقظة والالتفات (...) وهو تعبيرُ يُوحي بلذع العذاب»[2] لاسيما أَن قوله : «ألم تر» معناه: «الم تعلم»[3] إذ جعل العلم بمثابة الرؤية ، وكأنَّ المخاطب كان حاضراً وشاهد تلك الأَحداث وهذا يُزيد من التحذير الذي تهدف اليه الآية. ومن هذا المعنى قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ» الفيل 1-2. ولا يخفى ما في الآية من تخويف وتحذير من أَن يكون حال المخاطب كمن جاء ذكرُه في هذه السورة. فهي في مجملها «ترهيب من عقاب الله تعالى، والوعيد لمن يعتدي على حدوده ، فكأنما قال: إنَّ من يعتدي على حدود الله سيكون مصيره مثل مصير أصحاب الفيل»[4]. ولا يخفى عليك أثر الاستفهام في الآية الكريمة فقد جاءت الهمزة مرّتين داخلةً على الفعل المضارع لتفيد الإنكار الى جانب تقرير رؤية الحدث وهذا يدعوك الى التأمّل الذي يوصلك للحذر. ومما يدخل مع أخبار الأَمم السابقة لإفادة أخذ العبرة منها معتمدة أُسلوب الاستفهام حثُّ المخاطب على النظر في حال السابقين والاستدلال عقلياً ونقلياً لسبب تلك النهاية وهذا ما أحدثه الاستفهام إذ دعا الى ذلك.

قال تعالى: «قل سيروا في الأَرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذّبين» الانعام 11.

وأنت تلاحظ الآية الكريمة تأمر بالسير في الأَرض ثم النظر فيها، ثم يأتي الاستفهام، ما الذي بدا لك حين سرت في أرض السابقين المكذبين؟ فأُسلوب الاستفهام يدعوك الى أَن تُدرك ببصرك وبفكرك وتستدلّ على نتيجة تتوصل اليها بنفسك. وما هذا الا تحذيراً

---

[3] اعراب القرآن 1/ 97.
[4] التبيان في تفسير القرآن 8/ 372.
[5] مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 397.
[1] ينظر: التفسير الكبير 31/ 166، الميزان 20/ 281.
[2] في ظلال القرآن 30/ 154.
[3] ينظر: التفسير الكبير 31/ 166.
[4] الترغيب والترهيب في القرآن 87.

وزجراً[1]. ومن هذا المعنى لكن ليس مع المكذبين بل مع المفسدين، قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ الاعراف 86.

قال الفخر الرازي في الآية محل البحث في بيانه لدلالة الاستفهام: ﴿احترزوا من الفساد والعصيان، وأطيعوا فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب اولاً والترهيب ثانياً﴾[3]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف 108. وأنت تلاحظ أداة الاستفهام التي استفهمت عن العاقبة جاءت بعد الاستفهام عن السير للنظر الى الأمم الخالية لكي ﴿يعتبروا بهم ويحذروا مثل ما أصابهم﴾[2]. وقد أفاد الطبرسي في موضع ثانٍ أَنَّ الاستفهام فيه دلالةُ على عظيم العذاب، إذ قال: ﴿فكيف، إشارةُ الى تفخيم العقاب وتعظيمه﴾[4]. أما من سُبِقَ لهم أَن أُنْذِروا ولم يتعظوا بالإنذار فقد جاء أُسلوب الاستفهام مركّزاً على ما آلت اليه عاقبتهم، قال تعالى: ﴿فكذّبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا فانظروا كيف كان عاقبة المنذرين﴾ يونس 73. وأنت تُلاحظ أداة الاستفهام (كيف) استفهمت عن عاقبة مَنْ أُنذر ، قال الزمخشري في الآية محل البحث: ﴿هذا تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله من مثله وتسلية له﴾[5]. أما الفخر الرازي فقد ظلَّ في المعنى ذاته إذ قال : ﴿وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمّن تقدّم كان أَبلغ من الوعيد المبتدأ ، وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الانبياء عليهم السلام﴾[6]. من هذا يتبين أَنَّ الرازي أَفاد أَنَّ الاستفهام عن حال الماضين أَشدُّ تحذيراً وترهيباً من ذكر الحال صريحاً؛ لما يدعوه الأَوّل الى التأمل والاستدلال. ومن هذا المعنى يطالعك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ الصافات 71-73. الآية المباركة استفهمت عن العاقبة ولم تلحظ في تلك الآيات ، أيّ عاقبة كانت؟ إذ أرادت من السامع والقارئ التدبر والوصول الى ذلك. قال الزمخشري: ﴿الذين حُذِّروا، أي أُهلكوا جميعاً﴾[1] فالمفسر استنتج العاقبة من السياق الذي

---

(1) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 4/ 277.
(3) التفسير الكبير 14/ 176، ينظر: تفسير القرآن العظيم 2/ 237.
(2) مجمع البيان في تفسير القرآن 5/ 269.
(4) المصدر نفسه 6/ 295.
(5) الكشاف ط بيروت 2/ 347.
(6) التفسير الكبير 16/ 139.
(1) الكشاف ط بيروت 4/ 47.

أضفى الاستفهام عليه دلالة الهلاك. وقد تابع عددُ من المفسرين سابقهم في إفادة المعنى ذاته، ومن المفسرين الآلوسي فقد قال : ((وسيق الكلام لتهويل ما جرى عليهم، وتحذير من كذّب بالرسول (ﷺ) والتسلية له، والمرادُ العبرة مما أَخبر الله تعالى به))[2].

إذا انعمت النظر في سورة القمر تلاحظ الاستفهام عما حلَّ بمن أُنْذِر سلفاً يتجلّى بأبهى صورة، إذ تلاحظ تكرار قوله تعالى : ((فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ))16 وفي الآية21 وفي الآية30 ليبيّن ما حلَّ بمن لم يتعظ بالإنذار، وقد جاء أُسلوب الاستفهام داعياً للتأمّل في تلك الدلالة، والنذر الإنذار حسب قول الفرّاء إذ قال : ((النُذُر هاهنا مصدر ، فكيف كان إنذاري))[3]. ولم ينأ النحاس عن سابقه إذ ذهب الى مثل ما ذهب اليه، فقد قال: ((فكيف كان عقابي لمن كفر بي، وتحذيري من الوقوع في مثل هذا))[4].

وهكذا تلاحظ أُسلوب الاستفهام يستدعي منك التأمّل للوصول الى الغاية منه وهي التحذير من خلال اضفاء دلالة التهويل والتعظيم والترهيب على الموقف وهذه المعاني بدورها تزيد في متلقيها الاستعداد على مفارقة ما يُغضب الله، وذلك هو الحذر بعينه.

قد يخرج الاستفهام من معناه الحقيقي ليُدلَّ على معنى ثان تفهمه من السياق الذي ورد فيه، وما دام سياق التحذير والوعيد محل بحثنا فلنتأمل الاستفهام الذي أُخرج من معناه الحقيقي لدلالة أُخرى في سياق التحذير.

قال تعالى: ((انما يريدُ الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)) المائدة 91. لا يخفى عليك ما في الآية من تقرير عداوة الشيطان لبني آدم ومحاولاته لإيقاع التفرقة بين العباد وحثّهم على الموبقات ، تُبِعَ ذلك المعنى بقوله: ((فهل انتم منتهون)) فظاهرهُ استفهام ودلالته أمر بالانتهاء عما حُذِّر القوم منه، وجاء ذلك المعنى بإسلوب وصفه المفسرون بأنّه غاية في المنع التحذير[1]. والأُسلوب ذاته والدلالة ذاتها تطالعك في قوله تعالى: ((وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)) القمر 15.

فقد أفاد الاستفهام الأَمر الذي يُفيد الترهيب والزجر، فليس المقصود طلب جواب: هل هناك مدكر[2]؟ بل قُصِدَ الأَمر بالتذكر بالقرآن الكريم بعد إثبات صحّة الإنذار وشدة العقاب الذي أَنذر به.

ومن دلالة الاستفهام على النهي في سياق التحذير قولُه تعالى: ((اتخشوهم فالله أَحقُّ ان تخشوه)) التوبة 13. فليس المراد في الآية الكريمة الاستفهام عن خشية غير الله فذلك لا

---

(2) روح المعاني 11/ 160، 97/23، ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن 447/8، الجامع لأحكام القرآن 88/18.

(3) معاني القرآن 3/ 105، ينظر: التبيان في اعراب القرآن 2/ 1192.

(4) اعراب القرآن 3/ 287.

(1) ينظر : ص من الرسالة.

(2) ينظر: التفسير الكبير 19/ 43.

يُستَفْهَم عنه فإنه مرفوضُ أصلاً؛ لذا دلَّ الاستفهام على النهي، أي: لاتخشَ غيرَ الله؛ لأنَّه عزّ وجل أولى بهذا من غيره. ومن دلالة الاستفهام على النفي في سياق التحذير قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر 9. وأنت تلاحظ ظاهر الآية الكريمة يستفهم عن منزلة من يحذر الآخرة وعن من لم يكن كذلك ، فهل هما متساويان؟ إلاَّ أن الاستفهام لم يكن

بهذا المعنى، إذ أُريد منه نفي تلك المساواة فلا وجه للشبه بين من يحذر الآخرة وبين سواه[1].

وليس هذا الا انموذجاً يسيراً من خروج الاستفهام من دلالته الأَصلية الى دلالة تفهم من السياق القرآني لاسيما في سياق التحذير.

التقديم والتأخير

حرص العرب على أُسلوب التقديم والتأخير في كلامهم واعتمدوه كثيراً ليظهروا عنايتهم بما قدَّموه وإن كان حقّه التأخير ويكشف ذلك عن تمكنهم من اللغة وحسن تصرفهم في الكلام وما دام القرآن جارياً على سُنن كلام العرب فقد اعتمد هذا الأُسلوب كثيراً ليدعوا من خلاله القارئ والمتلقّي والمتتبع للتنزيل العزيز إلى التأمّل والبحث في استجلاء الدلالة التي أُريد من التقديم والتأخير إفادتها. وفي هذا الموضع من البحث لنقف سويةً عند بعض مواضع التحذير في الذكر الحكيم التي اعتمدت التقديم والتأخير في سياق التحذير. قال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الانبياء 97. مما لايخفى عليك أَنَّ الآية المباركة توضح ندم الكافرين وتحسرهم على ما فرّطوا به. إذا أنعمت النظر في قوله تعالى : ((شاخصة)) تلاحظ أَنه قُدِّم على قوله : ((أبصار اللذين كفروا)) . وقد أفاد هذا التقديم دلالة الاختصاص أي إنَّ الكافرين ((مختصون بالشخوص دون غيرهم من سائر أهل المحشر))[2]. ودلالة الاختصاص التي أفادها التقديم لم تخلُ من الدلالة فقد دلّت على أَن المذكورين في حالة ذهول ودهشة كما يوضّح الاختصاص مدى الرعب الذي يملأُ نفوسهم في ذلك اليوم فتكون الأَبصار شاخصة فقط مليئةً بالرعب من الهول الذي تراه[1]. ومن التقديم والتأخير الذي أَفاد دلالة

---

(1) ينظر: ص من الرسالة.

(2) كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف، مصر 1914م : 2/ 69.

(1) ينظر: من بلاغة القرآن 113.

الاختصاص قولُه تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ، إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الحاقة 30-34.

إذا أنعمت النظر في الآية الكريمة تُلاحظ تقديم الجار والمجرور في قولهِ: ﴿في سلسلة﴾ على قوله: ﴿فاسلكوه﴾ ولم يُك هذا التقديم مجرداً من دلالة السياق القرآني بل لإفادةٍ عمد القرآن اليها. ففي تقديم لفظة السلسلة على السلك تعظيم لهذا العذاب. وكأنّه قال: لا تسلكوه الا في هذه السلسلة، فهي أَشدُّ إرهاقاً وأَقسى معاناةً من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم[2]. وبهذا تلاحظ العذاب الذي ينالُه من لا يؤمن بالله له بُعْدُ تصويري أفاده التقديم والتأخير الدال على الاختصاص، ﴿فالتقديم هنا جعل من الجحيم والسلسلة مختصّين بهذا الكافر فلن يفلت منهما أبداً، وفي هذا التخصيص ما فيه من الترهيب من ذلك اليوم﴾[3].

ومن تقديم الجار والمجرور لدلالة الاختصاص قولُه تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ القيامة 30. وأنت تلاحظ تقديم الخبر وهو قوله: ﴿الى ربك﴾على المبتدأ وهو قولُه: ﴿المساق﴾ لإفادة الاختصاص بأَنَّ المساق لا يكون الا لله تعالى. قال الآلوسي: ﴿أَي: إلى الله تعالى وحكمهِ سوقه لا إلى غيره، وتقديم الخبر للحصر﴾[4]. والى مثل هذا ذهب الدكتور فاضل السامرائي فقد قال: ﴿فالمساقُ الى الله وحده لا الى ذات أُخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي (...) بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله: ﴿اليه مرجعُكم﴾ يونس 4، وقوله: ﴿واليه يرجع الأَمر كله﴾ هود 123، وقوله : ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ الانبياء 93[5]. فتقديم الجار والمجرور في الآيات السابقة أفاد دلالة الاختصاص بالأمر المذكور، قال الآلوسي في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿اليه مرجعكم﴾ يونس 4: ﴿الجار والمجرور خبرُ مقدّم، ومرجعُكم مبتدأ مؤخّر، والمعنى: إليه تعالى رجوعُكم مجتمعين لا إلى غيره سبحانه﴾[1]. فدلالة الاختصاص تُرهب العصاة بأَنَّ من عصوه لا محالة رجوعهم اليه لمعاقبتهم على عصيانهم، كما أَنَّ منكري البعث إذا وعوا هذه الدلالة خافوا وحذروا وتراجعوا عن انكارهم.

وليس بمنأى عن التقديم والتأخير لكن في تقديم الأَلفاظ بعضها على بعض قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج 40، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ الأحزاب 25.

---

[2] ينظر: الكشاف 4/ 605.
[3] الترغيب والترهيب في القرآن 116.
[4] روح المعاني 29/ 148.
[5] التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ، 1986-1987: 49.
[1] روح المعاني 11/ 66، وينظر: المصدر نفسه 17/ 90 و 2/ 167.

وأنت تلاحظ الآيتين الكريمتين قدّمت القوّة على العزّة؛ لدلالة ما تتبين من متابعة بعض ما قيل في هذا المعنى. قال الطوسي: «أي: قادرُ ، قاهرُ لاينالُ أحدُ منه ما لايُريده»[2]. وفي موضع ثانٍ قال: «أي: قادر لا يُغالب، وعزيز لايُقهر؛ لأنّه قويُّ في سعة مقدوره، عزيز في انتقامه»[3]. يتبين مما ذهب اليه الطوسي أنّ تقديم القوة على العزة؛ لأَنَّ الله سبحانه قويُ ولما كان قوياً عزَّ، فالعزَّةُ ترتبت على القوّة. وهذا ماراه الدكتور السامرائي في الآيتين محل البحث فقد قال: «تقديمُ القوّة على العزّة؛ لأنه قوي فعَزَّ، أي غلب، فالقوّة أول»[4]. لو تدبرت الآية المباركة التي قُدّمت فيها القوّة على العزة تلاحظ قوله تعالى: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» الحج 40. يتبين أَنَّ إخراج المسلمين من ديارهم قد حصل تحت وطأة قوّة خصومهم. ووَعْدُ الله المسلمين بالنصر ناتج عن قوته التي لا تُضاهيها قوّة، فهذه المعاني تطلبت تقديم القوّة على العزّة؛ لاسيما السياق يتحدث عن القوة، وبقدر ما في هذه المعاني من طمأنة للمؤمنين فيها تخويف وتحذير لأَعدائهم وذلك بطريق إثبات القوة لله.

أما في الموضع الثاني فقال تعالى: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا» الأَحزاب 25. فالله سبحانه حين يكفي المؤمنين القتال إنما يكون ذلك بقوته التي تعلو على كلِّ ما أُعِدَّ للقتال، وعز عن انتقامه لمن جاء لقتال المؤمنين.

ومن التقديم والتأخير ما ورد في بيان حال من لم يتذكّر آيات الله إذا ما ذُكِّرَ بها، قال تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا» الفرقان 73. أشار بعضُ المفسرين الى أَنَّ الآية المباركة فيها مبالغة في الوعيد لكنهم لم يوضحوا موضع تلك المبالغة وسببها[1]. أمَّا الزركشي فقد بين موضع المبالغة في الوعيد وهو تقديم الصم على العمي معللاً رؤياه في المبالغة بقوله: «لأَنَّ السمع أفضل»[2]. أمَّا الدكتور السامرائي فلم يكتف بهذا التعليل بل ذهب يوضح دلالة التقديم بقوله: «والظاهرُ أَنَّ السمع بالنسبة الى تلقّي الرسالة أَفضل من البصر، ففاقدُ البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإنَّ مهمة الرسل التلبيغ عن الله، والأَعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير غير أَنَّ فاقد السمع لايمكن تبليغهُ بسهولة، فالأصمُّ أنأى عن الفهم من الأَعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم؛ فلكون متعلّق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى»[3] وبهذه المعاني والدلالات يكون الوعيد الذي ينتظر من لم يتذكر آيات الله فيه من الهول والشدة

---

[2] التبيان في تفسير القرآن 17/ 321.
[3] المصدرُ نفسهُ 21/ 331، ينظر: تفسير القرآن العظيم 3/ 459، روح المعاني 17/ 164.
[4] التعبير القرآني 52.
[1] ينظر: روح المعاني 19/ 52، الميزان في تفسير القرآن 15/ 244.
[2] البرهان في علوم القرآن 3/ 254.
[3] التعبير القرآني 53.

مما لايخفى على أحد؛ لاسيما أنَّ الوعيد تركزّ على الحاسة الاكثر أَهمية ثم ينتقل الى ما بعدها.

ومن تقديم السمع قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ البقرة 137. قال الطوسي: ((السميعُ لأقوالهم، العليم بأعمالهم))[4]. فالبدء بالحاسة المختصة بالقول قبل الأعمال لإفادة أنه : (((خبرُ يتضمن التخويف والتهديد فبدأ بالسمع لتعلّقه بما يقرب كالآصوات، وهمس الحركات ، فإنَّ من سمع حسَّك وخفي صوتك أقرب اليك في العادة ممن يُقال لك: إنّه يعلم وإن كان علْمُه تعالى متعلّقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ماقرب وشطن، ولكن ذكرُ السمع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أَولى بالتقديم))[1]. فمن يسمع صوتك سواء المُعلن أم المُخفى الآ عليك أن تحذره؟.

ومن الوعيد ما توعّد به الله من لم ينفق في سبيله، قال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ التوبة 35. وأنت تلاحظ الآية المباركة بدأت بالجُباه فالجنوب ثم الظهور لدلالة أَوضحها الزمخشري بقوله: ((لأَنهم كانوا إذا أَبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمّهم وإياه مجلس زورّوا عنه وتولّوا بأركانهم ولوه ظهورهم))[2]. يُلاحظ مما ذهب اليه الزمخشري أَن التدّرج في الآية المباركة اعتمد التدّرج الذي يفعلُه من خُصِصَ بالوعيد عند ملاقاته الفقراء. أَما القرطبي فقد رأى ما رآه سابقهُ مضيفاً عليه دلالة أخرى إذ أَنَّ تقديم الجباه على الجنوب وهذه على الظهور للدلالة على شدة الأَلم وفرط الهول، وهذا ما يتضح من قوله: ((الكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الجنب والظهر آلم وأوجع؛ فلذلك خصّها بالذكر من بين سائر الأَعضاء. وقال البعضُ: إنّما خصَّ هذه الاعضاء؛ لأَنَّ الغني إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه وقبض وجهه، وإذا سأله طوى كشحه وإذا زاد عليه في السؤال وأكثره عليه ولاّه ظهره، فوَتب اللهُ العقوبة على حال المعصية))[3]

ومن العقوبات التي أمر الله بها قطعُ اليد لمن يثبت أنه سارق، قال تعالى: ﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما﴾ المائدة 38. صرّح الطبرسي في الآية محل البحث أنَّ تقديم السارق على السارقة؛ لأَنَّ السرقة عند الرجال أكثر مما هي عليه عن النساء فقد قال: ((بدأ بالسارق هنا؛ لأَنَّ الغالب وجود السرقة في الرجل، وبدأ في آية الزنا بالنساء فقال: ﴿الزَّانِيَةُ

---

[4] التبيان في تفسير القرآن 219/1.
[1] بدائع الفوائد 1/ 74، ينظر: البرهان في علوم القرآن 3/ 249.
[2] الكشاف 2/ 268.
[3] الجامع لأحكام القرآن 8/ 129.

وَالزَّانِي» ؛ لأَنَّ الغالب وجود ذلك في النساء»[1]. وقد تابع السيوطي سابقه على هذا المعنى معللاً ذلك بقوله: «لأَنَّ الزنى فيهن اكثر»[2]. أمّا الآلوسي فقد رأى في تقديم الزانية على الزاني دلالة اخرى أوضحها بقوله: «لأنَّ الزنى في النساء أعرّ وهو لأجل الحبل أُخر، وقيل: لأَنَّ الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب: فصدّرتها تغليظاً لتردع شهوتها. وإيضاً فإنَّ العار بالنساء ألحق إذ موضوعهن الحجب والصيانة فقدّم ذكرهن تغليضاً واهتماماً»[3]. وهذا تحذير للزانيات أكثر مما هو للزُناة». لأنهن موضع تعفف فعليهن صيانة تعففهن. ومن مواضع التقديم ما ورد في الذكر الحكيم حين نُبّه الإنسان على عجزه عن افادة نفسه او دفع الضرر عنها. قال تعالى: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» يونس 49.

مما يُلاحظ في الآية المباركة تقديمُ الضر على النفع لبيان عجز الإنسان. قال الالوسي «وتقديم الضر؛ لما أَنَّ مساق النظم الكريم لإظهار العجز، أَمّا ذكرُ النفع فلتعميم اظهار كمال العجز»[4]. مما ذهب اليه الآلوسي يتبين أَنه رأى الآية تدلُّ على عجز الإنسان الكامل. اما الدكتور السامرائي فقد فَسَّرَ تقديم الضرّ على النفع من متابعة السورة القرآنية المباركة، وهذا ما أوضحه بقوله: «وقال: «((قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»). فقدّم الضر على النفع وقد قال قبل هذه الآية : «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ» يونس 11. وقال: «وإذا مس الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا الى ضر مسه» يونس 12، فقدّم الضر على النفع في الايتين ويأتي بعد هذه الآية قوله: «قل أرأيتم أن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون» يونس 50 فكان المناسب تقديم الضر على النفع ههنا»[5]. وإذا كان الإنسان عاجزاً عن دفع المضرّة عن نفسه وهي الأَولى من جلب المصلحة فكيف يمكنه إفادة نفسه؟ فلم يبق له الا ان يحذر من بيده الضر والنفع.

ومن مواضع التحذير في القرآن الكريم التي ورد فيها التقديم والتأخير قولُه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» البقرة 6-7. وقال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» الجاثية 23.

---

[1] مجمع البيان في تفسير القرآن 3/ 191.
[2] الإتقان في علوم القرآن 2/ 15.
[3] روح المعاني 12/ 160.
[4] روح المعاني 11/ 130، ينظر: التبيان في تفسير القرآن 11/ 447.
[5] التعبير القرآني 57.

إذا أنعمت النظر في الآية الأُولى تلاحظ تقديم القلوب على السمع والأَبصار، كما تلاحظ نتيجة الإنذار واحدة سواء أحصل الإنذار أم لم يحصل وهي لا إيمان مرجو من المُنْذَرين، اما في الجاثية فلم تلحظ التقديم الذي حصل في البقرة ولم تلحظ النتيجة التي لاحظتها في البقرة، فجاء تقديم القلب في البقرة للدلالة «على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيه، ولذا قدّم القلب على ما سواه؛ لأَنه هو الأَهم فإِنَّ القلب هو محلُ الهدى والضلال، وإِذا خُتِمَ عليه فلا ينفع سمعُ ولا بصر»[1].

ومن مواضع التحذير التي تُفيد العبرة والموعظة وجاء فيها التقديم والتأخير ليضفي عليها دلالة الترهيب قولُه تعالى: «وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فاتهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار» الحشر2.

فقد أفاد التقديم تقوية المعنى وأصبح دليلاً على فرط وثوقهم بحصانة حصونهم ومناعتها مما جعلهم يعتقدون بأنهم في عزة ومنعة فلا يستطيع أحد التعرّض اليهم لهذا السبب[2]. لكنَّ تلك المناعة والحصانة أُحيلت الى رعب وفزع حين اتى أمر الله عليها «وفي هذا ترهيب من عقاب الله تعالى ودليل على قدرته؛ لان العذاب إذا وقع فلا عاصم لهم منه الا الله سبحانه وتعالى، وهذا ما اثبتته الآية المباركة»[3].

الخاتمة

---

[1] المرجع نفسه 62.
[2] ينظر: الكشاف 4/ 499.
[3] الترغيب والترهيب في القرآن 118.

الخاتمة

بعد الجولة المقتضبة الموجزة في رحاب القرآن الكريم وفي آياته التي أَفادت التحذير خصوصاً، ومما تأملناه معاً فيما أفاده العلماء من المفسرين، والصوتيين ، والصرفيين، واللغويين، والنحاة، ومن درس الإعجاز القرآني وغيرهم في الآيات محل الدراسة يمكن أَن نخرج ببعض السطور تكون بمثابة ما توصل اليه البحث من نتائج.

لقد كانت آيات الذكر الحكيم التي أَفادت التحذير في المستوى الصوتي محفّزاً للعرب عموماً ولأَرباب الفصاحة خصوصاً للتأمّلِ في تلك الآيات وتنبيهاً لهم على ضرورة الإفادة من الزخم الصوتي الذي جمعته لغتهم لاسيما ما أُنزل منها في القرآن الكريم. لقد وقف العرب أَمام ما لم يألفوه مسبقاً (الأَحرف المقطّعة) منعمي النظر حتى خرجوا بحصيلة إنّها مما استأثر الله بعلمه، إلاَّ أن هذا القول لم يكُ مفترقاً للطرق بينهم وبينها؛ لأَنّه لا يُخرجها من جوهرها فأحرفُها مما اعتادوا عليه وألفوه لذا كان حافزاً ومنبهاً لضرورة التأمل فيها. فصوت الحرف يبعث على تأمّل العلاقة بينه وبين السورة التي تصدّرها . فقد كانت العلاقة وثيقة بين صفات الحرف الافتتاحي من الشدة والجهر واللين وما في السورة المباركة من صفات كالشدة في وصف الكافرين وغيرهم، واللين والرّقة في وصف المؤمنين. وقد تكون الروابط حسب المخرج الصوتي للأحرف المقطعة مع ما جاء ذكره في السورة. وما هذه المعاني الا دلالات إلهية لبيان إعجاز القرآن عموماً واعجازه الصوتي على وجه الخصوص.

لم تكُ فواتح القرآن بالأحرف المقطّعة وحدها التي انفردت بدلالة صوتية تستدعي التأمّل فقد كان للفواتح الأَخرى النصيب الأَوفى في ذلك الاستدعاء، فقد كانت ذا تركيب صوتي تستوحي منه اهمية ما يراد الإخبار عنه، فكلٌّ من الجملة الخبرية، والدعاء، والقسم، والشرط، والاستفهام يحملُ أَصواتاً موافقةً مع ما يُراد بيانه في السورة، وبهذا يكون الملحظ الصوتي الذي يتصدّر السورة متوافقاً دلالياً وصوتياً مع مضمون السورة، وذلك من حيث صفات الحروف وصفات السورة ومخارج الاحرف ومضامين السورة.

أمّا اسماءُ القيامة فلما عرض لها القرآن الكريم جعل المدَّ والاستطالة والانفتاح الصفات المميزة لأحرفها، فقد جاءت أصواتُها مغرقةً في الطول، ناصعة، مقلقلة، فضلاً عن التشديد الذي يحمله بعضُها، فهذه الصفات تجعل اللفظ ذا فخامة ووقع في النفس تتبيّن شدّتُه من تركيبه الصوتي . وتستوُحى من ميزات أحرفه أَهليتُه بالتلبث والرَّصد الدقيق والإنعام فيه. مضيفاً الى هذا الصيغة التي بُني عليها التركيب الصوتي لمسميات القيامة. فكلُّ مسمّيات القيامة بُنيت على صيغةٍ واحدة ذات إيقاع واحد، مما يجعل المد والاستطالة ونصاعة الأحرف والإغراق في طول الصوت يتكرر مرةً تلو الاخرى لتتصور بأَنَّ الصيغة الواحدة ذات الإيقاعات المرهبة تخبر بأَن الحدث الواحد المنظور المرتقب له الأَهلية في الحذر.

أَمّا حين تأمّل البحث الأَلفاظ التي اعتمدت في سياق التحذير وجد المفردة القرآنية وكأنها قد أُوقدت يُوحي جرسُها بحرارتها وتوهّج عبارتها، فقد كان لكلِّ لفظ من ألفاظ إنزال العذاب، كالصيّب الذي اختص بالمنافقين، والرجز والرجس على الظالمين، والخر على المشركين، صدى صوتي يتوافق مع أصداء المخاوف المحيطة بمن أُنزل عليه العذاب، ولم تَكُ ألفاظ العذاب ذات أَصداء صوتية تتوافق مع أصداء الجو المكهرب فحسب بل كان لألفاظ المثل القرآني المساق للعبرة الأَصداء ذاتها. فعند سماعك لـ(أوهن) وتقف عندها متلمساً الصلة بين الدلالة الصوتية والدلالة المعجميّة تجد الأواصر وثيقة بينها، فالإيحاء بالضعف المتناهي لبيت العنكبوت تلتمسه من ضعف النون مقابل غيره من الحروف التي من الممكن أَن يُؤتى بها لتؤدّي المفردة الدلالة المبتغاة في (أوهن) . هذا بالنسبة إلى ألفاظ العذاب الذي أُنزل حيناً من الزمن ومضى، والمثلِ الذي سيق لبيان عبرة ما، فما ظنُّك بألفاظ العذاب الذي يبقى ما دامت السموات والأَرض. ولا يعلم مدة الدوام الا الله جلّت قدرته؟ فمن كانت النارُ مسكناً له مشيتُهُ كبكبة، وصوتهُ الاصطراخ، وطعامُه الزقوم، فأيُّ تركيب صوتي ركبت هذه المفردات لتصوّر المشهد المطلوب؟ فمنها ما دلّ تكرار أحرفه على تكرار الفعل وهي الكبكبة، ومنها ما يدل على ان الصراخ بلغ ذراه نتيجة توالي حرفي الإطباق، ومنها ينتج عن تقليب أحرفه كل شيء مكروه وذلك الزقوم. فما مخارج هذه الأَصوات واصطكاكها في جهاز السمع الا لتؤدّي إعلاناً صريحاً عن الأَحداث المنتظرة لذويها، فالأصوات المدوّية تجمعت لتكون أنغاماً صارمة تجد لها وقعاً خاصاً في الأذن والأَنغام كونت ألفاظاً موافقةً لمواقعها، فالجزئيات اجتمعت لتكون الكليات لإفادة دلالات التحذير بكل معانيه. أمّا الفاصلة القرآنية فقد كان للوقوف عند حرف معيّن منها وتكرار هذا الحرف الأثر الكبير في استدعاء المتلقي للتأمل في مواضع الوقف لاسيما وإنَّ الجرس الموسيقي ذاته يتكرر حيناً بعد آخر. اما الانتقال من حرف الى آخر فيجعل المتلقي ينتقل مع المعاني الى أَن يصل الى المراد وهذا ما تجلّى بأبهى صوره في سورة اللهب إذ انتقلت الفاصلة من الباء الى الدال وهذا يعني أنَّ الانتقال يتم بين الأَحرف المتقاربة.

أمّا الزيادة في الفاصلة فأُريد منها التفات المتأمل والانعام في غرض تلك الزيادة فزيادة الصوت الضعيف المهتوت (الهاء) في ما هية، حامية، راضية، كتابية،... جاءت منسجمة مع عرض الآيات لأحداثها فزيادة الحرف الضعيف تُفيد زيادة ضعف وهشاشة

من يشهد تلك الأحداث. اما زيادة الألف في (الظنونا، الرسولا، السبيلا) فلها الأَثر البعيد في إضفاء الشدة على الألفاظ لاسيما وان الزيادة اعُتمِدت ألف الإطلاق.

ماحوته الفاصلة القرآنية على تباين أضربها تجعل قارئ القرآن لا يملّه على طول التلاوة؛ لما تحققه من جمال صوتي يحدث نغمةً موسيقيةً لها وقعها في النفس لما ينشأ عنها من تناغم لفظي بسبب موسيقى الحروف داخل الفاصلة والذي يشكل إيقاعاً مع الفواصل الأُخرى، فيجعل انغام الرهبة والفزع تتكرر الواحدة تلو الأُخرى مما يضفي على الدلالة المبتغاة الشدة والصرامة اللتين لاتخفيان على أحد. وكلمة موجزة أطوي بها الحديث عن المستوى الصوتي أَقول: كان اعتماد القرآن الكريم الإيقاع الصوتي للحروف في تجسيم الحدث بمثابة الموسيقى التصويرية التي ترافق المشاهد المعروضة، فالقرآنُ يعرض المشهد وموسيقاه مرافقةً له يعيها من له دراية في الأَصوات، وبهذا يكون الحدث صورة تُشاهد وصوتاً يُسمع مما يزيد تحفيز متلقّيها خوفاً وطمعاً.

أما المستوى الصرفي فأَبرز ما لاحظ الباحثُ فيه أَنَّ العربية لم تخصص بناءً من أبنية مفرداتها لإفادة التحذير. ولا أزعم أَني قمتُ بالاستقراء التام، الا أَنَّ التتبع والبحث المتواضعين في كُتُب الصرفيين واللغويين وما أورده المفسرون حملني على هذا القول، فلم ألحظ تصريحاً أو تلميحاً الى دلالة بناء من زخم الأَبنية ومعانيها أُريد منه التحذير. إلاَّ أني رأيت السياق القرآني هو الذي يخلق للبناء دلالته لذا ينبغي علينا الإنعام في السياق من كافة جوانبه زمانية، ومكانية، وغيرها مضافاً إلى معاني الصيغة الصرفية المراد دراستها، فإذا ما سلّمنا بأَنَّ السياق يُفيد التحذير اكتسب البناء معناه من السياق مضافاً إلى الدلالات التي يُفيدها البناء ذاته التي تتوافق وفائدة التحذير، وبهذا سيكون للسياق أَثره في منح البناء الدلالة ويكون للبناء أَثرهُ في إضفاء الشدة والتأكيد على الدلالة، لذا حاولت في هذا الفصل استجلاء المعاني التي تؤديها الصيغة الصرفية في سياق التحذير وذلك من خلال الموافقة بين المعنى الصرفي للصيغة المعتمدة والسياق الذي جاءت فيه، وقد استطاع البحث – كما أحسب- الكشف عن الدلالات الناتجة عن التوظيف البلاغي التي تخدم الغرض المدروس، وهذا يصدق على الأَبنية التي تعرّض اليها الباحث بالدراسة مثل (فَعَلَ، يَفْعَلُ، اسم الفاعل، ....) فبناء (فَعَلَ) لا يُعطي دلالة التحذير إلاَّ بعد أَن يُجعل المستقبل ماضياً وتصوّر أَحداثُه وما فيها من مشاهد مخيفة وكأنها قد شوهدت من قبلُ، ولا يتمُّ هذا الا بتظافر السياق مضافاً اليه معان بناء (فَعَلَ)، والحال ذاتها لبناء اسم المرة، إذ تُلتمس منه دلالة التحذير بالنظر الى السياق أولاً. إذ أَنَّ المخاطب يقول: إذا كان المحذَّرُ منه فُعِلَ مرّة واحدة فكانت العاقبة العقاب ، فكيف إذا فُعِلَ مرات عدة؟ وبالنظر الى معنى اسم المرة ثانياً. مما هو واضح في هذه الدراسة وغيرها أَنَّ الصرفيين واللغويين القُدامى والمحدثين أَفادوا لكل صيغة صرفية معنى خاصاً بها، أو عدد من المعاني تتجمّع حول صيغة صرفية واحدة، وهذا منهج معياري أَلزم فيه العلماء أَنفسهم، الا أَنَّ بعض مواضع الذكر الحكيم خرجت من هذا المنهج لتخطَّ لنفسها دلالات غير ما أُفيدت من قبلُ، وهذا يتضح من قوله: "يخادعون الله" البقرة 14، فالمخادعة مُفَأْعَلَة ومعنى الصيغة التشارك بين اثنين فأكثر، إلاَّ أَن السياق القرآني لم يرضَ بهذه الدلالة وأَفاد أخرى وهي أَنَّ المُفَأْعَلَة جرت من طرف واحد فالفردُ ذاتهُ يخدع ذاته. وهذا لا يعني لوماً للسابقين فلولا منهجهم التقعيدي لما حُفِظت مفردات اللغة ومعانيها

، الا أَنَّ الاقتصار على هذا المنهج في القرآن يحول دون الوقوف على الدلالات البلاغية التي تحملها معاني المفردات ، وهذا يقتضي الإنعام في الابنية من جهة مضافاً الى الانعام بدلالة السياق من جهة ثانية حتى يتم رصد الدلالات التي وظِّفت لها دلالة البناء المدروس. وقد لُوحِظ هذا المنهج أحياناً عند بعض المفسرين القدامى يمكن أن يكون الشيخ الطوسي من أوائلهم. والحالُ ذاتها تتكرر في دلالة بناء على أخر للوصول الى دلالة التحذير. ومما ينبغي ذكره أن البناء الأَصلي يُعطي معنى التحذير الا أَنَّ البناء الثاني أُتي به ليضفي على التحذير صفتي التهويل والتفخيم. وكلمةُ الفصل في هذا الفصل: إنَّ إفادة التحذير في المستوى الصرفي تتم باستقراء معاني السياق وإذا ما أُستنتجت دلالة السياق يُنْعَمُ النظر في الصيغة الصرفية الأَكثر إذكاءً في ذلك السياق لاستقراء معانيها ثم إقامة الأَواصر بين الدلالتين: السياقية وبنية الصيغة الصرفية وبهذه الطريقة تُستنتج الدلالة المبتغاة وتجعل الصيغة عنوان الدراسة.

أمّا في التحذير الصريح فقد تبيّن أَن أُسلوب التحذير لم يرد في القرآن الكريم الا في موضع واحد، أَما التحذير بلفظ (حَذَرَ) فقد كان له النصيبُ الأَوفى من حيث الذكر، وقد جاء السياق الذي ورد فيه لفظ (حذر) او أحد اشتقاقاته مليئاً بالأَساليب التي تُفيد التهديد والوعيد، فالأَمُر ، والنهي، والاستفهام، كلُ أُخرج من معناه لإفادة التحذير فضلاً عن التأكيد الذي ورد في بعض المواضع. ومما يُلاحظ أَن هذه الأَساليب سبقت التحذير من حيث الذكر، فالآية تستدعي انتباه المتلقّي وتشد ذهنه بمعاني التهديد والوعيد ثم يتلوها التحذير، ولم يقتصر الأَمر على الأَساليب بل تعدّاه إلى التعابير التي يوحي ظاهرها بمعاني الرأفة والرحمة، الا أَنها لمّا جاءت في سياق التحذير أفادت دلالته. ومما يلاحظ في هذا الفصل أَنَّ التحذير جاء مسوّغاً أَي إن موضع الضرر الذي من أَجله سبقَ التحذير قد بُيِّنَ وبُيِّنَ العقاب الذي ينتظر المخالف، وما هذه المعاني الا لتضفي دلالات الشدة والهول على التحذير فضلاً عن كونه صريحاً. وهذا يجعل السياق الذي يرد فيه لفظ (حذر) او اشتقاقاته سياقاً ترهيبياً بحتاً يبثُّ الرعب والهول في نفوس متلقّية. أمّا التحذير الضمني فقد كان أَقلُّ شدة من التحذير الصريح، فلم يشرط في الأَساليب الواردة في سياقه أن تحمل دلالات التحذير بل بقي بعضها يُفيد معناه الأَصلي، كما تبيّن أَنَّ القرآن الكريم حين يعمد الى تقديم أَحد اركان التحذير على الآخر إنما يكون ذلك اهتماماً بالأَمر المقدَّم، أمّا في حالة حذف أَحد الأركان فإنَّ التحذير يُركّز اهتمامهُ على الأَمر المذكور. ولا يمكن إغفال أَنَّ لفظة (نذر) واشتقاقاتها في مواضع ورودها لم تخرج من إفادة دلالتها المعجمية، إلاَّ أَنَّ المفسرين توسّعوا في إفادتهم لهذه اللفظة في تقريرهم الفسحة الزمنية بين الإنذار وبين نزول العذاب وهذا مالم يقرره المعجميون امّا إفادة (خشي) فلم تقتصر على التحذير فحسب بل أفادت الى جنبه الترغيب فتحذّر من الله سبحانه وتخوّف من عذابه وترغّب في طاعته وتحثُّ الناس عليها. وقد خصّت بعض مواضع التحذير الضمني من ينتفع بالإنذار والتحذير وأَهملت ذكر ما سواه، وهذا تحذيرُ ضمني لمن أُهمل ذكرُه، فتحذيرُ ضمني للظاهر في الآية المباركة وتحذيرُ ضمني لمن لم يُصرّح به يتوصل اليه بالإنعام والتأمل. والحال ذاتها بالنسبة لـ(خوف) فلم يرد بها مجرّد التخويف، بل أفادت دلالة الترغيب أيضاً.

إذا ما نظرنا نظرةً فاحصة تُليق بمقام القرآن الكريم ومكانته في البيان العربي لاحظنا اعتماده لإفادة التحذير في المواضع التي ذكرت أنباء الغيب وما جرى بين الرُسُل وأُممهم لاسيما العاقبة التي آل اليها المنذرون، أو التخويف مما يُفسد الحياة وينحو بها نحو التسافل لاسيما في آيات الأَحكام أَساليب الخطاب المباشر، كالأَمر، والنهي، والنداء، والاستفهام. فكلٌّ من هذه الأَساليب له تأثير في نفس متلقّية إذ يساعد على تأجيج المشاعر وتحفيز الهمم فيعمل على تكوين رد فعل آني له بالغ الاهتمام عند متلقّيه باستدعائه الى الإنعام في ذلك الخطاب؛ لأَنَّ الأُسلوب الخطابي يحتاج الى استدلال عقلي وتأمّل يجعل الخطاب ذا قدرة على الاقناع القائم على أُسس استنتاجية؛ لما تصوّره الخطابات من أَحداث عن طريق الكلمات ونقلها الى ذهن المخاطب وبهذا تعمل على تقوية الظّن في نفس المتلقي وتُوصله الى مرتبة اليقين. وإذا ما تأمّل المخاطب اليقين الذي صنعه الخطاب المباشر ووصل الى استنتاج الدلالة منه سيثار الرعب في نفسه، وتضطرب له هواجسه وبهذا يكون للاستنتاج الأَهمية البالغة عند من توصل اليه وحثه على السير بخُطى الدلالة التي حملها الخطاب.

وكلمة الفصل في هذا الموضع: اعتمد القرآن الكريم أَساليب الخطاب المباشر لإفادة التحذير في المواضع المهمة ذات التأثير المباشر في الحياة، فدعوةُ المتلقّي الى التوصل الى الدلالة بذاته يكون من باب التقرير عليه وإلزامه بالحجة. ولم يكُ التقديم والتأخير بمنأى عن هذه الإفادة فحرص التنزيل العزيز على التقديم والتأخير لإفادة مغزى نفسي مرتبط بالدعوة للتأمّل في الآية والوقوف على موضع التقديم لاستجلاء دلالته والاتعاظ بها.

والحمد لله أولاً وآخراً.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبنية الأَفعال، دراسة لغوية قرآنية: الدكتورة نجاة الكوفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989م.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1974م.
- أدب الكاتب، تصنيف أبي عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الزوزي الديفوري، المولود 213هـ المتوفي 276هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، م. السعادة، مصر، ط4، 1382هـ/ 1963م.
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: الدكتور قيس إسماعيل الأوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ، مطابع جامعة الموصل، 1989م.
- استنباط المعنى عند العرب حتى نهاية القرن السابع للهجرة: طالب عيسى بشر، إطروحة دكتوراه ، كلية التربية للقائد للبنات (جامعة الكوفة)، إشراف : الدكتور سعيد عدنان، 2002م.
- الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1404هـ/1984م.
- الأَشباه والنظائر في النحو: العلامة جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، 1975م.
- الاشتقاق: محمد بن الحسين بن دريد الأَزدي، تحقيق: عبد السلام هارون الناشر مؤسسة الخانجي، مصر، المكتب التجاري، بيروت، مكتبة المثنى، بغداد، مطبعة السُّنّة المحمدية 1378هـ/ 1958م.
- إصلاح المنطق: ابن السكين (186-244هـ)، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط2، 1375ه/1956م.
- الأصوات اللغوية: الدكتور إبراهيم أنيس، ملتزم الطبع والنشر ، دار النهضة العربية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1961م.
- الإصول في النحو: أبو بكر بن السّراج ، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، النجف، 1973م.
- الإعجاز البياني للقرآن، الدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ"، دار المعارف، مصر، 1971م.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، الدكتور عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المدرس بكلية العلوم، جامعة القاهرة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2001م.

- إعجاز القرآن، في دراسة كاشف لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها (الإعجاز في مفهوم جديد): عبد الكريم الخطيب، الكتاب الثاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط2، 1975.
- الاعجاز القرآني، بحوث المؤتمر الاول للاعجاز القرآني المعقود بمدينة السلام، بغداد، للفترة 21-26 رمضان 1410هـ الموافق 16-21 نيسان 1991، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية، مطبعة الامة ، بغداد، 1410هـ/1990م.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن: الحُسين بن أَحمد (ابن خالوية) (ت 33هـ) ، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع.
- إعراب القرآن: أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس (ت 338هـ) تحقيق: زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد، طبعت أجزاءه حسب التسلسل الزمني الآتي: الجزء الاول 1977م، الجزء الثاني 1979م، الجزء الثالث 1980م.
- اعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق ودراسة : إبراهيم الإِبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1963م.
- آلاء الرحمن في تفسير القرآن: محمد جواد البلاغي، مطبعة العرفان، صيدا، 1933م.
- أمثال القرآن: محمد طاهر الموسوي، منشورات مكتبة التوجيه العامة، بغداد، 1380هـ/ 1960م.
- الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، الشيخ الإمام كمال الدين ابو البركان عبد الرحمن بن محمد بن ابي سعيد الأَنباري النحوي 513-577هـ، ومعه الانتصاف من الانصاف تأليف: محمد محي الدين عبد الحميد، دار احياء التراث العربي ، المكتبة التجارية الكبرى.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) للقاضي ناصر الدين ابي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 791 هـ) وبهامشه حاشية العلامة ابي الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالكازروفي، مطبعة مصطفى محمد، مصر، د.ت.
- أوزان الفعل ومعانيها، هاشم طه شلاش، مطبعة الآداب ، النجف، 1971م.
- الايضاح في شرح المفصل: الشيخ أبو عمر وعثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النحوي (570-646هـ)، تحقيق وتقديم: الدكتور موسى نيّاي العليلي، الجمهورية العراقية، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، احياء التراث الاسلامي، مطبعة العاني، بغداد، 16/ 10/ 1982م.
- الايضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) مختصر تلخيص المفتاح، جلال الدين أبو عبد الله محمد قاضي القضاة، سعد الدين ابو عبد الرحمن القزويني، دار الفكر العربي، 1402هـ/ 1983م.
-بحار الأَنوار: محمد باقر بن تقي المجلسي، حيدري، طهران، د.ت.

-البحر المحيط: أَثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن علي بن يوسف بن حيان الاندلسي الغرناطي الجياني، الشهير بأبي حيان (654-754هـ) وبهامشه تفسيران:
الأول : النهر المارد ، لابي حيان ايضاً.
الثاني: الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذ ابي حيان محمد بن أحمد القيسي الحنفي النحوي (682-749 هـ)، الناشر مكتبة ومطابع النشر الحديثة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- بحوث في تفسير القرآن (سورة المدثّر): جمال الدين عيّاد، ماجستير في الدراسات العربية الإسلامية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، دار الحمامي للطباعة، 1386هـ/ 1967م.
- بدائع الفوائد: محمد بن ابي بكر بن تيم الجوزية، المنيرية، مصر.
- البرهان في تناسب سور القرآن: الامام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (627-708هـ) ، تقديم وتحقيق وشرح: الدكتور سعيد الفلاح الجامعة الزيتونة للشريعة وإصول الدين، تونس 1408هـ/ 1988م.
- البرهان في علوم القرآن : محمد بن عبد الله الزركشي (ت749هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، 1376هـ.
- البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن: كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني ت(651هـ) تحقيق: الدكتورة خديجة الحديثي، الدكتور احمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1394هـ/ 1974م.
- البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، الدكتور فضل حسن عباس ، كلية الشريعة، الجامعة الاردنية، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الاردن، ط1، 1407هـ/ 1987م.
- البيان في غريب اعراب القرآن: أبو البركات بن الأنباري ، تحقيق: الدكتور طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (دار الكتاب العربي)، القاهرة، 1389هـ/ 1969م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: محمود محمد الطنطاوي، راجعه: مصطفى حجازي، وعبد الستار فرّاج، دار الجيل، مطبعة حكومة الكويت 1976م.
- تأويل مشكل القرآن: عبد الله بن مسلم بن قتيبة (213-276هـ) شرح وتحقيق: أَحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، مصر.
- التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت 616هـ) تحقيق: علي محمد البيجادي، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، 1976م.
- التبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (385-460هـ) تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف 1383هـ/ 1963م.

- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان: شرف الدين حسين بن محمد الطيبي (ت743هـ) تحقيق: الدكتور هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية ، بيروت، 1987م.
-التبيان في المعاني والتبيان: الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التجارية الكبرى، مكة المكرمة.
- الترغيب والترهيب في القرآن الكريم (دراسة بلاغية): موسى سلّوم عباس الربيعي، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية، إشراف: أزد. هند حسين طه 1419هـ/1998م.
- تطوّر البحث الدلالي (دراسة تطبيقية في القرآن الكريم): محمد حسين علي الصغير، أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة الكوفة، دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
- التطوّر الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة (رسالة ماجستير): عودة خليل أبو عودة، إشراف الدكتور كمال بشر 1985م.
-التعبير القرآني: الدكتور فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، 1987/1986م.
- التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني، بيروت، 1969م.
- تفسير أبي السعود المسمّى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): أبو السعود محمد بن محمد العمادي (896-951هـ)، مطبعة محمد علي صبيح وأودلاه ، القاهرة، د.ت.
- التفسير البياني للقرآن الكريم: الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، أستاذ الدراسات القرآنية العليا بجامعة القروين بالمغرب، دار المعارف، ط5، شوّال 1397، اكتوبر 1977م.
- تفسير الخازن المسمّى (لباب التأويل في معاني التنزيل): الامام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن (ت 701هـ)، وبهامشه تفسير النالنسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسقي، مطبعة دار الكتب العربية، الكبرى، مصطفى البابي الحلبي وأخويه، مصر.
- تفسير القرآن العظيم: الإمام الحافظ ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، ط1، 1408هـ/ 1988م.
- التفسير الكبير او ما يعرف بـ(مفاتيح الغيب): الإمام محمد بن عمر الفخر الرازي (ت 606هـ)، مطبعة البهية، مصر، ملتزم الطبع عبد الرحمن محمد، ط1، 1357هـ.
- تفسير المنار او ما يعرف بـ(تفسير القرآن الحكيم)، السيد محمد رشيد رضا، إصدار دار المنار، مصر، ط4، 1373هـ/1954م.
- تنوير الأذهان في تفسير روح البيان: الشيخ إسماعيل حقي البروسوس (ت1137هـ)، إختصار وتحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان، بغداد، ط1، 1409هـ/ 1990م.
- التيسير : أبو عمر عثمان بن سعيد بن عثمان الدالي النحوي ، مطبعة الاستقلال ، لاهور.

- ثلاث مسائل في إعجاز القرآن: للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، في الدراسات القرآنية، والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.

- الجامع لأحكام القرآن: ابو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، صححه: أَحمد عبد العليم البردوني (وكيل القسم الأدبي) ، تحقيق: أبو اسحاق ابراهيم اطفيش، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1967م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر، ط2، 1373هـ/1954م.
- جمهرة اللغة: ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن الازدي البصري (ت 321هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ط1، 1345هـ.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: السيد الرحوم أَحمد الهاشمي، دار احياء التراث العربي، بيروت ، ط12.
- حاشية الخضري على ابن عقيل ، على شرح العلاقة ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وبهامشه شرح ابن عقيل للعلاقة الاستاذ الشيخ محمد الخضري، مطبقة دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
- حقائق التأويل في متشابه التنزيل: الشريف الرضي، شرح العلاقة محمد رضا آل كاشف الغطاء ، مطبعة الغربي، النجف، 1355 هـ/1936م.
- الحوار في القران الكريم : اسماعيل ابراهيم علي محمد السامرائي (رسالة ماجستير) ، كلية الشريعة، جامعة بغداد، اشراف، أ.د. عبد الرحيم احمد الشرفّة، 1989 م.
- الخصائص : ابو الفتح عثمان بن حبّي، تحقيق : محمد علي النمار الاستاذ بكلية اللغة العربية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية، القسم الادبي، القاهرة، ط2، 1374 هـ /1955 م.
- الدر المصون : شهاب الدين ابو العباس بن يوسف السمين الحلبي ، تحقيق : عادل عبد الموجود ، مطبعة دار الكتب العلمية .
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : الدكتور غانم قدَوري الحمد، استاذ مساعد في كلية الشريعة، جامعة بغداد، مطبعة الخلود، بغداد، الطبعة الاولى، 1406 هـ /1986 م.
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني : الدكتور حسام سعيد النعيمي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية 1980 م.

- الدرس الدلالي في خصائص ابن جني : الدكتور احمد سليمان ياقوت، كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، مكتوب على الة السكانية ، ط1، 1989 م.
- دروس في علم اصوات العربية : جان كانتينو، تعريب: صالح القرمادي، تونس، 1966 م.
- دلائل الاعجاز : عبد القاهر الجرجاني النحوي، تعليق: محمود محمد شاكر، القاهرة، ط2، 1989م.
- دلالة الالفاظ : الدكتور ابراهيم انيس، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط2، 1963 م.
- ديوان الادب : ابو ابراهيم اسحق بن ابراهيم الفارابي (ت 350 هـ) ، تحقيق : احمد مختار عمر، مطبعة الامانة، مصر، 1976 م.
- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني : ابو الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي (ت1270هـ)، صححه وعلَّق عليه: السيد محمود شكري الالوسي، ادارة الطباعة المنيرية، دار احياء التراث العربي ، بيروت،لبنان.
- السبعة في القراءات: ابن مجاهد (ت 324 هـ) تحقيق : الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1972 م.
- سر صناعة الاعراب : ابو الفتح عثمان بن جني النحوي ، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف، وابراهيم مصطفى، وعبد الله امين، ملتزم الطبع والنشر، شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي واولاده ، مصر ، ط1، محّرم 1374 هـ/ سبتمبر 1954 م.
- شرح ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (698-769هـ)، على ألفية ابن مالك ابي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك (600-672 هـ)، ومعه كتاب منحه الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل لمحمد محي الدين عبد الحميد، ط14، 1384هـ/1964 م.
- شرح الاشموني على ألفية ابن مالك المسمّى (منهج السالك الى ألفية ابم مالك)، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان، ط1، صفر 1375 هـ/1955 م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق : الدكنور احسان عباس، طبع مطبعة حكومة الكويت.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستر، بادي (ت 686 هـ)،تحقيق: محمد نور الحسن، ومحمد الزفراف، ومحمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب، العلمية، بيروت، 1975 م.
- شرح المراح في التصريف: بدر الدين محمود بن احمد العيني، تحقيق : عبد الستار جواد ، مطبعة الرشيد، بغداد، 1990م.
- شرح المفصّل: موفّق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت 643 هـ) عالم الكتب، بيروت.

- شروح التلخيص، عيسى البابي الحلبي، مصر ، ويتضمن :
أ / مختصر سعد الدين التفتازاني .
ب/ مواهب الفتاح : لابن يعقوب المغربي .
جـ/ عروس الافراح : بهاء الدين السبكي.
د / الايضاح : للقزويني .
هـ/ حاشية الدسوقي على شرح السعد .
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كالامها : ابو الحسين احمد بن فارس، حققه وقدّم له : مصطفى الشويمي (دكتوراه في الاداب)، ملتزم الطبع والنشر مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر،بيروت ،لبنان، 1383 هـ/1964م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: اسماعيل بن حَمّاد الجوهري، تحقيق: احمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1404هـ/1984م.
- الصرف الواضح: عبد الجبار علوان النايلة (الاستاذ المساعد بكلية الاداب)، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1408هـ/1988 م.
- الصرف الوافي : الدكتور هادي نهر، مطبعة التعليم العالي، الموصل، 1989م.
- الصوت اللغوي في القران (موسوعة الدراسات القرانية)، الدكتور: محمد حسين علي الصغير (استاذ الدراسات القرانية في جامعة الكوفة)، دار المؤرّخ العربي، لبنان، ط1، 1420هـ/2000م.
- الصورة الفنية في المثل القراني (دراسة نقدية وبلاغية): الدكتور محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، 1981م.
- علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): الدكتور محمود السعران (استاذ مساعد بكلية الاداب)، جامعة الاسكمندرية، دار المعارف، مصر، 1962 م.
- علم اللغة العام- الاصوات- : الدكتور كمال محمد بشر، مصر ،1973م.
- علم المعاني: الدكتور درويش الجندي، ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة، مصر، ط2، 1962/1381م.
- علوم القران: محمد باقر الحكيم، دار المعارف، بيروت، ط3، 1995م.
- عيسى بن عمر الثقفي نحوه من خلال قراءته : صباح عباس السالم، منشورات مؤسسة الأَعلمي، بيروت، دار التربية، بغداد، ط1، 1395هـ/1975م.
- الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل (ت1201 هـ) ، وبهامشه كتابان :
1. تفسير الجلالين : جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي .
2. املاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القران لابي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، مطبعة الاستقانة، مصر، القاهرة، د.ت.

- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الثانية، د.ت.
- في النحو العربي، على المنهج العلمي الحديث، قواعد وتطبيق، مهدي المخزومي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، محرّم 1386هـ/ مايو 1966م.
- كتاب سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1975م.
- كتاب شذا العرف في فن الصرف: الاستاذ الشيخ احمد الحملاوي (أستاذ العلوم العربية بدار العلوم)، مكتبة النهضة العربية، مطبعة الراية، بغداد.
- كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز : السيد الامام يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني، مطبعة المتطف، مصر، 1914م.
- كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-175هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور ابراهيم السامرائي، طُبعَ بمطابع الرسالة، الكويت، توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان، وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، 1400هـ، 1980م.
- كتاب الواضح في علم العربي: أَبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت 379هـ) تحقيق: الدكتور أمين علي السيد الأَستاذ بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، دار العلوم، جامعة القاهرة، دار المعارف، مصر، 1975م.
-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأَقاويل في وجوه التأويل: الإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، 1947م وبذيله اربعة كتب:
الاول: الانتصاف للإمام أحمد بن المنير الاسكندري.
الثاني: الكاف الشافي في تخريج أَحاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلاني.
الثالث: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف.
الرابع: مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف: للشيخ محمد عليان.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (467-538هـ) ، رتّبه وضبطه وجمعه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995م.
- لسان العرب: الإمام العلامة أَبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1388هـ/ 1968م.
-مباحث في علوم القرآن: الدكتور صبحي الصالح أُستاذ الإسلاميات في كلية الآداب، جامعة دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ط2، 1382هـ/ 1962م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، قدّم له وحققه وعلّق عليه الدكتور احمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، ملتزم الطبع والنشر ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ط1، 1379هـ/1959م.
- المجاز عند المفسرين حتى نهاية القرن السادس للهجرة (إطروحة دكتوراه)، نجم عبد مسلم هاشم الفحام، إشراف ، د.نصيرة أحمد الشمري، كلية التربية للقائد للبنات، جامعة الكوفة، 1421هـ/2000م.
- مجاز القرآن: أبو عبيدة معمرّ بن المثنى التيميّ (ت210هـ)، تعليق: محمد فؤاد سركين، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م.
- مجمع البحرين: فخر الدين بن محمد بن علي بن أحمد النجفي الطريحي (ت 1085هـ) تحقيق: أحمد الحسيني، مطبعة الآداب، النجف الأشرف ، 1961م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548هـ)، تصحيح وتحقيق وتعليق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- محاضرات في علم الصرف: الدكتور علي جابر المنصور (الاستاذ المساعد بكلية الشريعة، جامعة بغداد، وعلاء الدين هاشم الخفاجي ،المدرس في كلية الشريعة، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، الدكتور عبد الحليم النجار، الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي، مؤسسة التحرير للطبع والنشر، مطابع شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة، 1386هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن عطية الفرناطي، تحقيق: علي عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- مخارج الحروف وصفاتها: أبو الإصبع السُّماني الأَشبيلي المعرف بابن الطحان (ت 560هـ)، تحقيق: محمد يعقوب تركستاني، بيروت، 1404هـ/ 1984م.
- مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع: ابن خالوية، عني بنشره: برجشتر آسر، دار الهجرة، د.ت.
- المخصص: ابن سيدة أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت 458هـ)، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، د.ت.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر: د.ت.
- مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مصطفى البابي الحلبي، مصر ، د.ت.

- مشكل اعراب القرآن: أبو محمد مكي بن ابي طالب، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار الحرية، بغداد، 1975م.
- معاني الأَبنية الصرفية في مجمع البيان: رسالة ماجستير، نسرين عبد الله شنوف الزجراوي، كلية التربية للقائد للبنات، جامعة الكوفة، إِشراف: الدكتور رحيم جبر الحسناوي، آذار- 1996م.
- معاني الأَبنية في العربية: فاضل صالح السامرائي، بغداد، ط1، 1981م.
- معاني القرآن: سعيد بن مسعدة البصري، تحقيق: فائز فارس، الصفاة، الكويت، ط1، 1979م.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت207هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية (القسم الأدبي)، القاهرة، الطبعة الاولى، 1374هـ/ 1955م. د.ت.
- معاني القرآن وإعرابه: ابراهيم بن السري بن سهيل الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبدة الشلبي، الأَميرية، الاميرية، القاهرة، 1974م.
- معاني النحو: الدكتور فاضل صالح السامرائي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، مطبعة التعليم العالي في الموصل، 1986/ 1987م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، مطابع الشعب ، مصر، 1378هـ.
- المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية): قام بإخراجه: مصطفى إبراهيم، أحمد حسن الزّيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، أشرف على طبعه: عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران.
- مغني اللبيب عن كتب الأَعاريب: أبو محمد بن عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأَنصاري المصري (ت 761هـ)، حققه وفصّله وضبط غرائبه: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.
- مفتاح العلوم: أبو جعفر يوسف بن ابي بكر السكاكي، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1937م.
- المفردات في غريب القرآن: ابو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأَصفهاني (ت 502هـ)، تحقيق وضبط: محمد سَيِّد كيلاني، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأَخيرة، 1381هـ/ 1961م.
- المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد (ت 285هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة (الأُستاذ بجامعة الأَزهر)، عالم الكتب، بيروت.
- الممتع في التصريف: ابن عصفور الاشبيلي، تحقيق: فخر الدين قبادة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط5، 1983م.
- من بلاغة القرآن: أَحمد بدوي، دار النهضة، القاهرة، 1978م.

- المنخول من تعليقات الإصول : أبو حامد محمد الغزالي، تحقيق: محمد حسين هيتو، (لم يذكر مكان الطبع وتاريخه).
- منطق ارسطو، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ترجمة: اسحق بن حنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م.
- منهج الإصول: السيد محمد الصدر (لم يذكر مكان الطبع وتاريخه).
- المنهج الصوفي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي: الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ/ 1980م.
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن: السيد عبد الاعلى السبزاوري، مطبعة الآداب، النجف.
- موسيقى الشعر: الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الخامسة.
- الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط3، 1393هـ/ 1973م.
- نزهة الطرف في علم الصرف: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ، مطبعة الجوائب، قسطنطينية ، ط1، 1298هـ.
- النثر في القراءات العشر: الحافظ أبو الخير محمد بن محمد، الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت 833هـ)، مراجعة : علي محمد الضياع، مصطفى محمد، مصر.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي، طبعه مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، د.ت.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (ت 911هـ) تحقيق: محمد بدر النعساني، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	9-1
التمهيد: مفهومُ التحذير.....	12-10

الباب الأول:دراسة صوتية صرفية: الفصل الاول: المستوى الصوتي...	13
العِلاقةَ بين اللفظِ ودلالته.....	16-14
فواتح السور القرآنية.....	27-16
الدلالة الصوتية لاسماء القيامة.....	38-27
قوّة الالفاظ.....	58-38
الفاصِلةَ القرآنية.....	65-58
الفصل الثاني: المستوى الصرفي.	66
استعمالُ صيغة فَعَلَ.....	69-67
اختيار صيغة يَفْعَلُ.....	71-69
اختيار صيغة اسم الفاعل.....	74-71
اختيار الصفة المشبّهة.....	81-75
اختيار الصيغة الدالة على المبالغة.....	86-81
اختيار صيغة اسم المرّة.....	89-86
اختيار صيغةِ المفرد.....	94-90
اختيار صيغة الجمع.....	96-94
اختيار صيغة افْتَعَلَ.....	99-97
اختيار صيغة انْفَعَلَ.....	100-99
صيغة نَفَعّلَ.....	102-100
صيغة أَفْعِل.....	103-102
دلالة بناء على آخر.....	122-103
الباب الثاني: دراسة نحوية دلاليةً.....	128-123
الفصل الاول (التحذير الصريح).....	172-128

الله يحذّر من نفسه.....	136-128
الله يحذر نبيه.....	141-136
الله يحذر من مخالفة نبيه.....	143-141
الله يحذر عباده.....	156-143
حذر الكافرين.....	162-156
الحذر من الموت والاستعداد له.....	167-162
الحذر من الآخرة.....	172-168
الفصل الثاني: التحذير الضمني.....	175-173
الله سبحانه منذراً.....	179-176
النبي منذراً.....	187-179
الانذار من يوم القيامة.....	196-187
حذف المفعول الثاني لفعل الانذار.....	203-197
القرآن منذراً.....	212-204
الشيب منذراً.....	212
التحذير بلفظة خشي واشتقاقاتها.....	220-212

وجوب الخشية من الله.....	224-220
التحذير بلفظة خوف.....	230-225
التحذير بصور اخرى.....	232
الامر.....	237-233
النهي.....	252-237
النداء.....	257-252
الاستفهام.....	267-257
التقديم والتأخير.....	273-267
الخاتمة.....	281-275
المصادر.....	297-282
ملخص البحث باللغة الانجليزية.	